الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة جيلالي اليابس ـــ سيدي بلعباس ـــ

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم العلوم الإنسانية



العلاقات الجزائرية الإسبانية ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر على ضوء المصادر المحلية

مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر

إعداد الطالب الباحث:

طاهر تومي

إشراف:

د/ عبد القادر صحراوي

أعضاء لجنة المناقشة:

الاسم واللقب	الرتبة	الصفة	الجامعة الأصلية
أ. د. مكحلي محمد	أستاذ التعليم العالي	رئيسا	جامعة سيدي بلعباس
د.صحراوي عبد القادر	أستاذ محاضر-أ-	مشرفا ومقررا	جامعة سيدي بلعباس
د. الزين محمد	أستاذ محاضر-أ-	مناقشا	جامعة سيدي بلعباس
د. قنون حياة	أستاذة محاضرة -أ-	مناقشا	جامعة سيدي بلعباس

السنة الجامعية:

1435-1436هـ/2014-2015م

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة جيلالي اليابس ـــ سيدي بلعباس ـــ

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم العلوم الإنسانية



العلاقات الجزائرية الإسبانية ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر على ضوء المصادر المحلية

مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر

إعداد الطالب الباحث:

طاهر تومي

إشراف:

د/ عبد القادر صحراوي

أعضاء لجنة المناقشة:

الاسم واللقب	الرتبة	الصفة	الجامعة الأصلية
أ. د. مكحلي محمد	أستاذ التعليم العالي	رئيسا	جامعة سيدي بلعباس
د.صحراوي عبد القادر	أستاذ محاضر ـأـ	مشرفا ومقررا	جامعة سيدي بلعباس
د. الزين محمد	أستاذ محاضرـأـ	مناقشا	جامعة سيدي بلعباس
د. قنون حياة	أستاذة محاضرة ـأـ	مناقشا	جامعة سيدي بلعباس

السنة الجامعية:

1435-1436هـ/2014-2015م

بسم الله الرحمن الرحيم

MRTsoft

إهداء

إلى الإخوة بربروس أبناء يعقوب رحمهم الله، وإلى كل عثماني دافع عن أرض الجزائر وأبقاها محافظة على دينها وعروبتها.

إلى الوالدين الكريمين

حفظهما الله ورعاهما، فرب ا رحمهما كما ربياني صغيرا.

إلى إخوتي وأخواتي و أبنائهم، وعلى رأسهم بلقاسم، جيلالي، المسعود، أحمد، كريم، محمد، وإلى جميع أبناء العائلة .

إلى زملائي في العمل وعلى رأسهم مدير المدرسة فضيل مجيد .

شكر وعرفان

أشكر الله سبحانه وتعالى و أحمده على أن وفقني لإنجاز هذا البحث، وقد قيل من لا يشكر الناس لا يشكر الله، ولذلك أتقدم بالشكر والعرفان وخالص التقدير لكل من ساهم في إنجاز هذا البحث وعلى رأسهم الأستاذ المشرف عبد القادر صحراوي الذي استفدنا من أخلاقه قبل علمه، وكان لنا الناصح الأمين، والموجه المساعد، والأخ قبل الأستاذ، فجزاه الله عنا خيرا و سدد خطاه .

وأشكر جميع أساتذتي في السنة النظرية وعلى رأسهم الأستاذ حنيفي هلايلي الذي استفدنا منه كثيرا .

كما أتقدم بالشكر الخالص للأستاذ حساني مختار رئيس قسم المخطوطات بجامعة الجزائر،وعلى مساعدته على ما قدماه لي من خدمات.

كما أشكر الأخ و الصديق الذي لن أنسى فضائله علي الحاج صاحب مكتبة الهداية بالمسيلة والذي كان لي نعم المعين، فقد سخر لي مكتبته وبيته ولم يبخل علي يوما بالمساعدة.

وأشكر أخي ورفيق دربي شودار مبارك الذي كان لي نعم المعين .

وأشكر كذلك الأخ والأستاذ محمد عطية الذي ساعدني كثيرا وأخي وأستاذي دفي فؤاد ، وعيشة تومي، وحميدة زروقي الذين ساعدوني كثيرا.

وأشكر رئيسة قسم المخطوطات بالمكتبة الوطنية، والأخ رشيد العامل بنفس المكتبة .

قائمة المختصرات

القسم العربي:

الرمز	المعنى
ج	جزء
د د ن	دون دار نشر
د س ط	دون سنة طبع
ص	صفحة
ص ص	صفحات عديدة متلاحقة
ط	طبعة
ط خ	طبعة خاصة
ع	عدد
م	ميلادي
هـ	هجري

القسم الأجنبي:

ENAL	Entre prise national algérienne de livres
N	Numéro
P	Page
PP	Pages contenues
T	Tome
R.Af	Revue africaine

مقدمة

مقدمة:

بعد أن حققت إسبانيا وحدتها السياسية سنة 1469م بزواج الملكين الكاثوليكيين إيـــزابيلا وفردينانـــد اللذين حَمِلا على عاتقهما مسؤولية القضاء على الوجود العربي الإسلامي في الأندلس بمساعدة ودعم الكنيسة الكاثوليكية بروما، التي أحاطتهما بالرعاية والدعم لتحقيق هدف طال انتظاره من طرف كل المسيحيين ،الذين رأوا أنه لا خلاص لهم إلا بتصفية هذا الوجود من على أراضيهم، خاصة بعـــد ســـقوط القســـطنطينية بيـــد العثمانيين سنة 1453م.

بدأ الملكان الكاثولكيان في تحقيق مشروعهما الرامي إلى استرجاع كل الأراضي الإسبانية ،بالتضـــييق على المسلمين الموجودين على أراضيها، وقتالهم حتى استطاعوا الوصول إلى مملكة غرناطة والقضاء عليهـــا في جانفي 1492م، و لم يكتفوا بذلك فحسب، بل مدوا أنظارهم إلى بلاد المغرب الإســـلامي عامـــة والمغـــرب الأوسط خاصة، مستغلين في ذلك أوضاعه المتدهورة التي ميزته في ذلك الوقت، وبدؤوا في احتلال ســـواحله بدءا بالمرسى الكبير 1505م، فوهران 1509م ثم بجاية 1510م، ليأتي الدور فيما بعد علـــى مـــدينتي مســـتغانم والجزائر، لتتوالى سواحل المغرب الأوسط بالسقوط الواحد تلوى الآخر حتى غدت كلها بيد الإسبان.

إلا أن ظهور الإخوة بربروس على سواحل حلق الوادي بتونس وانتشار أخبارهم في الآفاق المغاربية؛ بدأ في إعادة التوازن إلى المنطقة نوعا ما، وشجع السكان المحليين بالتعاون معهـــم علـــى التصـــدي للإســـبان ومواجهتهم وتحرير بعض المناطق مثل: جيجل ومدينة الجزائر، ومع ذلك لم يكن باستطاعة الإخوة بربـــروس والسكان المحليين مواجهة الإسبان لوحدهم، فاستنجدوا بالسلطان العثماني سليم الأول الذي مد لهم يد العون وقبل طلبهم بانضمام الجزائر للدولة العلية والدخول تحت رعايتها سنة 1519م ليبدأ فصل من فصول العلاقات الجزائرية الإسبانية منذ هذا التاريخ.

وإدراكا منا لأهمية العلاقات التي ميزت الطرفين قرابة ثلاثة قرون من الزمن، والتي عرفـــت خلالهـــا العديد من الأحداث الهامة والمؤثرة في تاريخ منطقة الحوض الغربي للمتوسط بضفتيه (الشمالية والجنوبية) أردنا بحث هذا الموضوع في مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والتي عنوناها بـــ"العلاقات الجزائريـــة الاسبانية ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر ميلادي على ضوء المصادر المحلية"

الأهمية العلمية للموضوع:

لموضوع العلاقات الجزائرية الاسبانية أهمية علمية تكمن في التطرق للموضوع من وجهة نظر المصادر المحلية، على عكس الدراسات السابقة التي كانت في أغلبها تتطرق للموضوع من وجهة نظر المصادر الأجنبيـــة

وإن كانت في بعض المرات تستعين ببعض المصادر والكتابات المحلية، فهذا البحث يتطرق لهذه العلاقات بكثير من الإسهاب، أو لنقل بنظرة جزائرية عاصرت الأحداث أو كانت قريبة منها .

وتكمن الأهمية كذلك في أن هذه المصادر كانت متعاطفة في أغلبها إن لم نقل كلها مع الطرف الجزائري، وقد حاولنا قدر المستطاع التعامل معها بقدر من الموضوعية والتمحيص حتى يكون هذا البحث علمي موضوعي خال من التحامل وإخفاء الحقائق، وهو موضوع جدير بالخوض فيه، لأن كثيرا من جوانبه لازال يكتنفها الغموض، وتركزت مجمل الدراسات على الصراع العسكري متجاهلة بعض الاتصالات الدبلوماسية التي جرت من حين لآخر، حتى وإن كانت رغبة من الإسبان في استمالة الطرف الجزائري على حساب الدولة العلية.

وأردنا من خلال هذا البحث تزويد المكتبة الوطنية الجزائرية والمختصين في دراسة التاريخ الجزائري في العهد العثماني بعمل يستفيد منه في المستقبل الكثير من الباحثين في جوانب عديدة.

الإطار الزماني والمكاني:

يعالج موضوع العلاقات الجزائرية الاسبانية مابين القرنين السادس عشر والثامن عشر ميلادي على ضوء المصادر المحلية فترة هامة من تاريخ الجزائر في العهد العثماني، حتى وإن كان البحث يبدأ من سنة 1519م التاريخ الرسمي لتأسيس الإيالة الجزائرية وفق ما أقره بعض الباحثين، إلا أننا تطرقنا لموضوع العلاقات الإسبانية مع المغرب الأوسط منذ سنة 1505م تاريخ احتلال أول المناطق الساحلية ببلاد المغرب الأوسط، لأنه لا يمكننا إغفال هذه المرحلة لأنها الممهد الأساسي للعلاقات بين الطرفين بعد تأسيس الإيالة، لينتهي موضوع بحثنا في نهاية القرن الثامن عشر.

أما فيما يخص الإطار المكاني للموضوع ،فقد كانت المناطق الساحلية الجزائرية مسرحا رئيسيا لهذه الأحداث، بالإضافة إلى بعض أراضي الإمبراطورية الإسبانية وما تبعها من مناطق أخرى، يجمع هاتين المنطقتين حوض البحر الأبيض المتوسط، وفي بعض المرات المحيط الأطلسي وبعض المناطق الأخرى التابعة للدولة العلية لامتداد تأثير العلاقات بين الطرفين إليها.

دوافع اختيار الموضوع:

هناك عدة أسباب دفعتنا لاختيار هذا الموضوع لعل أبرزها:

- الغموض الذي مازال يكتنف تاريخنا الوطني في العهد العثماني على الرغم من الدراسات الكثيرة التي تناولته، إلا أن العديد من الحقائق ما زالت لم تظهر بعد، خاصة وأنّ جل الدراسات تركز على

الصراع العسكري الذي ميز العلاقات الجزائرية الاسبانية، ناسية أو متناسية بعض المحطات الدبلوماسية التي ميزت هذا الصراع العسكري، ومع ذلك هناك العديد من الحقائق التي حاولنا قدر المستطاع الخوض فيها، لعلنا نميط اللثام عن بعض الغموض الذي مازال قائما.

- استغلال الكثير من المصادر والكتابات المحلية المبعثرة والمتفرقة بين طيات الكتب أو ما زالت مادة خاما لم ينفض عنها الغبار بعد، و لم تستعمل إلا نادرا، وجمع أكبر قدر ممكن منها لانجاز بحث أكاديمي لعله سيعود بالنفع في كتابة تاريخنا الوطني من وجهة نظرنا المحلية بعيدا عن تأثيرات المدرسة المشرقية أو الغربية الكولونيالية.
- إن هذا الموضوع غير مدروس بهذه الطريقة وبالتالي ما زال مفتوحا في وجه الدارسين إذ لم تتطرق إليه أقلام الباحثين بهذه الكيفية على الرغم من الخوض في بعض جوانبه، لذلك حاولنا تقديم عمل أكاديمي نزود به المكتبة الوطنية ليكون نورا يضيء ولو جزءا من تاريخنا الوطني العريق.
- ما زادني حبا لهذا الموضوع هو ذلك التحامل غير المبرر من طرف بعض الأساتذة في مرحلة الليسانس على التواجد العثماني في الجزائر، وفي المقابل هناك غلو غير مبرر في مدح هذا التواجد،فكنت أقف حائرا بين هذا وذاك، إلى أن جاءتني هذه الفرصة التي منحني إياها الأستاذ المشرف لأقوم بدراسة أكاديمية تستند إلى الأدلة العلمية خاصة وأنها محلية صرفة كانت معاصرة لأحداث هامة في تاريخنا وعلاقاتنا بإسبانيا ،حتى نثبت أن لكل سلطة محاسن ومساوئ ونكتب تاريخنا بأقلامنا ومصادرنا.

الإشكالية:

لمعالجة موضوع العلاقات الجزائرية الإسبانية، التي تميزت عن غيرها من العلاقات الجزائرية الأوربية بالصراع والندية وقلة استعمال الطرق الدبلوماسية قي حل المشاكل العالقة بين الطرفين، ارتأينا أن تتمحور إشكالية هذه الدراسة حول نوعية العلاقات السائدة بين الطرفين وأهم محركاتها، ومن خلال ما سبق يمكننا طرح الإشكالية التالية:

إلى أي مدى استطاعت الإيالة الجزائرية الوقوف في وجه المشاريع الإسبانية وإعادة التوازن إلى المنطقة؟ وكيف كانت العلاقات الجزائرية الإسبانية خلال هذه الفترة؟ وما هي أهم مميزات هذه العلاقات؟

تندرج تحت هذه الإشكالية الرئيسية عدة إشكاليات جزئية:

ـ ما هي محركات هذه العلاقات؟ وما هي مظاهرها؟ وما أثار هذه العلاقات على الطرفين؟

الدراسات السابقة:

تعرضت الكثير من الدراسات للعلاقات الجزائرية الإسبانية، إلا أن كل هذه الدراسات أهملت القرن السابع عشر ميلادي وبقي حلقة مفقودة بين القرنين السادس عشر والثامن عشر ميلادي، ومن أهم الذين تناولوا العلاقات الجزائرية الإسبانية الأستاذ أحمد توفيق المدني في كتابه :حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792م، وأيضا عبد القادر فكاير في كتابه الموسوم بـ: الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية وآثاره (910-1260هـ) (1505-1792م)،كما درس كذلك الأستاذ يحي بوعزيز جانبا من العلاقات الجزائرية الإسبانية في كتابه:علاقات الجزائر الخارجية بدول ومماليك أوربا من 1515 إلى 1792م أما من حيث الأطروحات والرسائل الجامعية فقد تناول الأستاذ نجيب دكاني الموضوع في رسالة ماجستير تحت عنوان:الوجود الإسباني على السواحل الجزائرية ورد الفعل الجزائري خلال القرن السادس، كما تناول أيضا الموضوع محمد السعيد بوبكر في مذكرة لنيل شهادة ماجستير في التاريخ الحديث:العلاقات السياسية الجزائرية الإسبانية خلال القرن الثامن عشر(1708-1792م).

المنهج العلمي المتبع:

لدراسة هذا الموضوع ارتأينا إتباع المنهج التاريخي الوصفي ،أما المنهج التاريخي فبحكم التخصص لا يمكن الاستغناء عنه،أما المنهج الوصفي فهو الأمثل لوصف الأحداث التي ميزت العلاقة بين الطرفين،كوصف الحملات و المعارك وغيرها،إضافة إلى المنهج التركيبي الذي اعتمدنا عليه في بعض محطات هذا البحث لتركيب الأحداث حتى يستطيع المطّلع على البحث أخذ ولو فكرة بسيطة عن الأحداث التي مرت عنها عدة قرون.

خطة البحث:

للإلمام بهذا الموضوع قسمنا البحث إلى ثلاثة فصول بالإضافة إلى الفصل التمهيدي و هي كالأتي:

- الفصل التمهيدي وعنوناه بـ:"علاقات المغرب الأوسط مع إسبانيا 1505-1519م"تناولنا فيه أوضاع البلدين في بداية القرن السادس عشر وبداية العلاقات بين الطرفين ،خاصة بعد سقوط غرناطة وانتقال الصراع من الأراضي الإسبانية إلى المغرب الأوسط،كما تناولنا فيه الاحتلال الإسباني لسواحل المغرب الأوسط ورد فعل السكان المحليين ،خاصة بعد ظهور الإخوة بربروس على مسرح الأحداث وتعاونهم مع السكان المحليين في التصدي للهجمات الإسبانية.

- الفصل الأول: "العلاقات الجزائرية الإسبانية خلال القرن السادس عشر ميلادي"وتناولنا فيه العلاقات الجزائرية الإسبانية من1519 إلى1600م، وبدأناه بمراحل تأسيس الإيالة الجزائرية إضافة إلى أهم محركات العلاقات الجزائرية الإسبانية وأهم الحملات الإسبانية على الجزائر، كما تطرقنا فيه إلى كيفية تثبيت أركان الحكم العثماني بالجزائر وأهم الشخصيات التي ساعدت في ذلك، وعموما حاولنا إبراز معالم الدولة الجزائرية وعلاقاتها بإسبانيا في بداية العصر الحديث.
- الفصل الثاني: "العلاقات الجزائرية الإسبانية خلال القرن السابع عشر ميلادي"و خصصنا جزءا من هذا الفصل لجانب مهم وهو القضية الموريسكية التي شكلت الحدث الأبرز بالنسبة للعلاقات الجزائرية الإسبانية في بداية القرن السابع عشر وانعكاساتها على الطرفين، بالإضافة إلى دور الأسرى وتأثيرهم على تطور العلاقات، أما الجزء الثاني فخصصناه للصراع الجزائري الإسباني الذي غلب على العلاقات بين الطرفين خلال هذا القرن وحاولنا بكثير من التفصيل التطرق للحملات الإسبانية ورد فعل الجزائريين على ذلك.
- الفصل الثالث: "العلاقات الجزائرية الإسبانية خلال القرن الثامن عشر ميلادي" وتطرقنا في الجزء الأول منه إلى الفتح الأول لوهران سنة 1708 م، وأهم العوامل المساعدة على ذلك، ومراحل فتح وهران والمرسى الكبير ونتائجه ثم تناولنا إعادة الاحتلال الإسباني لوهران سنة1732م والأسباب التي أدت إلى ذلك، وسير الحملة ونتائجها على الطرفين ثم تطرقنا إلى الحملات الإسبانية الثلاث على مدينة الجزائر (حملة الكونت أوررللي 1775م، حملتا الدون أنطونيو بارسلو الأولى والثانية 1783 م-1784م) وأهم النتائج المترتبة عنهم، أما في الجزء الثاني من الفصل فقد تطرقنا إلى العلاقات السلمية الرسمية بين الطرفين وإمضاء اتفاق صلح بينهما سنة 1786م، وتبعات هذا الاتفاق على الطرفين لنصل في الأخير إلى إمضاء معاهدة 1791م والتحرير النهائي لوهران والمرسى الكبير وختمناه بالعلاقات السياسية والتجارية بين الجزائر وإسبانيا بعد 1792م.

التعريف ببعض المصادر والمراجع:

لإنجاز هذا البحث حاولنا الاعتماد على أكبر قدر ممكن من المصادر المحلية التي تطرقت لهذا الموضوع إضافة إلى العديد من المصادر الأجنبية، والعديد من المراجع والمجلات والأطروحات الجامعية والتي يمكن تصنيفها كالآتي:

1-المصادر المخطوطة:

- مخطوط تاريخ عروج وخير الدين لصاحبه محمد المنويب الفراتي المفاقسي، وهو مخطوط موجود بالمكتبة التونسية تحت رقم 231، وأفادنا في الفصل التمهيدي والفصل الأول، خاصة فيما يخص قدوم الإخوة بربروس إلى المغرب الأوسط، وأهم الأعمال التي قاموا بها سواء قبل تأسيس الإيالة أو بعد تأسيسها، وهو من أهم المصادر الأساسية التي اعتمدنا عليها.
- مخطوط الزهرة النائرة لصاحبه محمد ابن رقية التلمساني، وهو مخطوط موجود بالمكتبة الوطنية الجزائرية تحت رقم 1625م، وقد وصف لنا العديد من الحملات الإسبانية على الجزائر خاصة حملة 1775م والتي كان معاصرا لها أو مشاركا فيها، استفدنا منه خاصة في الفصل الثالث .

2 _ المصادر المطبوعة:

أ _ المصادر المحلية:

- كتاب دليل الحيران وأنيس السهران لصاحبه محمد ابن يوسف الزياني؛ وهو كتاب مهم جدا بالنسنة لدراسة العلاقات الجزائرية الإسبانية، خاصة وأنه تطرق بإسهاب لهذه العلاقات، استفدنا منه خاصة في الفصل الثاني والثالث.
- كتاب الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني لابن سحنون الراشدي، والذي قام بتحقيقه المهدي البوعبدلي، وتكمن أهمية هذا الكتاب في أن صاحبه كان مرافقا لجيش الفتح بقيادة محمد ابن عثمان الكبير الذي فتح وهران سنة 1792م، وهو أهم مؤلف في تحرير وهران، استفدنا منه في الفصل الثالث.
- كتاب الرحلة القمرية لصاحبه مصطفى بن عبد الله بن عبد الرحمان المعروف بابن زرفة، وتكمن أهمية هذا الكتاب في كون صاحبه كان كاتب الباي محمد الكبير ومن أهم مقربيه، قام بنشره حساني مختار إلى جانب تاريخ تحرير وهران من الاحتلال الإسباني لعبد الرحمان الجامعي، إلا أنه لدينا بعض المآخذ على هذا التحقيق لكثرة الأخطاء الواردة فيه، لذلك كنا نضطر في كثير من المرات للرجوع إلى المخطوط الأصلي الذي تحصلنا عليه من المكتبة الوطنية.
- كتاب طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر لصاحبه الآغا بن عودة المزاري؛ تناول فيه العديد من المواضيع التاريخية والاجتماعية والثقافية والجغرافية خاصة التأريخ لمدينة وهران والجزائر، إضافة إلى إسبانيا وفرنسا والتعريف بملوكهم بإسهاب وقد حققه الأستاذ يحي بوعزيز، استفدنا منه في كامل الفصول تقريبا.

- مذكرات أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر ولد عام (1780م) تناول هذا الكتاب بكثير من الإسهاب أحداث مهمة في تاريخ الجزائر الحديث خاصة من 1754م إلى 1830م قام بتحقيقه أحمد توفيق المدني استفدنا منه خاصة في الفصل الأول والثالث.

ب _ المصادر المعربة:

- وصف إفريقيا لصاحبه محمد بن حسن الوزان، تحقيق محمد حجي، وهو كتاب مهم جدا لدراسة العلاقات الجزائرية الإسبانية في العصر الحديث من وجهة نظر أجنبية كانت معاصرة لتلك الأحداث استفدنا منه خاصة في الفصل التمهيدي والأول.
- كتاب إفريقيا لصاحبه مارمول كاربخال، تناول العلاقات الإسبانية المغاربية عامة والجزائرية الإسبانية خاصة وقام فيه بوصف جميع مناطق بلاد المغرب الإسلامي وأقاليمها، استفدنا منه في الفصل التمهيدي والفصل الأول.
- مذكرات خير الدين بربروس، كتاب مهم ومصدر لا يمكن الاستغناء عنه في دراسة تاريخ الجزائر الحديث لأن صاحبه عاصر الأحداث الأولى في بداية القرن السادس عشر، وهو مؤسس الإيالة الجزائرية 1519 م قام بتعريب هذا الكتاب الأستاذ محمد دراج، إلا أنه توجد بعض المآخذ على الكتاب كافتقاده الكلي للسنوات، لذلك كنا نرجع في كل مرة إلى المصادر والمراجع الأخرى لتحديد الأحداث، استفدنا منه في الفصل التمهيدي والأول.

3- المراجع:

اعتمدنا على الكثير من المراجع في إنجاز هذا البحث أهمها:

- حرب الثلاثمائة سنة لأحمد توفيق المدني،الذي أسهب في الحديث عن العلاقات الجزائرية الإسبانية طيلة ثلاثة قرون من الزمن، استفدنا منه في جميع الفصول.
- التأثير الأندلسي الموريسكي للأستاذ حنيفي هلايلي، وهو كتاب مهم جدا في دراسة القضية الموريسكية، استفدنا منه في الفصل الأول والثاني.
- دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر لصاحبه ناصر الدين سعيدوني، أفادنا في الفصل الثالث.
- الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية لصاحبه عزيز سامح ألتر، تعريب محمود علي عامر، وهو كتاب مهم تناول الوجود العثماني في الإيالات المغاربية الثلاث خاصة الجزائر، تناول بالتفصيل التواجد

العثماني في الجزائر والعلاقات الجزائرية الأوربية، وعلى الرغم من انحيازه التام للعثمانيين،إلا أنه لا يمكن لدارس تاريخ الجزائر الحديث الاستغناء عنه، استفدنا منه في كامل الفصول.

- بنية الجيش للأستاذ حنيفي هلايلي، استفدنا منه في الفصل الأول والثاني.

4- المصادر الأجنبية:

- اعتمدنا على كتاب تاريخ ملوك الجزائر «Histoire des Rois d'Alger»، لهايدو «Haédo»، وهو مصدر مهم لدراسة العلاقات الجزائرية الإسبانية، وقد اعتمدنا عليه في الفصل الأول.

5- المراجع الأجنبية:

_ إعتمدنا على كتاب تاريخ الجزائر تحت السيطرة العثمانية" Histoire d'Alger sous la Domination Turque" لصاحبه "دي غرامون" «Grammont H.De» استفدنا منه في الفصل الأول والثاني.

6_ المجلات:

أ- الأصالة: اعتمدنا على الكثير من الأعداد، وفي جميع الفصول تقريبا.

ب- المجلة الإفريقية: Revue Africaine

لم يخل أي عدد من أعداد هذه المجلة من التطرق للجزائر، وقد تناول الكثير من كتاب هذه المجلة العلاقات الجزائرية الإسبانية، استفدنا منها موزعة على جميع الفصول.

وقد اعتمدنا على العديد من المصادر والمراجع التي لا يتسع المجال لذكرها.

الصعوبات:

ككل بحث واجهتنا عدة صعوبات، كانت أهمها:

- ندرة المادة العلمية سواء المحلية أو الأجنبية التي تناولت العلاقات الجزائرية الإسبانية خلال القرن السابع عشر، فقد استغرقت أكثر من ستة أشهر في البحث عن المادة العلمية ومحاولة جمع وتركيب الأفكار، خاصة وأن جل الدراسات السابقة مرت مرور الكرام عن هذا الموضوع و لم تتطرق إليه إلا تلميحا، بما فيهم الأستاذ أحمد توفيق المدني في كتابه حرب الثلاثمائة سنة، ومع ذلك حاولنا قدر المستطاع وضع الأسس الأولى لبداية دراسة العلاقات في هذا القرن.

- مشكل السكن، حيث أنني أسكن في منطقة نائية تنعدم فيهـــا وســـائل المواصـــلات والاتصـــال (الانترنت)، فأقرب مدينة لي تبعد عني بـــ35 كلم، لذلك كنت في الكثير من المرات أتوقف ليوم أو يومين من أجل الحصول على الأقلام أو الأوراق، فما بالك بالمصادر والمراجع.
- على الرغم من المساعدة التي قدمت لي من المكتبة الوطنية،خاصة من طرف مسؤولة الأرشـــيف، إلا أن القانون الداخلي منعني من الحصول على الكثير من المخطوطات.
- ظروف العمل لأنني أشغل منصب معلم في منطقة نائية جدا حرمتني في الكثير من المرات التنقـــل إلى المكتبات للحصول على المادة العلمية لو لا مساعدة بعض الأصدقاء.
- العائق المادي كان له دور مهم، لأنني كنت أعمل لسنوات طويلة كمستخلف في الابتدائي و لم أكن أتقاضى أجري إلا بعد مرور سنة كاملة، ولو لا مساعدة الوالد لما استطعت التنقـــل للدراســـة أو للحصول على المادة العلمية.

الفصل التمهيدي: علاقات المغرب الأوسط مع إسبانيا (1500–1519م)

أولا: أوضاع المغرب الأوسط و إسبانيا في بداية القرن السادس عشر الميلادي

المبحث الأول: أوضاع المغرب الأوسط

1– سياسيا

2–إقتصاديا

3– إجتماعيا وثقافيا

المبحث الثاني: أوضاع إسبانيا

1– سياسيا

2– اقتصاديا واجتماعيا

ثانيا: العلاقات بين المغرب الأوسط وإسبانيا ما بين (1505–1519م)

المبحث الأول: العلاقات بين الطرفين ما بين (1505-1512م)

1–إحتلال المرسى الكبير (1505م)

2– إحتلال وهران (1509م)

3– إحتلال بجاية (1510م)

4–خضوع مدينة الجزائر (1510م)

المبحث الثاني: العلاقات بين الطرفين (1512-1519م)

1– دور الإخوة بربروس في إعادة التوازن بين الطرفين

2–أعيان وعلماء مدينة الجزائر يراسلون عروج سنة (1516م)

3– عرّوج يسيطر على مدينة الجزائر (1516م)

4– حملة دييغو ديفيرا «Diégo de Vera» 1516م

5–نتائج الحملة

6–عروج يبسط سيطرته على الجهة الغربية

أولا: أوضاع المغرب الأوسط و إسبانيا في بداية القرن السادس عشر الميلادي

المبحث الأول: أوضاع المغرب الأوسط

1- سياسيا

عاشت بلاد المغرب الأوسط في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلاديين انقساما سياسيا وانهيارا اقتصاديا وركودا حضاريا لم يسبق له مثيل، وغدت منقسمة على نفسها إلى عدة إمارات مفككة ومتناحرة فيما بينها، استطاعت كل واحدة منها تكوين وحدة سياسية مستقلة بذاتها، ما تكاد تظهر إمارة حتى تختفي وتحل محلها أخرى، مستغلين في ذلك الوضع الخطير الذي آلت إليه الدولة الزيانية، التي لم يلتفت سلاطينها وأمراؤها للظروف الصعبة التي تمر بها الدولة والمنطقة ككل، بل حاول بعضهم الاستنجاد بالإسبان والتحالف معهم ضد بني عمومتهم، ومثال ذلك يحي الثابتي الذي استنجد بالإسبان أثناء ثورته سنة 912هـ/1506م ضد أبي حمو موسى الثالث (1503-1517م) وطلب منهم المساعدة للتوجه إلى تلمسان والسيطرة عليها، وهذا ما شجع الإسبان على فرض إتاوة على أمراء بني زيان قدرها 12 ألف دوقة و12 فرسا و6 بزات.[1]

واستغل الحفصيون بتونس الأوضاع التي أصابت الدولة الزيانية وسيطروا على بجاية وقسنطينة وجزءا كبيرا من الشرق[2]، حتى وإن كانت هذه السيطرة اسمية فقط، فيما حاول بنو مرين التدخل في الشؤون الزيانية وإخضاع بعض المناطق في الجهة الغربية، أما المناطق الداخلية والشمالية فكانت تحكمها بعض الأسر والمشيخات كمدينة الجزائر التي كانت تحكمها قبيلة الثعالبة برئاسة سالم التومي*، وتوقرت تحكمها أسرة بني جلاب وورقلة تحكمها أسرة علاهم، أما المناطق الجبلية فقد تأسست بها إمارات ذات أصل مرابطي أو شريف مثل إمارة كوكو التي كان يحكمها أحمد ابن القاضي**، وإمارة بني عباس التي يحكمها الأمير عبد العزيز، كما

---

1 - بسام كامل عبد الرزاق شقدان: تلمسان في العهد الزياني 633-962هـ/1235-1555م، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2002م، ص 248.

2 - يوسف بنو جيت: قلعة بني عباس إبان القرن السادس عشر الميلادي، ترجمة: سامي عمار، دار النشر دحلب، الجزائر، 2007، ص30.

* - سالم التومي: شيخ مدينة الجزائر، ويعرف باسم "سليم التومي" وقع عليه اختيار سكان الجزائر وشرشال للذهاب إلى بجاية يوم 10 جانفي 1510م للاجتماع ببيدرو نافارو وتم الاتفاق معه على دفع غرامة مالية سنوية والسماح للإسبان ببناء حصن صخرة البنيون، ينظر: وليم سبنسر: الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتقديم، عبد القادر زبادية، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2000م، ص 35.

** - أحمد بن القاضي: شيخ قبيلة زواوة وقائدها، ينحدر من عائلة أبي العباس الغبريني صاحب كتاب الدراية، كان على رأس الوفد الذي سافر إلى السلطان سليم الأول للطلب منه قبول انضمام الجزائر للدولة العلية، ينظر مجهول: سيرة المجاهد خير الدين بربروس، تحقيق: عبد الله حمادي، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2009م، ص78.

كانت هناك إمارات تقتسم الرقعة الوسطى من البلاد مثل إمارة بوعكاز التي حكمت الزاب والحضنة وبعض جهات الصحراء، وإمارة بني يزناسن وفقيق بالحدود الغربية.[1]

أما المناطق السهلية، فقد سيطرت عليها بعض القبائل العربية وأخرى بربرية (أمازيغية) ومن أهم القبائل العربية نذكر الضحال وعباد الذين استوطنوا منطقة حمزة[*]، بنو عبيد استوطنوا غربي تلمسان، ومن القبائل البربرية زواوة التي استوطنت جبال جرجرة، صنهاجة التي استوطنت الجبال التي تقع جنوب جرجرة وتمتد إلى متيجة، قبيلة مغراوة سكنت جبال مليانة وتنس إلى مصب نهر الشلف، قبائل توجين استوطنت جبال الونشريس، بنو ميزاب، استوطنوا غرداية، وفطين وسكنوا شمال تلمسان وبنو عبد الواد سكنوا تلمسان وضواحيها.[2]

إن التشتت والانقسام الذي آلت إليه بلاد المغرب الأوسط نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلاديين جعلها محل أطماع إسبانيا[**]، خصوصا بعدما تمكنت هذه الأخيرة من السيطرة على مملكة غرناطة في جانفي 1492م[3]، وقامت بمطاردة بقايا المسلمين في الأندلس، هؤلاء الذين كان ملاذهم الآمن السواحل المغاربية وخصوصا سواحل المغرب الأوسط، إلا أن إسبانيا راحت تلاحقهم إلى موطن هجرتهم قصد منعهم من التفكير في العودة إلى وطنهم المسلوب[4]، وفي نفس الوقت الإنتقام من البلدان المغاربية التي لطالما قدمت يد المساعدة لمسلمي الأندلس.[5]

في الوقت الذي كانت فيه بلاد المغرب الأوسط تعيش انحطاطا سياسيا واقتصاديا وثقافيا، عرفت إسبانيا نهضة علمية ووحدة سياسية وازدهارا اقتصاديا وثقافيا.[6]

---

1 - يحي بوعزيز: الموجز في تاريخ الجزائر، ج2، الجزائر الحديثة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007م، ص8.

* - هي مدينة البويرة حاليا.

2 - أحمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792م، ط1، دار البصائر للتوزيع والنشر، الجزائر، 2007، ص ص، 84، 85.

** - عندما فوجئ المغرب الأوسط بالاحتلال الإسباني كان مجزءا إلى خمسة عشر جزء كل واحد منها تهيمن عليه قبيلة عربية أو بربرية ولا يهمها إلا مصالح القبيلة أو العشيرة... المهدي البوعبدلي:" أضواء على تاريخ الجزائر، العهد التركي من خلال مخطوط الثغر الجماني"، **مجلة الأصالة**، ع8، الجزائر، 1972م، ص 277.

3 - محمد خير فارس: تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي، مكتبة دار الشروق، بيروت، لبنان، 1969م، ص14.

4 - يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص12.

5 - محمد حسن العيدروسي: تاريخ العرب الحديث، ط1، دار الكتاب الجامعي للنشر والتوزيع، الكويت، 1997م، ص 30.

6 - مولاي بلحميسي: "نهاية دولة بني زيان"، **مجلة الأصالة**، ع26، الجزائر، 1975م، ص31.

2-إقتصاديا

أدى اضطراب الأوضاع السياسية بالمغرب الأوسط إلى انهيار كلي لاقتصاد البلاد، نتيجة لغياب الأمن والاستقرار، فقد هجر الكثير من الفلاحين أراضيهم بعد تزايد الأخطار الداخلية والخارجية، حيث فضل سكان الأرياف اللجوء إلى المناطق الأكثر أمنا، وبذلك تركوا أراضيهم مهملة، فيما فضل البعض الآخر تربية المواشي والابتعاد عن المناطق التي تكثر فيها النزاعات، والفرار إلى المناطق الصحراوية أو المناطق الجبلية، وهذا ما أدى إلى تدهور أوضاع الفلاحة والفلاحين، إذ آل أمر بعضهم إلى الفقر والبؤس.[1]

أما الصناعة فلم تعرف بلاد المغرب الأوسط صناعة حقيقية بالمفهوم الشائع آنذاك، وكل ما في الأمر أنه كانت توجد بعض الحرف المنتشرة في بعض الأماكن من البلاد مثل صناعة النسيج، الزرابي، الأقمشة والحرف الخاصة بتلبية بعض الحاجيات مثل صناعة سروج الخيول، سكك المحاريث، المناجم، الفؤوس، الخناجر والأواني الفخارية، كما كان يتم تصنيع الفحم من أشجار الخروب.[2]

وقامت بعض الصناعات في مناطق متفرقة من البلاد كإمارة كوكو التي كانت تُصنع بها السيوف والرماح والبارود، وبجاية التي تصنع بها السفن لتوفرها على الخشب الجيد، بالإضافة إلى مدينتي الجزائر وشرشال حيث سخر الأندلسيون خبرتهم وأموالهم لصناعة السفن وتجهيزها لمواجهة الإسبان[3]، كما أن التجارة الداخلية بين المدن أصابها الركود بسبب كثرة الحروب بين القبائل وفقدان السيطرة على مقاليد الأمور لغياب سلطة مركزية موحدة تضبط الأمن، هذا ما شجع قطاع الطرق واللصوص للسطو على التجار والمزارعين وسلبهم أموالهم وسلعهم وحتى قتلهم، لذلك اضطر هؤلاء إلى ترك مهنهم والفرار إلى أماكن أخرى أقل خطورة، خاصة الجبال والمناطق الصحراوية، مما نتج عنه تدهور خطير للتجارة وخراب مدن وقرى بأكملها[4] يستثنى من ذلك بعض المدن الساحلية والداخلية، أين يتوفر الأمن أو بالقرب من مراكز الاحتلال الإسباني حيث رضيت بعض القبائل بالتبعية له، فكانت تمارس تجارتها معه وتحت حمايته، وبذلك استمر النشاط التجاري مع الإسبان.

---

1 - كليل صالح: سياسة خير الدين في مواجهة المشروع الإسباني لاحتلال المغرب الأوسط، مذكر ماجستير، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2006-2007، ص20.

2 - مارمول كربخال: إفريقيا، ج2، ترجمة محمد حجي وآخرون، دار المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط، المغرب الأقصى، 1989م، ص 351.

3 - أرزقي شويتام: المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 1519-1830م، ط1، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع والترجمة، القبة، الجزائر، 2009، ص 146.

4 - محمد دراج: الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس 1512-1553م، ط2، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012م، ص 70.

أما التجارة الخارجية فقد تأثرت كثيرا بعد الكشوفات الجغرافية الأوروبية والإسبانية، مما نتج عنه اكتشاف طرق تجارية جديدة، وبذلك فقد المغرب الأوسط أهميته التجارية، وعرفت موانئه إهمالا كبيرا وتدهورا خطيرا، إذ فقدت عدة مدن دورها التجاري بين أوروبا وبقية بلاد المغرب مثل وهران، بجاية تلمسان، عنابة وغيرها.[1]

3- إجتماعيا وثقافيا

كانت البنية السكانية في بلاد المغرب الأوسط قبل التواجد الأندلسي والعثماني تتشكل من عنصرين رئيسيين هما: العرب والأمازيغ اللذين اندمجا مع بعضهما البعض بفضل الإسلام، واتباع المذهب المالكي واللغة العربية، وقد غلب على نمط عيشهم البداوة، باعتبار أن غالبية السكان يعيشون في الأرياف، ويمتهنون تربية المواشي والزراعة[2]، والترحال بحثا عن الأمن والكلإ والماء، وكان يسود بينهم نظام العشيرة والقبيلة، أما المدن الكبرى فقد كان يغلب عليها نمط الاستقرار والتحضر، خاصة بعد الهجرات الأندلسية إلى مدن المغرب الأوسط بعد سقوط إماراتهم في يد الإسبان أواخر القرن الخامس عشر الميلادي.[3]

وقد وفد إلى المدن الساحلية بالمغرب الأوسط أعداد كبيرة من الأندلسيين الذين استطاعوا التأثير في بنية المجتمع وازدهار الحياة المدنية فيه، نتيجة للتفاعل الذي حدث بين مكونات المجتمع والوافدين الجدد، والذين كانت لهم نشاطات سياسية واقتصادية وثقافية، وبذلك استطاعوا ربط المجتمع العربي الأمازيغي البربري بالمجتمع الأندلسي الحامل بين طياته الفكر الأوروبي، أي بمعنى آخر، ربط مجتمع المغرب الأوسط ذو الطابع المشرقي بالمجتمع الأندلسي ذو الطابع الغربي[4] ولذلك تأثرت الكثير من المدن الساحلية بهؤلاء الوافدين خاصة من شرشال، تنس، مستغانم، مدينة الجزائر، دلس، بجاية وعنابة.

كان التأثير الأندلسي في بلاد المغرب الأوسط واضحا من خلال إدخال عنصرين رئيسيين هما:

- مضاعفة الكفاح ضد الإسبان في البحر والمدن الساحلية دفاعا عن الأنفس والبلاد، نتج عنه تكافل وتلاحم الصفوف بين السكان المحليين والأندلسيين، ثم العثمانيين فيما بعد.[5]

---

1 – عبد القادر فكاير: الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية وآثاره (910-1206هـ/1505-1792م)، دراسة تتناول الآثار السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية على الجزائر، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2012م، ص ص 203، 206.

2 – عبد القادر حليمي: "القروض والنقود في مدينة الجزائر أثناء العهد التركي"، **مجلة الأصالة**، ع7، الجزائر، 2012م، ص74.

3 – أرزقي شويتام: المرجع السابق، ص80.

4 – عزيز سامح ألتر: الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ط1، ترجمة: محمود علي عامر، دار النهضة العربية للنشر والتوزيع والطباعة، بيروت، لبنان، 1989م، ص 325.

5 – أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، 1500-1830، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1998م، ص 148.

- نشر العديد من الأنماط الحضارية داخل مجتمع المغرب الأوسط، وبذلك ساهم الأندلسيون في إحيـــاء وتنشيط الحياة الثقافية في بعض المدن.

بالإضافة إلى هذه المجموعات السكانية الثلاث كان يعيش بالمغرب الأوسط بعض الجاليات الســـكانية الأخرى مثل اليهود، الذين كان يحتقرهم السكان المحليون، والسودانيون وبعض الأجناس الأخرى التي لم يكن لها تأثير بارز في ذلك الوقت.

أما الحياة الثقافية فقد أصابها الركود نتيجة لغياب الأمن والاستقرار، فباستثناء بعض الزوايا التي بقيت محافظة على تعليم الطلبة الوافدين إليها، وعلى حركية التعليم بالمغرب الأوسط، إلا أن هـــذه الفتـــرة عرفـــت انتشار الفكر الصوفي والتصوف، ليصبح ظاهرة غالبة[1] في البوادي والمدن بعد أن كان منحصراً في المدن فقط، واندثرت المراكز العلمية التي اشتهر بها المغرب الأوسط مثل: بجاية، مازونة وتلمسان، حيث هجرها العلمـــاء بعد الاحتلال الإسباني، واتجهوا إلى مراكز علمية أكثر أمنا سواء داخل الوطن أو خارجه مثل جامع القـــرويين بفاس، الذي كان لا يزال يؤدي رسالته العلمية بكفاءة عالية.[2]

كان للزوايا دور فعال في المحافظة على الدين الإسلامي والمذهب المالكي واللغة العربية، بعد أن كادت الأوضاع السائدة في ذلك الوقت تقضي على ما تبقى من المشهد الثقافي بالمغرب الأوسط.

المبحث الثاني: أوضاع إسبانيا

1- سياسيا

عرفت إسبانيا خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشـــر المـــيلاديين تطورات سياسية هامة، كان لها الأثر البالغ على مستقبلها خاصة، وأوروبا عامة، كما امتد هذا التأثير ليشـــمل منطقة بلاد المغرب الإسلامي كذلك، إذ أدى الزواج السياسي الذي تم بين فرديناند[*] ملك أراغون وإيـــزابيلا[**]

1 - كليل الصالح: المرجع السابق، ص29.

2 - محمد دراج: المرجع السابق، ص74.

* - فرديناند ابن الملك فرديناند الأول والملكة جيان ويسمى فرديناند الكاثوليكي ملك أراغون وصقلية ونابولي ما بين 1452-1516م اشـــتهر بتعصبه، وتأسيس محاكم التفتيش في عهده، استطاع السيطرة على غرناطة سنة 1492م رفقة إيزابيلا كانت له ميولات متوسطية لخضوعه لتـــأثير الدبلوماسيين والتجار، في عهده احتلت وهران والمرسى الكبير 1505-1509م، للمزيد ينظر: نجيب دكاني: الوجود الإسباني علـــى الســـواحل الجزائرية ورد الفعل الجزائري خلال القرن السادس عشر الميلادي، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 2002، ص ص14، 16.

** - ملكة قشتالة ورثت العرش بعد وفاة أخيها هنري الرابع وتسمى إزابيلا الكاثوليكية، حكمت ما بـــين ســـنتي 1474-1504م، لم يكـــن لزوجها سلطة على مملكتها، كانت متعصبة للمسيحية والمذهب الكاثوليكي، وحصلت مع زوجها على لقب ملوك الكاثوليك من البابا إســـكندر السادس بعد تمكنهما من السيطرة على غرناطة وطرد المسلمين منها، نفسه، ص 15.

ملكة قشتالة عام 1469م إلى توحيد المملكتين والذي نتج عنه ظهور إسبانيا الموحدة[1]، إلا أن هذا الزواج لم يكرس الوحدة السياسية بأتم معنى الكلمة[2]، -ولكنه أبقى صفة الملكين قائمة في دولة إسبانيا، التي بدأت تعرف نوعا من الوحدة آنذاك-، لأن فرديناند لم يكن ملكا لقشتالة إلا بوصفه زوجا لإيزابيلا وظهور صورة الاثنين على العملة والأسلحة والرايات، و لم تكن لهما سياسة داخلية موحدة على عكس السياسة الخارجية التي كان يوجهها فرديناند مع وجود اختلاف في التوجهات السياسية لكل من أراغون وقشتالة، بحيث كانت أراغون وبحكم امتلاكها لجزر البليار وصقلية وسردينيا، ووجود أحد أفراد أسرتها الحاكمة على رأس مملكة نابولي تتجه نحو البحر المتوسط لتأمين الممر البحري بين إشبيليا وصقلية، لذلك كانت تحتاج إلى نقاط ارتكاز على السواحل المغاربية لتأمين هذا الطريق، فيما كانت قشتالة تتجه نحو المحيط الأطلسي بحكم موقعها واهتمامها بالصراع ضد المغرب الإسلامي.[3]

وعلى الرغم من هذا التباين بين الطرفين إلا أنه لم يمنع من ظهور سياسة خارجية موحدة يوجهها فرديناند الذي نجح في إثارة اهتمام قشتالة بمسائل القارة الأوروبية وشبه الجزيرة الإيطالية[4]، والملاحظ أن هذه الوحدة السياسية التي عرفتها إسبانيا اتخذت صبغة دينية كاثوليكية أساسها التحالف الوثيق بين الكنيسة والملك، خاصة في عهد الملوك الكاثوليك، وهذا ما نتج عنه عداوة دائمة ضد المسلمين في الأندلس وبلاد المغرب الإسلامي.[5]

وكان أول عمل عكس هذه السياسة الجديدة لإسبانيا الكاثوليكية، الاستيلاء على مملكة غرناطة، آخر معاقل المسلمين في الأندلس عام 1492م[6]، وبهذا أتمت إسبانيا وحدتها السياسية والجغرافية لينتهي بذلك فصل من فصول تاريخ إسبانيا الإسلامي، ويبدأ تاريخ جديد لإسبانيا الكاثوليكية، وانتقل الصراع الإسلامي المسيحي من الأراضي الإسبانية إلى الأراضي المغاربية لأول مرة، حيث تم احتلال العديد من المدن المغاربية

1 - *Braudel (Fernand), La Méditerranée et Le Monde Méditerranéen A l'époque de Philipe II, tome II, 2eme, Edition, Libraire Armand Colin, Paris, 1966, p19.*

2 - جون.ب.وولف: الجزائر وأوروبا، ترجمة وتعليق: أبو القاسم سعد الله، ط2، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م، ص24.

3 - نبيل عبد الحي رضوان: جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس واسترداده في مطلع العصر الحديث، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي الحديث، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية 1407هـ/1987م، ص33.

4 - صالح حيمر: التحالف الأوروبي ضد الجزائر عام 1541 وتأثيراته الإقليمية والدولية، مذكرة ماجستير ، معهد التاريخ، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، 2006-2007، ص 27.

5 - عبد الرحمن بن محمد الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج5، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2010م، ص97.

6 - مجهول: نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر، تسليم غرناطة ونزوح الأندلسيين إلى المغرب، ضبطه وعلق عليه، ألفريد البستاني، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، مصر، 2002م، ص 47.

مثل: المرسى الكبير، وهران، عنابة وبجاية[1]. كما عرفت إسبانيا في نهاية القرن الخامس عشر ميلادي حدثين هامين كان لهما أهمية بالغة على مستقبل هذه الدولة الناشئة، وهما: استرداد غرناطة في 1492م واكتشاف العالم الجديد في نفس السنة.[2]

حققت الوحدة الإسبانية نتائج هامة على الصعيدين الداخلي والخارجي، فداخليا تمكن الملكان الكاثوليكيان من تنظيم السلطة وإعادة النظام، بحيث أصبحت الأوامر العسكرية مرتبطة بالعرش مباشرة وتمكنا من إنشاء ميليشيات عسكرية قوية ومسلحة، أُوكِل لها مهمة محاربة عمليات السلب والنهب وأعمال اللصوصية السائدة آنذاك في كامل التراب الإسباني[3]، أما خارجيا فاتجهت إسبانيا نحو مغامرات زادت من تماسك وحدتها السياسية، وكان أول عمل اهتم به الملكان هو تصفية الوجود العربي الإسلامي من شبه الجزيرة الأيبيرية، والاستيلاء على كامل المدن الساحلية للمغرب الأوسط وطرابلس الغرب وتونس وحتى المغرب الأقصى.[4]

وفي مطلع القرن السادس عشر الميلادي وبوفاة إيزابيلا سنة 1504م، ومن بعدها فرديناند سنة 1516م آل العرش الإسباني إلى حفيده شارل الخامس[*]، الذي ورث عرش قشتالة والمناطق التابعة لها عن جدته لأمه كما ورث عن جده لأمه فرديناند عرش أراغون، وبوفاة جده لأبيه ماكسيمليان الأول (1459-1519م) آل إليه العرش النمساوي، وبذلك ترشح لخلافة جده على رأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة، والتي نافسه على تولي عرشها الملك الفرنسي فرانسوا الأول «François I».[5**]

---

1 - أحمد إسماعيل راشد: تاريخ أقطار المغرب العربي السياسي الحديث والمعاصر (ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب الأقصى، موريتانيا)، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 2004م، ص 131.

2 - أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص42.

3 - حنيفي هلايلي: دراسات وأبحاث في التاريخ الأندلسي الموريسكي، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2010م، ص 118.

4 - أحمد توفيق المدني: "تلمسان بين الزيانيين والعثمانيين 1530-1554م"، **مجلة الأصالة**، ع26، الجزائر، 2011م، ص39.

* - شارل الخامس تولى الحكم بعد وفاة جده فرديناند سنة 1516م وأصبح بعد 1519م على رأس أكبر إمبراطورية في العالم، فخصص عهده في محاربة أعدائه إلى سنة 1556م، ثم تخلى عن المسؤولية العظمى في جانفي 1556م ، فاعتزل في معبد اسمه يوست Yuste وبقي به إلى أن توفي في 21 سبتمبر 1558م، وخلفه في الحكم ابنه فليب الثاني، للمزيد ينظر: مولاي بلحميسي: "غارة شارلكان على مدينة الجزائر، 1541م"، **مجلة الأصالة**، ع8، الجزائر، 1972م، ص91.

**- تولى سنة 1525م وعمره 21 سنة وهو من نسل الدوق دورليان، عرف بتضلعه في عدة علوم، محبا للفتن والمشاكل، لا يراعي إلا مصالحه، حدثت بينه وبين شارلكان حروب عديدة وأبرزها ميلانو التي أسر على إثرها وهزم جيشه وأرسل إلى مدريد، أثناء سجنه تولت أمه حكم فرنسا ولم يخرج من السجن إلا بعد موافقته على شروط قاسية ومذلة منها تنازله عن المطالب بحقه في ميلانو ونابولي أطلق سراحه سنة 1535م، أمضى معاهدة مع سليمان القانوني سنة 1536م، توفي سنة 1556م، للمزيد ينظر: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، تحقيق ودراسة: يحي بوعزيز: ط1، ج2، دار البصائر للنشر والتوزيع، حسن داي، الجزائر، 2007م، ص ص 64، 65.

5 - يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص41.

تم اجتماع الناخبين الألمان"les lectures" بمدينة فرانكفورت يوم 05 جويلية 1519م لدراسة من يكون إمبراطورا على رأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وبعد مناقشات طويلة وشاقة فضلوا انتخاب شارل الخامس[1] لأنه من أصل جرماني، ومما عزز هذا الاختيار أيضا الخطر الذي كان يمثله العثمانيون على حدود الإمبراطورية الرومانية المقدسة، حيث رأى الناخبون أن شارلكان «CharleQuin» هو الأقدر على رد هذا الخطر الداهم، الذي كان يهدد كيان الإمبراطورية، وبهذا الاختيار صار شارل الخامس يحكم إمبراطورية مترامية الأطراف تحت اسم الإمبراطور شارل الخامس.[2]

كان شارل الخامس يتفاعل مع الأحداث، خاصة مع عدائه للمسلمين المتجذر من قناعته التي اكتسبها من التربية التي تلقاها منذ صغره والموروثة عن تقاليد أجداده، وخاصة جده ماكسيمليان الذي غذى فيه نزعة النضال ضد الكفار "المسلمين"، ونتيجة لهذه التربية الدينية الكاثوليكية، كانت استراتيجية شارلكان تقوم على أساس وحدة العالم المسيحي، وبحكم منصبه الإمبراطوري؛ فقد كان يرى نفسه الحامي الأول للعقيدة المسيحية[3] خاصة وأنه كان يرى الخطر العثماني يقترب رويدا رويدا من أراضي الإمبراطورية الرومانية المقدسة[4] وعلى الرغم من أنه كان في صراع على عدة جبهات خطيرة داخلية وخارجية أهمها صراعه ضد ملك فرنسا فرانسوا الأول، إلا أن اهتمام شارلكان الأكبر كان محاربة العثمانيين، وكان يرى بأن الحرب ضد المسلمين ليست مهمة بلد أوروبي واحد، بل هو واجب كل المسيحيين.[5]

وفي إطار مهمته المتمثلة في توحيد أوروبا، واجه شارلكان خصما عنيدا هو ملك فرنسا فرانسوا الأول حيث استؤنفت الحروب الإيطالية* بين الطرفين سنة 1525م بسبب غزو هذا الأخير لإيطاليا، إلا أنه فشل في مهمته ومني بهزيمة ساحقة على يد الجيش الألماني في معركة بافيا سنة 1525م[6]، وتم على إثرها أسر فرانسوا الأول وأخذه إلى إسبانيا، حيث أرغم على توقيع معاهدة مدريد سنة 1526م، والتي تم بموجبها التنازل عن

1 - محمد دراج: المرجع السابق، ص25.

2 - صالح حيمر: المرجع السابق، ص29.

3 - عبد الجليل التميمي: "الخلفية الدينية للصراع الإسباني العثماني على الإيالات المغاربية في القرن السادس عشر الميلادي"، **المجلة التاريخية المغاربية**، ع11/10، تونس، 1985م، ص 09.

4 - صالح حيمر: المرجع السابق، ص30.

5 - نفسه، ص30.

* - les guerres D'Italie هي حروب متقطعة وقعت بين فرنسا وإسبانيا خلال الفترة الممتدة من 1494-1559م، وهي حروب من أجل بسط النفوذ داخل القارة الأوروبية، والرغبة في التوسع الإقليمي، كانت شبه الجزيرة الإيطالية مسرحا لها، وانتهت إثر توقيع معاهدة كاتو كامبرسيس سنة 1559م.

6 - يحي بوعزيز: علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوروبا 1500-1830م، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م، ص41.

ادعائه بحقه في نابولي وميلانو وجنوة[1]، وبعد هذا الانتصار وطد شارلكان علاقته بالبندقية، القوة البحرية القوية في ذلك الوقت، كما حصل على مساندة الأسطول الجنوي الذي كان يقوده أندريا دوريا «Andre doria» والذي تخلى عن خدمة فرانسوا الأول وانتقل لخدمة شارلكان سنة 1528م، وبذلك ضمنت جنوة تحالفها مع إسبانيا التي نالت دعم أكبر أسطول إيطالي في غربي المتوسط.[2]

وفي إطار سياسته التوسعية والمعتمدة أساسا على إيجاد أكبر دعم أوروبي ممكن، وفي محاولة منه لقطع الطريق على خصمه فرانسوا الأول استطاع شارلكان عقد تحالف مع فرسان القديس يوحنا[*] بعد أن منحهم جزيرة مالطة في سنة 1522م تعويضا لهم عن جزيرة رودس التي استطاع العثمانيون السيطرة عليها في نفس السنة، ثم تنازل لهم أيضا عن طرابلس الغرب في سنة 1530م[3] بعد أن كان قد سيطر عليها سنة 1510م، وكان هذا التقارب بين الطرفين يهدف إلى محاربة المد العثماني، وقطع الطريق أمامهم حتى لا يواصلوا تقدمهم في المتوسط.[4]

وفي سنة 1530م توج شارلكان بالتاج الإمبراطوري على يد البابا كليمانت السابع " «Clé ment VII»"[5]، وعلى الرغم من هذا التتويج والدعم الديني المسيحي الذي تلقاه من طرف قادة الكنيسة الكاثوليكية إلا أنه ولسوء حظه لم يحقق الأهداف التي كان يصبوا إليها، نتيجة لظهور عدة شخصيات بارزة معاصرة له مثل: سلميان القانوني (1520-1566م) وفرانسوا الأول وهنري الثامن ملك إنجلترا، وبايلر باي الجزائر خير

1 – الآغا بن عودة المزاري: المصدر السابق، ص65.

2 – عبد الحميد البطريق وعبد العزيز سليمان نوار: التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فينا، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1973م، ص 77.

* – يعتبر فرسان القديس يوحنا من بقايا الحروب الصليبية، وقد أنشئت هذه المنظمة عام 1099م من طرف أحد الفرسان الفرنسيين، وكانت مهمتها في البداية علاج الحجاج المسيحيين في بيت المقدس، وسرعان ما تغير نشاطها لحماية الطرق التي يسلكها هؤلاء الحجاج، وهكذا تحول الفرسان من رهبان إلى عسكريين، وشاركوا في جميع الحروب الصليبية وكلفهم ذلك خسائر كبيرة خصوصا في الأرواح، وفي عام 1309م اتجهوا إلى رودس –بعد أن تم طردهم من فلسطين– وجعلوها مقرا جديدا لهم، حيث شيدوا مستشفيات وحاولوا حماية ما تبقى من المسيحية في المنطقة الشرقية، وبعد أن شعر العثمانيون بخطورة هؤلاء الفرسان قرر السلطان محمد الفاتح عام 1480م فتح رودس إلا أنه فشل في ذلك، وفي عهد سليمان القانوني جهز حملة لفتحها وتم له ذلك سنة 1522م وبعد ذلك التجأ فرسان القديس يوحنا بعد خروجهم من رودس إلى مالطة التي منحها إياهم شارل الخامس في شهر ماي 1530، للمزيد ينظر: محمد سي يوسف: أمير أمراء الجزائر قلج علي باشا، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م، ص ص 45، 46.

3 – نفسه، ص30.

4 – كليل صالح: المرجع السابق، ص21.

5 – يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص41.

الدين[1]، وحسن آغا* (1533-1544م) وحسان ابن خير الدين** اللذان أفسدا عليه كل المخططات التي وضعها من أجل إخضاع الجزائر.

وفي ظل هذه الظروف حاول شارلكان حل المشاكل الداخلية التي كانت تعصف بإسبانيا خاصة وأوروبا عامة من أجل التفرغ للعثمانيين، إلا أن التحالف العثماني الفرنسي سنة 1536م عقَّد من مهمته[2] وكان له الأثر البالغ على مخططات السياسة الخارجية الإسبانية خاصة في الحوض الغربي للمتوسط.

2- اقتصاديا واجتماعيا

تميز الوضع الاقتصادي لإسبانيا بظهور حركة تنموية في جميع المجالات الاقتصادية نتيجة لتأثرها بالنهضة الأوروبية في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، عن طريق بعض الإسبان الذي تابعوا دراساتهم في إيطاليا، ثم عادوا لنشر أفكارهم ودراساتهم الإنسانية في بلادهم، وقد اقترنت النهضة في إسبانيا بتطور الملاحة وصناعة السفن خصوصا، مما جعلها تكون من الرواد الأوائل لحركة الكشوفات الجغرافية التي مكنتها من تكوين ثروة طائلة نتيجة لاستغلال ثروات المناطق المكتشفة في العالم الجديد، مما ساعد على تمويل الجيش وتجهيز الحملات العسكرية لاحتلال الموانئ والمدن الساحلية للمغرب الإسلامي عامة، والمغرب الأوسط خاصة.[3]

وقد عرفت إسبانيا خلال القرن السادس عشر الميلادي نُظما اقتصادية جديدة، ليتحول اقتصادها من نظام إقطاعي إلى نظام رأسمالي، كما أخذ الفكر الاقتصادي يشهد استقلالا عن المفاهيم الدينية التي كانت سائدة في القرون الوسطى، فظهرت البنوك والرأسمال الربوي وانتشر التعامل بالصكوك والعقود المكتوبة ووضعت القوانين الخاصة لتنظيم العلاقة بين المواطن والدولة، وقد ساهمت حركة الكشوفات الجغرافية بقيادة كريستوف كولمبس «Ch Colombus» في تنشيط الحركة التجارية، حيث فُتِحت أسواق جديدة لتصريف فائض الإنتاج وتسويق الذهب والفضة القادمة من أراضي العالم الجديد، وقد نتج عن هذه الحركة التجارية ظهور الطبقة البورجوازية المتحكمة في رؤوس الأموال وسيطرتها على دواليب الاقتصاد.[4]

---

1 - عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار: المرجع السابق، ص77.

*- كان من مسيحي سردينيا وقع أسيرا في سن الشباب مع الكثير من أمثاله في يد خير الدين أثناء إحدى الغارات على إحدى القرى الساحلية بسردينيا، ثم اعتنق الإسلام كان ذا ذكاء خارق عرف عنه الجد والصرامة، عينه خير الدين كاتبه الخاص وفوض إليه العديد من المهام، ثم عينه نائبا له على الجزائر، تصدى لحملة شارلكان سنة 1541م وحقق فيها نجاحا باهرا...، سلفاتور بونو: "العلاقات بين الجزائر وإيطاليا خلال العهد التركي"،**مجلة الأصالة**، ع6، ترجمة، أبو القاسم بن التومي، الجزائر، 1972م، ص 190.

** - حكم لثلاث فترات مختلفة (1544-1552م)، (1557-1561م)، (1565-1567م).

2 - يحي بوعزيز: الموجز...، المرجع السابق، ص06.

3 - مفيد الزيدي: موسوعة تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، ج1، ط1، دار أسامة، الأردن، 2004، ص 471.

4 - محمد دراج: المرجع السابق، ص32.

إضافة إلى ذلك ساهمت حركة الكشوفات الجغرافية في زيادة الإنتاج وتضخمه، الأمر الـذي أدى إلى استغلال ثروات شعوب العالم الجديد استغلالا مفرطا، وتصريف فائض الإنتاج إلى تلك البلدان، كما لـو كانت هذه المستعمرات مجرد سوق للتجار[1]، كما تدفقت المعادن الثمينة إلى إسبانيا وأوروبا خصوصا الذهب والفضة جراء اكتشاف مناجم الذهب في البيرو والمكسيك ومناجم الفضة في بوليفيا مما أدى إلى تـوفر النقـد وارتفاع الأسعار[2]، لذلك ازداد نشاط الإسبان داخل إسبانيا نفسها، وخارجها في أراضـي العـالم الجديـد أرسلوا الحملات العسكرية لتوسيع مناطق نفوذهم، وبدؤوا في تأسيس مدن على نمطهـم، للاسـتقرار بهـا واستغلال مناجم الذهب والفضة على الوجه الأكمل، وفي النصف الثاني من القرن السادس عشـر مـيلادي وصل الإسبان إلى فنزويلا وكولومبيا، وقد تميزت هذه الفترة بالرخاء واتساع ممتلكات الإسبان في الخارج.[3]

وما يمكننا ملاحظته أن الكشوفات الجغرافية أدت إلى تحول الطرق التجارية، وبـذلك فقـد البحـر المتوسط أهميته التجارية، ومعه بلدان المغرب الإسلامي، ولم تعد السفن التجارية كما كانت في السابق تجوبـه حيث أصبح فضاء واسعا للصراع المسيحي الإسلامي، وفي مرات أخرى لصراع مسيحي مسيحي.[4]

ثانيا: العلاقات بين المغرب الأوسط وإسبانيا ما بين (1505–1519م)

المبحث الأول: العلاقات بين الطرفين ما بين (1505–1512م)

تميزت هذه المرحلة باحتلال الإسبان للكثير من السواحل ببلاد المغرب الأوسط نتيجة لعـدة عوامـل نذكر منها:

- غياب سلطة سياسية مركزية موحدة ببلاد المغرب الأوسط تدافع عن حدوده من الخطـر الخـارجي وتضبط أوضاعه الداخلية، وبذلك ضعف شأن الملوك الزيانيين، وأخذت بعض المدن تسـتقل عـن السلطة مثل تنس والجزائر، كما أن الكثير من القبائل تمردت وخلعت طاعة السلاطين.[5]
- نقل الإسبان لمعاركهم ضد الأندلسيين من إسبانيا إلى بلاد المغرب الأوسط مخافة تشكيل تحالف ثنائي بين الأندلسيين والسكان المحليين ضدهم.
- غياب جيش منظم يدافع عن البلاد.

---

1 – عبد العزيز سليمان نوار، محمود محمد جمال الدين: التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالميـة الأولى، دار الفكـر العربي للطباعة والنشر، مدينة نصر، مصر، 1999م، ص 57.

2 – محمد دراج: المرجع السابق، ص32.

3 – عبد العزيز سليمان نوار، محمود محمد جمال الدين: المرجع السابق، ص68.

4 – كليل صالح: المرجع السابق، ص20.

5 – الآغا بن عودة المزاري: المصدر السابق، ص208.

- الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية الصعبة التي كان يعيشها المغرب الأوسط.

1-إحتلال المرسى الكبير (1505م)

نتيجة لتظافر العوامل سالفة الذكر كان المغرب الأوسط عرضة للهجمات الإسبانية التي كان أولها احتلال المرسى الكبير سنة 1505م[1]، ففي أواخر شهر أوت من هذه السنة قاد الماركيز قوماريس "Marquis Gomares" حملة بحرية كبيرة مشكلة من 5 آلاف رجل، واتجه إلى المرسى الكبير وحاصرها لمدة 50 يوما ثم احتلها وأرغم أهلها على الجلاء[2]، وكعادة النصارى عند احتلالهم لأراضي الإسلام كان أول عمل قام به الماركيز قوماريس تحويل مسجد المدينة إلى كنيسة، وسموها كنيسة القديس ميكائيل وقام بتحصين المدينة، كما أقيم فيها سوق تجاري لسد حاجيات الحامية الإسبانية اليومية وتأمين متطلباتها، ولما وصل الخبر إلى إسبانيا أقيمت الأفراح، وأعلن عن عيد يدوم أسبوعا ابتهاجا بهذا النصر الذي شكل أول نقطة ارتكاز للإسبان على سواحل المغرب الأوسط، فمباشرة بعدما ثبتوا أقدامهم بالمرسى الكبير بدأت أعينهم تتجه نحو مدن أخرى.[3]

ومما زاد أطماع الإسبان في أراضي المغرب الأوسط الفوضى والتفكك اللذان كانت تعيشهما المنطقة ومما زاد الطين بلة دخول بعض القبائل* في خدمة الإسبان والتعاون معهم[4] ضد بني وطنهم طمعا في منفعة مادية زائلة أو خوفا من قوة الإسبان التي لا طاقة لهم بها، وهذا ما زاد من عزيمة الإسبان في احتلال مناطق أخرى، وبعد السيطرة على مدينة تنس سنة 1507م بدون مقاومة تذكر نتيجة للخلافات الحادة التي كانت تفكك البيت الزياني على خلفية الصراع القائم بين أبي زيان الثالث الملقب بالمسعود الذي ثار عليه عمه أبو حمو الثالث واستولى على الحكم، وقام بسجن السلطان الشرعي المسعود، بينما فر الشابتي إلى فاس طلبا للمساعدة ضد عمه أبي حمو مغتصب العرش[5]، ليقوم بعدها أهالي المدينة باستدعائه وتعيينه ملكا عليهم، وهذا

---

1 - يحي بوعزيز: مدينة وهران عبر التاريخ، دار البصائر للنشر والتوزيع، ط1، حسين داي، الجزائر، 2009م، ص40.

2 - موسى لقبال وآخرون: الجزائر في التاريخ 3 العهد الإسلامي من الفتح إلى العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص 455.

3- *De Tassy (Laugier), Histoire de Royaume D'Alger, Editions, Loysel, Paris, 1990, p09.*

* - أهم هذه القبائل نذكر: شافع، حميان، غمرة، أولاد عبد الله، أولاد علي، الونازرة، للمزيد ينظر: المشرفي عبد القادر الجزائري: بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر، تحقيق، محمد بن عبد الكريم، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، د.س.ط ، ص ص 14-21.

4 - أحمد بن عبد الرحمن الشقراني الراشدي: القول الأوسط في أخبار بعض من حل بالمغرب الأوسط، تحقيق وتقديم، ناصر الدين سعيدوني، ط2، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012م، ص63.

5 - الحسن بن محمد الوزان الفاسي: وصف إفريقيا، ترجمة، محمد حجي، محمد الأخضر، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983، ص ص 406، 407.

ما جعل الإسبان يستغلون هذه الخلافات القائمة وقاموا بإغراء الثابتي[1] الذي خضع لهم حرصا على ملكه وأموره الشخصية، وبذلك دانت تنس بدون مقاومة تذكر على عكس المرسى الكبير الذي أبلى أهله البلاء الحسن في مقاومة الإسبان.[2]

2- إحتلال وهران (1509م)

بعدما دانت تنس للإسبان قرر الملك الإسباني فرديناند احتلال مدينة وهران لموقعها الاستراتيجي وقربها من المرسى الكبير، وتهديدها للحامية الإسبانية المتمركزة به، وقام بتعيين الكاردينال خمنيس «Ximines» بمساعدة بيدرو نافارو قائدا عاما على الحملة المتوجهة إلى وهران التي أقلعت من ميناء قرطاجنة الإسباني يوم 07 ماي 1509م وكان تعدادها 15 ألف جندي، أقلتهم 33 باخرة حربية و 51 زورقا صغيرا[3] إلى سواحل مدينة وهران، ونزل الجيش الإسباني أولا بميناء المرسى الكبير ثم اتجه إلى وهران شرقا بحوالي 7 كلم.[4]

ودارت معارك ضارية خارج المدينة بين بقايا الجيش الزياني والسكان من جهة، والقوات الإسبانية المحتلة من جهة ثانية، وفي أثناء اشتداد المعارك بين الطرفين وقعت خيانة من طرف أحد اليهود اسمه زاوي بن كبيسة المعروف "بابن زهوة"، الذي أدخل حامية إسبانية إلى المدينة على حين غفلة من جيشها وسكانها، هذه الأخيرة (الحامية الإسبانية) أحدثت هرجا ومرجا بين المقاتلين والسكان، فاستغل الإسبان هذه الفرصة وقاموا بمذبحة عظيمة، فقتلوا وحرقوا وأسروا، ومع ذلك دافع السكان عن نسائهم وأموالهم وأرضهم لمدة قاربت الخمسة أيام لكن بدون جدوى، وفقد السكان حوالي 4 آلاف وأُسر أكثر من 8 آلاف، وقدرت خسائر السكان المحليين بحوالي 24 مليون دينار ذهب.

وبعد هذا الانتصار الذي حققه الإسبان، غادر خمنيس مدينة وهران وهو مطمئن، بعد أن ترك فيها حامية عسكرية لحمايتها مخافة من هجمات السكان أو بقايا جيش دولة بني زيان، المتمركزين بمدينة تلمسان وأحوازها والتي أصبحت تابعة لهم فيما بعد[5]، وقد ترتب عن هذا الاحتلال عدة نتائج نذكر منها:

- قيام الإسبان بمهاجمة المناطق المجاورة من أجل إخضاعها والسيطرة عليها وإخضاع القبائل الثائرة ضدهم مثل كريشتل، بنو زيان، الونازرة، قمرة، حميان، شافع، أولاد عبد الله وأولاد علي وغيرهم

1 - محمد دراج: المرجع السابق، ص106.
2 - أحمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة...، المرجع السابق، ص89.
3 - نفسه، ص100.
4 - يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص41.
5 - محمد دراج: المرجع السابق، ص ص 109، 110.

من بني عامر[1]، وفي ذلك يقول الراشدي: «وقد استعملت هذه القبائل كجواسيس وعملاء ضد بني جلدهم من طرف الإسبان الذين قويت بهم شوكتهم واستعملوهم في الغارات على الأبعدين والأقربين فيأخذون أموالهم وينتهكون حرماتهم...».[2]

- إعلان الملك الزياني أبي حمو الثالث تبعيته للإسبان سنة 1512م وتعهده لهم بدفع جزية سنوية قدرت بـ 12 ألف دوقة ذهبية و12 فرسا من جياد الخيل و6 من طيور الباز الجارحة.[3]
- تمكن الإسبان من بسط نفوذهم على كامل الجهة الغربية تقريبا بعد أن بثوا جواسيسهم بين السكان من أجل إخافتهم وترصد تحركاتهم، وزرع الفتن بينهم حتى يعتقدوا أن جيش الإسبان لا يقهر ومددهم لا ينقطع[4]، ومن أهم هذه المناطق التي دخلت تحت طاعة الإسبان دلس، مستغانم وشرشال.[5] وشرشال.[5]
- أدرك الإسبان الأهمية الاقتصادية والاستراتيجية لمدينة وهران فأقاموا فيها التحصينات مخافة من هجمات السكان المحليين، وهذا ما مكنهم من الصمود في وجه هذه الهجمات لمدة قاربت ثلاثة قرون، حتى تم تحريرها النهائي سنة 1792م على يد محمد عثمان باشا.[6]
- تحويل المساجد إلى كنائس ومحاولة تنصير السكان.[7]
- قيام بعض المقاومات بزعامة المرابطين وزعماء وشيوخ القبائل ضد الاحتلال الإسباني مثل قبائل الزلامطة والكرط وبني شقران في رمال عين الفرس قبل دخولهم في ذمة النصارى.[8]
- إرغام سكان وزعماء المناطق المحتلة على دفع ضرائب سنوية لتموين الإسبان المتمركزين بوهران والمرسى الكبير بالمؤن والأغذية الضرورية، ومنع رُسُو السفن الأجنبية إلا بإذنهم.[1]

---

1 – الآغا بن عودة المزاري: المصدر السابق، ص209.

2 – أحمد بن عبد الرحمن الشقراني الراشدي: المصدر السابق، ص63.

3 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص102.

4 – أحمد بن عبد الرحمن الشقراني الراشدي: المصدر السابق، ص63.

5 – شارل أندري جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية (تونس، الجزائر، المغرب الأقصى) من الفتح الإسلامي إلى سنة 1830م، تعريب محمد مزالي، البشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1983م، ج2، ص 324.

6 – محمد دراج: المرجع السابق، ص111.

7 – ناصر الدين سعيدوني: "البحرية الجزائرية في العهد العثماني"، **مجلة التاريخ**، ع22، المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر، 1986م، ص27.

8 – أحمد بن عبد الرحمن الشقراني الراشدي: المصدر السابق، ص63.

3- إحتلال بجاية (1510م)

بعد أن أتم الإسبان سيطرتهم على الجهة الغربية من المغرب الأوسط -إما احتلالا مباشرا أو غير مباشر وذلك بإعلان التبعية ودفع الضرائب- زاد طموحهم وقرروا خوض المزيد من المغامرات لاحتلال بعض السواحل الأخرى، من أجل السيطرة على الجهة الغربية للمتوسط، وتأمين الطرق التجارية، وكانت الوجهة هذه المرة بجاية التابعة للأسرة الحفصية بتونس آنذاك، التي كانت تمر بمرحلة ضعف شديد، فقد تأثرت بالتوتر السياسي الذي عرفته المنطقة برمتها[2]، نتيجة للصراع القائم بين الأمير عبد الرحمن الحفصي وابن أخيه عبد الله، فاستغل الإسبان هذه الوضعية وقرروا احتلال بجاية للسيطرة فيما بعد على القل، عنابة، تونس وحتى طرابلس الغرب وبذلك تدين لهم كامل بلاد المغرب الإسلامي.[3]

وبأمر من الكاردينال خمينيس وبدعم من الملك فرديناند الكاثوليكي، توجه بيدرو نافارو إلى بجاية سنة 1510م[4] يقود أسطولا بحريا مكونا من 14 سفينة كبيرة محملة بالجنود، ورسى الأسطول بميناء بجاية يوم 05 جانفي 1510م[5]، وعلى الرغم من أن الحملة كانت مفاجئة للسكان، إلا أنهم استرجعوا قواهم وقرروا مواجهة الإسبان مهما كانت الظروف، خاصة وأن خبر احتلال وهران ما زال ماثلا أمامهم.

وبدأت مقاومة الاحتلال الإسباني وانقسم المقاومون إلى قسمين: قسم تسلق الجبال ويقدر عددهم بحوالي 10 آلاف مقاتل، وتمركز بمرتفعات جبال يماقورايا من أجل منع الإسبان من النزول إلى البر، أما القسم الثاني فبقي يناور القوات الإسبانية على الشاطئ حتى يتم عرقلة سيرها، إلا أن نيران المدفعية الإسبانية المتطورة حينذاك مقارنة مع المدفعية البجاوية، فتحت الطريق للجنود الإسبان للتقدم نحو الساحل والجبل، ومع ذلك حاول المقاومون رفقة السكان التصدي ببسالة للقوات الإسبانية على الرغم من استحالة الانتصار عليها، نظرا لغياب قيادة حكيمة[6] تُوجه المقاومين وتقودهم، لذلك استسلمت المدينة للعدو واختار أميرها عبد الرحمن الحفصي وأعيانها دعوة السكان لإخلاء المدينة والتراجع نحو الجبال والغابات المجاورة.[7]

---

1 - يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص42.

2 - بلبراوات بن عتو: "بجاية من الاحتلال الإسباني إلى التحرير العثماني (1510-1555م)" ، **عصور الجديدة**، ع7-8، جامعة وهران، الجزائر، 1433-1434هـ/2012-2013م، ص 107.

3 - محمد دراج: المرجع السابق، ص 111.

4 - مارمول كربخال: المصدر السابق، ص377.

5 - بلبراوات بن عتو: المرجع السابق، ص179.

6 - أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص110.

7 - بلبراوات بن عتو: المرجع السابق، ص180.

وبمجرد ما إن دخلت القوات الإسبانية المدينة ارتكبت فضائع كبيرة، وجرائم ضد السكان العزل بحيث راح ضحية هذه الأعمال الوحشية حوالي 4100 قتيل ناهيك عن التخريب والتدمير الذي طال معالم المدينة من مساجد ومبان ونهب النفائس والخيرات[1]، ثم اتجهوا لمطاردة الأمير عبد الرحمن الحفصي وأتباعه خارج المدينة بجيش قوامه 1500 جندي إسباني[2]، وبمؤازرة من الملك المخلوع عبد الله الذي أعلن تبعيته للعدو وبذلك وجد الإسبان ضالتهم في هذا الملك، الذي زاد في تفكيك اللحمة بين البجاويين، ودارت معارك بين الطرفين كان من نتائجها انهزام المقاومين بقيادة الأمير عبد الرحمن، الذي قُتلت زوجته وابنته و 300 من رجاله وضاع الكثير من المتاع والعباد، لذلك اضطر إلى توقيع معاهدة مع الإسبان رفقة الملك عبد الله، وأهم بنود هذه المعاهدة ما يلي:

- الاعتراف بتقسيم مناطق النفوذ بين الأمير عبد الرحمن وعبد الله ملك بجاية، وممارسة الحكم تحت سلطة الإسبان.[3]
- توفير كل ما تتطلبه القوات الإسبانية من الحبوب والأبقار والحطب.[4]

وقد ترتبت عن احتلال بجاية عدة نتائج أبرزها:

1. تدمير وتخريب كبير طال المدينة ومعالمها، مثل تدمير قصر الجوهرة الذي كان ارتفاعه 70 ذراعا والمسجد الأعظم، وتحطيم قصر الكوكب.
2. السيطرة على نفائس وأموال المدينة حيث تم نقل ما مجموعه 30 مركبا إلى إسبانيا.[5]
3. فشل المقاومة الرسمية وبداية المقاومة الشعبية التي أبلت بلاء حسنا في الدفاع عن دينها وأرضها في مقابل خيانة الأميرين عبد الله وعبد الرحمن وخضوعهما للإسبان.
4. إعلان الكثير من المدن خضوعها للإسبان مخافة أن يلحقهم الأذى والدمار مثل تنس، دلس شرشال، مستغانم، مدينة الجزائر وعنابة.[6]

---

1 – شارل أندري جوليان: المرجع السابق، ص102.

2 – مارمول كربخال: المصدر السابق، ص378.

3 – كليل صالح: المرجع السابق، ص51.

4 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص111.

5 – محمد خير فارس: المرجع السابق، ص30.

6 – ميكال دي إبيلزا: "حول ثلاثة أحداث غير معروفة من العلاقات الخارجية بين عنابة وإسبانيا"، **مجلة الأصالة**، ع 35/34، الجزائر، 1977م، ص ص 112، 114.

5. خضوع الأمير التونسي أبو عبد الله الحفصي (1494-1526م) للإسبان وإعلان تبعيته لهم، مع تعهده بدفع جزية سنوية لهم، مع فرسين وأربعة من طيور الباز.[1]

وهكذا توالت الهزائم على السكان المغاربة، بل أكثر من ذلك ما إن تسقط مدينة وتعلن تبعيتها للإسبان، إلا وسار أمراء المدن الأخرى إلى إعلان تبعيتهم دون مقاومة تذكر كما فعل أمير تونس، ومن قبله الأمير الزياني بتلمسان، ومباشرة بعد السيطرة على بجاية وخضوع أمير تونس لهم اتجهت أنظار الإسبان إلى طرابلس الغرب التي احتلوها في سنة 916هـ/1510م، بعد مقاومة ضارية من طرف السكان، وأقاموا بها حامية تتألف من 500 جندي.[2]

4-خضوع مدينة الجزائر (1510م)

كعادة حكام الإمارات التابعة للمغرب الأوسط في تلك الفترة سارع حاكم مدينة الجزائر سالم التومي الذي كان تابعا نظريا فقط لبجاية إلى إعلان تبعيته للإسبان بعد استشارة الأعيان، الذين استقر رأيهم على إرسال وفد عنهم لمفاوضة الإسبان للتوصل إلى اتفاق يُؤَمّن لهم مدينتهم، ويحفظ لهم مصالحهم وحياتهم[3]، وقد ترأس هذا الوفد سالم التومي، شيخ قبيلة الثعالبة العربية التي كانت تحكم مدينة الجزائر، وبعد وصوله إلى بجاية التقى بالحاكم الإسباني بيدرو نافارو وجرت بينهما عدة لقاءات أسفرت عن إمضاء اتفاق كانت أهم بنوده:

1. التعهد بدفع ضرائب سنوية للإسبان.
2. تمليك الإسبان برج الفنار* –صخرة البنيون– الموجودة بوسط البحر كي يقيموا عليه قلعة لتأمين سفنهم التجارية.[4]
3. تعهد سالم التومي بإطلاق جميع الأسرى الإسبان وبدون شروط.
4. إقامة قلعة تحرس مدينة الجزائر وتراقب الحركة التجارية بها، وكذلك حماية السفن التجارية الإسبانية وضمان حرية مواصلاتها البحرية[1]، وقام وفد من أهالي المدينة بزيارة إسبانيا ووقعوا اتفاق كان ينص على سريانه لمدة 10 سنوات.[2]

---

1 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص114.

2 – أبو عبد الله محمد بن خليل غلبون الطرابلسي: تاريخ طرابلس الغرب "المسمى التذكار في من ملك طرابلس الغرب وما كان بها من أخبار "نشره وصححه وعلّق عليه، الطاهر أحمد الزاوي، المطبعة السلفية، القاهرة، مصر، 1333هـ/1920م، ص92.

3- *De Tassy (L), op.cit, p09.*

* – الفنار كلمة محلية تعني المنارة، وهي التي بناها الإسبان سنة 1510م، أي منارة البنيون في وسط الجزيرة الكبيرة، وشكلها مستدير يصل قطرها إلى 60 مترا، وارتفاعها إلى 40 مترا على مستوى سطح البحر، وتتألف من طابقين مزودين بـ 17 فتحة نارية بمدافع ذات عيار كبير وأعلى هذه المنارة برج مثمن الأضلاع بناه عرب أحمد باشا، وتتجلى أهمية هذا البرج لكونه يقع في الخط الأمامي للميناء...، بلبراوات بن عتو: "المنشآت الدفاعية للجزائر وميناءها خلال العهد العثماني"، **مجلة الحضارة الإسلامية**، ع14، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، وهران، الجزائر، 1431هـ/2010م، ص157.

4 – الآغا بن عودة المزاري: المصدر السابق، ص218.

يتواصل سقوط مدن المغرب الأوسط تباعا، ليأتي الدور هذه المرة على مدينة مستغانم التي اتصل أهلها سنة 1511م بالإسبان عارضين عليهم تبعيتهم مقابل التزامات مالية والسماح لهم ببناء قلاع وتحصينات، وقيام السكان بدفع ضريبة سنوية وتموين الإسبان بوهران والمرسى الكبير بما يحتاجون من المؤن والأغذية، ومنع رسو السفن الأجنبية بمستغانم إلا بإذن الإسبان.[3]

وهكذا دانت وخضعت كامل سواحل بلاد المغرب الأوسط للإسبان في مدة لم تتجاوز السبع سنين واستقروا بها إما احتلالا عسكريا مباشرا أو تبعية بإعلان الولاء للملك، ودفع ضرائب سنوية مقابل عدم تعرض المدن للاحتلال المباشر[*]، لكن العجيب في كل هذا السقوط المريع الكامل لبلاد المغرب الأوسط، والتي عجزت على الدفاع عن دينها وأرضها، نتيجة لغياب سلطة حقيقية في كامل بلاد المغرب، ليتولى بعد ذلك شعوب المنطقة الدفاع عن دينهم ووطنهم بدل حكام الدويلات، الذين كانوا يتصارعون من أجل الحكم والاستئثار به، لذلك ما إن حل الاستعمار الإسباني حتى ارتموا بين أحضانه، ووقعوا معه المعاهدات التي يتم بموجبها خدمته.

لم يكن من مُخلِّص لهذه الأوضاع المزرية التي آلت إليها بلاد المغرب إلا انتظار من يحمل على عاتقه مسؤولية إعادة اللحمة إلى المنطقة أولا، ثم إعادة التوازن بين الطرفين المسيحي والإسلامي ثانيا، وكان الفرج في ظهور الإخوة بربروس على السواحل الغربية للمتوسط ليكونوا كسفينة نوح التي أنقذت بلاد المغرب من هذه الأوضاع.

1 - محمد دراج: المرجع السابق، ص115.

2 - محمد بن حسن الوزان: المصدر السابق، ص38.

3 - يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص42.

*- اتسم الاحتلال الإسباني بميزتين أساسيتين هما: 1- أنه توقف عند السواحل ولم يتمكن من احتلال المدن الداخلية لشدة المقاومة فيها وفرضه إشرافا شكليا على بعض المدن. 2- اتخذ الإسبان من القلاع والأبراج التي احتلوها مراكز لتقوية نفوذهم في البحر والتصدي لهجمات الإخوة بربروس في بداية ظهورهم، للمزيد ينظر: عبد الكريم غلاب: قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي، ج2، ط1، عصر الإمبراطورية العهد العثماني بالجزائر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2005م، ص 336.

المبحث الثاني: العلاقات بين الطرفين (1512–1519م)

1– دور الإخوة بربروس في إعادة التوازن بين الطرفين

أ–المحاولة الأولى لتحرير بجاية (1512م)

مع مطلع القرن السادس عشر ميلادي ظهر أربعة إخوة إسحاق، عروج، خير الدين وإلياس، واشتهر من بينهم عروج وخير الدين، إذ سيكون لهما الدور الرئيسي في تأسيس الإيالة الجزائرية وتثبيت الوجود العثماني بها، تميزوا بالشجاعة والإقدام ومعرفة البحر، نظرا لاشتغالهم بالتجارة البحرية، واتفق المؤرخون على أن أصلهم من إحدى قرى اليونان بجزيرة مدللي –ليسبوس– أما أبوهم يعقوب بن يوسف فقد عمل بالجيش العثماني كأحد فرسان السبايهية.[1]

اختار الإخوة جزيرة جربة التونسية كمستقر لهم ببلاد المغرب الإسلامي، نظرا لقربها من الأراضي المسيحية كصقلية ومالطة والجنوب الإيطالي، وبُعدها عن الواقع المؤلم الذي كانت تعيشه دويلات المغرب والمتمثل في خضوعها للاحتلال الإسباني، لذلك كانت مدينة جربة الملاذ الآمن والحصن المنيع لهم لفترة من الزمن وقد استطاعوا حتى سنة 1512م، تكوين أسطول بحري مكون من 12 سفينة قديمة، بلغ عدد العاملين حوالي 1000 بحار، وقد اتسمت علاقتهم بالسلطان الحفصي أبي عبد الله محمد الحفصي في البداية بالتعاون في مواجهة الأعداء واقتسام الغنائم.

كان فاتحة هذا التعاون محاولتهم تحرير مدينة بجاية لأنها تعد من ممتلكات السلطان الحفصي والتي أخفق في استعادتها بمفرده، وكذلك لأنها تُعد أكبر ميناء في المغرب الأوسط[2]، وقد اختلفت الروايات في سبب محاولة الإخوة بربروس تحريرها.

أ–1–الرواية الأولى

فبعد قضاء الشتاء بتونس وأخذ قسط من الراحة، وبمجرد ما لاح الربيع في الأفق قرر الإخوة الخروج للغزو، وكانت وجهتهم ميناء نابولي (Napoli) فصادفوا مركبا متوجها إلى إسبانيا كان على متنه 340 مقاتلا بالإضافة إلى ركاب آخرين، ودارت معركة بين الطرفين أسفرت عن استيلاء الإخوة على 8 سفن، وأسر

---

1 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 88.

2 – بوشنافي محمد: "مساهمة عروج بن يعقوب في مواجهة الخطر الإسباني على المغرب الأوسط 1512-1518م"، **مجلة عصور**، ع5/4، جامعة وهران، الجزائر، 2004م، ص275؛ محمد دراج: المرجع السابق، ص151.

Grammont (H, de), Histoire D'Alger sous la Domination turque, 1515-1830, Paris 1887, p18.

مجهول: المصدر السابق، ص59؛ جاسم محمد حسن العدول:"عروج ودوره في أحداث المغرب العربي وحوض المتوسط الغربي"، **مجلة التربية والتعليم**، ع2، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل 1980م، ص205.

183مقاتل من بينهم أحد حكام الولايات الإسبانية، وقتل الباقي وقدر عددهم بـ 225 شخص، أما من جانب المسلمين فقد استشهد حوالي 150 وجرح 86 من بحارا.[1]

ونتيجة هذه الأحداث قرر الإسبان وضع حد لنشاط هؤلاء الإخوة الذين زاد خطرهم، ولذلك أعد الإسبان 10 قطع بحرية لمهاجمة الإخوة بربروس الذين كانوا متوجهين إلى مدينة جنوة[2]، إلا أن سير الرياح المعاكس غير مجرى الاتجاه إلى بجاية، حيث حدث اشتباك بين الطرفين وكانت النتيجة أن غنم الإخوة بربروس ثلاث سفن إسبانية وسفينة القيادة، بينما احتمت البقية بقلعة المدينة.[3]

لكن الملاحظ أن خير الدين وعروج اختلفا بعد المعركة في كيفية التعامل مع الموقف، فبينما كان عروج يريد الهجوم على القلعة ليستولي على السفن وفتح بجاية، كان خير الدين يرى بأن يأخذوا السفن الأربعة ويتركوا الإسبان إلى حالهم، ومع اقتناع خير الدين بفكرته* إلا أنه خاض رفقة أخيه معركة ضد الإسبان وهاجموا قلعة بجاية في شهر أوت 1512م، ولكن قوات الطرفين لم تكن متكافئة، لذلك خسر الإخوة هذه المعركة وفقدوا 60 شهيدا من رفاقهم، وأصيب عروج إصابة بليغة تم على إثرها قطع ذراعه[4]، أما من جانب الإسبان فقد خسروا 300 جندي و 150 أسير، وبعد الفشل في استرجاع بجاية عاد الإخوة إلى تونس[5] ويمكن إرجاع سبب هذا الفشل إلى ضعف مدفعية الإخوة التي عجزت عن إحداث أضرار في الحصن الإسباني.

أ-2-الرواية الثانية

أما الرواية الثانية فقد انفرد بها عزيز سامح ألتر، ومفادها أن التفاف الإخوة بربروس إلى بجاية هو طلب عبد الرحمن الحفصي من عروج أن يساعده في استرجاع حقه من الإسبان وتحرير بجاية، فوافق عروج بسرعة على طلبه، وتوجه على رأس 4 سفن إلى بجاية ووجد عبد الرحمن الحفصي في انتظاره ومعه 3 آلاف مقاتل وأثناء تحرك عروج إلى بجاية شوهد من قبل السفن الإسبانية فبدأت في مطاردته وملاحقته، لكنه تصدى لها ببسالة وشجاعة وتمكن من إغراق واحدة بالمدافع وحجز اثنين وفرت البقية.[6]

1 – خير الدين بربروس: مذكرات خير الدين بربروس، ترجمة محمد دراج، ط1، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010م، ص49.

2 – مجهول: المصدر السابق، ص 65.

3 – خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص51.

* – نتائج المعركة أثبتت أن خير الدين كان له بعد نظر أحسن من عروج، وكان محقا في رأيه، إلا أنه ساير أخاه وخاض المعركة.

4- *Haédo (Fray Diego de), Histoire des Rois d'Alger, Traduit par H.D.DE Grammont, Adolphe Jourdan, Libraire éditeur, Alger, 1881, p11.*

5 – يحي بوعزيز: الموجز...، المرجع السابق، ص 12.

6 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص45.

وبعد استيلاء عروج على السفن الإسبانية وضعها جنبا ونزل مع 50 مقاتلا محملين بمجموعة من المدافع وبدأ في قصف الاستحكامات الإسبانية، وهاجم القلعة، وبعد ثمانية أيام من القصف أحدث ثقبا في جدارها، وكان عروج يكبر عند مهاجمته للقلعة، وبعد اقتحام أحد الحصنين هاجم الآخر، فأصابته ضربة مدفع في ذراعه الأيسر جرحته جرحا بليغا فأسرع رفاقه ونقلوه إلى السفينة وأوقفوا المعركة[1]، واضطروا للانسحاب بعد أن هلك 100 من الأتراك، وأزيد من 1000 أهل البلد، ومن جانب الإسبان قتل 300 وأسر 150.[2]

وبعد انسحاب الإخوة بربروس غنموا 10 سفن إسبانية، وفي طريق عودتهم سيطروا على قطعة بحرية كبيرة كانت تمر من هناك[3]، وعند وصولهم إلى تونس اجتمع الجراحون لمعالجة عروج، لكن إصابته تفاقمت فقرروا بتر ذراعه.[4]

على الرغم من فشل الإخوة بربروس في تحرير بجاية، إلا أنهم استطاعوا تحقيق عدة أهداف نذكر منها:

- اختبار قوتهم في مواجهة جيش نظامي مجهز بعتاد متطور في ذلك الوقت.
- إزاحة حاجز الخوف الذي كان سائدا في بلاد المغرب الأوسط، بسبب التخوف من القوة الإسبانية التي نتج عنها مسارعة الأمراء إلى إعلان الطاعة والتبعية لهم.
- اكتساب الإخوة بربروس الاحترام والتقدير من سكان المنطقة الذين أعجبوا بشجاعتهم وإقدامهم.

ب-جيجل قاعدة ارتكاز لنشاطات الإخوة بربروس(1512م)

تأكد الإخوة بربروس أن مدينة بجاية محصنة جيدا، ولا يمكن اختراقها بهذه الإمكانيات البسيطة بالمقارنة مع الإمكانيات الإسبانية، وأيضا لأنها تمثل مركزا مهما من مراكز الاحتلال الإسباني بشرق المغرب الأوسط، كما أنهم كانوا متأكدين أن بقاءهم في حلق الوادي بتونس يمثل مجازفة وإنهاكا لقواهم، لأن تونس بعيدة عن بجاية مركز التواجد الإسباني[5]، لذلك كان لزاما عليهم أن يفكروا في قاعدة قريبة تضمن لهم الاقتراب من الإسبان، ويمكنهم اللجوء إليها عند الحاجة ومناورة الإسبان، ولم يكن لهم من حل سوى اختيار جيجل التي كانت الأقرب إلى بجاية، وبذلك تكون نقطة ارتكاز ومنطلق لتحرير بجاية.[6]

ومما يجدر ذكره أن جيجل احتلها الجنويون سنة 1260م، وتركوا بها حامية عسكرية، واتخذوها كمركز تجاري بين إيطاليا وإفريقيا، ونتيجة لظهور مراكز تجارية أخرى، بدأ هذا المركز يفقد أهميته شيئا فشيئا

1- خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص52.
2- مارمول كربخال: المصدر السابق، ج2، ص 379.
3 - عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص46.
4 - خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص54.
5 - أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص151.
6 - محمد دراج: المرجع السابق، ص191.

إلى أن تم تغلب سكان المنطقة على الحامية الموجودة به وتحرير المدينة[1]، ولكن الأميرال أندريا دوريا الذي كان في خدمة فرنسا أعاد احتلال جيجل وأخرج أهلها منها بعد معركة دامية، وترك بها حامية تعمل صالح جنـــوة حتى تُعيد للمركز التجاري قيمته، وقد كان ذلك بعد فشل المحاولة الأولى لتحرير بجاية، التي قام بهـــا الإخـــوة بربروس في سنة 1512م.[2]

ومما شجع عروج على تحرير جيجل استنجاد أهلها به، وطلبهم تحرير مدينتـــهم[3] فأجـــابهم وهـــاجم القلعة سنة 1514م، وتمكن من القضاء على الحامية الجنوية، وترك بها 50 جنديا وثلاث سفن لحمايتـــها[4]، و لم يترك نائبا عنه سوى مندوب واحد، واتفق مع أهلها برضاهم على دفع الزكاة عشر الحبوب والثمار فقط ممـــا هو حلال ومعمول به.[5]

وبتحريره لمدينة جيجل على الرغم أنها لم تكن ذات أهمية سياسية كبيرة في ذلك الوقت، إلا أن عروج قام بعمل استراتيجي كبير وهام تمثل في نقل قاعدته من حلق الوادي إلى جيجل، ويقال أن سبب هذا النقـــل خلافه مع السلطان التونسي أبي عبد الله محمد الحفصي[6]، وبهذا العمل اقترب عروج أكثر من خط المواجهـــة ضد الإسبان.

ج- المحاولة الثانية لتحرير بجاية (1514م)

لما أكمل عروج فتح جيجل واتخذها كقاعدة عسكرية ينطلق منها لممارسة الجهاد البحري والغزو ضد الإسبان في حوض المتوسط، تأكد بأنه لا يمكنه الاستقرار والتوسع فيما بعد، ما دامت بجايـــة تحـــت حكـــم الإسبان خاصة وأنه أدرك أنّ بإمكانه مواجهة القوات الإسبانية، فإذا استطاع طرد الإسبان من بجايـــة فـــذلك يعني طردهم من كامل شرق المغرب الأوسط وحتى تأمين السواحل التونسية من غارات الإسبان، وقطع الطرق التجارية والمواصلات بين إيطاليا وإسبانيا، وباختصار كان تحرير بجاية في نظر الأخوين يمثـــل مرحلـــة هامـــة ومصيرية في صراعهما ضد الإسبان، في معركة فرض السيطرة على الحوض الغربي للمتوسط، ولـــذلك كانـــا ينتظران الفرصة المناسبة التي تمكنهما من تحريرها[7]، والانتقام لهزيمتهم الأولى التي فقد على إثرها عروج ذراعـــه

1 - محمد دراج: المرجع السابق، ص191.
2 - أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 151.
3 - محمد بن حسن الوزان، المصدر السابق، ص 52.
4 - محمد دراج: المرجع السابق، ص192.
5 - محمد بن حسن الوزان: المصدر السابق، ص52.
6 - محمد بوشنافي: المرجع السابق، ص 276.
7 - محمد دراج: المرجع السابق، ص199.

وفي أثناء توجه الأخوان إلى سبتة، ومن بعدها التوجه إلى شواطئ إسبانيا في محاولة لإنقاذ الأندلسيين من ويلات الاضطهاد الإسباني، وعند وصولهما إلى بجاية أرسيّا في أحد المراسي القريبة من بجاية، ولما سمع بقدومهما أهلها (بجاية) من العلماء والصلحاء والأشياخ بعثوا إليهما بكتاب يشكروهما فيه على أعمالهما في نصرة المسلمين ضد النصارى ويطلبون منهما مساعدتهما على تحرير بجاية من الإسبان.[1]

وأهم ما ورد على لسانهم ما يلي: «إذا كان ثَمَّ مغيث فليكن منكم أيها المجاهدون الأبطال، لقد صرنا لا نستطيع الصلاة أو تعليم أطفالنا القرآن لما نلقاه من ظلم الإسبان، فها نحن نضع أمرنا بين أيديكم، جعلكم الله سببا لخلاصنا... وعجلوا بتخليصنا من هؤلاء الكفار»[2]. وبناءً على هذا الطلب ورغبة من الأخوان في مواجهة الإسبان، انتهزا هذه الفرصة التي لطالما حلما بها، وقاما بتجهيز 12 سفينة محملة بـ 2000 و 33 بحارا و150 مدفعا، يساندهم حوالي 20 ألف من رجال القبائل الذين توافدوا من جميع نواحي المدينة، وبدؤوا بحصار القلعة.[3]

أعطى عروج إشارة بدء الهجوم على القلعة الخارجية التي تشكل جدار الصد الأول عن المدينة، ودام القتال مدة ثلاثة أيام متوالية، تمكنوا بعدها من الاستيلاء على القلعة الخارجية، والقضاء على جميع رجال الحامية الإسبانية وأسر حوالي 500 جندي إسباني، بالإضافة إلى الكثير من الذخائر[4]، وبعد السيطرة على القلعة القلعة الخارجية بدأ عروج في فرض حصار شديد على القلعة الداخلية دام حوالي 29 يوما، ونتيجة لقلة الذخيرة وطول مدة الحصار نفذ منهما البارود، فقررا الاستنجاد بالسلطان الحفصي لتزويدهما به إلا أنه رفض طلبهما[5] وفي مقابل ذلك وصل المدد إلى الحاميات الإسبانية بحيث قدر العدد بـ 14 ألف جندي[6]، وأمام هذه هذه الإمدادات الهائلة والقوة الإسبانية لم يستطع الأخوان فتح بجاية للمرة الثانية، نتيجة لعدة أسباب نذكر منها:

- خذلان السلطان الحفصي للإخوة بربروس ورفضه تزويدهم بالبارود في أحلك الظروف.
- عزا الوزان هذا الفشل إلى عدد الخسائر الكبيرة في صفوف السكان المحليين والجنود الأتراك، مما كان له الأثر البالغ على نفسية الجنود الذين رفضوا مواصلة القتال.

1 – مجهول: المصدر السابق، ص78.

2 – خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص67.

3 – نفسه.

4 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص47.

5 – خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص72.

6 – مجهول: المصدر السابق، ص80.

- تخلي القبائل عن الإخوة بربروس بعد حصولها على الغنائم لتزامن ذلك مع موسم البذر.[1]
- المدد الذي وصل الإسبان في لحظة اشتداد الحصار غيّر موازين القوى بين الطرفين، ورجح كفة الإسبان.

وبعد رفع الحصار نتيجة للظروف التي كانت في غير صالح الأخوين، اضطرا إلى إحراق السفن لاستحالة استعمالها نظرا لجفاف وادي الصومام في هذه الفترة[2]، ولكي لا تبقى غنيمة للإسبان، ثم أكمل عروج سيره مشيا على الأقدام حتى وصل جيجل، ومعه مجموعة من الأسرى تقدر بـ 600 أسير، أما خير الدين فقاد القوات البحرية وانسحب نحو جيجل التزاما بالاتفاق المبرم مع أخيه.[3]

2-أعيان وعلماء مدينة الجزائر يراسلون عروج سنة (1516م)

أتاحت وفاة الملك فرديناند في 22 جانفي 1516م[4] فرصة تاريخية لحكام مدينة الجزائر، للتخلص من المعاهدة المذلة التي وقّعُوها مع الإسبان، فانتهزوا انشغال الإسبان بموت ملكهم وراحوا ينقضون هذه المعاهدة ورفضوا دفع الجزية، بل راحوا إلى أبعد من ذلك وبعثوا بوفد عنهم من العلماء والأعيان يقودهم سالم التومي إلى عروج بجيجل يطلبون منه القدوم إليهم ومساعدتهم للتخلص من الإسبان[5] المحتلين لحصن البنيون (le pegnon)، وكانوا قد أضروا بهم غاية الضرر وضيقوا عليهم غاية التضييق.[6]

والملاحظ إذن أن سكان مدينة الجزائر كانوا قد سمعوا ببطولات وأعمال الإخوة بربروس في شرق المغرب الأوسط، ولذلك ضلوا ينتظرون الفرصة المناسبة لطلب المساعدة منهم، وفي ذلك يقول محمد المنويب الفراتي صاحب مخطوط تاريخ عروج رايس وأخيه خير الدين بمدينة الجزائر: «إن الله تعالى كفيل بنصركما حيثما توجهتما لم تنكسر لكما راية في الجهاد، فكيف تَدَعُونَنَا في أيدي الكافر نعبد الله على خفية ولا نقدر على إشهار ديننا، وأنتم معشر المسلمين قادرون على تخليصنا من أيديهم...».[7]

1 - محمد بن حسن الوزان: المصدر السابق، ص 38.

2 - مجهول: المصدر السابق، ص 80.

3 - بليراوات بن عتو: المرجع السابق، ص 183.

4 -*Mercier (Ernest), Histoire L'Afrique Septentrional (Berbérie) depuis les Temps les Plus recule's Jusqu'a la conquête Française (1830) T3, Paris, 1868, p15.*

5 -*Grammont (H, de), op.cit, p22.*

6 - مجهول: المصدر السابق، ص82.

7- محمد المنويب الفوراتي المفاقسي: تاريخ عروج وخير الدين في مدينة الجزائر، مخطوط، المكتبة الوطنية، تونس، رقم 231، ص 28.

استجاب عروج لهذا النداء، وسافر مع 500 بحار[1] إلى مدينة الجزائر، وأوصى لأخيه خير الدين الـذي كان بتونس لخلافته على جيجل، ولما وصل إلى الجزائر استقبله أهلها بالترحاب وأكرموه غاية الإكرام، فيما رأى عروج أن الفرصة مواتية للسيطرة على مدينة الجزائر الهامة والغنية جدا والمناسبة لعملية الجهاد البحري.[2]

على الرغم من دعوة سالم التومي لعروج إلا أنه فيما بعد توجس خيفة من قدومه، ويمكننا إرجاع خوف سالم التومي من قدوم عروج، إلى خوفه من انتقام الإسبان من مشيخة مدينة الجزائر، خاصة وأن عروج فشل في تحرير بجاية، وقد يتكرر معه نفس الأمر في مدينة الجزائر، وأيضا خوفا من ضياع ملكه لصالح عروج الذي كان يزداد كل يوم تقربا وحبا عند السكان، على عكس سالم التومي الذي عرَّض المدينة للحصار من طرف الإسبان الذين سيطروا على النشاط التجاري وضايقوا التجار الذين تضرروا كثيرا من زيادة قيمة الضرائب المفروضة عليهم.[3]

ومن أهم الأعمال التي قام بها عروج:

- عقده اتفاقا مع السكان ينص على احترام سيادتهم على المدينة.
- عدم دفع إتاوات جديدة.
- عدم التدخل في تجارتهم.
- أن تقتصر المساعدة لهم على استعادة قلعة صخرة البنيون وتحطيم أسوارها.[4]

3- عرّوج يسيطر على مدينة الجزائر (1516م)

مع أن عروج استطاع رد الهجوم الإسباني، إلا أنه فشل في تحرير صخرة البنيون بعد 20 يوما من قصفها[5*]، ونتيجة لهذا الفشل بدأ التذمر يظهر على السكان خاصة بعد الممارسات التي بدأ يقوم بها أتباع عروج، وتصرفاتهم التي تبدوا وكأنهم أسياد حقيقيون، ومعاملاتهم الفضة تجاه السكان الذين لم يكون يتوقعون هذه الأفعال.[6]

1 - *Missoum (Sakina), Alger A L'époque ottomane la médina et la maison Traditionnelle, INAS, Alger, 2003, p33.*

2 - كورين شوفالييه: ثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر 1510-1541م، ترجمة، جمال حمادنة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991، ص226.

3 - محمد بوشنافي: المرجع السابق، ص276.

4 - وليم سبنسر: المرجع السابق، ص31.

* - علل الكثير من المؤرخين هذا الفشل بموقف سالم التومي الذي لم يتورع في هذه المرحلة الصعبة عن تدبير الدسائس وحبك المؤامرات ضد عروج والاتصال بالإسبان وإفشاء الأسرار لهم، بل بلغ من تواطئه أنه استمات في خدمتهم من أجل استرجاع سلطته وملكه الضائع، جاسم محمد حسن العدول: المرجع السابق، ص214.

5 - ابن رقية الجديري التلمساني: الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، مخطوط، المكتبة الوطنية، الجزائر، رقم 1626، ص05.

6 - محمد دراج: المرجع السابق، ص211.

وهكذا استغل سالم التومي وبعض الأعيان هذا السخط من السكان على عروج وأتباعه وشرعوا في تأليب العامة ضدهم، لكن عروج تفطن لذلك واتخذ موقفا حاسما ضد سالم التومي، وأمر بإعدامه بعد مشورته لعلماء الجزائر، وتبيين حكم الشرع فيه لأنه اتصل سرا بالإسبان[1]، وبذلك تم القضاء على خصم عنيد عارض التواجد العثماني بمدينة الجزائر، لأنهم كانوا يهددون سلطانه بالمدينة، وبعد ذلك نودي عروج كملك على الجزائر وضُربت السكة باسمه، وأذعن له جميع السكان بالطاعة، وأرسلوا إليه الخراج.[2]

لم يمر موت سالم التومي مرور الكرام على عروج، لأن السكان المحليين بدؤوا في التخطيط للتمرد ضد الحكام الجدد بتأييد ومباركة بعض الأعيان والعلماء الذين بايعوا يحي ابن سالم التومي ليكون سلطانا عليهم بدل عروج[3]، بمساعدة الإسبان المتحصنين بالقلعة، إلا أن عروج تفطن لهذه المؤامرة وأمر جنوده بالوقوف على أبواب الجامع يوم الجمعة، وألقى القبض على جميع القائمين على الفساد وأمر بقتلهم، أما يحي بن سالم التومي، فقد فر إلى وهران والتجأ إلى الإسبان طالبا نجدتهم لاستعادة حكم أبيه.[4]

وبعد القضاء على هذه المؤامرات بدأ عروج في تنظيم شؤون المدينة وفرض النظام، فعم الأمن والأمان جميع أنحاء المدينة، وكسب بذلك ثقة السكان من العامة والأعيان والعلماء، هؤلاء الذين قربهم إليه وجعلهم محل ثقته، فكان يستشيرهم في أمور العباد والبلاد، وبذلك اطمأن الناس وبدؤوا يلتفون حول عروج وجنوده في مواجهة الخطر الإسباني الرابض في صخرة البنيون، أما سكان المدن المجاورة فبدؤوا في إعلان الطاعة والولاء والاعتراف بسيادة عروج خاصة مناطق البليدة، مليانة، دلس وبلاد القبائل.[5]

4- حملة دييغو ديفيرا «Diégo de Vera» 1516م

لما علم الإسبان بقدوم عروج تخوفوا منه، إذ أصبح يشكل خطرا على تواجدهم في مدينة الجزائر، لذلك قرروا غزو المدينة بأمر من الكاردينال خمينيس في صيف 922هـ/1516م بقيادة دييغو ديفيرا وجهزوا أسطولا بحريا مشكلا من 350 سفينة، و15 ألف جندي إسباني[6]، ولما سمع عروج وأتباعه بهذه الاستعدادات قاموا بتنظيم أنفسهم، وقرروا الدفاع عن مدينتهم وعدم تركها للإسبان، فكانت أعداد المدافعين ما بين 5

1 - محمد بوشنافي: المرجع السابق، ص278.

2 - محمد بن حسن الوزان: المصدر السابق، ص39.

3 - محمد دراج: المرجع السابق، ص212.

4 - عزيز سالم ألتر: المرجع السابق، ص83.

5 - يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص14.

6 - محمد المنويب الفوراتي المفاقسي: المصدر السابق، ص39.

آلاف و 6 آلاف من السكان المحليين، وحوالي 13 ألف من أتباع عروج، مسلحين بالمدافع والبارود، ومعهم الكثير من المؤن.[1]

حاصر الإسبان المدينة، وبدؤوا في قصفها في سبتمبر 1516م، وأنزلوا جميع قواتهم على الساحل وتمكنوا من محاصرة القلعة واحتلال بعض الأبراج[2]، على الرغم من تحذيرات قائد حصن البنيون نيقولاي دي كونت بعدم إنزال جميع القوات، وترك قوات احتياطية لحماية المؤخرة وتأمين الرجوع، وامتدت ساحة القتال من ساحل البحر حتى حي الأتراك الواقع ضمن القلعة الداخلية.[3]

استطاع عروج وأتباعه رد الهجوم الإسباني واسترجاع المواقع التي تم احتلالها سابقا[4]، وبدأت معنويات الجيش الإسباني تنحط، ولم يعد بمقدورهم مواصلة القتال والصمود أمام الهجمات المتتالية لأتباع عروج، وفي نفس الوقت الذي كانت تدور فيه المعارك، أخذ البحر في الاضطراب نتيجة هبوب عاصفة بحرية لذلك بدأ الجنود الإسبان في الفرار، ولكنهم لم يستطيعوا الوصول إلى سفنهم، إلا القليل منهم الذين نجوا من المعركة، تاركين خلفهم كل العتاد الذي جاءوا به، إضافة إلى 3 آلاف قتيل و 2700 أسير.[5]

5-نتائج الحملة

- استشهاد حوالي 300 من أتباع عروج.
- انهزام الإسبان* وفقدانهم حوالي 5700 بين قتيل وأسير والكثير من العتاد الحربي في أرض المعركة.[6]
- أقيمت الأفراح بالجزائر ابتهاجا بهذا النصر، وأحيا هذا الانتصار آمالا في النفوس كادت تموت نتيجة الإحباط من استحالة النصر على الإسبان.[7]

1- *Diego (H.de), op.cit, p53.*
2 - *Mercier (E), op.cit, p17.*
3 - عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص ص 55، 56.
4 -*Conestaggio (Jeronimo), Relation des Préparatif, Faits pour surprendre Alger, Traduite de L'italien et Annotée par, Grammont (H. de), Adolphe Jourdan, Alger, 1882, p3.*
5 - خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص78؛ أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص ص 166، 167.
* - أرجعت كورين شوفالييه سبب الانهزام إلى:
- إنزال الجيش الإسباني بطريقة فوضوية على الشاطئ، مما جعل سكان المدينة يكتشفونه ويستعدون جيدا لملاقاته.
- ذكاء الجنود الأتراك وسيطرتهم على أرض المعركة، والتزود الجيد بالمؤن والتفاف السكان حول عروج.
- الخلاف الذي وقع بين نيكولاي قائد الحصن ودييغو ديفيرا قائد الجيش حول مكان الإنزال.
- الخطأ في تقسيم الجيش الإسباني إلى أربعة فرق ومهاجمة المدينة من عدة جهات مما شتت جهود الجيش. كورين شوفالييه: المرجع السابق، ص33.
6 - خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص 78.
7 - أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص176.

- لما سمع الملك الإسباني شارلكان بهذا الحدث الأليم حزن حزنا شديدا وغضب كثيرا لهذه الهزيمة، وعمّ الحزن كامل إسبانيا.[1]

6-عروج يبسط سيطرته على الجهة الغربية

أ-تحرير قلعة تنس(1517م)

يعتبر استقرار عروج بمدينة الجزائر عملا استراتيجيا هاما، ودليلا على ذكائه، فقد أصبح يتوسط المغرب الأوسط وقريبا جدا من الإسبان، وبذلك استطاع تقسيم القوات الإسبانية إلى قسمين، الجهة الشرقية المحاصرة بجيجل، والجهة الغربية المحاصرة بمدينة الجزائر، التي أصبحت اللبنة الأساسية في مواجهة الإسبان والتصدي لهم.

ومباشرة بعد توطيد حكمه في مدينة الجزائر، بدأ عروج في تحصين المدينة تحسبا لاحتمال شن الإسبان حملة جديدة، فبنى أسوارا ضخمة وشيد قلاعا حصينة، ثم عزم على البدء في بسط نفوذه على الجهة الغربية[2] فسار في شهر حزيران 1517م على رأس قوة من الأتراك ومهاجري الأندلس، وبعض السكان المحليين لفتح تنس، انتقاما من حاكمها حميد العبد الذي تواطأ مع الإسبان أثناء حملتهم على الجزائر[3]، ونجح خير الدين في السيطرة على المدينة، على الرغم من الإمدادات التي وصلت من الإسبان، إلا أن أمير تنس فرّ و لم يتمكن خير الدين منه، بعد هذا الانتصار رجع خير الدين إلى مدينة الجزائر وترك أحد ضباطه نائبا على تنس*، وما إن رجع حتى سمع أن أمير تنس قد عاد بمساعدة الإسبان، وقَبِل السكان به أميرا عليهم، لذلك قرر عروج السيطرة عليها نهائيا وضمها إلى سلطته.[4]

وقبل خروج عروج إلى تنس قام باستدعاء العلماء واستفتاهم في حكم الشرع فيمن يتولى الكفار ضد المسلمين، وبايع ملك إسبانيا الذي كان يقتل المسلمين بالمغرب الأوسط ويحتل أرضهم، فأجاز العلماء هدر

1 - مجهول: المصدر السابق، ص86.

2 - محمد دراج: المرجع السابق، ص217.

3 - كانت هناك الكثير من المراسلات بين حكام تنس والإسبان في هذه الفترة، وقد عبر حكام تنس عن خضوعهم وتبعيتهم التامة للإسبان، ووقوفهم ضد عروج وخير الدين، فقد نشر شارل فيرو المراسلات التي تمت بين الطرفين في المجلة الإفريقية، للمزيد ينظر:
Chârles (Feroud), Lettres Arabes de L'époque de L'occupation Espagnole En Algérie, R.Af, N°17, Alger, 1873, p313-321.

* - في كل المراجع التي اطلعنا عليها وجدنا أن عروج هو الذي سار بنفسه وفتح تنس، إلا أننا ونحن ننجز هذا البحث وجدنا أن خير الدين في مذكراته ذكر أنه فتحها أولا ثم سار عروج بنفسه مرة ثانية وضمها نهائيا، ووافقه في ذلك محمد المنويب الفوراتي المفاقسي، لذلك اعتمدنا رواية خير الدين لأنها مصدر مهم في توثيق معلومات هذه المرحلة.

4 - خير الدين: المصدر السابق، ص81.

دمه وقتله، وكتبوا بذلك فتوى وسلموها إلى عروج. وما إن وصل عروج إلى تنس حتى ثار أهلها على أميرهم حميد العبد وكبلوه وسلموه إلى عروج[1]، الذي أمر بقتله مع مجموعة من المتعاونين معه.[2]

واصل عروج توسعاته بمساعدة أخيه حتى وصل إلى دلس، وهكذا اتسعت المدن التي سيطر عليها عروج وأصبح عددها عشرة، خمسة منها تقع شرقي مدينة الجزائر وخمسة أخرى تقع غربها*، وبغية تنظيم إدارتها عمد عروج إلى تقسيمها إلى مقاطعتين: شرقية ومركزها دلس ونصب عليها خير الدين، وغربية ومقرها مدينة الجزائر ويحكمها بنفسه.[3]

ب-سيطرة عروج على تلمسان (1518م)

كانت تلمسان تعيش مرحلة حرجة في تاريخها، فقد شهدت تنافسا شديدا على السلطة بين أفراد العائلة الحاكمة، إذ كان يتنافس على الحكم أبو زيان المسعود وعمه أبو حمو الثالث، الذي أحكم قبضته على تلمسان بمساعدة الإسبان.[4]

كان عروج بمدينة تنس ينظم شؤونها عقب فتحها، حيث جاءه وفد كبير من تلمسان التي كانت وقعت تحت الحماية الإسبانية منذ سنة 1511م[5]، يشكو إليه تردي الأوضاع في المدينة، ويناشده أن يسارع لنجدتهم من أبي حمو الثالث الذي استبد بهم وزجّ بابن أخيه -المسعود الوريث الشرعي للحكم- في السجن[6] لم يتأخر عروج في الاستجابة لهذه الدعوة**، وتوجه إلى المدينة سنة 923هـ /1517م[7]، مفضّلا سَلْكَ طريق البر

1 - ناصر الدين سعيدوني: تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط2، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013م، ص26.

2 - ابن رقية الجديري التلمساني: المصدر السابق، ص09.

*- جيجل، مدينة الجزائر، البليدة، دلس، تنس، مليانة، شرشال، المدية، إمارة كوكو، إمارة بني عباس.

3 - محمد المنويب الفوراتي المفاقسي: المصدر السابق، ص21.

4 - ابن رقية التلمساني: المصدر السابق، ص07.

5 - جاسم محمد حسن العدول: المرجع السابق، ص218.

6 - خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص80.

** - سارع عروج لتلبية نداء أهل تلمسان لعدة أسباب نذكر منها:

-القيمة الاستراتيجية للمدينة، فالسيطرة عليها تعني إحكام القبضة على وهران من جهتين: شرقا تنس وغربا تلمسان.

- الإرث الحضاري والقيمة المعنوية لتلمسان لأنها تمثل عاصمة المغرب الأوسط.

- توسيع رقعة ممتلكاته بالمغرب الأوسط.

7 - محمد أبو راس الناصري: فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته "حياة أبي راس الذاتية والعلمية"، حققه، محمد بن عبد الكريم، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990م، ص 107.

البر تجنبا لمواجهة محتملة مع الإسبان الموجودين بوهران، وفي طريقه استطاع إخضاع قلعة بني راشد* واتخذها مركزا لحماية مواصلاته، وعين عليها أخاه إسحاق رئيس، ومعه حامية عسكرية لحماية الطريق حين عودته وأمره بالتضييق على الإسبان المقيمين بوهران وعرقلة تحركاتهم، حتى لا يعيقوا سيره باتجاه تلمسان، ومنْعهم من التزود بالمؤن، لأن القلعة كانت مركزا هاما لإمدادهم بالغذاء.[1]

وفي ربيع 1517م التقى، عروج وأتباعه بجيش أبي حمو الثالث المؤلف من 9 آلاف رجل، بمنطقة سيدي بلعباس، وبعد معركة عنيفة أسفرت عن انهزام جيش أبي حمو الثالث وتشتيت شمله، ودخل عروج مدينة تلمسان التي استقبلته استقبال الفاتحين، فيما استطاع أبي حمو الفرار بمساعدة حراسه[2]، وتوجه إلى مدينة فاس طالبا مساعدة سلطانها الذي لم يحقق له رغبته**، فتوجه إلى الإسبان بوهران محتميا ومستعينا بهم في محاولة لاسترجاع عرشه.[3]

لم يجد عروج أي صعوبة في السيطرة على تلمسان سنة 925هـ/1518م وبسط نفوذه عليها[4]، وأطلق وأطلق سراح أبو زيان المسعود وأجلسه على العرش، إلا أن وضع تلمسان لم يستقر، لتعود الاضطرابات من جديد وتتدهور العلاقة بين عروج وأبي زيان المسعود، بسبب محاولة هذا الأخير التمرد بمساعدة المعارضين لحكم عروج، مستغلين في ذلك خروجه (عروج) لبسط سيطرته على القبائل القاطنة على حدود المغرب الأقصى مثل بني عامر وبني يزناسن، وإجرائه اتصالات مع مملكة فاس بهدف توحيد الجهود ضد الإسبان، وعند سماعه بخبر هذا التمرد عاد مسرعا إلى تلمسان واستطاع السيطرة على الوضع والقضاء على أبي زيان وسبعين من عائلته[5] وبذلك استطاع السيطرة على تلمسان ولو إلى حين.

*- يقول عنها محمد المنويب الفوراتي المفاقسي (كانت قلعة بني راشد من أغنى بلاد الله زرعا وضرعا تذهب الميرة إلى كل ناحية وكانت وهران إذ ذاك قد استولى عليها الكفرة فكانت تأتيها الميرة من قلعة بني راشد، فينفقون بذلك أهلها ويستعينون بذلك على قتال المسلمين...، محمد المنويب الفوراتي المفاقسي، المصدر السابق، ص21.

1 - جاسم محمد حسن العدول: المرجع السابق، ص218.

2 - نيقولاي إيفانوف: الفتح العثماني للأقطار العربية 1516-1574م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1988م، ص 126.

**- لعله لم يستطع كسب تأييد سلطان المغرب الأقصى، لأنه كان يعيش مشاكل داخلية نتيجة للصراع بين الوطاسيين والسعديين الذين بدؤوا في الظهور على مسرح الأحداث وأخذ مكانهم داخل المغرب الأقصى، وأيضا تجنبا لمواجهة الإسبان المسيطرين على وهران والمرسى الكبير، وتفاديا للدخول معهم في مشاكل تؤثر عليه سلبا.

3 - مجهول: المصدر السابق، ص91.

4 - أبو راس محمد الناصري: زهر الشماريخ في علم التاريخ، مخطوط، مكتبة خاصة، الجزائر، رقم 01، ص 81.

5 - محمد بوشنافي: المرجع السابق، ص80.

ج-استشهاد عروج سنة(1518م)

لم يكن الإسبان غافلين عما كان يحدث بمدينة تلمسان، وهذه الانتصارات المتوالية التي ما فتئ يحققها عروج، خاصة أنه أصبح على مقربة من مدينة وهران، فسعوا إلى الحد من نشـــاطه وإبعـــاده عـــن تلمســـان واسترجاعها لصالح أبي حمو الثالث، لذلك قرروا توجيه حملة عسكرية بأمر من شارلكان، تكون انطلاقتها من وهران للقضاء على عروج.[1]

بعثت الحكومة الإسبانية سنة 1518م بإمدادات ضخمة وصفت بأنها لم يسبق لها مثيل، بلغ قوامها 10 آلاف رجل[2]، بمساعدة أبي حمو الذي كان على رأس 10 آلاف رجل من القبائل العربية التي تؤيده[3]، وهاجموا في بادئ الأمر قلعة بني راشد التي كان على رأسها إسحاق منذ أن سيطر عليها عروج، ومع أن إسحاق قـــاوم بشدة رفقة جنوده إلا أن النصر كان لصالح الإسبان والمتحالفين معهم، واستشهد إسحاق ومن معه في هـــذه المعركة غير المتكافئة.[4]

بعد الاستيلاء على قلعة بني راشد، توجه الإسبان رفقة أبي حمو ومن معه إلى تلمسان، وضربوا عليهـــا حصارا محكما. وبالرغم من عدم تكافؤ القوتان، وتفوق الإسبان عدة وعتادا، ومع أن عروج وأتباعه استطاعوا الصمود والمحافظة على المدينة لمدة قاربت الستة أشهر،إلا أن الإسبان تمكنوا من اقتحامها، ودارت معارك عنيفة بين الطرفين داخل المدينة اضطر بعدها عروج للخروج منها والانسحاب إلى قلعة المشور، في انتظار وصـــول المدد إليه من سلطان فاس مولاي أحمد بحسب الاتفاق المبرم بينهما، إلا أن تأخر وصول الدعم جعله يتوجه نحو البحر، ولكن الإسبان لحقوا به، وبعد قتال طويل استشهد عروج -عن عمر يناهز 44 سنة-، بمكان يســـمى الوادي المالح على يد فارس يدعى غارسيا فرنانديز دولابلازا[5] مع عدد كبير من جنوده[6]، وبعدها قام الإســـبان

1 - خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص88.

2 - ابن رقية الجديري التلمساني: المصدر السابق، ص9.

3 - جاسم محمد حسن العدول: المرجع السابق، ص220.

4 - حساني مختار: "دراسة لمخطوط قلعة بني راشد"، **المجلة المغاربية للمخطوطات**، ع3، مخبر المخطوطات، أعمـــال الملتقـــى الـــوطني للتـــراث المخطوط، نوفمبر 2006م، غليزان، الجزائر، 2013م، ص253.

5 - المهدي البوعبدلي: "أضواء على مدينة الجزائر في العهد التركي من خلال مخطوط الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني"، **مجلة الأصالة**، ع8، الجزائر، 1972، ص280.

6 - محمد بوشنافي: المرجع السابق، ص280.

بقطع رأس عروج وأرسلوه إلى الملك الإسباني شارل الخامس[1] الذي قلد غرسيا فرننـــديز دولابـــلازا وســـام الشرف[2]، وقد شكل هذا الحادث فرصة لإقامة الاحتفالات بإسبانيا ابتهاجا بهذا النصر الذي انتظروه كثيرا.[3]

د- أسباب انهزام عروج بتلمسان

- الأضرار التي لحقت بأهل تلمسان من جراء طول الحصار (6 أشهر)، مما اضطرهم إلى التخلـــي عـــن نصرة عروج.
- استياء أهل تلمسان من حكم عروج، والذي وصف بالفساد وتشجيع الشقاق بينهم، والاعتداء على أراضيهم ، مما جعلهم ينقلبون عليه في أول فرصة أتيحت لهم.
- تأخر المدد من حاكم فاس مولاي أحمد إلى عروج، على الرغم من أن هذا الأخير أنفذ وعـــده، إلا أن القوة المساعدة سلكت طريق مليلة في غير اتجاه تلمسان و لم تصل إلى ميدان المعركة.[4]
- طول مدة حصار القلعة الذي دام 26 يوما، أنهك عروج ومن معه، وجعلهم عرضة للجوع وقلة النوم ونفاذ الذخيرة والسلاح، وما زاد الأمر خطورة كثرة الجرحى الذين زادت معانـــاتهم جـــراء هـــذا الحصار.[5]
- قلة عدد الجنود الذين كانوا برفقة عروج، إذ لم يتجاوز عددهم 500 جندي، في مقابل الآلاف مـــن الإسبان المدعمين بقوات أبي حمو.[6]
- الدعم الكبير الذي قدمه الإسبان لأبي حمو في مواجهته ضد عروج.[7]

ما يمكننا قوله في الأخير أن عروج مهد الطريق لوضع الأسس الأولى في تكوين الإيالة الجزائرية، وتثبيت أركان الحكم العثماني بها، وعمل جاهدا لطرد الإسبان من كامل سواحل المغرب الأوسط، على الرغم من عدم تكافؤ قوات الطرفين، أين عمل على إنجاز هذا المشروع حتى استشهاده، ليتولى من بعده أخوه خير الـــدين مهمـــة استكمال هذا المشروع.

1 – خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص92.
2 – المهدي البوعبدلي: المرجع السابق، ص 280.
3 – محمد بوشنافي: المرجع السابق، ص280.
4 – جاسم محمد العدول: المرجع السابق، ص221.
5 – مجهول: المصدر السابق، ص94؛ محمد المنويب الفوراتي المفاقسي: المصدر السابق، ص21.
6 – جاسم محمد العدول: المرجع السابق، ص 222.
7 – بلبراوات بن عتو: "أضواء حول مدينة تلمسان خلال العهد العثماني"، **الحوار المتوسطي**، ع1، جامعة الجيلالي اليابس سيدي بلعباس، الجزائر، ربيع الثاني 1430هـ/2009م، ، ص 75.

الفصل الأول: العلاقات الجزائرية الإسبانية خلال القرن السادس عشر ميلادي

أولا: العلاقات الجزائرية الإسبانية من (1519–1538م)

المبحث الأول: مراحل تأسيس الإيالة الجزائرية

1–لمحة تاريخية عن الدولة العلية (1500–1520م)

2– المرحلة الأولى: إرهاصات التأسيس 1514–1518م

3– المرحلة الثانية: مرحلة الانضمام الرسمي 1519م

4– انعكاسات تأسيس الإيالة الجزائرية

المبحث الثاني: محركات العلاقات الجزائرية الإسبانية

1–العوامل الدينية

2–العوامل الاقتصادية

3–القضية الموريسكية

4– العلاقات الجزائرية العثمانية

5– الاحتلال الإسباني لتونس وطرابلس الغرب

6– العلاقات الجزائرية الأوروبية

7– الأسرى

المبحث الثالث: الصراع الجزائري الإسباني (1519-1538م)

1– حملة هوغو كودي مونكاد 1519م

2– خير الدين في مواجهة الفتن الداخلية

3– تحرير قلعة البنيون (Le Pégnon) 1529م

4– هجوم خير الدين على جزر البليار

5– الصراع الجزائري الإسباني على شرشال

6– إحتلال الإسبان لمدينة هنين 1531م

7– الصراع الجزائري الإسباني على تونس

8– عنابة تحت سيطرة الإسبان

9– رد البحرية الجزائرية على احتلال تونس

10- معركة بريفيزا PREVEZA 1538م

ثانيا: العلاقات الجزائرية الإسبانية (1538-1541م)

المبحث الأول: أول اتصالات دبلوماسية بين الجزائر وإسبانيا

1- الإتصالات الرسمية

2- أسباب فشل المفاوضات الجزائرية الإسبانية

المبحث الثاني: حملة شارلكان على الجزائر 1541م

1- أسباب الحملة

2- استعدادات الطرفين

3- المفاوضات الإسبانية الجزائرية قبيل المعركة

4- سير الحملة ونتائجها

5- لماذا تأخر خير الدين على نجدة الجزائر؟

ثالثا: العلاقات الجزائرية الإسبانية (1541-1600م)

المبحث الأول: الصراع الجزائري الإسباني (1541-1563م)

1- تلمسان تحت سيطرة العثمانيين

2- تحرير بجاية 1555م

3-الهجمات الجزائرية على الجهة الغربية

4- الصراع الجزائري الاسباني ما بين 1563-1600م

المبحث الثاني: العلاقات الجزائرية الإسبانية على ضوء بعض القضايا الخارجية (1551-1574م)

1- تحرير طرابلس الغرب 1551 م

2-حرب مالطة 1565م

3- الثورة الموريسكية (1568-1571م)

4- معركة الليبانت 1571م

5- تحرير تونس 1574م

6- نتائج تحرير تونس

أولا: العلاقات الجزائرية الإسبانية من (1519–1538م)

المبحث الأول: مراحل تأسيس الإيالة الجزائرية

1–لمحة تاريخية عن الدولة العلية* (1500–1520م)

عانت الدولة العلية بعد وفاة السلطان محمد الفاتح (1429– 1481م) من الحرب الأهلية، فقد أوصى بخلافته لابنه جمْ لكن قطاعات واسعة تعاطفت مع بايزيد** ومنها الجيش، الذي فرض هذا الأخير كسلطان للدولة العلية وسلمه الحكم في العاصمة، في حين قبع جمّ في بروسا ونصب نفسه سلطانا، عارضا على أخيه اقتسام الدولة إلا أن بايزيد رفض العرض، وقرر السير إليه ومهاجمته، ودارت معركة بين الطرفين أسفرت في نهايتها عن فرار جمّ إلى القاهرة، وبذلك استتب الأمر لبايزيد ودانت له كامل البلاد.[1]

كان السلطان بايزيد الثاني ميالا للسلم أكثر من الحرب، محبا للعلوم ومنشغلا بها، ولذلك سماه بعض مؤرخي الترك بايزيد الصوفي، وقد تميزت أيامه الأخيرة بالصراع الذي نشب بين أبنائه المتنازعين عن العرش، قرقود، أحمد وسليم الذي كُتبت له الغلبة في النهاية، بفعل مساندة الإنكشارية له*** وتمكن من تنحية والده عن العرش وجلس مكانه، وذلك في شهر صفر 918هـ الموافق لأفريل 1512م، وانسحب بايزيد من الحياة العامة إلى أن توفي في نفس السنة المذكورة سابقا.[2]

كانت فاتحة أعمال السلطان سليم الأول**** قضاءه على أخويه أحمد وقرقود، ثم التفت للتصدي إلى الخطر الصفوي، الذي كان يشكل تهديدا حقيقيا للتواجد العثماني في ذلك الوقت، وحدث في عهده انقلاب

---

* – استعملت لفظ الدولة العلية لأن كل المصادر المحلية والعربية والوثائق استعملت هذا اللفظ، ولذلك حاولت استعمال لفظ الدولة العلية في كامل البحث بدل الدولة العثمانية، وفي نظرنا هذا هو الأصح.

**– هو ابن محمد الثاني (الفاتح) تولى الحكم من بعد أبيه سنة 1481م، كان شاعرا، أديبا ومحبا للعلم، حاول فتح مصر إلا أنه تلقى مقاومة شديدة من قايتباي سلطان مصر، استعاد السيطرة على البغدان وغيرها من الأقاليم داخل أوروبا سنة 1497م، استطاع السيطرة على جزء كبير من بولونيا، حدثت في أيامه الأخيرة فتن داخلية، ووقعت حروب بينه وبين ابنه سليم الأول الذي هاجمه في القسطنطينية، وبدعم من الانكشارية استولى على الحكم، بعد أن خلع بايزيد نفسه، يوحنا أفندي أبكاريوس: قطف الزهور في تاريخ الدهور، ط2، د.د.ن، بيروت، لبنان، 1988م، ص26.

1 – محمد سهيل طقوش: التاريخ الإسلامي(الوجيز)، ط3، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2006م، ص 356.

*** – الملاحظ في هذه الفترة، خاصة بعد وفاة محمد الفاتح أن الإنكشارية بدؤوا يتدخلون في عزل وتولية السلاطين نتيجة قوتهم وتأثيرهم في قرارات الدولة العلية نتيجة لتحصلهم على امتيازات كثيرة بعد فتح القسطنطينية وقد زاد نفوذهم وسطوتهم داخل جهاز الحكم العثماني لذلك نلاحظ تنامي دورهم في الدولة خلال مراحل لاحقة إلى غاية سنة 1826 تاريخ القضاء النهائي على الإنكشارية في الدولة العثمانية.

2 – محمد فريد بك المحامي :تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق، إحسان حقي، ط1، دار النفائس، بيروت، لبنان، 1401هـ/1981م، ص187.

****– من السلاطين الأقوياء في الدولة العلية حكم ما بين 1512–1520م، ولد سنة 885هـ بأماسيا وجلس على العرش سنة 918هـ وعمره 46 سنة في حياة أبيه، كان مشهورا في شبابه بالشجاعة وحب الحرب، لذا كان محبوبا لدى الجيش، اشتهر بحروبه ضد الفرس، في عهده=

في الاستراتيجية العثمانية، حيث توقف الزحف نحو الغرب واتجه إلى الشرق، وبدأ هذا التحول مع بداية المد الشيعي باتجاه الأراضي العثمانية، وطمع المماليك في القضاء على الدولة العلية.

حاول الشاه إسماعيل الصفوي السيطرة عل العراق، وتطلع للزحف على الأناضول تحركه دوافع مذهبية بهدف نشر المذهب الشيعي بين العثمانيين، وسياسية بهدف القضاء على الدولة العلية، واقتصادية بهدف الاستفادة من خصب الأراضي العثمانية والسيطرة على طريق التجارة الشرقي.[1]

وفي إطار حربه ضد الصفويين قام سليم الأول بقتل وسجن حوالي 40 ألف من أتباع الشاه إسماعيل في الأناضول، ثم بادر لقتاله باعتباره من الشيعة الرافضة، وزحف السلطان باتجاه الدولة الصفوية، والتقى الطرفان في معركة رهيبة في تشالديران بتبريز شهر رجب920هـ/1514م أسفرت عن انتصار العثمانيين ودخولهم عاصمة الصفويين تبريز والسيطرة على الأناضول الشرقية والجنوبية باستثناء الجزء الواقع تحت السيطرة المملوكية.[2]

في هذه الأثناء كان العالم العربي قلقا من جراء الهجمات البرتغالية الإسبانية ومتطلعا صوب السلطان العثماني، فاقترح شريف مكة حفيد النبي ﷺ في عام 1516م إرسال وفد إلى السلطان سليم الأول لمبايعته، إلا أن السلطان المملوكي قونصوه الغوري تدخل لمنعه* وتحالف مع الشاه إسماعيل لمحاربة الدولة العلية[3]، وتشتيت جيشها بين الطرفين، ونتيجة لهذا الاتفاق استعد قونصوه الغوري بدوره لقتال السلطان العثماني، والتقى الجيشان بقرب حلب الشهباء في وادي يقال له مرج دابق، وانهزم المماليك بسبب وقوع الخلاف بين فرق الجيش، كما ساعدت المدافع العثمانية على النصر، وقُتل الغوري في هذه المعركة وكان ذلك يوم الأحد 25 رجب 922هـ الموافق لـ 24 أوت 1516م.[4]

استثمر السلطان سليم الأول انتصاره فضم كل من حلب، حماه، حمص، دمشق وعرض على طومان باي -الذي خلف القونصوه الغوري- إعلان طاعته مقابل أن يُسند له حكم مصر إلا أنه رفض الفكرة

=سيطر على الشام ومصر، وانضمت الجزائر للدولة العلية، إبراهيم بك حليم: تاريخ الدولة العثمانية العلية -التحفة الحليمية-، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، 1408هـ/1988م، ص ص 80،79

1 - محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص 358.

2 - نفسه.

*- انفرد خليل إينالجيك بهذه الرواية فالكثير من المصادر والمراجع التي اطلعنا عليها تؤكد أن هذا الأمر تم بعد أن سيطر سليم الأول على مصر، وقد أكد على ذكر حفيد الرسول ﷺ حتى يعطي الشرعية الدينية والدنيوية لسلاطين آل عثمان ويرد على الذين طعنوا في شرعية الخلافة العثمانية.

3 - خليل إينالجيك: تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ترجمة، محمد.م. الأرناؤوط، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، 2002، ص 54.

4 - محمد فريك بك المحامي: المصدر السابق، ص 192.

فاضطر السلطان سليم الأول لنقل الحرب إلى مصر[1]، وضم خلال زحفه فلسطين، وظهرت جيوشه أمام القاهرة، ودار قتال بين الطرفين في أواخر شهر ذي الحجة 922هـ وأوائل شهر محرم 923هـ[2]/ ديسمبر 1517م وأنزلت المدفعية العثمانية هزيمة ساحقة في الريدانية بجيوش المماليك، واضطر طومان باي للفرار إلى الدلتا، و لم يلبث أن سُلم إلى السلطان سليم الأول الذي أمر بشنقه.[3]

تكمن أهمية ضم مصر في تنازل الخليفة محمد المتوكل آخر الخلفاء العباسيين في مصر عن حقه في الخلافة للسلطان العثماني[*]، وضم بعد ذلك سليم الأول الحجاز[**]، وعاد إلى استانبول التي أضحت منذ ذلك الوقت مقرا للخلافة الإسلامية، وفي أثناء تجهيزه للأسطول لمهاجمة جزيرة رودس، وجيش بري لمهاجمة الصفويين توفي السلطان في شهر شوال 926هـ الموافق لسبتمبر 1520م.[4]

خلف السلطان سليم الأول ابنه سليمان عاشر ملوك آل عثمان والذي دام حكمه من 1520-1566م وما إن استقر على العرش حتى عادت السياسة العثمانية تتجه نحو الغرب لتبدأ مرحلة أخرى من العلاقات الأوربية العثمانية، اتسمت بالتوسع في البلقان والبحر والمتوسط.[5]

بعد أن آلت الأمور لشارلكان كملك للإمبراطورية الرومانية المقدسة، عهد إلى أخيه فرديناند ملك النمسا مهمة الدفاع عن أوروبا الوسطى أمام الزحف العثماني، وبرزت المجر كخصم عنيد للعثمانيين بعد زوال الصرب والبلغار وبيزنطة، فأقدم ملك المجر على قتل سفير السلطان الذي بعثه لإخباره باعتلاء العرش ودفع الجزية أو إعلان الحرب، ولما سمع السلطان سليمان بمقتل سفيره أمر بتجهيز الجيوش وسار على رأسها ومعه

1 - كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية، نبيه أمين فارس، ومنير البعلبكي: دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1968م، ص 448.

2 - محمد أبو راس الناصري: المصدر السابق، ص81.

3 - علي باشا مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة، ج1، ط1، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق، مصر، 1306هـ/1888م، ص 56.

* - يتبادر إلى أذهاننا العديد من الأسئلة منها: هل فعلا تنازل محمد المتوكل على الخلافة؟ وإن كان قد تنازل عنها ففي أي الظروف، وقد كان أسيرا ولا يملك لنفسه حولا ولا قوة؟ وهل فعلا كان محمد المتوكل خليفة بما تحمل هذه الكلمة من معنى؟ وهل عدم تنازله يطعن في شرعية الحكم العثماني وأعمال هؤلاء السلاطين في خدمة هذه الأمة؟ أم أن هناك أمور خفية تقف وراء هذه الإشكالية التي يجب مناقشتها بما توفر من أدلة، لأن هناك مدرسة الاحتلال الغربي وأتباعها في البلاد العربية والإسلامية تريد أن تجعل من التواجد العثماني احتلالا، واحتلاله الأوروبيين لبلادنا استعمارا كان في خدمتنا وسببا في ازدهارنا!

** - أرسل شريف بركات، شريف مكة مفاتيح الأماكن المقدسة إلى السلطان سليم الأول وأعلن تبعيته له، أندري ريمون: المدن العربية في العهد العثماني، ترجمة، لطيف فرج، ط1، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1981م، ص

4 - عبد الله الشرقاي: تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الملوك والسلاطين، تحقيق رحاب عبد الحميد القاري، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، 1916م، ص 115.

5 - سهيل طقوش: المرجع السابق، ص362.

أحد أشهر قادته وهو أحمد باشا، وهاجم بلغراد وفتحها بعد دفاع شديد من أهلها،أُضطرت الجيوش المجرية لإخلاء القلعة في 25 رمضان 927هـ الموافق لـ29 أوت 1521م، ودخلها السلطان، وصلى الجمعة في إحدى كنائسها بعد أن حُوّلت إلى مسجد.[1]

عرفت الدولة العلية في هذه المرحلة (1500–1520م) توسعا كبيرا داخل أوروبا، بل وصل العثمانيون إلى عاصمة النمسا فينا، وحاصروها سنة 1529م، إلا أنهم لم يستطيعوا فتحها، ووصلوا في الجهة الغربية للمتوسط إلى المغرب الأوسط واستطاعوا تحرير بعض مناطقه من الاحتلال الإسباني وتأسيس الإيالة الجزائرية سنة 1519م لتشكل القاعدة الأساسية للتواجد العثماني في بلاد المغرب الإسلامي، والحامي الأول لحدود الدولة العلية في مواجهة القوى الأوروبية في الجهة الغربية للمتوسط.

2- المرحلة الأولى: إرهاصات التأسيس 1514–1518م

لا يمكننا القول بأن إيالة الجزائر تأسست بين عشية وضحاها وبدون تخطيط مسبق، بل مرت بعدة محطات قبل أن تصل في النهاية إلى التأسيس الرسمي، والانضمام إلى السلطنة العلية، وقد تظافرت جهود الإخوة بربروس وسكان بلاد المغرب الأوسط والدولة العلية في هذا التأسيس الذي دام عدة سنوات، ليأخذ في الأخير شكله النهائي، لتصبح إيالة الجزائر خط المواجهة الأول ضد العدوان الإسباني في الحوض الغربي المتوسط.

ولأجل توطيد العلاقة بين الإخوة بربروس والسلطان العثماني كانت هناك عدة سفارات باتجاه استانبول من طرف عائلة بربروس، رغبة في التقرب من السلطان العثماني ومحاولة كسب تأييده، وقاد هذه السفارات شخصيات معروفة ومقربة من العائلة الحاكمة، وأهم هذه السفارات:

أ-سفارة بيري رئيس* إلى استنابول:

مرت عدة سنوات عن أول اتصال بين الإخوة بربروس والسلطان العثماني قبل الانضمام الرسمي للدولة العلية[2]، وتعتبر هذه المرحلة الممتدة من 1514–1518م الإرهاصات الأولى لانضمام المغرب الأوسط للدولة العلية، فقد أرسل الإخوة بربروس وفدا لمقابلة السلطان سليم الأول بقيادة محي الدين بيري رئيس، والذي كان شخصية معروفة لدى السلطان العثماني لأنه ابن أخت كمال رئيس، الذي أرسله بايزيد الثاني لنجدة

1 – محمد فريد بك المحامي: المصدر السابق، ص ص206، 207.

* – اسمه محي الدين بيري رئيس بحار وجغرافي تركي ابن أخت كمال رئيس الذي أرسله السلطان العثماني بايزيد الثاني لنجدة مسلمي الأندلس، قدم إلى سواحل غربي المتوسط رفقة كمال رئيس لنجدة الأندلسيين، اشتهر بكتابه –كتاب البحرية– الذي رسم فيه خرائط مفصلة لسواحل وموانئ البلاد المطلة على البحر المتوسط، خير الدين بربروس:المصدر السابق، ص ص 63،62.

2 – محمد دراج: "تأسيس الإيالة الجزائرية"، **مجلة عصور**، ع16، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، جوان، ديسمبر 2010، ص44.

مسلمي الأندلس، ولقد آثر الإخوة أن يكون على رأس الوفد المسافر لاستانبول شخصية معروفة ومؤثرة وكأنهم يقولون للسلطان نحن في خدمتك وخدمة السلطنة العلية، وسنكمل المهمة التي بدأها والدكم والرايس كمال في خدمة المسلمين في الجهة الغربية للمتوسط، وها نحن نقدم لكم الولاء والطاعة المطلقة حتى نكون عبيدكم المخلصين، خاصة ونحن نعلم أن عروج في بداية أمره كان في خدمة قرقود الذي دخل في صراع ضد أخيه سليم الأول[1]، ولذلك كان لابد من إصلاح العلاقة بين الإخوة والسلطان العثماني.

يقول خير الدين «... غادر بيري رئيس تونس في ستة قطع بحرية، فوصل إلى استانبول في اليوم الحادي والعشرين من خروجه، رسا في الساحل المقابل لسراي بورنو (Saray Bornu)، محييا السلطان بإطلاق قذائف المدفعية... استقبل السلطان بيري رئيس وتفضل بقراءة رسالتي بنفسه فسرّ بذلك كثيرا وبما قمت به أنا وأخي عروج من غزوات».[2]

إذن نلاحظ أن هذه السفارة تمت والإخوة بربروس مستقرين بتونس و لم تصل سيطرتهم بعد أراضي المغرب الأوسط ربما باستثناء جيجل، فقد كان أول اتصال رسمي بين الإخوة بربروس والسلطان سليم الأول وهنا نلاحظ نية الإخوة الاستعانة بالسلطان من أجل مقاومة الإسبان المحتلين لسواحل بلاد المغرب الإسلامي خاصة وأنهم عاشوا في تونس لفترة من الزمن وعلموا ضعف سلطانها وتقاعسه في نصرة إخوانه المسلمين سواء في الأراضي التابعة له مثل بجاية أو في نصرة إخوانه الموريسكيين الذين كانوا في حاجة ماسة لكل مسلم لإنقاذهم من كل أنواع التعذيب والتنكيل الذي مورس عليهم من طرف الإسبان.[3]

لقد تمكن الإخوة بربروس من إقامة علاقات مع الباب العالي[4] ونالوا مباركة السلطان سليم الأول وتأييده لهم، فقد تفضل بقراءة رسالتهم بنفسه والدعاء لهم بالنصر والتمكين، وفي ذلك يقول خير الدين: «... بعد قراءة رسالتي رفع يديه المباركتين بالدعاء لنا ولبحارتنا، اللهم بيض وجهي عبديك عروج وخير الدين في الدنيا والآخرة، اللهم سدد رميتهما واخذل أعداءهما وانصرهما في البر والبحر».[5]

إن قراءة الرسالة من طرف السلطان سليم الأول هو دليل قاطع على الأهمية والمكانة التي يشغلها الإخوة عنده، فلا يعقل أن السلطان يقرأ رسائل إنسان عادي ليس له أهمية تذكر، ولكن قراءة هذه الرسالة

1 - مجهول: المصدر السابق، ص58.
2 - خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص 64.
3 - مجهول: المصدر السابق، ص67.
4 - نيقولاي إيفانوف: المرجع السابق، ص 122.
5 - خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص 64.

دليل على أن السلطان كان يتتبع أخبار هؤلاء المغامرين ويولي لهم أهمية قصوى، فقد أحاطهم بالرعاية في أول فرصة تتاح لهم، وبالتالي إصلاح العلاقة التي كانت متوترة بين الطرفين، على اعتبار أن عروج كان يؤيد قرقود على حساب سليم الأول، وبذلك صفح هذا الأخير عن كل الأخطاء الماضية التي ارتكبها الإخوة بربروس.[1]

تخلل هذه الرحلة إرسال هدايا إلى السلطان العثماني تفضل بقبولها والاطلاع عليها واحـــدة واحـــدة إضافة إلى سماحه لسفن بيري رئيس بالرسو قريبا من قصره، على الرغم من أنه حتى الآن لم تتجرأ أية ســـفينة على الاقتراب من الساحل المحاذي للقصر[2]، وذلك للثقة المطلقة الموجودة بين السلطان والإخوة بربروس ممثلين ببيري رئيس.

لقد سُرَّ السلطان بهدايا الإخوة فوجه إليهم رسالة شكر وتقدير، ودعا لهم بالنصر، وبـــذلك تتأكـــد العلاقة الرسمية بين الطرفين منذ هذه السفارة وتزداد متانة وقوة، فأرسل السلطان مجموعة مـــن الهـــدايا منـــها قادرغاتين مجهزتين، بالإضافة إلى سيفين حلّيت قبضة كل منهما بالمـــاس، وخلعـــتين ســـلطانيتين ونيشـــانين ملكيين.[3]

وقد تخلل إرسال الهدايا السلطانية إلى الإخوة بربروس إرسال خط همايوني[*] لا يعرف محتـــواه، إلا أن الخط الهمايوني الثاني الذي بعثه إلى السلطان الحفصي يأمره فيه بضرورة تنفيذ التعاليم الواردة فيه والتحذير بلغة التهديد من مخالفته[4][**]، والذي يمكن استنتاجه من هذه الرواية، أن الإخوة بربروس كانوا قد دخلوا تحت سلطة الدولة العلية بشكل رسمي وساروا منذ ذلك التاريخ تحت حمايتها.

إن الملاحظ على هذه السفارة أنها كللت بالنجاح التام، فقد أصلحت العلاقة التي كانت متوترة بـــين الإخوة بربروس والسلطان سليم الأول[5]، وكذلك سمحت بدخول الإخوة تحت حماية السلطنة العلية، بالإضافة بالإضافة إلى ذلك كله أصبح للإخوة بربروس سندٌ قويٌ يشد أزرهم ويحميهم من الأعداء والمتربصين بهم.

---

1 – نيقولاي إيفانوف: المرجع السابق، ص180.

2 – خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص64.

3 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص47.

* – أمر ملكي أو سلطاني الذي يصدره السلطان العثماني إلى رعاياه أو رجال دولته.

4 – خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص68.

** – «... إلى أمير تونس إذا وصلك كتابي هذا عليك أن تعمل به، واحذر أن تخالفه وإياك أن تقصر في تقديم أي عون لخادمينا عـــروج وخـــير الدين...»، المصدر نفسه.

5 – نيقولاي إيفانوف: المرجع السابق، ص122.

لكن لا يوجد لدينا ما يدل على أن السلطان العثماني قد عين عروج أو خير الدين في أي منصب رسمي باسم الدولة العلية[1]، وعليه فإن هذه المرحلة من علاقاتهم بالدولة العلية اتسمت بضمان الحماية لهم وتطابق سياسة الإخوة في غرب المتوسط مع سياسة الدولة العلية الرامية إلى التوسع في كامل الأراضي الإسلامية، وإنقاذ مسلمي الأندلس، وكان لهذه السفارة أهميتان كبيرتان على مستقبل الوجود العثماني في بلاد المغرب هما:

1. أنها أعطت الصبغة الرسمية للعلاقة بين الإخوة بربروس والدولة العلية، وذلك من خلال الحماية التي قدمها السلطان العثماني للبحارة الأتراك في المغرب الإسلامي.
2. تحول العلاقة بين السلطان الحفصي والإخوة بربروس من دور الحليف الناصر إلى الخصم المناوئ بحيث بدأ السلطان الحفصي يجاهر بعداوته للإخوة بدافع الخوف على عرشه[2]، وفي ذلك يقول خير الدين «... منذ هذه اللحظة تغير موقف السلطان منا، وبدأ يبدي لنا خلاف ما يبطن، لما يجده في نفسه من حسد، لقد أدرك أننا لم نعد مجرد قراصنة بائسين مجردين من أية حماية، بل صرنا في خدمة وحماية السلطان العثماني المعظم...والابتعاد عنا خوفا من أن نأخذ منه مملكته لحساب السلطان سليم خان».[3]

والملاحظ أن الإخوة بربروس أصبحوا يدركون فعلا أن حماية السلطان سليم زادهم قوة وثقة بأنفسهم ولا يريدون الخضوع إلا له، وهذا ما أدركه السلطان الحفصي الذي أحس أن السلطنة العلية ممثلة في الإخوة بربروس باتت تهدد سلطانه المتهالك داخليا والمهدد خارجيا، لذلك اضطر لإعلان العداوة المباشرة لهؤلاء الأخوة.

ب-سفارة مصلح الدين قورد أوغلو رئيس

أما السفارة الثانية فكانت بقيادة مصلح الدين قورد أوغلو رئيس إلى الإسكندرية في حدود 1517م ودامت حوالي شهرين، وقد وصل هذا الوفد إلى الإسكندرية ترافقه عدة قطع بحرية، وذلك أثناء وجود السلطان سليم الأول بالقاهرة، الذي احتفى بهذا الوفد وأمر له بمعدات وجنود، فعاد مصلح الدين بهذا كله إلى مدينة الجزائر كما ذكر ذلك خير الدين.[4]

1 - محمد دراج: المرجع السابق، ص ص، 44، 45.
2 - نفسه، ص 45.
3 - خير الدين: المصدر السابق، ص69.
4 - نفسه.

أما دوافع هذه الزيارة والقرارات التي عادت بها من طرف السلطان العثماني فلا يوجد أي دليل على وجود رسالة أو خط همايوني أُرسل إلى خير الدين وعروج بل قد يكون الأمر حدث عرضا.[1]

ومع ذلك فقد استطاعت هذه السفارة توطيد العلاقة أكثر بين الطرفين، ومواصلة تأكيد السلطنة العلية دعمها للإخوة بربروس وذلك بإرسال المعدات الحربية وبعض الجنود.

3- المرحلة الثانية: مرحلة الانضمام الرسمي 1519م

كانت السفارة الثالثة في حدود 1519م بقيادة حسين آغا، وممثلا عن سكان مدينة الجزائر الشيخ أبي العباس أحمد بن القاضي[2*]، يقترحون على السلطان سليم الأول تبعيتهم للدولة العلية والدخول تحت حماية سلطانها ويتعهدون بقراءة الخطبة باسمه لأنهم بحاجة إليه، وهم مخلصون له في باطنهم وظاهرهم.[3]

وتم هذا الأمر بعد استشهاد عروج ومبايعة أهل مدينة الجزائر خير الدين ملكا عليهم، هذا الأخير الذي أعلن لأعيان المدينة بأنه لا يقوى على رد النصارى بمفرده[4] وقد رأى كثرة المؤامرات والدسائس التي يحيكها ضده الزعماء المحليين في مناطق مختلفة من البلاد لذلك طلب منهم الاستنجاد بالسلطان العثماني.[5]

أُستقبل الوفد من طرف سليم الأول الذي بالغ في إكرامه، وبعد عدة مناقشات بين الطرفين وافق على طلبهم، وبعث بقرار تعيين خير الدين بايلرباي على الجزائر، مع سيف مرصع وخلعة سلطانية مذهبة وراية الإمارة وسفينتين محملتين بالأسلحة، يرافقهم 2000 جندي من الإنكشارية[6]، وهذا العدد من الإنكشارية يعتبر يعتبر النواة الأولى للجيش البري بإيالة الجزائر.

1 – محمد دراج: المرجع السابق، ص46.

2 – عبد الجليل التميمي: "أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول 1519م، **المجلة التاريخية المغاربية**، ع6، تونس، جويلية 1976، ص ص119، 120.

* – انفرد المهدي البوعبدلي برواية تقول أن ابن القاضي لما رأى خطر الصليبية كاتب الدولة العلية وهي التي أرسلت عروج وإخوته إلى بلاد المغرب لنجدته و لم نجد في كل المصادر والمراجع التي اطلعنا عليها أي سند لهذه الرواية و لم يحدث أي اتصال بين الإخوة بربروس والدولة العلية في هذه المرحلة، المهدي بوعبدلي: المرجع السابق، ص 279.

3 – ينظر نص الرسالة في الملحق رقم (02).

4 – جمال قنان: نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1500-1830م، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 1431هـ/210م، ص42.

5 – عبد الجليل التميمي: المرجع السابق، ص119.

6 – أندريه ريمون: المرجع السابق، ص21.

كانت نتيجة عملية الاستنجاد مقرونة بالبيعة الطوعية وليست ناتجة عن الحروب والغزو، فالدولة العلية لم يكن في نيتها ضم المغرب الأوسط بالقوة، لذلك لم يتردد السلطان سليم الأول في قبول هذه البيعة لأنها فتحت الطريق لوصول العثمانيين بسهولة إلى الحوض الغربي المتوسط[*1]، فكان ذلك إيذانا ببداية العهد العثماني في الجزائر الذي استمر من 1519م إلى 1830م.

4- انعكاسات تأسيس الإيالة الجزائرية

أ- داخليا

1. أدى تأسيس الإيالة الجزائرية وانضمامها الرسمي للدولة العلية إلى بداية تاريخ مرحلة جديدة، اتسمت بميلاد الدولة الجزائرية الحديثة، ممتدة على نفس الرقعة الجغرافية وبنفس الحدود الحالية تقريبا[2] وبنفس العاصمة الحالية، وبذلك ساهم العثمانيون في رسم الخريطة الجغرافية الحالية للجزائر.[3]
2. القضاء على التفرقة والانقسام اللذين كانا سائدين آنذاك في بلاد المغرب الأوسط، الذي تميز بكثرة الدويلات والانقسام السياسي[4] مما سهل على الإسبان احتلالهم للكثير من السواحل المغاربية عامة وسواحل المغرب الأوسط خاصة.
3. التصدي للهجمات الإسبانية على السواحل الجزائرية وبداية التحرير الفعلي للكثير من هذه السواحل مثل تحرير صخرة البنيون عام 1529م وبجاية عام 1555م، وتلمسان 1556م، ولم يبق من الاحتلال الإسباني للسواحل الجزائرية إلا المرسى الكبير ووهران، بالإضافة إلى تحرير تونس وطرابلس الغرب والتي ساهمت الإيالة الجزائرية في تحريرهما بشكل فعال.[5]

* - أشار عبد الحميد بن أشنهو إلى أن تنصيب الحكم العثماني في الجزائر كان سنة 1505 على عكس ما ذهبت إليه كل المصادر والمراجع التي رجحت تاريخ 1519م أو 1520م...، عبد الحميد بن أشنهو: "الدور الذي لعبته الجزائر في القرن السادس عشر في البحر المتوسط"، **مجلة الأصالة**، ع8، الجزائر، 1974، ص294.

1 - خليد فؤاد طحطح: العلاقات المغربية العثمانية خلال العصر الحديث-القرن السادس عشر أواخر القرن الثامن عشر-، كان التاريخية، دورية إلكترونية محكمة، ربع سنوية، ع14، ديسمبر 2011م، ص107.

2 - محمد دراج: المرجع السابق، ص49.

3 - محفوظ قداش: "الجزائر في العهد التركي"، **مجلة الأصالة**، ع52، الجزائر، 1977م، ص 07.

4 - الشافعي درويش: علاقات الإيالات العثمانية في غرب المتوسط مع إسبانيا خلال القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، مذكرة شهادة ماجستير، قسم التاريخ، المركز الجامعي غرداية، 1431-1432م/2010-2011م، ص49.

5 - أرزقي شويتام: نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهياره 1800-1830م، ط1، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2011، ص ص 17، 18.

4. تنظيم بلاد المغرب الأوسط وإخضاعها للسلطان العثماني، فقد امتد الحكم العثماني من الحدود التونسية شرقا إلى الحدود المغربية غربا، ما عدا وهران والمرسى الكبير، ليصل فيما بعد في فترة حكم صالح رايس إلى الواحات الجزائرية جنوبا وورقلة وتقرت عام 1552م.[1]

5. تم تقسيم إيالة الجزائر ابتداء إلى قسمين: شرقي وغربي في عهد عروج، وبقي هذا الأمر إلى غاية حكم حسان بن خير الدين، حيث أعاد تنظيمها إلى أربع بايلكات (عمالات)، وعين على رأس كل واحد منها نائبا يسمى الباي، وهذه البايلكات هي:

أ. دار السلطان (الجزائر وما جاورها).

ب. بايلك الشرق ومركزه قسنطينة.

ج. بايلك الغرب مركزه مازونة، معسكر، ثم وهران بعد تحريرها 1791م

د. بايلك التيطري مركزه المدية.

وبقي هذا التنظيم قائما إلى غاية نهاية الحكم العثماني.[2]

ب-خارجيا

1. يمكننا القول أن انضمام الجزائر للدولة العلية لم يكلف هذه الأخير أي تبعات مالية أو عسكرية على اعتبار أن الإخوة بربروس لم يكونوا تابعين للدولة العلية بشكل رسمي، ولذلك هذا التأسيس يتحمل تبعاته الإخوة بربروس وسكان بلاد المغرب الأوسط، أما الدولة العلية فقد جنت الثمار فقط لتتوسع الخريطة الجيوسياسية لها، على عكس ما جرى في فتحها للشام ومصر.[3]

2. تميزت الإيالة الجزائرية عن غيرها من الولايات العثمانية، لِكونها ذات طابع خاص، فعرفت بناء على ذلك بنيابة الجزائر، نظرا لموقعها المتميز وظروفها التي حولتها إلى قاعدة للوجود العثماني في غرب المتوسط[4]، لتتحمل فيما بعد عبء المسؤولية في إدارة شؤون طرابلس الغرب بعد تحريرها من الوجود الإسباني عام 1551م، وبعدها إدارة شؤون إيالة تونس بعد تحريرها أيضا من الاحتلال الإسباني عام 1574م.[5]

---

1 – أرزقي شويتام: المجتمع الجزائري...، المرجع السابق، ص 34.

2 – يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص ص 23، 24.

3 – محمد دراج: المرجع السابق، ص48.

4 – محمد سي يوسف: المرجع السابق، ص54.

5 – محفوظ قداش: المرجع السابق، ص07.

3. شكلت الإيالة الجزائرية خط المواجهة الأول في غربي المتوسط ضد الاحتلال الإسباني، وقد أوكلت إليها مهمة إلهاء الإسبان عن المشاركة في الحروب الأوروبية ضد الدولة العلية في المجر والنمسا، وذلك بطريقتين مهمتين عبرتا عن ذكاء حكام الإيالة الجزائرية وهما:

أ. التصدي للهجمات الإسبانية على السواحل الجزائرية، ونقل المعارك إلى أماكن تواجد الاحتلال الإسباني مثل طرابلس الغرب وتونس أو حتى السواحل الإسبانية نفسها.[1]

ب. المساهمة وبفعالية عالية في إنقاذ مسلمي الأندلس من الاضطهاد الإسباني.[2]

4. بعد التأسيس الرسمي للإيالة الجزائرية وانضمامها للدولة العلية، سادت موجة من الرعب في أوروبا عامة وإسبانيا خاصة، تذكروا من خلالها الفتح العثماني للقسطنطينية الذي أرعب أوروبا في ذلك الوقت، لأن هذا الانضمام كان يعني لهم ببساطة وصول الخطر العثماني، ليس لقواعدها العسكرية الموجودة على طول السواحل المغاربية فقط، بل يتعدى ذلك لوجودها في الأندلس التي مازال هاجس إعادة فتحها من طرف الأتراك العثمانيين ماثلا للعيان، ويلوح لهم في كل حملة يقوم بها الغزاة، بحيث كانت إسبانيا تتوجس خيفة من هذا الخطر الداهم باتجاهها، وأكبر مؤشر على هذا التخطيط العثماني هو فتح رودس سنة 1522م[3]، ثم حصار فينا 1529م، وقد تأكد هذا المسعى حينما عزم السلطان سليمان القانوني على فتح روما بعد استيلائه على مملكة نابولي، فأرسل فيما بعد لأجل ذلك الأسطول العثماني الذي كان يقوده خير الدين بربروس، لفتح أولونيا الواقعة على البحر الأدرياتيكي وذلك سنة 1537م[4].

5. أدى تأسيس الإيالة الجزائرية وبروزها كقوة إقليمية إلى إفساد المخططات الإسبانية الرامية إلى احتلال كل السواحل المغاربية، والسيطرة على الحوض الغربي للمتوسط وطرقه التجارية، بالإضافة إلى ذلك أصبح الساسة الإسبان وعلى رأسهم شارلكان مرتبكون ولم يميزوا بين الاستمرار في تثبيت

1 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص208.
2 – أرزقي شويتام: نهاية الحكم العثماني...، المرجع السابق، ص ص17، 18.
3 – المنور مروش: دراسات عن الجزائر في العهد العثماني –القرصنة، الأساطير والواقع–، ج2، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2009، ص69.
4 – محمد دراج: المرجعالسابق، ص49.

وجودهم بأوروبا ومواجهة البروتستانت وفرنسا[1]، أو التفرغ الكامل للإيالة الجزائرية التي أصبحت تؤرقهم بهجمات بحارتها على السواحل الإسبانية وسائر السواحل المطلة على المتوسط.[2]

6. ومن أثر تأسيس الإيالة الجزائرية وانضمامها للدولة العلية أن أهالي طرابلس الغرب عندما رأوا الدعم المادي والمعنوي الذي حظي به أهالي الجزائر نتيجة لانضمام بلادهم إلى الدولة العلية، قرروا أن يبعثوا وفدا يمثلهم سنة 1530م إلى السلطان العثماني، يعرضون فيه تبعيتهم للسلطنة العلية وذلك بغية تخليصهم من الاحتلال الإسباني، فاستجاب لهم السلطان وعين لهم واليا يدعى مراد آغا لمعرفته باللغة العربية.[3]

المبحث الثاني: محركات العلاقات الجزائرية الإسبانية

إذا أردنا الحديث عن العلاقات الجزائرية الإسبانية خلال الفترة الممتدة من 1519 إلى 1800م فلا بد من الإشارة إلى أن هذه العلاقات تحكمت فيها عدة عوامل رئيسية ومنطقية لا يمكن فصل أو تغليب عامل على الآخر، فكلا الطرفين كانا يحاولا أن يجدا المبررات من أجل الدفاع عن مصالحه الخاصة، على الرغم من أن الطرف الإسباني حاول جاهدا السيطرة على بلاد المغرب الأوسط خاصة بعد سقوط غرناطة سنة 1492م، ولذلك لا يمكننا تسبيق عامل من العوامل لنقول أنه هو السبب المباشر المتحكم في هذه العلاقات، بل كل سبب كان مكملا للآخر، ومن هذه العوامل نذكر:

1-العوامل الدينية

يعتبر العامل الديني من أهم العوامل المؤثرة في العلاقات الجزائرية الإسبانية نتيجة لعدة تراكمات تاريخية ممتدة عبر تاريخ طويل، أي منذ أن بدأ الصراع المسيحي الإسلامي يطفو على السطح، ولا يمكننا إخفاء ذلك الحقد الديني الصليبي الموروث عن الحروب الصليبية، الذي ظل حيا في نفوس الكثير من رجال السلطة الدينية والدنيوية بأوربا عامة وإسبانيا خاصة[4]، وبذلك اعتبرت إسبانيا نفسها ممثلا للعالم المسيحي بعدما تمكنت من

1 – محمد خير فارس: المرجع السابق، ص30.

2 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص209.

3 – أبي عبد الله محمد ابن خليل غلبون الطرابلسي: المصدر السابق، ص100.

4 – للاستزادة حول دور الكنيسة وعلاقاتها بالحملات الإسبانية على الجزائر في العهد العثماني ينظر:

Belhamissi (Moulay) : Les relations entre L'Algérie et L'église catholique à L'époque ottomane (1615-1830), __Majallat Et-Tarikh__, 2eme semestre, Alger, 1980, pp49-70

القضاء على الوجود العربي الإسلامي في شبه الجزيرة الأيبيرية[1] وبذلك نقلت المعارك لأول مرة من أراضيها إلى أراضي بلاد المغرب الإسلامي عامة وبلاد المغرب الأوسط خاصة.

إن إسبانيا لم تغفر لسكان بلاد المغرب الإسلامي مشاركتهم الفعالة في فتح الأندلس على يد موسى بن نصير وقائده العسكري طارق بن زياد عام 91هـ، وكذلك النجدات القادمة من المغرب على يد المرابطين والموحدين والمرينيين، ولذلك سارعت لقطع الطريق على الأندلسيين حتى لا تأتيهم النجدات المغاربية مرة أخرى، ولعل الملابسات والمناخ السياسي لإسبانيا كان يترجم مدى عمق التأثير الديني الذي كان يسيطر على الناس والمسؤولين بعد سقوط غرناطة سنة 1492م، والذي ألهب حماس الإسبانيين وحفزهم على محاربة الإسلام أينما كان وخاصة على أراضيهم.[2]

إن الدولة الإسبانية التي ترعرعت ونشأت أثناء قيام دولة المسلمين بالأندلس وبقيت تقاوم الوجود الإسلامي العربي طيلة قرون عديدة قد قامت على أسس دينية صرفة[3]، أساسها التعصب الديني، ومحاولة الانتقام من كل ما يمثل الإسلام والمسلمين، والوقوف في وجه المد الإسلامي حتى لا تتكرر مشاريع المسلمين في فتح الأندلس، لأن فتح القسطنطينية سنة 1453م مازال ماثلا أمامهم، لذلك عملوا بكل جد وحزم، وقرروا الزحف إلى البلاد الإسلامية المغاربية، فلم يكن للإسبان طموح آخر سوى نقل الحرب التي كانت تجري على أراضيهم لعدة قرون إلى السواحل المغاربية التي كانوا يطمعون أن تكون تحت سلطة المسيح وسيادتهم.[4]

ومما تجدر الإشارة إليه، الدور البارز الذي لعبته الكنيسة الكاثوليكية بمدينة روما لحمل كامل البلاد المسيحية على وضع كل إمكانياتها المادية والبشرية تحت تصرف ملوك إسبانيا، من أجل طرد المسلمين من الأندلس أولا، وإخضاع بلاد المغرب لسلطة الكنيسة والملوك الإسبان ثانيا.[5]

وقد كان مصدر الحقد المسيحي الدفين ضد المسلمين ببلاد المغرب، البابا رأس الكنيسة الكاثوليكية لذلك فقد أصدر البابا ألكسندر السادس «Alexandre VI Borgia» مراسيم بابوية سنتي 1492م و 1503م

1 – عبد القادر فكاير: المرجع السابق، ص28.
2 – عبد الجليل التميمي: الخلفية الدينية للصراع الإسباني العثماني....، المرجع السابق، ص06.
3 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص71.
4 – عبد القادر فكاير: المرجع السابق، ص28.
5 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص32.

يبارك فيها إنجازات الملكين الإسبانيين فرديناند وإيزابيلا والحروب الصليبية * بإفريقيا، وطلب من جميع المسيحيين دفع ضريبة الصليب كروزادا (Crusada) لصالح الملوك الكاثوليك الإسبان.[1]

لعبت الكنيسة الكاثوليكية دورا مهما، وكان لها تأثير واضح على فكر الإسبانيين، وقد كان للمراسيم البابوية دور فعال في شن الهجومات الإسبانية على سواحل المغرب الأوسط، فمباشرة بعد سقوط غرناطة بدأ التفكير في إتمام مشروع حروب الاسترداد، وبالتالي نقل الحرب من إسبانيا إلى السواحل المغاربية، والهدف من وراء ذلك قطع الطريق أمام محاولة عودة الأندلسيين الفارين من ويلات دواوين التفتيش والاضطهاد المسيحي الإسباني وعزلهم، بهدف تعمير المدن الإسبانية وجعلها مدن مسيحية[2]، ثم إخضاع بلاد المغرب لإسبانيا تمهيدا لتنصيرها.[3]

وهذا ما سعى إليه الملكان الكاثوليكيان إيزابيلا وفرديناند لتحقيقه، فقد عبر فرديناند عن ذلك بقوله: «... أعمل لأجل الرب، ومن أجل الديانة المسيحية الكاثوليكية المقدسة، وأعمل على محاربة أعداء الإيمان المسيحي الكاثوليكي...»[4]، أما الملكة إيزابيلا فقد عملت جاهدة من أجل محاربة المسلمين بالأندلس، ومن بعدها مطاردتهم على السواحل المغاربية التي كانت ملجأ لهم فرارا بدينهم، فشرعت في تجهيز حملة كبيرة لاحتلال تلمسان لولا الموت الذي داهمها، لكنها قبل ذلك تركت وصية لمن يخلفونها في الحكم تطلب فيها منهم أن يحققوا أمنيتها التي كانت تتمنى تحقيقها أثناء حياتها، ألا وهي فتح إفريقيا **، وعدم الكف عن القتال في سبيل الدين ضد الكفار.[5]

* – على الرغم من أن الكثير يطلقون اسم الحروب الصليبية على الهجمات الإسبانية المسيحية على السواحل المغاربية، إلا أنه تاريخيا لا يمكننا إطلاق هذه التسمية، على اعتبار أن كل المؤرخين أجمعوا أن آخر الحملات الصليبية على تونس كانت سنة 1291م، وبالتالي عمليا انتهت الحروب الصليبية، ولذلك يمكننا تسمية الصراع بين الجزائر وإسبانيا بـ(الصراع الإسلامي المسيحي على الأراضي)، لأنه توجد ثلاث أنماط من الصراع الإسلامي المسيحي: الصراع حول المقدسات (القدس، والقسطنطينية)، الحروب الصليبية (ثماني حملات صليبية)، الصراع على الأراضي وهو مستمر إلى يومنا هذا.

1 – عبد القادر فكاير: المرجع السابق، ص29.

2 – حنيفي هلايلي: أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط1، دار الهدي للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2009م، ص125.

3 – محمد دراج: الدخول العثماني للجزائر...، المرجع السابق، ص120.

4 -*Braudel (F), Les Espagnoles et L'Afrique du Nord de 1492-1577*, *R.Af, N°69, Alger 1928, p. 199.*

** – لعلها أرادت بذلك أن تنتقم من الفتح الإسلامي للأندلس بمحاولة احتلال المغرب الإسلامي، لأن سكانه كانوا الداعمين الرئيسيين لجيش موسى بن نصير وقائده العسكري طارق بن زياد، لذلك لم ينس الإسبان لسكان بلاد المغرب هذا الدعم وأرادوا الانتقام منهم.

5 – محمد دراج: المرجع السابق، ص120.

وما يمكننا ملاحظته بوضوح هو الاسم الذي أطلق على إيزابيلا وفرديناند اللذان لقبا بالملوك الكاثوليك وهذا اللقب كفيل بتوضيح التعصب الكاثوليكي لهذين الملكين، فالتعصب الديني* والرغبة الجامحة في محاولة تنصير المسلمين هو الذي أدى إلى التدخل لاحتلال السواحل المغاربية.[1]

وخير دليل على هذا التعصب الديني ومحاولة القضاء على الإسلام ببلاد المغرب الأوسط، أن إسبانيا ومباشرة بعد احتلالها لوهران قامت بتحويل الجامع الأعظم إلى كنيسة، وأطلقوا عليها اسم كنيسة القديس ميكائيل، وتكرر نفس الأمر مع احتلال بجاية وفي كل مدينة احتلوها، بالإضافة إلى تعميد المغاربة قهرا واتخاذهم عبيدا بعد أسرهم إثر عمليات الاحتلال.[2]

كان الهدف الأساسي للحملات الإسبانية على السواحل المغاربية يتمثل في نشر المسيحية والقضاء على الخطر الإسلامي المتمثل في الموريسكيين، ومن بعدهم المسلمين بالمغرب الإسلامي، بل إن إسبانيا وضعت تنصير العالم في نفس مرتبة اكتشاف الذهب[3]، وهكذا عمل الإسبان على تنصير الناس والبحث عن الثروة سواء على السواحل المغاربية، أو على أراضي العالم الجديد، الذي كان قد اكتشف حديثا.

وفي مقابل هذا التعصب الديني المقيت للإسبان، كان رد فعل السكان المغاربة ردا طبيعيا على الهجمات الإسبانية، وكان شعارهم الأساسي هو رفع راية الجهاد ضد الكفار دفاعا عن إخوانهم الموريسكيين الفارين إليهم والمستنجدين بهم، ودفاعا عن دينهم ووطنهم الذي أراد الإسبان السيطرة عليه، وعلى الرغم من أن السكان المغاربة كانوا في حالة دفاع عن أنفسهم ولم يبادروا بالعدوان، إلا أنه لا يمكننا إخفاء الجانب الديني في هذا المجال.

فالخطاب السائد في ذلك العصر لدى السكان المغاربة، هو الخطاب الديني الذي يحث على الجهاد ونعت الإسبان بالكفار والملاعين والنصارى الملاحدة[4]، ولا يمكن أن تجد كلمة إسباني غير مقرونة بكلمة كفرة

*- وقع الملكان الكاثوليكيان تحت سيطرة الباباوات وخضعوا لرغباتهم الشخصية، وفي نفس الوقت. أشعر الباباوات الملكين أنهما حماة المسيحية والكاثوليكية بإسبانيا وأوروبا عامة من خطر الإسلام، مما دفع الملكين في توجيه سياستهما إلى القضاء على الوجود الإسلامي، وليشعر بقيمتهما من بعدهما ملوك إسبانيا القادمين رغبة في تطبيق مقولة الباباوات (إذا أردت أن تكون ملكا صالحا يجب أن تكون كاثوليكيا صالحا) وهكذا ربط الملكان وجودهما باعتبارهما ملكي إسبانيا بعدم وجود المسلمين. عمر بكر محمد قطب: الأبعاد النفسية للمحنة الموريسكية، كان التاريخية، دورية إلكترونية محكمة، ع9، رمضان 1431هـ/ سبتمبر 2010م، ص18.

1 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص72.

2 – محمد دراج: المرجع السابق، ص12.

3 – عبد الجليل التميمي: المرجع السابق، ص13.

4 – مهمة دفتر، العلبة رقم 06، عدد09، 994هـ.

"السبانيول"، أما ملك إسبانيا فكل المصادر تصفه بالطاغية[1] وقلما تذكر اسمه، وفي المقابل إطلاق تسمية المجاهدين على كل من يحارب المسيحيين، وكل من توفي منهم يسمى شهيدا أوجبت له الجنة في الآخرة، بالإضافة إلى الأسلاب التي يتحصلون عليها تسمى غنائم[2]، أما الجزائر في الأدبيات والخطاب الرسمي فتسمى دار الجهاد وجزائر المغازي والجزائر المحروسة، جزائر الانتصارات والحملات ضد الكفار، وكانت المدن تقيم الأفراح وتتزين عند عودة الرياس ظافرين، والحكام يحتفلون بهم ويقدمون لهم الهدايا والمكافآت[3]، وكان الجزائريون يعتبرون الجهاد ضد الإسبان من أهم الأعمال التي يجب القيام بها، دفاعا عن أرضهم ونصرة لإخوانهم الأندلسيين، وفي هذا المعنى يقول أبو القاسم سعد الله «ولذلك كان أهم مميزات العهد العثماني في الجزائر هو استمرار فكرة الجهاد ضد الكفار بالمعنى التقليدي للكلمة، وبالمعنى الذي آمن به العثمانيون، ومنذ أن أصبحوا جنودا على حدود الدولة العثمانية يغيرون على بيزنطة فيستشهدون أو يغنمون، هذا المعنى هو الذي جاء به العثمانيون للجزائر أيضا، وقد أضيف إليه جهاد الجزائريين وأهل بلاد المغرب الإسلامي ضد دار الحرب (إسبانيا)، وهؤلاء أيضا كانوا يستعلمون الجهاد في معناه التقليدي الذي ورثوه عن أجدادهم».[4]

وبالعودة إلى الوثائق الرسمية العثمانية المرسلة للإيالات المغاربية الثلاث نلاحظ بوضوح طغيان الجانب الديني على هذه المراسلات، فعادة ما يوصف الإسبان بالكفرة والمتعاونين معهم بالمرتدين والمفدسين[5] والتشديد على استعمال هذه الألفاظ الدالة على طغيان الجانب الديني في النظرة للإسبان ونعتهم بالكفار والدعاء عليهم بأن يخزيهم الله ويدمرهم.

ومن خلال ما سبق نلاحظ أن كلا الطرفين حاول أن يجعل العامل الديني هو الأساس المتحكم في العلاقة مع الآخر، فالإسبان كانوا يحملون أفكارا مسيحية متعصبة أساسها مطاردة المسلمين ومحاولة السيطرة على أراضيهم والقضاء على الدين الإسلامي نهائيا، حتى لا يفكر المسلمون في إعادة الكرة مرة أخرى لإعادة إرجاع الأندلس إلى حاضرة الإسلام.

أما الجزائريون فقد اتخذوا الدين الإسلامي كمرجع أساسي للدفاع عن أراضيهم ونصرة إخوانهم من الظلم الإسباني، فقامت الإيالة الجزائرية على هذا الأساس، وقامت بمهمة الدفاع عن الإسلام والمسلمين في الحوض الغربي المتوسط.

1 – محمد المنويب الفوراتي المفاقسي: المصدر السابق، ص26.
2 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص95.
3 – المنور مروش: المرجع السابق، ص45.
4 – أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830م، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1998، ص197.
5 – مهمة دفتر، علبة 11، عدد9، 994هـ.

2-العوامل الاقتصادية

أدت حركة الكشوفات الجغرافية الإسبانية إلى سيطرتها على مناجم الذهب والفضة في القارة الأمريكية المكتشفة حديثا، فكان لزاما عليها البحث عن أسواق خارجية لتسويق فائض إنتاجها، ويد عاملة رخيصة وغير مكلفة بالإضافة للبحث عن موارد لتمويل حروبها في أوروبا وتحقيق طموحاتها التوسعية في بلاد المغرب الإسلامي.[1]

وأمام هذه الثروة المكدسة وفائض الإنتاج، كان لزاما على إسبانيا البحث عن موانئ جديدة يكون الهدف منها وضع قواعد عسكرية بحرية لحماية الأساطيل الإسبانية المحملة والمثقلة بالبضائع من غارات البحارة الذين جعلوا من موانئ بلاد المغرب قواعد انطلاق لهم، ولذلك كان احتلال هذه السواحل يعتبر ضرورة عسكرية واقتصادية لتأمين التجارة الإسبانية في البحر المتوسط.[2]

ولا يمكننا إهمال الموقع الاستراتيجي لموانئ المغرب الأوسط خاصة الجهة الغربية منه، فقد شكلت هذه الموانئ حلقة الوصل بين خيرات إفريقيا ما وراء الصحراء، وأوروبا، حيث كانت تمر عبر المغرب الأوسط كميات ضخمة من السلع كريش النعام والعاج، لذلك كانت إسبانيا ترغب في السيطرة على الطرق التجارية واحتكار تجارة الصحراء نحو أوروبا.[3]

لعب الذهب دروا بارزا في دفع إسبانيا للتوجه بأرمادتها العسكرية إلى السواحل الجزائرية والمغاربية (خاصة ذهب السودان)[4]، الذي كانت إسبانيا تريد السيطرة عليه واحتكار تجارته، فكان لزاما عليها إذا رغبت في احتكار تجارته احتلال السواحل المغاربية، ذلك لأنه من المعلوم أن الموانئ الجزائرية على وجه الخصوص كانت تقوم بدور الوسيط بين إفريقيا وأوروبا، فأرادت إسبانيا إزاحة هذا الوسيط والتحكم مباشرة في التجارة القادمة من الصحراء.[5]

وفي مقابل الأهداف الاقتصادية الإسبانية كانت هناك أهداف اقتصادية جزائرية لا يمكن إنكارها تحت أي غطاء أو مبرر، فقد لعب الجهاد البحري الجزائري دورا مهما وبارزا في تقوية اقتصاد الإيالة الجزائرية التي كانت تعتمد بنسبة كبيرة في مداخيلها على القرصنة البحرية[*] – فقد ظلت القرصنة من الموارد والمصادر

1 – محمد دراج: المرجع السابق، ص 127.

2 – محمد العربي الزبيري: مدخل إلى تاريخ المغرب الحديث، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1985م، ص15.

3 – محمد بن حسن الوزان: المصدر السابق، ص325.

4- *Braudel (F), op.cit, p200.*

5 – محمد دراج: المرجع السابق، ص128.

* – استعمل هذا اللفظ حتى في المراسلات الرسمية بين الدولة العلية والإيالات المغاربية الثلاث.

الأساسية في ثروة الإيالة وعاملا في تنشيط الاقتصاد- إذ تنال الدولة من الغنائم حصة 12%[1] وبعد خصم الخمس -أصلا هو خمس الغنائم- الذي تأخذه الدولة وغيره من الرسوم المعتادة كما تحدده القواعد الشرعية، تضاف إليه بعض الرسوم الأخرى التي لا تتجاوز عادة 1% من مجموع الغنيمة[2]، وبالتالي القرصنة هي عمل حكومي والبايلك هو المجهز الأساسي إلى جانب المساهمين.[3]

الملاحظ إذن أن القرصنة يقوم بها رياس البحر المعيَّنُونَ من طرف الحكام الذين بدورهم يأخذون نصيبا من عوائد القرصنة نقدا، إضافة إلى مرتباتهم القارة، لذلك مثلت القرصنة مصدر ثراء للحكام وكبار المسؤولين في الإيالة، فهم أيضا ملاك سفن، فقد كانوا يملكون أفضلها ويستخدمون أحسن الرياس، وهذا يؤدي بالضرورة إلى أن أهم الغنائم تعود إليهم[4] وعندما يعود الرياس بالغنائم تأخذ الدولة نصيبها ويوزع الباقي على قبطان السفينة وكاتبها ودليلها ورئيس العملة فيها، أما الباقي فيباع بالمزاد العلني، الذي يتساوى فيه الأتراك والعرب وحتى اليهود يدخلون المزايدة، وتجدر الإشارة إلى أن الغنائم القادمة من القرصنة توزع على سكان المدن رغبة من الحكومة في مساعدة الأهالي ودفعهم لحب الثراء، ذلك لأن السكان ذوي الأصول العثمانية بمجرد حصولهم على الثروة يتوجهون إلى استانبول.[5]

وكانت الدولة تخصص نسبة حتى ولو كانت قليلة من مداخيل القرصنة للزوايا وغيرها من المنشآت الدينية، كما أن جميع طبقات المجتمع مثل البوابين، الحراس، الكيالين، باعة المزاد العلني، الحمالين... وغيرهم يتقاضون أجورا ومكافآت بقدر عملهم من ناتج الغنائم[6]، وقد انتسب المشتغلون في نظام القرصنة إلى كل المستويات الاجتماعية من أعلى هرم السلطة الحاكمة إلى أبسط عامل في أسواق الإيالة، خاصة الساحلية منها.[7]

إن اقتصاد الإيالة الجزائرية كان يعتمد بنسبة كبيرة جدا على مداخيل الجهاد البحري الذي كان مزدهرا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، ولا يمكننا إنكار فضل الجهاد البحري في نمو

1 - حنيفي هلايلي: "القرصنة وشروط افتداء الأسرى الإسبان في الجزائر خلال العهد العثماني"، **مجلة الآداب والعلوم الإنسانية**، ع4، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، 1426هـ/2005م، ص244.

2 - المنور مروش: المرجع السابق، ص461.

3 - بليل رحمونة: "موارد إيالة الجزائر المالية في مطلع القرن التاسع عشر"، كان التاريخية، دورية إلكترونية محكمة، ع13، سبتمبر2011م، ص21.

4 - المنور مروش: المرجع السابق، ص462.

5 - حمدان بن عثمان خوجة: المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق، محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2006م، ص80.

6 - المنور مروش: المرجع السابق، ص461.

7 - بليل رحمونة: المرجع السابق، ص 21.

اقتصاد الإيالة الجزائرية، ولذلك لعب الجانب الاقتصادي دورا مهما في العلاقات بين الطرفين، فكل طرف له مشاريعه وأهدافه التي يريد تحقيقها.

3-القضية الموريسكية

تعتبر القضية الموريسكية من أهم العوامل المؤثرة في العلاقات الجزائرية الإسبانية، نظرا لحساسية هذه القضية التي تصدرت الأحداث في الحوض الغربي للمتوسط طيلة القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر الميلاديين، حيث كانت الإيالة الجزائرية من بين أهم الدول التي عبرت عن تعاطفها ودعمها اللامشروط للأندلسيين بحكم الدين الإسلامي المشترك، ووجوب مد يد العون لمساعدتهم أولا، وبحكم المأساة الإنسانية التي تعرضوا لها على يد الإسبان ثانيا.[1]

وقد اختلفت أشكال الدعم وتباينت من طرف الجزائريين بحيث لم تدخر الإيالة الجزائرية أي جهد وفتحت مدنها أمام هؤلاء الأندلسيين[2] وقامت بتجهيز الحملات البحرية من أجل إنقاذهم من البطش الإسباني ولعل من أبرز الحملات الجزائرية لإنقاذ الأندلسيين، الحملة البحرية التي قادها كل من إيدين رايس وصالح رايس سنة 1529م بأمر من خير الدين بربروس، والتي أسفرت عن إنقاذ ونقل حوالي 600 موريسكي إلى الإيالة الجزائرية، على الرغم من المخاطر التي شكلها الأسطول الإسباني والاشتباك البحري الذي وقع بين الأسطولين الجزائري والإسباني بمحاذاة جزر البليار.[3]

وتذكر المصادر التاريخية أن خير الدين استطاع إنقاذ حوالي 70 ألف موريسكي خلال سنة 1529م وحدها، ويدل هذا على مدى الدور الفعال الذي قام به خير الدين من أجل إنقاذ الآلاف من الأندلسيين ونقلهم إلى السواحل الجزائرية[4]، ونتيجة لهذا الدور الذي قامت به الإيالة الجزائرية في إنقاذ ومساعدة الأندلسيين، بعث هؤلاء برسالة إلى السلطان العثماني سليمان القانوني سنة 1541م، أثنوا فيها على جهود خير الدين وأشادوا بمآثره وبطولاته[5]، والعمل على مساعدتهم عندما تنكر لهم الإخوة والجيران وتكالب عليهم أهل الشرك بالتعذيب والتنكيل والقتل، فقالوا في رسالتهم: «...وأحاطت بنا الأعداء من كل جانب ورمونا بقوس

1 - عبد الجليل التميمي: "الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين"، **المجلة التاريخية المغربية**، ع23/24، تونس، نوفمبر 1981م، ص 194.

2 - حنيفي هلايلي: دراسات وأبحاث في التاريخ الأندلسي الموريسكي...، المرجع السابق، ص24.

3 - محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس-العصر الرابع- نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، ط4، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 1417هـ/1997م، ص388.

4 - عبد الجليل التميمي: "رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1541م" **المجلة التاريخية المغربية**، ع3، تونس، 1975م، ص40.

5 - حنيفي هلايلي: المرجع السابق، ص25.

واحد بسهم صائب وطالت بنا الأيام، وعاثت فينا يد النكاية والإيلام، وخذلنا جيراننا وإخواننا ببلاد المغــرب من أهل الإيمان وقد كان بجوارنا الوزير الأكرم المجاهد في سبيل الله خير الدين وناصر الدين وسيف الله علــى الكافرين...».[1]

وتواصلت مساعدة الإيالة الجزائرية للموريسكيين طوال القرن السادس عشر المــيلادي، خاصــة وأن هؤلاء كانوا يساهمون في نشاط الجهاد البحري ضد الإسبان، وكان المهاجرون يقُصُّون على إخوانهم في بــلاد المغرب الإسلامي قصص الحروب والاضطهاد، النهب والاعتداء على حرمة المساجد والمقدسات، فأثاروا بذلك عواطفهم وطلبوا منهم المساعدة لإنقاذ إخوانهم الباقين في الأندلس.[2]

ومن خلال المسار التاريخي نلاحظ أن الإيالة الجزائرية عبرت دائما عن تأييدها للأندلسيين، فخــلال ثورتهم سنة 1568م أعلن قلج علي تأييده لهم من خلال تجهيزه للأسطول الجزائري، وحــاول إنــزال الجنــد الجزائريين في الأماكن المتفق عليها مع الأندلسيين، لكن الإسبان علموا بمخطط هــذه الثــورة فأفشــلوها في مهدها.[3]

ظلت القضية الموريسكية من أهم القضايا التي شغلت بال بايلربايات الجزائر وعبّروا في الكــثير مــن المرات عن دعمهم وتأييدهم لإخوانهم في الدين، مما شكل عاملا أساسيا في توتر العلاقات الجزائرية الإســبانية وقد لعبت الثورة الموريسكية دورا إيجابيا لصالح الإيالة الجزائرية، ذلك أنها جمدت تقدم القوات الإسبانية باتجاه الإيالة وكذلك شتتتْ جهودهم داخليا وخارجيا[4]، مما أعطى فرصة إضافية خاصة في عهد قلج علــي باشــا بتوحيد البلاد داخليا، وعلى إثر فشل الثورة الأندلسية قام حكام الإيالة بتضييق الخناق على الإسبان في مــديني وهران والمرسى الكبير اللتين بقيتا تحت سيطرتهم بعد تحرير كامل التراب الجزائري، بل أكثر من ذلك حــاولوا نقل المعارك إلى إسبانيا نفسها، ومثال ذلك هجوم الأسطول الجزائري على السواحل الشرقية والجنوبية لإسبانيا حيث تم تحطيم المنشآت، وغنم ما بها انتقاما لإخوانهم الأندلسيين.[5]

---

1 – عبد الجليل التميمي: المرجع السابق، ص45.

2 – محمد خير فارس: المرجع السابق، ص17.

3 – للمزيد حول هذه الثورة، ينظر: ليلى الصباغ: "ثورة مسلمي غرناطة عام 976هـ/ أواخر عام 1568م والدولة العثمانية"، **مجلة الأصالة**، ع27، الجزائر، 1975م ص ص 117، 174.

4 – محمد سي يوسف: المرجع السابق، ص136.

5 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص382.

لقد ساهم الأندلسيون مساهمة فعالة في تثبيت الحكم العثماني بالجزائر، وعلى الرغم من أنهم يمثلون الأقلية، فإنهم ساهموا إلى جانب عروج في المعارك ضد الإسبان سنة 1516م، وتضاعف دورهم في عهد خير الدين والذين جاؤوا من بعده، حيث كانوا يحملون غلا وبغضا ضد من اضطهدوهم وطردوهم من ديارهم[1]، وكان المسلمون الذين أجبرتهم ظروفهم على البقاء في إسبانيا يتصلون سرا بالرياس الجزائريين ويمدونهم بالمعلومات ليقوموا بمهاجمة الإسبان دون عوائق.[2]

أدركت إسبانيا خطورة هذا التعاون المشترك بين الطرفين الأندلسي والجزائري فشددت المراقبة على موانئها، بل قررت إنشاء مليشيات[3] لرد الهجمات الخطيرة التي تأتي من الجانب الجزائري الذي كان يسعى لإنقاذ أكبر عدد ممكن من الأندلسيين، ولذلك كان رد إسبانيا عنيفا فزادت من هجماتها ضد الجزائر.

إذن لعبت القضية الموريسكية خلال القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر الميلاديين دورا مهما وخطيرا في توتر العلاقات بين الطرفين.

4- العلاقات الجزائرية العثمانية

مع بداية الارتباط الرسمي للإيالة الجزائرية بالدولة العلية، أصبحت العلاقات الجزائرية العثمانية متميزة، بحيث ألقي على عاتقها الدفاع عن المصالح العثمانية في الحوض الغربي للمتوسط، ومحاولة إلهاء الإسبان عن المشاركة في الحروب الأوروبية العثمانية، وبدأ التعاون الفعلي بين الطرفين للوقوف في وجه المشروع الاستعماري الإسباني، خاصة بعد الانتصارات التي حققها خير الدين ضد الإسبان، ومساعدته في إنقاذ الأندلسيين ونقلهم إلى السواحل الجزائرية[4]، وقد شكلت الجزائر خلال هذه المرحلة عاصمة المغرب الإسلامي بالنسبة للدولة العلية، وجبهة صراع متقدمة في الحوض الغربي للمتوسط، لذلك سميت بدار الجهاد.[5]

والملاحِظ لهذه العلاقات يجدها ارتكزت على ثلاثة عوامل رئيسية.

---

1 – عبد الجليل التميمي: الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين...، المرجع السابق، ص 195.

2 – محمد خير فارس: المرجع السابق، ص17.

3 – عبد الجليل التميمي: رسالة من مسلمي غرناطة...، المرجع السابق، ص39.

4 – الشافعي درويش: المرجع السابق، ص58.

5 – رقية شارف: "تشكل الكيانات السياسية للمغرب العربي في إطار الدولة العثمانية الفترة الحديثة"، **مجلة الدراسات التاريخية**، ع13، جامعة الجزائر2، الجزائر، 1433هـ/2011م، ص 135.

1. الدفاع عن الإيالات المغاربية الثلاث، وتحريرها من الاحتلال الإسباني.
2. مساعدة الأندلسيين ومحاولة إنقاذهم من دواوين التفتيش.
3. إلهاء الأساطيل الأوروبية خاصة الإسبانية منها عن المشاركة في الحروب العثمانية الأوروبية، التي كانت تدور رحاها في الجهة الشرقية من أوروبا.

اشتد الصراع العثماني ضد الإسبان، وأصبح أكثر عنفا بظهور الإيالة الجزائرية التي أصبحت سندا للعثمانيين وصارت تشكل حجر عثرة في وجه المخططات الإسبانية الهادفة إلى السيطرة على كامل السواحل المغاربية، من المغرب الأقصى غربا إلى طرابلس الغرب شرقا، وهذا ما زاد من تقوية جانب المسلمين على سواحل الإيالات المغاربية ورد الهجمات الإسبانية، وهذا ما فسر من طرف القادة الإسبان على أنه تهديد مباشر لسلامة الأراضي الإسبانية، وخطرٌ حقيقيٌ على الوحدة الروحية المسيحية.[1]

وتعتبر الإيالة الجزائرية امتدادا طبيعيا للدولة العلية، التي أمدت الإيالة ببعض خصائصها ومنها خاصيتها العسكرية، بحيث حافظت الإيالة على الصبغة العسكرية حتى تكون على استعداد دائم لمواجهة الهجمات الأوروبية المتكررة[2]، خاصة الإسبانية منها، مما أكسبها نوعا من القوة والصمود ودرأ عنها الكثير من الأخطار[3]، وقد تركزت العلاقات الجزائرية العثمانية على محاربة الإسبان وحفظ البلاد وحراستها من الخطر الأجنبي.[4]

حققت الإيالة الجزائرية عدة إنجازات منذ تأسيسها أبرزها تحرير بجاية سنة 1555م، وتلمسان 1563م فسادت موجة من الرعب في نفوس الملوك الإسبان وبدؤوا يدركون خطر التحالف العثماني الجزائري، فأكثروا من الهجمات ضد الإيالة الجزائرية، لعلهم بذلك يحدون من خطر هذا التعاون، ومما زاد من رعب الإسبان تولي خير الدين قيادة الأسطول العثماني، لأن السلطان سليمان القانوني كان عازما على غزو إسبانيا[5] وبذلك جمع خير الدين بين منصبين هامين هما: منصب قبطان داريا قيادة الأسطول العثماني وبايلرباي إيالة الجزائر، وبهذه الخطوة الهادفة يمكننا التأكيد أن السلطنة العلية تأكدت من الأهمية الاستراتيجية للجزائر لمواجهة إسبانيا في

1 – عبد الجليل التميمي: "الخلفية الدينية للصراع الإسباني العثماني"، المرجع السابق، ص 09.
2 – حنيفي هلايلي: بنية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني، ط1، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007م، ص12.
3 – يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص19.
4 – عبد الجليل التميمي: المرجع السابق، ص27.
5 – محمد دراج: المرجع السابق، ص275.

الحوض الغربي للمتوسط، وإلهائها عن المشاركة في الحروب الأوروبية العثمانية[1]، وبذلك ارتبط مصير الإيالة الجزائرية بمصير الدولة العلية، على الأقل في هذه المرحلة التي زادت فيها إسبانيا من الهجمات على السواحل الجزائرية، لعلها تقضي على هذه الإيالة.

أخيرا يمكننا القول أن العلاقات الجزائرية العثمانية لعبت دورا بارزا ومهما في تحديد نوعية العلاقات الجزائرية الإسبانية، لذلك لا يمكننا فصل علاقة الطرفين بإسبانيا.

5- الاحتلال الإسباني لتونس وطرابلس الغرب

كانت تونس وليبيا إحدى جبهات الصراع الإسباني الجزائري، فمباشرة بعد تأسيس الإيالة الجزائرية وانضمامها الرسمي للدولة العلية ألقي على عاتقها مهمة تحرير طرابلس الغرب وتونس من الاحتلال الإسباني وقد تحملت الإيالة الجزائرية عبء هذه المسؤولية في ظل أوضاع دولية وإقليمية خطيرة، تميزت بتعاون جزائري عثماني في مواجهة الخطر الإسباني في الجهة الغربية للمتوسط، وبعد تحرير الجزائر لمعظم سواحلها انتقلت للدفاع عن جيرانها بمباركة ومؤازرة الدولة العلية.

وفي ظل الصراع المسيحي الإسلامي، والتقاء المغرب الإسلامي مع الدولة العلية في رابطة الدين والعقيدة، أخذت بلاد المغرب مكانها في هذا الصراع، مما مكنها من الوقوف في وجه المشروع الإسباني[2] وشكلت تونس إحدى جبهات الصراع الجزائري الإسباني بحكم موقعها الاستراتيجي في حوض المتوسط وكذلك رغبة العثمانيين في بسط نفوذهم على كامل الجهة الغربية للمتوسط وطرد الإسبان من الأراضي الإسلامية، ولذلك توجه خير الدين بحملة عسكرية إلى تونس واستطاع فتحها بسهولة سنة 1534م، ونادى بإسقاط الحفصيين، وإعلان تبعيتها للدولة العلية، لكن تخوف الإسبان من هذا الفتح وتقوية مركز خير الدين في المتوسط ومن ورائه الدولة العلية والإيالة الجزائرية، جعلهم يعقدون اتفاقا مع مولاي الحسن (1526-1542م) يتم بموجبه احتلال تونس من طرف الإسبان الذين قاموا بطرد خير الدين من تونس وإعادة مولاي الحسن إلى سدة الحكم، هذا الأخير الذي ترك تونس تستباح من طرف الإسبان لمدة ثلاثة أيام، وأصبح بذلك تابعا وخادما لشارلكان وسلم له قلعة حلق الوادي[3]، ومما سهل الاحتلال الإسباني لتونس، تعاونه مع القوى المحلية التي قبلت بشروط المعاهدة التي أمضيت مع الإسبان.

---

1 - مهمة دفتر، علبة11، عدد 158، 993هـ.

2 - رقية شارف: المرجع السابق، ص 134.

3 - أحمد فواد متولي: تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي، إتراك للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2002م، ص ص 256، 260.

وأمام هذه المستجدات قرر خير الدين نقل المعركة إلى السواحل الإسبانية واختار جزر البليار، خاصة مدينة مينورقة التي هاجمها في سبتمبر 1535م، ثم عـــاد إلى مقر حكمه الجزائر محملا بالغنائـــم الوفيرة ومعهم 6 آلاف أسير[1]، وقد استطاع خير الدين من خلال هذه الحملة أن يحقق هدفين رئيسيين هما:

1. الرد على احتلال تونس بضرب الإسبان في عقر دارهم.
2. إثباته للإسبان مدى قوته وعزيمته رغم هزيمته بتونس، مما أربك المخططات الإسبانية على الســـواحل المغاربية.

أما في عهد قلج علي (1568-1571م) فقد تمكن سنان باشا من طرد الإسبان من تونس وتحريرها نهائيا سنة 1574م لأن بقاءها بيد الإسبان كان يشكل خطرا على الإيالة الجزائرية والدولة العلية، لـــذا كـــان مـــن الضروري تحريرها وقد شاركت الإيالة الجزائرية في جميع مراحل التحرير بدءا من 1535م إلى غاية 1574م.[2]

أما طرابلس الغرب فقد تم احتلالها من طرف إسبانيا ســـنة 1510م بقيـــادة بيـــدرو نفـــارو «Pedro Navarro» وبقيت تحت سيطرتهم إلى غاية تسلميها لفرسان القديس يوحنا سنة 1530م الـــذين اســـتقروا بهـــا وحصنوها وجعلوها مقرا لهم[3]، فقد أدرك فرسان القديس يوحنا خطر العثمانيين خاصة بعد دخول خير الدين لتونس في أوت 1534م، وقد تميزت العلاقات بين الطرفين الليبي وفرسان القديس يوحنا بالعداء الدائم، نتيجـــة للممارسات التعسفية ضد السكان المحليين.[4]

لم يهدأ للعثمانيين بال وهم يرون طرابلس الغرب تحت نير الاحتلال الإسباني، ولذلك كانوا يحـــاولون المرة تلوى الأخرى لتحريرها، فقد تمكن خير الدين من مهاجمة طرابلس سنة 1531م، لكن الإســـبان بقيـــادة جاسبارو دي سان جنسيا «Casparo de sanguisa» استطاعوا الثبات ورد هذا الهجوم، لذلك توجه خـــير الدين إلى تاجوراء لتأديب بعض القبائل العربية المتعاملة مع قوات الفرسان يوحنا، فحررها وتم تولية قائد مـــن رجاله اسمه خير الدين كرمان[5]، ورغم الهجمات المتتالية لفرسان القديس يوحنا عليها إلا أنهـــم لم يســـتطيعوا

---

1 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص126.

2 – محمود علي عامر، محمد خير فارس: تاريخ المغرب العربي الحديث (المغرب الأقصى، ليبيا)، الجمعية التعاونية للطباعـــة، دمشـــق، ســـوريا، د.س.ط، ص155.

3 – نفسه

4 – الشافعي درويش: المرجع السابق، ص85.

5 – إيتوري روسي: طرابلس تحت حكم الإسبان وفرسان مالطة، ترجمة وتقديم، التليسي خليفة محمد، ط1، مؤسسة الثقافـــة الدينيـــة للتـــأليف والترجمة والنشر، طرابلس، ليبيا، 1969م، ص 63.

استرجاعها وذلك لفطنة وعبقرية مراد آغا الذي تولى أمر المدينة بعد وفاة خير الدين كرمان في إحدى الحملات لفرسان القديس يوحنا.[1]

وبعد وفاة خير الدين كرمان سنة 1547م تولى من بعده درغوث باشا، الذي استطاع في شهر أوت 1551م محاصرة مدينة طرابلس الغرب لمدة عشرة أيام بمساعدة عثمانية ، وبذلك أصبح سقوطها في حكم المؤكد لأن العثمانيين استطاعوا كسب السكان وتجنيدهم وخلق جبهة موحدة متحالفة، لأن النشاط الطبيعي للعثمانيين هو البيئة الإسلامية التي يتقاطعون معها في الدين والعقيدة على عكس الإسبان وفرسان القديس يوحنا الذين كانوا يقاتلون في بيئة بعيدة عن بيئتهم الحقيقية، بل هم محتلون لأراض إسلامية، لذلك قام السكان ضدهم عند أول فرصة سنحت لهم.[2]

فتحت مدينة طرابلس أبوابها للعثمانيين في 11 شعبان 958هـ الموافق لـ14 أوت 1551م، وفي ذلك يقول ابن غلبون: «...فحاصروها برا وبحرا وأخذوها عنوة، وقد طلب أهلها الأمان لأنفسهم، فأجابوهم لذلك وخرجوا منها...»[3]، وهكذا تتخلص طرابلس الغرب من الاحتلال الإسباني وفرسان القديس يوحنا نهائيا، لتدخل في طاعة الدولة العلية، هذه الأخيرة التي أدركت أنه لا يمكنها السيطرة على تونس ما لم تستطيع تحرير طرابلس الغرب، لأنها بهذه الخطوة تحاصر الإسبان الموجودين بتونس وتضعهم بين فكي كماشة، ولذلك جهزت كل طاقاتها -بمساعدة الإيالة الجزائرية- لتحرير طرابلس الغرب، وبهذه الخطوة الهامة استطاعت الدولة العلية فيما بعد تحرير تونس سنة 1574م، وبذلك دانت بلاد المغرب للعثمانيين ما عدا المغرب الأقصى، بمساهمة فعالة للإيالة الجزائرية، ولذلك لا يمكننا عزل الصراع الجزائري الإسباني عن القضية التونسية وطرابلس الغرب، فقد ساهما في توتر العلاقات بين الطرفين، على اعتبار أن الصراع كان إسلاميا مسيحيا، ولا يمكن للجزائر أن تبقى مكتوفة الأيدي وتنظر لإسبانيا وهي تحتل البلدين المشتركين معها في الدين والعقيدة والجوار.

6- العلاقات الجزائرية الأوروبية

قامت العلاقات الجزائرية الأوروبية على ثلاثة ركائز أساسية:

- الجهاد البحري-القرصنة كما يسميها الأوروبيون-.
- افتكاك الأسرى.
- التجارة.

1 - الشافعي درويش: المرجع السابق، ص50.

2 -أبي عبد الله محمد بن خليل غلبون الطرابلسي: المصدر السابق، ص94.

3 - نفسه.

إن الأوروبيين على الرغم من اختلافاتهم الكثيرة فيما بينهم، إلا أننا لم نجد ما يثبت أي تعاون جزائري مع دولة أوروبية ضد دولة أوروبية أخرى، إذا استثنينا محاولة خير الدين مساعدة فرانسوا الأول في صد عدوان شارلكان بميناء طولون مابين 1543م، 1544م[1]، ولذلك لا يمكننا تصور أن الأوروبيين كانوا يرون في الجزائر صديق ضد دولة أوروبية أخرى، بل على عكس ذلك كانوا دائما يرونها عدوا شرسا يجب القضاء عليه حينما تحين الفرصة، فقوة البحرية الجزائرية هي التي فرضت على الدول الأوروبية الخضوع لها وإمضاء الاتفاقيات معها.

وقد استطاع الملك الفرنسي فرانسوا الأول التقرب من العثمانيين منذ العقد الثالث من القرن السادس عشر الميلادي، وتوج هذا التقارب بين الطرفين بإمضاء معاهدة الامتيازات سنة 1536م، تم بموجبها حصول فرنسا على امتيازات هامة داخل الأراضي التابعة للدولة العلية بما في ذلك الجزائر، التي تحصلت منها فرنسا على حق صيد المرجان واحتكار تجارته في الشواطئ الشرقية للقالة، القل وعنابة.[2]

وعلى الرغم من أن الامتيازات بالجزائر كانت تجارية، إلا أن الفرنسيين استغلوا هذه الاتفاقية لصالحهم وبدؤوا يتمادون إلى أكثر من الجانب الاقتصادي، بل وصل بهم الأمر إلى التدخل في شؤون الإيالة الداخلية بشكل يخدم مصالحهم، ومحاولة الإيقاع بين حكام الإيالة وسلاطين الدولة العلية، ومن ذلك تدخل السفير الفرنسي في استانبول دي نوي «de Nouaille» وقيامه بتحريض السلطان سلميان القانوني ضد حسن بن خير الدين عام 1558م.[3]

لتحاول فرنسا تجسيد أطماعها الاستعمارية في عهد لويس الرابع عشر (1650-1720م) الذي عرف عنه حقده الشديد على الإسلام والمسلمين، بالإضافة إلى أطماعه الاستعمارية، لذلك أرسل جواسيسه سنة 1558م لدراسة أوضاع الجزائر واختيار المكان المناسب لاحتلالها، واقترح على وزيره كوليبو سنة 1662م احتلال القل وجيجل[4]، وحشدت فرنسا قوة بحرية ضخمة في ربيع 1664م إلا أنها منيت بالفشل، كما أنها انهزمت في مدينة الجزائر في سنة 1665م، ليوجه لويس الرابع عشر حملة إلى جيجل وقام باحتلالها لمدة ثلاثة

---

1 - محمد خير فارس: المرجع السابق، ص118.
2 - يحي بوعزيز: علاقات الجزائر....، المرجع السابق، ص48.
3 - محمد سي يوسف: المرجع السابق، ص63.
4 - يحي بوعزيز: الموجز...، المرجع السابق، ص144.

أشهر، لكن الأهالي لم يتحملوا هذا الوضع فثاروا، وتمكنوا من طرد الفرنسيين، ليضطر لويس الرابع عشر لإمضاء معاهدة مع الجزائر في ماي 1666م، ليعود الهدوء نسبيا إلى العلاقات بين الطرفين.[1]

حلت انجلترا محل فرنسا وإسبانيا في صراعهما مع الجزائر، وبدأت في مهاجمة الجزائر منذ عام 1669م والاعتداء على السفن الجزائرية في عرض البحر ثم مهاجمة بجاية سنة 1671م، والجزائر العاصمة، لتعود فرنسا مرة ثانية بقيادة دوكين«Dukoune » لمهاجمة مدينة شرشال في المرة الأولى سنة 1682م، والثانية سنة 1683م حيث رد عليه الجزائريون وقاموا باعتقال القنصل الفرنسي لوفاتي وبعض من الجالية الفرنسية وذبحهم جميعا.

وبعد حصول هولندا على استقلالها سنة 1609م – بعد ثورتها ضد إسبانيا – شاركت في التحالف الأوروبي ، فقادت حملات بقيادة الضابط فيرهور «Lambert Verhoer» سنوات 1620، 1623، 1662م، إلا أنها لم تحصل على أية نتيجة، مما اضطرها لتوقيع معاهدة مع الجزائر سنة 1679م، تتعهد فيها بتزويد الجزائر بالمدافع الكبيرة مع ركائزها اللازمة وذخائر الحرب ووسائل أخرى، على أن تجدد المعاهدة كل عام.[2]

بعد رحيل دوكين قرر الداي الحاج حسين ميزمورتو (1683-1688م) أن يعمل كل ما في وسعه من أجل تجنيب مدينة الجزائر القصف من جديد، لأنها تضررت كثيرا من الحملات السابقة، فأبلغ السلطات الفرنسية برغبته في إقامة الصلح معها، والتي رحبت بهذه الخطوة، وكُلّف تروفيل من أجل التوصل لاتفاق مع الجزائر، وتوصل الطرفان إلى عقد معاهدة عرفت باسم تروفيل يوم 25 أفريل 1684م صالحة لمدة مائة عام.[3]

لم تصبر فرنسا كثيرا بعد توقيع معاهدة تروفيل واتهمت الرياس بخرقها، لذلك قرر الماريشال دوستري القيام بحملة ضد الجزائر، فقاد حملة عسكرية ضخمة ووصل إلى الجزائر في شهر جوان 1687م وقام بقذف المدينة بحوالي عشرة آلاف قنبلة بين 01 و 16 جوان، ودمر أكثر من 500 منزل، فرد الداي على ذلك باعتقال جميع الرعايا الفرنسيين بمن فيهم القنصل بيول، وعددهم 43 شخصا وقتلهم جميعا، وبذلك عجز دوستري مرة أخرى كسابقيه في إخضاع مدينة الجزائر.[4]

أما إنجلترا فقادت حملات مماثلة لبقية الدول الأوروبية على مدينة الجزائر في سنوات 1620، 1655، 1652م، بالإضافة إلى فرسان مالطة الذين قاموا بمهاجمة مدينة الجزائر سنة 1647م، وكذلك الدانماركيين الذين قاموا بالهجوم على مدينة الجزائر سنة 1770م، وفي سنة 1719م توصلت الجزائر وفرنسا إلى تجديد معاهدة

1 – محمد سي يوسف: المرجع السابق، ص94.
2 – يحي بوعزيز: علاقات الجزائر...، المرجع السابق، ص85.
3 – نفسه، ص98.
4 – الآغا بن عودة المزاري: المصدر السابق، ص 70.

1689م التي أبرمت لمدى مائة عام. وفي عام 1744م اتهم الداي إبراهيم باشا (1732-1745م) فرنسا بالتحالف مع فرسان مالطة ضد الجزائر، وقام بإغلاق مؤسساتهم بالقالة وعنابة لمدة عام كامل، حتى أذن لهم الداي الجديد إبراهيم الصغير (1745-1748م) بفتحها من جديد.[1]

تبادلت فرنسا مع الجزائر والباب العالي عدة رسائل بشأن العلاقات الثنائية، فحضر إلى الجزائر دوسنفيل «De Senneville» مبعوثا من الملك الفرنسي لويس السادس عشر (1777-1795م)، كما وصل السعيد باي محافظ الدولة العلية يوم 26 مارس 1790م، من أجل الحصول على تجديد العمل باتفاقية عام 1689م ليتوصل الطرفان إلى توقيع معاهدة يوم 29 مارس 1790م، والتي نصت على تجديد العمل بمعاهدة 1689م مع إضافة بند يمنع الجزائريين من مهاجمة جزيرة كورسيكا، ودفع فرنسا للجزائر مبلغ ألفي سكين كل شهرين.[2]

كانت هذه الدول عندما توقع المعاهدات مع الجزائر تدفع إتاوات وتقدم هدايا معتبرة لحكام الإيالة ولذلك كانت عندما تضيق ذرعا بكثرة هذه الإتاوات والضرائب والهدايا تعمد إلى تنظيم حملات وغارات حربية على الجزائر منفردة أو مشتركة، لعلها تستطيع إنهاء التزاماتها مع الجزائر. وتاريخ الحملات الأوروبية على الجزائر طويل طول الصراع الجزائري الأوروبي، وهو وإن اختلفت أسبابه وبواعثه إلا أن هدفه واحد ألا وهو محاولة القضاء على القوات الجزائرية ووضع حد لنفوذها في الحوض الغربي للمتوسط[3]، ومثال ذلك ما حدث سنة 1620م، أين اتفقت البحرية الإسبانية والإنجليزية على قصف مدينة الجزائر وتدمير أسطولها وإطلاق سراح الأسرى الأوروبيين، إلا أن محاولتهما باءت بالفشل.[4]

ما يمكننا قوله في الأخير أن كل الدول الأوروبية اتفقت فيما بينها عندما تعلق الأمر بالجزائر، ولذلك ارتكزت العلاقات الجزائرية الأوروبية على العداء المستمر بين الطرفين مدة طويلة قاربت الثلاثة قرون، وعلى الرغم من الإتفاقيات المبرمة بين الطرفين على فترات مختلفة، فقد كانت أوروبا تضع خلافاتها جانبا في حالة حربها مع الجزائر، ولعبت هذه الدول الأوروبية أدوارا متكاملة في محاولة القضاء على الإيالة الجزائرية، فكل هذه الدول كان لها هدف واحد هو القضاء على وكر القرصنة (اللصوصية) من وجهة نظرهم، ولذلك ما إن جاءت الفرصة حتى اتفقوا على هذا الأمر في مؤتمر فينا سنة 1816م ليتم تفويض أمر الجزائر إلى فرنسا التي حققت أخيرا أمنيتها باحتلال الجزائر في جويلية 1830.

1 - يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص99.
2 - نفسه، ص 104.
3 - يحي بوعزيز: الموجز...، المرجع السابق، ص35.
4 - جون.ب وولف: المرجع السابق، ص257.

7– الأسرى

لعب الأسرى الأوربيون بالجزائر والأسرى الجزائريون بإسبانيا دورا هاما في العلاقات الجزائرية الإسبانية، لأن ظاهرة الأسر كانت إحدى أهم النتائج التي أفرزها نشاط القرصنة خلال الفترة الممتدة من سنة 1519إلى 1816م.

اختلف مفهوم القرصنة بين الجانبين الأوروبي والإسلامي، فالأوروبيون يعتبروها لصوصية، أما الجانب الإسلامي أو بالأحرى الجزائريون فيعتبروها جهادا بحريا وواجبا شرعيا للدفاع عن بلاد الإسلام التي انتهكت حرماها بعد سقوط غرناطة سنة 1492م، وهي شكل من أشكال الدفاع الشعبي ومظهرٌ من مظاهر الرفض الرسمي للهيمنة الأوروبية وتهديداتها.[1*]

لعبت إسبانيا دور الوصي على بقية الدول الأوروبية فيما يخص قضية الأسرى، حيث كانت دائما تثير هذه القضية وتتهم الجزائر باستعبادهم ومعاملتهم معاملة سيئة لا تليق بمقام الإنسان الأوروبي، وفي هذا الخصوص يقول جون وولف: «... ويخبرنا الدكتور أندرهيل بأنه كان قد جرد من ملابسه إلا ما يستر عورته وعرض للبيع رفقة الإبل، البغال، الماعز، الأرانب، المهاري، والنساء والرجال وغير ذلك من المخلوقات، إما لإشباع الشهية أو للإستعمال...».[2]

من خلال هذا النص نلاحظ أن الأوروبيين عادة ما يتهمون الجزائريين بسوء معاملة الأسرى، –مع أن الإسلام حرم الإساءة إليهم مهما كان نوعهم وجنسهم– بينما كان الرهبان العاملون في فداء الأسرى والذين يجوبون البلدان قرية قرية لجمع مبلغ الفدية، قد قدموا صورة قاتمة عن معاملة الأسرى المسيحيين من طرف الجزائريين، وحكايات مريعة حول حياتهم وأوضاعهم ببلاد المغرب.[3**]

وفي مقابل هذه الادعاءات، هناك الكثير من الأسرى الأوروبيين الذين أقروا بحسن معاملة المسلمين لهم على الرغم من اختلافهم في الدين والعقيدة والعداء الموجود بينهما، ومن أمثلة ذلك تيدنا الذي اعترف بأن

* – هو صراع حضاري بين مشروعين مختلفين تماما وهو امتداد لذلك الصراع الموجود منذ فتح الشام على يد أبو عبيدة عامر بن الجراح سنة 17 هـ في عهد عمر بن الخطاب ﷺ وبعد سقوط الدولة الفارسية التي ورثتها الدولة الإسلامية، ثم جاء دور الأمويين والعباسيين إلى غاية ظهور العثمانيين الذين حملوا على عاتقهم مسؤولية الدفاع عن حضارة الإسلام في مواجهة الحضارة الأوروبية، وكان صراعا مريرا وطويلا.

1 – حنيفي هلايلي: المرجع السابق، ص68.

2 – جون.ب.وولف: المرجع السابق، ص210.

3 – نفسه.

** – السؤال المطروح: لماذا يسكت الأوروبيون عندما يتعلق الأمر بالمسلمين؟ أم أن الأمر يتعلق بافتراءات وكذب من نسج خيال هؤلاء المتعصبين والحاقدين على كل مسلم مع أنه لا يمكننا نكران بعض الممارسات الشاذة من طرف بعض المسلمين الذين لا يلتزمون بقواعد الدين الإسلامي في معاملة الأسرى.

الجزائريين كانوا يعاملونه معاملة حسنة، قلما نجدها في أوروبا وفي ذلك يقول: «... فلم نعامل معاملة سيئة من طرف القراصنة مثلما كنا ننتظر، وبالتالي لم يجرح منهم أحد فقد كانوا إنسانيين بعض الشيء طيلة الأربعة أيام التي قضيناها للوصول إلى الجزائر... بعث إليّ بالحضور إليه وأمرني بالاقتراب منه، وقال لي هذه العبارات بحنان فريد من نوعه لقد اشتريتك لتكون عبدا لي وفي خدمتي، ولكن إذا كانت سيرتك حسنة فلا ينظر إليك كذلك، لقد تعجبت من حديث الباي أكثر من أي شيء حدث لي لحد الآن، لم أتمكن من الإدراك كيف منحني كل هذه الفضائل من الوهلة الأولى، هكذا كان علينا أن نعترف وأن أقول وداعا لبلد كنت به سعيدا جدا».[1]

هل هذه الشهادة كافية لتدل على حسن معاملة الأسرى التي أقرها الإسلام ونفذها الباي محمد بن عثمان الكبير[*]، والكثير من الجزائريين، أم أن المعاملة خاصة لتيدنا لأنه كان مثقفا والباي مسؤولا؟ أم أن الأسرى في مجملهم كانوا يعاملون هذه المعاملة؟ وهل هذه المعاملة تقارن بما كان يفعله الإسبان ودواوين التفتيش بالأندلسيين والمسلمين عموما، سواء بإسبانيا، أو حتى بسكان بلاد المغرب حينما قاموا باحتلالها؟ لم تصلنا أية إشارة من الأندلسيين أن مسؤولا ولو كان بسيطا عاملهم معاملة حسنة.

لا يمكننا إعطاء أرقام وإحصائيات دقيقة حول عدد الأسرى الأوروبيين بالجزائر خلال الثلاثة قرون (1519-1816م) وذلك لأن عددهم غير ثابت ويختلف من قرن لآخر، ومن فترة لأخرى، مع أننا يجب أن نأخذ في الحسبان طبيعة العلاقات الجزائرية الأوروبية عموما، والإسبانية خصوصا، لذلك تباينت الأرقام حول عدد الأسرى الأوروبيين في الجزائر خلال القرن السادس عشر الميلادي، فقدر عددهم بحوالي 25 ألف أسير من

1 - عميراوي احميدة: الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني (مذكرات تيدنا أنموذجا)، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2003م، ص ص 46، 58، 59، 128.

* - ولد الباي محمد بن عثمان الملقب بالكبير بمليانة ما بين 1734-1737م، كان ولده عثمان الكردي بايا للتيطري، وأمه تدعى زايدة كانت جارية ببلاط مولاي إسماعيل سلطان المغرب الأقصى، ولما قتل والده عثمان الكردي في معركة ضد أولاد نايل، حضى محمد الكبير وأسرته برعاية صديق والده الباي إبراهيم، الذي صار بايا للتيطري ثم بايا للغرب الجزائري سنة 1759-1760م، كان محمد الكبير يحظى بثقة الداي إبراهيم لخصاله الحميدة، وازداد قربا إليه بالمصاهرة، حيث زوجه ابنته فاطمة وأشركه في إدارة البايلك، وتدرج في المناصب إلى أن صار بايا للغرب الجزائري سنة 1779-1797م، وخلالها سجل الباي العديد من الإنجازات، قال عنه أبو راس الناصري «ذي المقام الذي أطلعت أزهاره غمائم جوده، واقتضى اختياره بركة جوده، الملك الأصيل الذي كرم منه الإجمال والتفصيل الرفيع الشأن، السيد محمد باي ابن عثمان أخلص الله جهاده ويسر في قهر أعداء الدين مراده بأبسط العدل والأمان، الرفيع المجاهد المرابط...»، محمد أبو راس الناصري: فتح الإله ومنته، المصدر السابق، ص100؛ بلبراوات بن عتو: "الإصلاح الثقافي للباي محمد الكبير في مدينة معسكر"، **حولية المؤرخ**، ع4/3، الأبيار، الجزائر، 2003م، ص197؛ *Gorgouos, Notice sur le Bey D'oran Mohammed Elkebir, R.Af, N°1, Alger, 1856, pp 403-406.*

جميع الدول الأوروبية[1]، كان أسرهم ناتجا عن معارك بين الطرفين مثلما حدث في حملة شارلكان على الجزائر حيث قدرت خسائره بـ 12 ألف بين غريق وقتيل وأسير[2]، فيما بلغ عدد الأسرى الإسبان سنة 1555م بعد غزو حسن بن خير الدين لجزر البليار حوالي 6 آلاف أسير[3]، أما عدد الأسرى الأوروبيين فبلغ سنة 1580م حوالي 25 ألف أسير.[4]

أما في القرن السابع عشر الميلادي والذي عرف بقرن الجهاد البحري الجزائري، نظرا للقوة التي وصل إليها الأسطول الجزائري الذي كان يجوب المتوسط طولا وعرضا، حتى وصل إلى المحيط الأطلسي، لذلك عرف عدد الأسرى ارتفاعا محسوسا نتيجة لانتعاش الجهاد البحري الجزائري، ففي الفترة الممتدة من 1607م إلى 1618م قدر عدد الأسرى بحوالي 12329 أسير، أما خلال الفترة الممتدة من 1621م إلى 1627م أَسَرَ الجزائريون ما مجموعه 20 ألفا كانوا موجودين بمدينة الجزائر[5]، وقدر عددهم سنة 1634م بـ 25 ألف أسير وارتفع العدد سنة 1635م إلى 30 ألف أسير[6]، ليبلغ عددهم سنة 1662م 21 ألف أسير.[7]

مع مطلع القرن الثامن عشر الميلادي بدأ عدد الأسرى في التراجع نتيجة لضعف البحرية الجزائرية وبداية ظهور دولتان قويتان ستمثلان فيما بعد نواة الاستعمار المعاصر، وهما إنجلترا وفرنسا، فيما بدأت إسبانيا تتراجع لتترك مكانها لهاتين الدولتين، تماما كما بدأ تراجع دور الجزائر في المتوسط. ومع مستهل القرن الثامن عشر الميلادي-1700م- بلغ عدد الأسرى 10 آلاف أسير[8] لينخفض العدد ما بين سنتي 1724-1725م إلى 2000 أسير، ويبقى هذا العدد مستقرا إلى غاية 1750م أين يرتفع إلى 7 آلاف أسير.[9]

وفي فترة حكم محمد بن عثمان باشا* الذي عمل على تقوية الأسطول البحري، زاد في عهده عدد الأسرى الأوروبيين في الجزائر، وفي ذلك يقول الزهار: «... وفي أيامه كثر الرؤساء في البحر وكانت لمراكبه

1 - أرزقي شويتام: المجتمع الجزائري...، المرجع السابق، ص 97.

2- *Haedo (F.De), op.cit, p490.*

3 - أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص275.

4 - ناصر الدين سعيدوني: ورقات جزائرية- دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني-، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2000، ص 569.

5 - وليم سبنسر: المرجع السابق، ص173.

6 - حنيفي هلايلي: القرصنة وشروط افتداء الأسرى الإسبان...، المرجع السابق، ص69.

7 - ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص569.

8 - وليام سبنسر: المرجع السابق، ص133.

9 - حنيفي هلايلي: بنية الجيش...، المرجع السابق، ص69.

*- تولى الحكم بعد وفات علي بوصبع بتاريخ 29 شعبان 1179هـ الموافق لـ 08 فيفري 1766م، كان منصفا محبا للعدل ملتزما بأحكام الشريعة، عارفا بقوانين الحكم، تقلد منصب الخزناجي، تولى منصب الداي دون منافسة، فقد بايعه آغا السبايهية والأعيان والعلماء، قال عنه=

سمعة، ومن أكبر رؤساء عصره الحاج محمد قبطان وكان له صيت في البحر، ومما وجد مقيدا في دفاتر الرؤساء أن هذا القبطان أتى بأسارى في مدة سفره في البحر ما مجموعه 24 ألف أسير من مجموع الأسرى المسيحيين فيما بلغ الأسرى الإسبان وحدهم حوالي 10 آلاف أسير»[1]، وقد اتفق مع الزهار محمد بن عبد القادر الجزائري صاحب تحفة الزائر الذي أكد هذه الرواية -ربما نقلها عن الزهار- حيث يقول: «... ولما تولى محمد باشا المجاهد أكثر من غزو ثغورها (إسبانيا) حتى لجأ أهلها إلى الجلاء والفرار إلى الداخل، وقد اجتمع منهم 10 آلاف أسير».[2]

وفي عام 1783م قرر الملك الإسباني كارلوس الثالث تجهيز حملة بحرية لغزو الجزائر، وأسند قيادتها إلى الضابط الدون أنطونيو بارسللو، فلما علم محمد بن عثمان باشا بهذه الحملة، قرر ترحيل الأسرى المسيحيين من مدينة الجزائر كي يأمن عدم ثورتهم وتعاونهم مع الإسبان، وقدر عددهم بحوالي 1548 أسير، فيما أبقى معه 304 أسير ليقوموا بالخدمات المطلوبة[3]، أما سنة 1789م فقد بلغ عددهم حوالي 2000 أسير حسب رواية فونتير دي بارادي «Venture de Paradis» الذي زار الجزائر في هذه السنة.[4]

في الأخير يمكننا القول أن الأسرى الأوروبيين لعبوا دورا هاما في توتر العلاقات الجزائرية الإسبانية نظرا للأعداد الهائلة منهم لدى الجزائر، على عكس الأسرى الجزائريين والمسلمين لدى الإسبان، الذين لم تفدنا المصادر التاريخية عن عددهم أو كيفية افتدائهم، إلا في بعض الحالات النادرة التي يتم تبادلهم بالأسرى الإسبان أو الأوروبيين.

=الزهار: «وكان لباسه ما يستر به جسده، وطعامه ما يشبع به بطنه، وفي كل سنة كان يبعث حوائجه (ملابس) للخياط ليرقّعها ولا يفصل ثوبا إلا إذا لم يجد كيف يرقع القديم، ومن عادة الملوك ووزرائهم أن يحملون اليطاغات (نوع من السيوف) من الذهب وقت اجتماعهم في الحكم مع الأمير، وحين يذهبون معه للصلاة وقت انفصال الحكم (انقضاء المجلس) يذهبون لبيوتهم لكن هذا الأمير كان يحمل يقطانا من الفضة، ولو ما جرت به العادة ما كان يحمله أصلا، توفي يوم الثلاثاء 09 ذو القعدة 1205هـ الموافق لـ 12 جويلية 1791م»، أحمد الشريف الزهار: مذكرات أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر، تحقيق، أحمد توفيق المدني، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010م، ص 39؛ بلبراوات بن عتو: "الداي محمد بن عثمان باشا وسياسته 1766-1791م"، **مجلة عصور**، ع7/6، جامعة وهران، الجزائر، جوان/ ديسمبر 2005م، ص ص89، 90؛ أحمد توفيق المدني: محمد بن عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791م، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010م، ص ص 101، 102.

1 - أحمد شريف الزهار: المصدر السابق، ص39.

2 - محمد بن عبد القادر الجزائري: تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، ج1، شرح وتحقيق، محمود حقي، ط1، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، سوريا، 1384هـ/1964م، ص ص 109، 110.

3 - يحي بوعزيز: المراسلات الجزائرية الإسبانية في أرشيف التاريخ الوطني لمدريد (1780-1798م)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993، ص24.

4- *De Paradis (Venture), Alger au XVIII E Siècle, Alger, Typographie Adolphe Jourdan place du Gouvernement, 1898, p03.*

المبحث الثالث: الصراع الجزائري الإسباني (1519–1538م)

تعتبر سنة 1519م حدثا بارزا غيّر مجرى تاريخ بلاد المغرب الأوسط قاطبة، ليتحول ابتداء من هذا التاريخ إلى إيالة قوية تابعة للدولة العلية يحسب لها ألف حساب من طرف القوى الأوروبية، خاصة إسبانيا متزعمة أوروبا في هذه الفترة، لذلك بدأ حكام الإيالة الجزائرية يعملون على تقويتها وتوحيدها سياسيا، حتى تستطيع مواجهة التحديات المحيطة بها في الجهة الجنوبية من أوروبا التي كانت تريد السيطرة على بلاد المغرب الأوسط، وقد أدى ظهور الإيالة الجزائرية إلى إحداث توازن بين الطرفين، مما أنتج صراعا طويلا أدى تدريجيا إلى انحصار النفوذ الإسباني على السواحل الجزائرية.

عندما وصل خبر استشهاد عروج إلى مدينة الجزائر، بايع أهلها وأعيانها وعلماؤها خير الدين أميرا عليهم، وفي أثناء ذلك اعتقدت الكثير من القبائل أن سلطة الإخوة بربروس قد تلاشت باستشهاد اثنين منهم وبدأت بإعلان تمردها وتنصلها من التزاماتها تجاههم مثل تنس وشرشال، أما في تلمسان فقد السلطة فيها الأمير الزياني أبو حمو الذي امتد نفوذه إلى مليانة، وأصبح بذلك على مقربة من مدينة الجزائر.[1]

بادر خير الدين بعد هذه البيعة بالتصرف بحزم تجاه القبائل والمدن المتمردة على سلطته، فأرسل قواته لتأديب شرشال وتنس، أما القبائل ذات النفوذ والقوة فقد أخّر أمرها إلى أن يتم فيه ترتيب البيت الداخلي جيدا وضبط أموره[2]، لأنه كان يدرك ما كان ينتظره من مصاعب، خاصة وأنه بقي وحيدا يصارع على عدة جبهات داخلية وخارجية كانت تتطلب الحكمة والتريث تارة والحزم والشدة تارة أخرى.

1– حملة هوغو كودي مونكاد 1519م

بادر خير الدين في تقوية أركان إيالته الحديثة خاصة بعد أن احتمى بالدولة العلية، وما إن علمت إسبانيا بهذا الانضمام، حتى فزعت لأنها كانت تدرك أن الإنضمام معناه اقتراب الدولة العلية من سواحلها، وبالتالي تهديد وجودها مرة أخرى لذلك كان لزاما عليها القيام بعمل يقوض أركان الإيالة الجزائرية ويقضي عليها في مهدها، حتى لا تتقوى وتكون عقبة في وجه توسعاتها في بلاد المغرب، فأرسلوا إلى عميلهم وحليفهم أبي حمو الزياني ملك تلمسان من أجل الاستعداد للمشاركة في حملة على مدينة الجزائر، واتفق الطرفان على أن يهاجمها أبو حمو من البر، أما القوات الإسبانية فتهاجمها من البحر.[3]

1 – محمد دراج: المرجع السابق، ص227.
2 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص71.
3 – أحمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة...، المرجع السابق، ص189.

وصلت الحملة الإسبانية بقيادة كودي مونكاد «Hugo de Moncada» ونائبه كونزا ألفو مارينو دي ريبرا «Gonzalvo Marino de Ribera» وقد كانت الحملة مشكلة من 40 سفينة على متنها 5 آلاف مقاتل[1]، ومباشرة بعد وصولهم إلى مدينة الجزائر بعثوا برسول عنهم إلى خير الدين يهددونه ويتوعدونه ويأمرونه بالخروج، وإلا سيكون مصيره كمصير أخويه إسحاق وعروج[2]، لكن خير الدين كان رده حازما تجاه هذه التهديدات مخاطبا إياهم بقوله: «... ماذا لنا معشر الغزاة في قيد الحياة، فإنكم لا تظفرون من الجزائر بحجر من أحجارها، وليس بيننا وبينكم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين...»[3]، وما إن وصل الجواب إلى قائد الحملة الإسبانية حتى أمر ببدء الهجوم.

واختار الجيش الإسباني الساحل الممتد على يسار وادي الحراش ميدانا لعملياته ضد مدينة الجزائر، إلا أن خير الدين استطاع استدراج القوات الإسبانية لمقاتلتها في البر[4] والبدء في مناوشتها حتى ينال التعب منها حينها يهاجموها مرة واحدة ويقضون عليها، وقد قام خير الدين وقواته بقطع خطوط الإمداد الخلفية مستغلين الاضطراب الذي حصل عند القوات الإسبانية نتيجة تأخر وصول قوات أبي حمو الزياني[5]، وقد جرت معارك بين الطرفين برا وبحرا دامت مدة ثلاثة أيام، انتهت بهزيمة نكراء للقوات الإسبانية[*] التي أجبرت على الفرار مخلفة وراءها 14 ألف بين قتيل وأسير.[6]

وهكذا استطاع خير الدين وقواته من العثمانيين والسكان المحليين التصدي لهذه الحملة، وقد أسفرت على عدة نتائج نذكر منها:

- انهزام الإسبان وتحطم أسطولهم المهاجم وفقدانهم لجزء كبير من جنودهم بين أسير وقتيل.

---

1 – حكمت ياسين: "الغزو الإسباني للجزائر في القرن السادس عشر ميلادي أسبابه، مراحله، نتائجه"، **مجلة الأصالة**، ع 15/14، الجزائر، 1973م، ص 246.

2 – ابن رقية الجديري التلمساني: المصدر السابق، ص10.

3 – مجهول: المصدر السابق، ص95.

4 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص190.

5 – خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص 242.

* – يختلف المؤرخون حول سبب هذه الهزيمة إلى ثلاثة أقوال: يذهب ألتر أن سبب الهزيمة يرجع إلى الخلاف الذي نشب بين مونكادا ونائبه، فكان الأول يريد الهجوم فورا، بينما فضل الثاني انتظار قوات أبي حمو الزياني، عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص77.

– أما جون وولف فيضيف سببا آخرا وهو العاصفة الهوجاء التي ضربت مدينة الجزائر، وتسببت في تدمير 26 سفينة من مجموع 40 سفينة إسبانية جون وولف: المرجع السابق، ص33، وهكذا هو ديدن المؤرخين الأوروبيين الذين يعزون انتصارات الجزائر إلى الطبيعة.

– أما القول الثالث فيرجع سبب الانتصار إلى مناورة وعبقرية خير الدين بربروس، أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص192.

6 – ابن رقية الجديري التلمساني: المصدر السابق، ص11.

- زيادة شعبية خير الدين واتساع رقعة التأييد له داخليا نتيجة لهذا التحدي الذي رفعه في مواجهة القوات الإسبانية، واتساع رقعة شهرته أوروبيا، حيث أصبح يحسب له ألف حساب.
- زيادة العداء لخير الدين من طرف أميري تونس وتلمسان عملاء الإسبان خوفا من ضياع ملكهما نتيجة الشعبية المتزايدة والتأييد الذي يلقاه من طرف السكان، خاصة بعد مواجهته للقوات الإسبانية منذ قدومه إلى تونس.
- البداية الفعلية لتوازن القوى بين الطرفين وسقوط العامل النفسي الذي كان سائدا والاعتقاد بأن الإسبان قوة لا تقهر.

لم يتقبل الإسبان هذه الهزيمة، لذلك فكروا في إعادة الكرة مرة أخرى، وكان ذلك سنة 1520م، حيث جهزوا حملة مكونة من 110 قطعة بحرية يقودها الإمبراطور نائب شارلكان على صقلية الأميرال فرديناند[1]، ولما سمع خير الدين بقدوم هذه الحملة قام بشن هجوم مفاجئ ومعاكس على الأسطول الإسباني أحدث فوضى واضطرابا داخل صفوفه، وغدت السفن الإسبانية تصطدم ببعضها البعض فاسحة المجال للقوات الجزائرية لتوجيه سير المعركة، التي أسفرت في نهايتها عن انهزام الأسطول الإسباني وأسر قائده فرديناند مع 36 قبطانا و300 بحار إسباني، وتحطيم قسم كبير من سفن الأسطول وفرار قسم والسيطرة على قسم آخر.[2]

2- خير الدين في مواجهة الفتن الداخلية

عندما استولى عروج على تلمسان قام بإطلاق سراح أخوي السلطان مسعود وعبد الله اللذين كانا مسجونين، وبعد استشهاد عروج عاد أبو حمو الزياني الذي كان قد لجأ إلى فاس، أما أخواه فتفرقا، فعبد الله طلب دعم الإسبان الموجودين بوهران، أما المسعود فدخل تحت حماية خير الدين الذي أرسل كتابا إلى زعماء القبائل بالغرب يدعوهم إلى خلع سلطة أبي حمو ومبايعة أخيه المسعود[3]، فأجابوه إلى ذلك، واجتمع للمسعود حوالي 20 ألف مقاتل بالإضافة إلى القوات العثمانية، التي كان قد بعثها خير الدين وتوجهت هذه القوات إلى تلمسان لملاقاة أبي حمو، الذي فر وترك الحكم لأخيه مسعود، هذا الأخير الذي جلس على عرش تلمسان تابعا لخير الدين[4]، لكنه سرعان ما خرج عن طاعته وأعلن استقلاله عنه، فاستغل أخوه عبد الله هذه الظروف

1 - محمد دراج: المرجع السابق، ص243.

2 - عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص79.

3 - محمد بن عبد القادر الجزائري: المصدر السابق، ص95.

4 - مجهول: غزوات عروج وخير الدين، اعتنى بتصحيحه وتعليق حواشيه، نور الدين عبد القادر، المطبعة الثعالبية والمكتبة الأدبية، الجزائر، 1353هـ/1934م، ص47.

واستنجد بخير الدين معلنا طاعته وولاءه له مقابل نصرته على أخيه، فاستجاب خير الدين على الفور لهذا الطلب مخافة من تدخل الإسبان لدعم أحد الأطراف واستغلاله لصالحهم، وكذلك لفرض سلطته على تلمسان وإعلان دعمه لعبد الله، مقابل أن تضرب السكة وتقرأ الخطبة باسم السلطان العثماني.[1]

وبمجرد مغادرة خير الدين لتلمسان أقبل المسعود في جيش كبير من أنصاره، وفرض حصارا عليها استمر لمدة قاربت الثلاثة أشهر، لذلك قرر خير الدين إرسال قوات لمساندة الخليفة عبد الله المحاصرة في تلمسان، وقد استطاعت القوات العثمانية فك الحصار والقضاء على قوات المسعود وأسره ووضعه في السجن إلى أن توفي.[2]

ظلت إسبانيا خلال القرن السادس عشر الميلادي أهم خطر خارجي يهدد كيان الإيالة الجزائرية حديثة النشأة، أما داخليا، فإن زعماء القبائل المحلية وبالتعاون مع سلطانيّ تونس والمغرب الأقصى، فكانوا من أهم العوائق في وجه خير الدين من أجل إكمال مشروعه في توحيد المغرب الأوسط.

قسم خير الدين مناطق بلاد المغرب الأوسط التي حررها من الاحتلال الإسباني إلى قسمين:

شرقي: يترأسه رفيقه وصديقه في الجهاد أحمد بن القاضي، وغربي يترأسه رجل يقال له محمد بن علي[3] وكان يعتقد أنه باستطاعته أن يعتمد على الرجلين في حكم البلاد وعن طريق أبنائها مباشرة[*]، تاركا لمدينة الجزائر السلطة العليا في توجيه السياسة الخارجية خاصة في مجال الحرب والسلم.[4]

ونتيجة لحرب الزعامات بين أحمد بن القاضي المقرب من خير الدين والأمير عبد العزيز ملك قلعة بني عباس، هذا الأخير الذي كان يرى نفسه مظلوما، لذلك أعلن تمرده على خير الدين، وطاعته للملك الحفصي بتونس، الذي كان يحيك المؤامرات ضد خير الدين، ويحرض ابن القاضي ضد ولي نعمته، إلا أن هذا الأخير لم يستجب له ووبخه على الخيانة، ودعاه إلى لزوم الطاعة للأتراك والتبعية لهم[5]، وفي ذلك يقول مجهول في كتاب غزوات: «فأجابه أحمد بن القاضي: يا عجبا أي شيء فعله معك خير الدين من الشر حتى تكتب لي فيه بمثل ما كتبت، فإني لا أقدر على خيانته ولا يساعدني قلبي على المكر به، فقد رأيت في أيامه وفور الجاه وبسط اليد

1 – محمد دراج: المرجع السابق، ص245.
2 – مجهول: سيرة المجاهد...، المصدر السابق، ص120.
3 – نفسه، ص104.
* – ربما كان يعتقد أنه إذا حكم السكان المحليين سلطة محلية يتفادى بها تمرد ومؤامرات السكان، ولكن سنلاحظ فيما بعد تغير هذه الفكرة وسيكون للأتراك السلطة الفعلية في كل المناطق نتيجة المؤامرات التي حيكت ضد خير الدين.
4 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 195.
5 – خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص109.

ووفور الحشمة ولبس الملف الجيد وانتقاء السلاح المصوّب، وركوب الخيل المسوّمة مالم أره قبل دولته، فاقطع طمعك مني فإني لا أتابعك على ما تريد، ولا يحصل مني ندم إن شاء الله»[1] ، ثم لم يلبث ابن القاضي أن تـــوفي وولّي إمارة كوكو ابنه الذي راسله السلطان الحفصي محرضا إياه ليثور ضد الأتراك ووعده بالدعم والمســـاندة[2] واتفق معه على تشتيت قوات خير الدين، فبينما يهاجمه هو من الشرق وقارة حسن من الغرب، ويقـــوم ابـــن القاضي (الابن) بمهاجمته من الجنوب.[3]

ولما بلغ الخبر خير الدين قرر الخروج لمحاربة السلطان الحفصي بقوات تعدادها 12 ألف مقاتل ووقعت معركة رهيبة بين الطرفين دارت دائرتها على السلطان الحفصي الذي وقع في الأسر، ولكن خير الدين أطلـــق سراحه وقام بتحذيره من محاولة إعادة الكرّة مرة ثانية*، وهذا لكي يظهر مدى تمسكه بوحـــدة الصـــف مـــع السلطان الحفصي.[4]

وبعد هذا الانتصار ولما كان خير الدين راجعا إلى الجزائر، إذ به يتفاجأ بهجوم شنه عليه ابن القاضـــي (الابن) ورجاله، وألحقوا بقواته خسائر فادحة، وخسر في هذه المعركة حوالي 750 بحـــارا في ظـــرف ثـــلاث ساعات، و لم يتمكن من النجاة مع بعض رجاله إلا بصعوبة بالغة[5]، فيما استطاع ابن القاضي إثـــارة ســـكان الجبال وبعض أعيان مدينة الجزائر ضد الأتراك، فانتشر التمرد في سائر المناطق التي كانت خاضعة لخير الدين[6]، الدين[6]، ومما زاد الطين بلة أن قارة حسن أعلن تمرده، واتصل بابن القاضي من أجل تنسيق الجهود للقضاء على على خير الدين، ولما سمع هذا الأخير بذلك تبرأ منه في انتظار الفرصة المواتية لتأديبه.

وفي ظل هذه الظروف الصعبة التي كان يمر بها خير الدين وأتباعه قرر الرجوع إلى جيجل، ثم نـــادى الأشراف والأعيان وطلب منهم إقامة صلح مع حاكم تونس والمتمردين من أمثال ابن القاضي (الابن) وقـــارة حسن، وبمجرد مغادرة خير الدين للجزائر سنة 1520م دخل ابن القاضي مع مقاتليه وعاثوا في مدينة الجزائـــر

1 – مجهول: المصدر السابق، ص45.

2 – مجهول: غزوات عروج وخير الدين...، المصدر السابق، ص 45.

3 – محمد دراج: المرجع السابق، ص250.

*– قام خير الدين بهذه الخطوة لعدة اعتبارات منها: ربما كان أكثر بُعدا للنظر ويريد وحدة الصف مع كامل بلاد المغرب ضد الإسبان، وأيضا ردا للجميل الذي كان قد أسداه السلطان الحفصي أبو عبد الله للإخوة بربروس في بداية قدومهم إلى الحوض الغربي للمتوسط، ويريد كسب حليـــف ضد الإسبان الذين مازالوا متمركزين ببجاية وتونس وطرابلس الغرب.

4 – خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص110.

5 – نفسه.

6 – محمد دراج: المرجع السابق، ص250.

فسادا، وارتكبوا الكثير من المظالم ضد أهلها[1]، ونتيجة لأعمال السلب والنهب التي قام بها ابن القاضي ورجاله قرر أعيان مدينة الجزائر إرسال وفد عنهم إلى خير الدين، الذي كان مقيما بجيجل يراقب الأحداث عن بعـــد وينتظر الفرصة المواتية للعودة إلى الجزائر، وما إن حل الوفد الذي طلب منه الرجوع إليهم، حتى قَبِل خير الدين دعوتهم وعجّل السير إلى الجزائر ترافقه جموع كبيرة من القبائل الراغبة في قتال ابن القاضي.[2]

التقى الطرفان في مكان يقال له ثنية بني عائشة بمنطقة القبائل، وأسفرت المعركة عن انهزام جيش ابـــن القاضي، وتفرّق عنه أتباعه لما علموا أنه لا طاقة له في مواجهة خير الدين، فتآمروا على قتله ودبـــروا حيلـــة للتخلص منه، فبينما كان ينظم جيشه استعدادا للمعركة إذ وثب عليه بعضهم بحربته فطعنه بها فقتله.[3]

وما إن علم أهل الجزائر بقدوم خير الدين حتى خرجوا لاستقباله واستبشروا بقدومه، وكان دخولـــه إليها يوما مشهودا[4]، وبعد مكوثه أياما قرر الخروج لملاقاة قارة حسن الذي أعلن تمرده، فلاحقه خير الدين إلى إلى شرشال وألقى عليه القبض هناك وقتله[5]، وهكذا تم إخماد أخطر حركة تمرد ضد الوجود العثماني في الجزائر الجزائر بعد أن كادت تأتي على كل جهود الوحدة والتحرير التي قام بها الإخوة بربروس خلال عشرة أعـــوام من الجهاد.

و لم يكن من خاسر في هذه الفتن الداخلية إلا بلاد الجزائر وسكانها الذين ما كادوا ينعمـــون بـــبعض الطمأنينة والهدوء حتى عادت الاضطرابات إلى صفوفهم، ومن حسن الحظ أن الإســـبان لم يســـتغلوا هـــذه الظروف السيئة لاحتلال مدينة الجزائر وباقي المدن المحررة، وبذلك ساد الهدوء وعادت اللحمة من جديد وبدأ خير الدين التفكير في مواصلة تحرير المناطق المتبقية تحت الاحتلال الإسباني.

أدرك خير الدين أنه لا يمكنه بناء دولة بالمغرب الأوسط ما لم يتم القضاء على الفتن الداخلية، فمـــا إن تم القضاء على تمرد ابن القاضي وقارة حسن بشرشال وسلطان تلمسان، حتى حدثت ثورة مضـــادة بمدينـــة الجزائر سنة 1527م، وذلك بإيعاز من أتباع ابن القاضي وبعض أعيان مدينة الجزائر، الذي رأوا استتباب الأمر لخير الدين خطرا على مصالحهم، فعزم خير الدين على مواجهة هذا التمرد بالحكمة والقســـوة في آن واحـــد،

1 - عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص81.

2 - مجهول: المصدر السابق، ص 253.

3 - مجهول: سيرة المجاهد...، المصدر السابق، ص135.

4 - نفسه، ص136.

5 - عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص85.

ففي البداية حاول ثنيهم عن فعلهم بطريقة سلمية مستعينة بالعلماء[1]، ولكن زعماء التمرد رفضوا وساطة العلماء وأصروا على مواصلة التمرد.[2]

وبعد محاولة العلماء ثني المتمردين عن فعلهم، أصدروا (العلماء) فتوى بوجوب القضاء على رؤوس الفتنة وتحريم التعاون معهم، فقام خير الدين بالقبض عليهم وقتل من ثبت تواطؤه[3]، وشرد الباقين وبذلك انتهى هذا التمرد واستتب الأمر لخير الدين بمدينة الجزائر وما حولها.

ما يمكن ملاحظته أن خير الدين أخذ العبرة من تمرد ابن القاضي (الابن) لذلك أصبح لا يتهاون في ضرب أي تمرد يحدث وبسرعة، مثلما حدث ما بين سنتي 1526م و 1527م، حيث قرر ملاحقة المتمردين بكل من تنس وشرشال وقام بتشريدهم وقطع رؤوس زعمائهم، وقام بنفس الفعل مع التمرد الذي حدث بقسنطينة سنة 1528م، حيث قتل المتمردون قائد المنطقة الذي عينه خير الدين، هذا الأخير الذي واجههم بحزم وأذعن فيهم السيف وقاتلهم وسيطر على المدينة[4]، أما أمير منطقة القبائل حسين بن القاضي أخو أحمد بن القاضي فقد أعلن طاعته وطلب العفو من خير الدين الذي عفا عنه شريطة دفع 30 حملا من الفضة كل سنة.[5]
سنة.[5]

وبهذه الأعمال استطاع خير الدين القضاء على التمردات الداخلية التي أنهكت قواه، وشتتت جهوده في توحيد بلاد المغرب الأوسط، الذي تأخرت وحدته بفعل هذه الأعمال لمدة قاربت العشرة سنوات، كان الخاسر فيها السكان المحليون الذين كانوا ضحية الطرفين: خير الدين الطامح لإقامة إيالة تابعة للدولة العلية هدفها توحيد البلاد لمواجهة الخطر الإسباني، والزعماء المحليين الذين تضررت مصالحهم من جراء هذا الوجود لذلك حاولوا بكل الطرق التصدي له، فتارة بالتمرد وتارة أخرى الاستعانة بالإسبان وثالثة بالتآمر مع أميري تونس والمغرب الأقصى.

3– تحرير قلعة البنيون (Le Pégnon)1529م

1 – مجهول: المصدر السابق، ص122.

2 – محمد دراج: المرجع السابق، ص256.

3 – مجهول: المصدر السابق، ص122.

4 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص85.

5 – مجهول: المصدر السابق، ص140؛ أما ألتر فقد ذكر أن مقدار ما تعهد به حسين بن القاضي ثلاثون يوك من الفضة...، عزبز سامح ألتر، المرجع السابق، ص 85.

من حسن حظ خير الدين والإيالة الجزائرية أن الإسبان لم يشنوا أي هجوم على مدينة الجزائر طيلة الفترة الممتدة من 1520 إلى 1529م، واكتفوا بتواجدهم في صخرة البنيون التي كانت تقف حجر عثر في توحيد الجزائر نهائيا في الجهتين الوسطى والشرقية.

وبمجرد ما إن استقر الأمر لخير الدين بعد أن تم له السيطرة على كل المناطق المتمردة، خاصة في مدينة الجزائر بدأ التفكير في إزالة الإحتلال الإسباني نهائيا من صخرة البنيون[1]، والتي جاء أخوه عروج إليها أساسا لتحريرها سنة 1516م، لذلك كان أول عمل قام به خير الدين التفكير في طرد الإسبان من أقرب نقطة يشكلون بها خطرا على الإيالة الجزائرية تدفعه في ذلك عدة أسباب نذكر منها:

1. شكلت قلعة البنيون خطرا حقيقيا كان يجب إزالته، لأن الجزائريين كانوا يعتبرونها إهانة حقيقية لهم لأنها تتحكم في مصير تحركاتهم ذهابا وإيابا.[2]
2. لم يعد ميناء جربة بتونس مناسبا لخير الدين الذي أصبح يملك حوالي 20 سفينة، ناهيك على ضِعْف العدد الذي يملكه حلفاؤه القباطنة، وأصبح لزاما عليه البحث عن ميناء جديد يتحمّل هذا العدد من الأسطول البحري[*]، ولذلك رأى في ميناء الجزائر ضالته خاصة وأنه قريب من حصن إقامته.
3. كان هدف خير الدين توحيد بلاد المغرب الأوسط، لكن القلعة شكلت عائقا أمام إنجاز هذا المشروع لذلك قرر تحريرها نهائيا لكي يتسنى له توحيد الجهتين الشرقية والوسطى من الجزائر، ثم التفرغ لمقارعة الإسبان في الجهة الغربية التي ستكون الهدف المقبل له.
4. باحتلال الإسبان للقلعة أصبحت مدينة الجزائر كلها تحت رحمتهم، ولم يعد الأهالي قادرين على ممارسة أي نشاط تجاري بحري دون الرجوع للإسبان، ناهيك عن دفع الضرائب التي أنهكت قواهم، وإذا لم يدفعُوا أو يتأخروا في الدفع تكون مدينتهم عرضة لقصف المدفعية الإسبانية[3]، لذلك قرر خير الدين إنهاء هذه المأساة التي يعاني منها السكان نهائيا.
5. محاولة استغلال الإهمال الذي طال حامية قلعة البنيون من طرف السلطات الإسبانية، بحيث كانت تعيش في حالة من البؤس والحرمان، ولم تعد تُزودُ بما تحتاجه من المؤن والعتاد العسكري، لذلك أراد خير الدين استغلال هذه الوضعية التي أصبحت تعيشها الحامية، وتحرير قلعة البنيون نهائيا.

1 – محمد بن عبد القادر الجزائري: المصدر السابق، ص97.

2 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص86.

*– يذهب جون وولف أن السبب الحقيقي لهذا البحث هو عجز خير الدين عن استعمال سفنه بالقرب من مدينة الجزائر، لأن أسطوله الصغير لم يستطع مواجهة الحامية الإسبانية، لكن الواقع يكذّب هذا الطرح لأن خير الدين لو كان خائفا لما فكر أصلا في تدمير الحصن.

3 – محمد دراج: المرجع السابق، ص259.

وبمجرد إدراك خير الدين لهذه الحقائق حتى أرسل إلى حاكم الحصن دون مارتين دي فيرغاس « Don Martin de Vergas» يطلب منه تسليم القلعة والانسحاب منها دون أن يصاب ومن معه بأذى، إلا أن الحاكم الإسباني رفض عرض خير الدين.[1]

وعلى إثر ذلك أمر خير الدين الاستعداد للحرب وقام بنصب مدافعه وشرع في قصف القلعة، مدة عشرين يوما، ونتيجة لشدة القصف أصيبت الحامية الإسبانية بالخوف والذعر، خاصة بعد أن تم فتح ثغرة في جدار القلعة يوم 27 ماي 1529م[2]، وبعدها مباشرة أمر خير الدين جيشه بمهاجمة الحصن من كل ناحية فدخلوه واستولوا عليه.[3]

وأمام استحالة النصر على خير الدين وجنوده قرر حاكم الحصن دون مارتن الذي لم يجد أمام انهيار معنويات جيشه وقلة مؤونته وتأخر الإمدادات من إسبانيا إلا القتال بنفسه، لكن الأمر كان قد قضي، و لم يستطع الاستمرار في القتال، بحيث استطاع العثمانيون عبور الثغرة والاستيلاء على الحصن وأسر من كان فيه حيث قدر عددهم حوالي 700 جندي رفقة قائدهم[4]، وبعد ذلك أمر خير الدين بتهديم القلعة وتدميرها نهائيا وربط الجزيرة بالبر عن طريق جسر من الصخور، صار يحمل اسم خير الدين، وسخّر الأسرى لحمل الحجارة من برج تامنفوست الواقع على الطرف المقابل من شرق خليج الجزائر، ثم أمر بأن توصل الجزر الصغيرة ببعضها في شكل دائري بفتحة واحدة، وهكذا أنشأ ميناء الجزائر الذي أصبح منذ ذلك التاريخ مقرا للأسطول الجزائري[5]، ولضمان حماية السفن بالميناء من رياح الشمال والشمال الغربي، أنشأ رصيفا خاصا لذلك، وأقام ثكنة عسكرية لمراقبة كل التحركات المشبوهة ضد سفن الجزائر.[6]

وبعد أيام من استسلام حصن البنيون، والسيطرة عليه من طرف الأسطول الجزائري، وصلت تسعة سفن إسبانية لمساعدة حاميتها وفك الحصار عنها، وعندما اقتربت من الحصن لم تجد له أثرا، لذا حاولت الفرار فلحقت بها سفن البحارة الجزائريين ووقعت معركة انتهت بانتصار الجزائريين، الذين استولوا على السفن

1 – خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص 135.

2 – عزيز سالم ألتر: المرجع السابق، ص87.

3 – مجهول: المصدر السابق، ص143.

4 - *Berbrugger (Adrien), le Pégnon d'Alger, ou les origines du Government Turk en Algérie, Collection Regarde, Alger, 2012, p134.*

5 – محمد دراج: المرجع السابق، ص263.

6 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص87.

الحربية للإسبان وقتلوا منهم الكثير، بالإضافة إلى أسر حوالي 2700 جندي[1]، وقد ترك تحرير صخرة البنيون عدة نتائج نذكر منها:

1. إتمام وحدة مدينة الجزائر وذلك بتدمير حصن البنيون وإزالة الإحتلال الإسباني نهائيا من مدينة الجزائر حيث أصبحت لأول مرة تحت النفوذ الكامل لخير الدين.
2. حصر النفوذ الإسباني ببجاية والجهة الغربية من الجزائر.
3. هزيمة القوات الإسبانية التي كانت تنشر الرعب بين سكان مدينة الجزائر، وكسر حاجز الخوف الذي كان يعاني منه السكان.
4. ازدياد شعبية خير الدين بين سكان الجزائر، وشهرته في إسبانيا وأوروبا.[2]
5. أدى تدمير الحصن إلى يأس الإسبان من احتلاله مرة أخرى، وبذلك أثبت خير الدين عبقريته وحسن تدبيره فيما يخص استراتيجيته في محاربة الوجود الإسباني.

4- هجوم خير الدين على جزر البليار

بعدما ثبّت خير الدين وجوده بمدينة الجزائر بدأ يفكر في نقل المعركة إلى السواحل الإسبانية نفسها وإنقاذ الأندلسيين الفارين من جحيم دواوين التفتيش، كما زادت وتيرة الهجمات التي كان الغزاة الأتراك والجزائريون يقومون بها على سواحل إسبانيا وإيطاليا وجزر البليار وغيرها من جزر البحر المتوسط.[3]

وفي إطار حربه ضد الإسبان قرر خير الدين مهاجمة جزر البليار، وعهد بهذه المهمة إلى إيدين رئيس، الذي غادر مرسى الجزائر في عشرة سفن متوغلا في غرب البحر المتوسط، واشتبك مع خمس قطع بحرية عملاقة من نوع قادرغة، فاستولى عليها وأرسلها إلى الجزائر، وواصل هجوماته على السواحل الجنوبية لإسبانيا[4]، وبينما كان يهاجم السواحل الإسبانية علم الرايس إيدين بخبر المسلمين الراغبين في التخلص من الظلم الإسباني، فأسرع بأسطوله إلى سواحل أوليفا واستطاع إنقاذ 200 عائلة أندلسية.[5]

وفي هذه الأثناء تلقى الأميرال الإسباني أفريد ريكوبور توندو" PorTonDo" أمرا إمبراطوريا بالتقدم لمهاجمة الأسطول الجزائري وتحطيمه، لإبعاد خطره عن السواحل الإسبانية، وسار على رأس أسطول مؤلف من

1- *Berbrugger (A), op.cit, p135.*

2 – حكمت ياسين: المرجع السابق، ص248.

3 – محمد دراج: المرجع السابق، ص266.

4 – خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص 138.

5 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص88.

15 سفينة[1]، يدفعه حب المال، لأن الملك الإسباني شارلكان وعده بمبلغ قدره 15 ألف ليرة ذهبية نظير قضائه على الأسطول الجزائري[2]، الذي بقي يتتبع آثاره حتى عثر عليه في جزر البليار، فهاجمه هناك بقوة وعنف، ودارت معركة عنيفة بين الطرفين تمكن خلالها إيدين رايس بمساعدة صالح رايس من تحقيق انتصار باهر على الأسطول الإسباني.[3]

أسفرت المعركة عن مقتل قائد الأسطول الإسباني وأسر 375 إسبانيا، وإنقاذ الأسرى المسلمين الذين كانوا مقيدين في المجاديف، بالإضافة إلى المئات من الأندلسيين، وتم الاستيلاء على تسعة سفن وإغراق ثلاثة وفرار ثلاثة أخرى، ورجع الأسطول إلى الجزائر بهذا الفتح العظيم.[4]

ولأول مرة ينقل خير الدين الحرب إلى إسبانيا نفسها، وبذلك أدركت إسبانيا حقيقة الخطر الجزائري فقرر الملك شارلكان أن لا يترك هذا الخطر يزداد، وأمر بتجهيز حملة ضد الجزائر بقيادة أندريا دوريا.

5- الصراع الجزائري الإسباني على شرشال

بعد الإنتصارات الذي حققه الأسطول الجزائري بقيادة إيدين رئيس في جزر البليار، عمت الأفراح مدينة الجزائر، فيما عمّ الحزن والأسى كامل أرجاء أوروبا، وخاصة إسبانيا التي لم ترضى بالهزيمة في عقر دارها وعزمت على تحطيم هذا الأسطول، ومحو آثار العار الذي لحق بهم انطلاقا من إسبانيا بمساعدة حامياتها في كل من المرسى الكبير ووهران، وما زاد عزم الإسبان على شن هجوم على الجزائر تلك الشكاوي التي كان يرفعها الأهالي الإسبان إلى المجلس العالي للدولة الإسبانية، يشكون إليه أوضاعهم المزرية نتيجة ما كانوا يعانونه من رعب وخوف جراء مهاجمة الرياس الجزائريين لهم، ولذلك طالبوا بإنقاذهم وتخليصهم من هذه الأوضاع فقرر المجلس الملكي غزو الجزائر بموافقة الملك شارلكان سنة 1530م.[5]

بدأت الاستعدادات الإسبانية أولا بعقد سلام مع فرنسا التي كانت معها في حرب[6]، ثم القيام بتجهيز أسطول بحري بقيادة البحار أندريا دوريا منذ سنة 1530م في مدينة جنوة، وفي جويلية 1532م غادر الأسطول الإسباني المرسى الإيطالي باتجاه الجزائر، -وكان يتكون من 20 سفينة إسبانية و10 أخرى جنوية كلها من نوع

1 - مجهول: المصدر السابق، ص 147.
2 - عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص88.
3 - خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص141.
4 - مجهول: المصدر السابق، ص88.
5 - عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص94.
6 - جون .ب. وولف: المرجع السابق، ص40.

قادرغة[1]، تحمل حوالي 1500 من المقاتلين–[2]، وكله أمل في هزم الأسطول الجزائري وأسر قائده خير الدين الذي توعده أندريا دوريا بإلقاء القبض عليه وأخذه إلى إسبانيا.[3]

ولما علم خير الدين بتحرك القوات الإسبانية، جهز أسطولا بحريا مكونا من 35 سفينة من نوع قادرغة وعين على رأسه قورد أوغلو رئيس، ونتيجة لهذه الاستعدادات الجزائرية قرر دوريا مهاجمة مدينة شرشال نظرا لموقعها الاستراتيجي وقربها من جزر البليار، بالإضافة إلى كونها مركزا كبيرا للأسرى المسيحيين[4]، كما أن أندريا دوريا كان يعلم أن شرشال لم يكن بها جيش كبير للدفاع عنها ما عدا رجال حاميتها.[5]

عندما رأى رجال حامية شرشال أسطول أندريا دوريا يقترب من المدينة تحصنوا بالقلعة، وأغلقوها بإحكام أملا في وصول المساعدات من مدينة الجزائر، إلا أن القوات الإسبانية استطاعت دخول المدينة ونهبها وتحرير الأسرى المسيحيين، وفي مقابل ذلك قام جنود الحامية بفتح أبواب القلعة وهاجموا رجال دوريا الذين لم يتوقعوا هذا الهجوم مطلقا، فتشتت شملهم وتفرقوا في المدينة، و لم يستطيعوا الالتقاء مع بعضهم مرة أخرى.[6]
أخرى.[6]

انتهت المعركة بمقتل 1400 جندي من الإسبان وأسر 600 آخرين، بعد أن قرر دوريا الانسحاب، أما خير الدين فقد وصل إلى مدينة شرشال متأخرا، وفور وصوله تسلم الأسرى وأمر بربطهم بمجادف السفن للعمل بها، وكان من جملة الأسرى مساعد أندري دوريا الذي أمر خير الدين بإحضاره واستنطاقه من أجل معرفة أحوال النصارى ووجهة دوريا بعد مغادرته شرشال، فأخبره أنه توجه نحو جنوة.[7]

أمر خير الدين إيدين رئيس بملاحقة أندريا دوريا والبحث عنه لأسره، فتبعه إلى غاية مدينة سبتة وحتى مضيق جبل طارق ومنه إلى المحيط الأطلسي، إلاّ أنه فشل في القبض عليه، ثم قفل راجعا إلى الجزائر وفي طريقه أغار على جزر البليار وقصف ميورقة والسواحل الإسبانية المطلة على البحر المتوسط حتى وصل إلى مسافة قريبة من مدينة برشلونة، وتم أسر حوالي 3 آلاف مسيحي، وقد أسفرت الحملة الإسبانية على شرشال عن عدة نتائج نوجزها فيما يلي:

1 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص94.

2- *Grammont (H. De), op.cit, p97.*

3 – خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص149.

4 - *Haedo (F.De), op.cit, p44.*

5 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص205.

6 – خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص150.

7 – مجهول: سيرة المجاهد...، المصدر السابق، ص 153.

1. تحرير عدد كبير من الأسرى لدى الإسبان بلغ حوالي 2200 أسير.
2. انكسار الحملة على مدينة شرشال ولدّ صدمة كبيرة لدى شارلكان، خاصة بعد فرار أندري دوريا وملاحقته من طرف الأسطول الجزائري حتى برشلونة.
3. أصبحت مدينة الجزائر تعجُّ بالأسرى والكثير من الغنائم مما جعلها تزدهر اقتصاديا.
4. ابتهاج استانبول بهذه الانتصارات التي ما فتئ يحققها خير الدين على الإسبان في غربي المتوسط، لذلك نلاحظ تدعيمه عسكريا وماديا، وتعيينه قائدا عاما للأسطول العثماني، في محاولة لتشجيعه على فتح الأندلس من جديد كما صرح بذلك خير الدين.[1]
5. إنقاذ الكثير من الأندلسيين من بطش الإسبان ومحاكم التفتيش.

6- إحتلال الإسبان لمدينة هنين 1531م

وأمام هذه الانهزامات المتتالية للإسبان، لم يكن لهم من مخرج إلا معاودة الكرة ومحاولة تنظيم حملة ضد الجزائر، لكن هذه المرة ستكون الوجهة الغربية التي كانت تحت سيطرة الإسبان المتمركزين بوهران والمرسى الكبير فكانت وجهتهم ميناء هنين، الذي كان يعتبر المنفذ المهم للدولة الزيانية، التي كانت تتخذه مركزا للتبادل التجاري مع الممالك الأوروبية خصوصا البندقية.[2]

أدركت إسبانيا حقيقة مفادها أن خير الدين لا يمكنه السكوت عن احتلالها للمرسى الكبير ووهران خاصة بعد سيطرته على شرشال، لذا فكر القادة الإسبان في قطع الطريق على خير الدين واحتلال المزيد من المدن في الغرب خاصة مدينة تلمسان، ليضعوا بذلك خير الدين وقواته بين فكي كماشة وتطويقه شرقا ببجاية المسيطرين عليها، وغربا بوهران والمرسى الكبير وهنين، والضغط على ملك تلمسان ليكون في خدمتهم.

ففي سنة 1531م تلقى القائد ألفا رودو بازان «Don Alvaro de Bazan» أمرا بمهاجمة مدينة هنين واحتلال مينائها وتحطيم الأبراج وحرق الديار وتخريبها[3]، وصل الأسطول الإسباني المؤلف من 11 سفينة حربية حربية وناقلتين للجند، أمام مرسى هنين الذي لم تكن به قوات جزائرية كافية للدفاع عنه، وبعد عدة معارك

1 - خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص152.
2 - محمد دراج: المرجع السابق، ص269.
3 - مارمول كربخال: المصدر السابق، ص 297.

وفي 24 أوت 1531م تم السيطرة على المدينة من طرف الجنود الإسبان الذين قاموا بنهبها وسلبها واستباحوها لعدة أيام، ثم قاموا بتحصينها وتركوا حامية بها لحراستها والدفاع عنها تتكون من 700 مقاتل و 15 مدفعا.[1]

وعلى الرغم من سقوط مدينة هنين بيد الإسبان، إلا أن السكان المحليين لم يرضوا بهذا الوضع المستجد وفرضوا حصارا شديدا على الحامية حيث قاموا بقطع التموين عنها وحاصروها داخل أسوار القلعة، فساءت حالة الجنود الإسبان الذين عاشوا معزولين و لم يتلقوا المدد الكافي سواء من إسبانيا أو من المرسى الكبير ووهران لمدة قاربت الثلاث سنوات، فاضطروا لإخلاء المدينة في شهر ديسمبر 1534م بعد تخريبها.[2]

7- الصراع الجزائري الإسباني على تونس

عاشت تونس في بداية القرن السادس عشر الميلادي أوضاعاً سيّئة ميّزها التفكك والفوضى خاصة في عهد السلطان الحسن بن محمد (1526-1542م)، الذي فقد السيطرة على البلاد وانحصر نفوذه منذ سنة 1530م على الشمال الغربي لتونس، وفي بعض المناطق النائية مثل سوسة والقيروان، أما في المناطق الأخرى فقد استقلت القبائل عن السلطة المركزية[3] وذلك راجع لشخصية هذا السلطان الذي عُرف عنه ميله للهو والخمر مهملا شؤون الدولة والرعية، سفاكا للدماء حيث أمر بقتل جميع إخوته الذكور و لم ينج منهم سوى أخويه عبد المؤمن والرشيد الذي فر إلى خير الدين بالجزائر طالبا مساعدته ضد أخيه[4].

ولما علم السلطان العثماني سليمان القانوني بأوضاع تونس المزرية، أمر خير الدين بالتوجه لفتحها وتخليصها من هذه الأوضاع السيئة، فلبى خير الدين الطلب على الفور[5]، وسار على رأس أسطول مكون من 800 انكشاري و8000 بحار[6]، وفي طريقه سيطر على عنابة وتزود منها بمدد جاءه من حسن آغا، ليتجه إلى مدينة بترزت عن طريق البر، ثم حلق الوادي بحرا وصولا إلى تونس التي دخلها في شهر أوت 1534م وأعلنها إيالة عثمانية، بعد فرار سلطانها تاركا عاصمة ملكه لاجئا إلى الصحراء، ليواصل خير الدين سيره حتى بلغ القيروان في الجنوب ثم قفل راجعا إلى تونس، حيث كان مستقره بها كحاكم للبلاد تابعا للسلطان العثماني.

1 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص219.

2 – محمد دراج: المرجع السابق، ص271.

3 – محمد الهادي شريف: ما يجب أن تعرفه عن تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، تعريب محمد الشاوش، محمد عجينة، ط3، دار ساراس للنشر، تونس، 1993، ص 65.

4 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص211.

5 – يوحنا أفندي أبكاريوس: المصدر السابق، ص266.

6– خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص171.

وأمام هذا الانتصار الذي حققه خير الدين والذي وصلت أصداؤه إسبانيا، قرر شارلكان إعداد حملة عسكرية لاحتلال تونس، خاصة وأن سلطانها الحسن بن محمد الحفصي طلب مساعدته لاسترجاع ملكه الضائع، عارضا على شارلكان امتلاكه لتونس ويكون هو تابعا له ونائبا يحكم باسمه[1]، وقد استغلت إسبانيا اشتغال الدولة العلية بالحرب ضد الشيعة في بلاد فارس، بالإضافة إلى ضمان حياد الملك فرانسوا الأول.

رغم أن شارلكان كان مترددا في مكان الهجوم، بين مدينة الجزائر التي لم يكن خير الدين موجودا بها أو تونس حيث يوجد هذا الأخير، ليستقر رأيه فيما بعد على تونس مستغلا في ذلك استغاثة السلطان الحفصي الحسن بن محمد به، فجهز لهذا الغرض أسطولا بحريا مؤلفا من 500 قطعة بحرية بين سفن حربية وأخرى لنقل الجنود الذين قدر عددهم بالآلاف.[2]

أرست قوات شارلكان على سواحل تونس يوم 16 جوان 1535م، وكان في انتظاره خير الدين وقواته المتكونة من 12 ألف جندي (7 آلاف من الأتراك ونحو 5 آلاف من التونسيين المؤيدين لخير الدين)[3]، فيما تخلف الأعراب عن المشاركة، ولم تكن قوات الطرفين متكافئة تماما، إلا أن المدافعين عن مدينة تونس أبلوا البلاء الحسن وصمدوا أمام هذه القوة الكبيرة لمدة قاربت شهرا كاملا، أثبتوا من خلالها أنه باستطاعتهم مواجهة الإسبان، وأسفرت المعركة في نهايتها عن سقوط ميناء تونس في أيدي الإسبان يوم 15 جويلية 1535م وبذلك دانت لهم تونس، وتم توقيع معاهدة مع سلطانها الحسن بن محمد تضمنت شروطا مذلة نذكر منها:

- اعتراف السلطة* الحفصية بتبعيتها للدولة الإسبانية.
- حق الإسبان في ملكية مرسى حلق الوادي، عنابة والمهدية.
- التزام السلطان الحفصي بعدم إدخال لبلاده أي أحد من مهاجري الأندلس يهودا كانوا أو مسلمين.[4]
- دفع إثني عشرة ألف دوقة** سنويا للإنفاق على الجنود المقيمين في حلق الوادي.[5]

1 - *Godard (L'abbe Léon), Soirées Algériennes-Corsaires, Esclaves et martyrs de barbarie, libraires, mdclvn, Paris, p17.*

2 – محمد دراج: المرجع السابق، ص 289.

3 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص212.

* – فضلت استعمال لفظ السلطة على كلمة الدولة التي استعملها أحمد توفيق المدني، للفرق الشاسع بين المفهومين، لأن السلطان الحفصي كان يمثل سلطة محدودة جدا على تونس، على عكس الدولة التونسية التي لم تخضع كليا لسلطة الإسبان والسلطان الحسن بن محمد.

4 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص215.

** – هي عملة فلورونسية نسبة إلى مدينة فلورنسا بإيطاليا وهي تعادل درهمين عثمانيين، وقد استخدمتها الدولة العلية كعملة ذهبية...، عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص119.

5 – نفسه.

وبعد توقيع هذه المعاهدة بين الطرفين رجع شارلكان إلى بلاده، مفتخرا بانتصاره على خير الدين، هذا الأخير الذي نجا من هذه المعركة واتجه إلى مدينة عنابة أين كان ينتظره بها 14 سفينة حربية، لنقله إلى الجزائر وفي الطريق غرق إيدين رايس ومات شهيدا.[1]

أ- أسباب هزيمة خير الدين

كانت هناك عدة أسباب أدت إلى هزيمة خير الدين في تونس نذكر منها:

1. الفرق الشاسع بين قوات الطرفين من حيث العدة والعدد.
2. ثورة الأسرى التي حدثت أثناء المعركة، فقد استغلوا المعارك وتخلصوا من قيودهم وهاجموا قلعة المدينة ومنعوا خير الدين وجيشه من التحصن بها.
3. خيانة المتطوعين الذين كانوا مع جيش خير الدين والبالغ عددهم 6 آلاف من البدو تملقا لملك إسبانيا والسلطان الحفصي، مما عجل في انسحاب خير الدين.
4. تشتت قوات خير الدين بين عدوين: خارجيا القوات الإسبانية، وداخليا قوات السلطان الحفصي.

ب- نتائج الصراع

1. هزيمة خير الدين أمام قوات شارلكان وانسحابه من تونس، التي أصبحت خارج ممتلكات الدولة العلية.
2. ضياع ميناء حلق الوادي الذين كان بيد خير الدين منذ 1510م، وفقدانه فيه لكمية كبيرة من الذخيرة الحربية.[2]
3. استباحة تونس لمدة ثلاثة أيام بموافقة السلطان الحفصي، حيث عاث الجنود الإسبان في البلاد فسادا- قتلا ،نهبا وتخريبا-.
4. فقدان عدد كبير جدا من جيش خير الدين والسكان المحليين بين قتيل وأسير، قدر عددهم بحوالي 30 ألفا، واسترقاق 10 آلاف امرأة وطفل.
5. إتلاف وإحراق آلاف المخطوطات والكتب التي كانت تزخر بها مكتبة تونس، وبذلك قضوا على شتى أنواع العلوم والفنون النادرة.[3]

8- عنابة تحت سيطرة الإسبان

1 - أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 215.
2 - خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص175.
3 - عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص118.

بعد سيطرتهم على تونس قرر الإسبان توسيع ممتلكاتهم باتجاه الجزائر، وكانت عنابة هدفا لطموحاتهم علما أن الملك الحفصي جعلها تحت حماية الإسبان بموجب الاتفاقية المبرمة مع شارلكان، ولذلك قرر الإسبان مهاجمة عنابة في أوت 1535م، وبعد مقاومة دامت ثلاثة أيام سقطت بأيديهم، بعد انسحاب السكان منها ومخافة من عودة خير الدين إليها قام الإسبان بترك حامية عسكرية تتولى حراستها[1]، وأصبحت بذلك عنابة تمثل مركزا هاما للإسبان في تطبيق سياستهم بالجزائر، الرامية إلى السيطرة على الحوض الغربي للمتوسط ومراقبة طرقه التجارية.[2]

9- رد البحرية الجزائرية على احتلال تونس

على الرغم من ضياع تونس من يد خير الدين إلا أنه تحدى الإسبان، ونقل الصراع هذه المرة إلى عقر دارهم، ليثبت لهم أن البحرية الجزائرية باستطاعتها الرد عليهم وبأسرع وقت ممكن، فاختار مدينة ماهون (Mahon) عاصمة جزر البليار، التي كانت تحتفل بانتصار الإسبان على القوات الجزائرية في تونس، فهاجمها في شهر أوت 1535م بأسطول مكون من 32 قطعة بحرية ودخلها، ثم قام بالسيطرة على بالما (Palma) بجزيرة ميورقة واستولى على عدد هائل من الغنائم، وأسر 5 آلاف وأمر بإرسالهم إلى الجزائر، ليواصل حملته حتى وصل إلى مضيق جبل طارق، وقام بتخريب ميناء فارو (Faro)جنوب البرتغال، واستولى على عدد آخر من الغنائم.[3]

استطاع خير الدين بهذه الغارات أن يرد الاعتبار لنفسه وللبحرية الجزائرية، ويثبت لشارلكان قوته وصلابته بعد هزيمة تونس، لتستمر الحملات الجزائرية على السواحل الإسبانية خاصة والأوروبية عامة، وبذلك واصل نقل صراعه إلى خارج حدود بلاد المغرب، وأغار على قلعة قسطيلية(Castello) في جنوب إيطاليا وقام بتخريبها بعد أن أسر منهم الكثير، وأخذهم إلى استانبول، التي كان ذاهبا إليها ليقدم تقريرا مفصلا للسلطان العثماني سليمان القانوني على ما جرى في غزواته الأخيرة[4] بصفته بايلرباي الجزائر، وقبودان باشا الأسطول العثماني.

10- معركة بريفيزا PREVEZA 1538م

شكلت إسبانيا العدو المشترك للإيالة الجزائرية والدولة العلية، خاصة وأن هذه الأخيرة كانت تقود صراعا مريرا ضد الأوروبيين في الجهة الشرقية للمتوسط، نتيجة لتوسعاتها المستمرة داخل أوروبا، لذلك قررت

1 - محمد دراج: المرجع السابق، ص297.
2 - ميكال دي إيبلزا: المرجع السابق، ص 112.
3 - خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص ص 179-180.
4 - محمد دراج: المرجع السابق، ص297.

هذه الأخيرة تشكيل حلف ضد العثمانيين -من أجل الوقوف في وجههم، ومنع تقدمهم نحو أوروبا- يضم كل من إسبانيا، البندقية، فرسان مالطة، جنوة وفلورنسا بمباركة الكنيسة البابوية، وتم تشكيل هذا الحلف في شهر فيفري 1538م وتمكنت هذه الدول من حشد أسطول بحري بقيادة أندريا دوريا قوامه أكثر من 600 سفينة، منها 308 سفن حربية، و 120 سفينة كبيرة للنقل، و60 ألف جندي[1]، أما الأسطول العثماني بقيادة خير الدين فقد كان مشكلا من 120 سفينة من نوع قادرغة و 20 ألف جندي من رجال البحر[*] والمدْفعيين ما عدا الجدافين.

حدث اللقاء بين الطرفين في شهر سبتمبر 1538م بخليج آرتا (Arta) وبالضبط في بريفيزا (Prévéza)، وبأمر من أندريا دوريا اقترب الأسطول الأوروبي من الأسطول العثماني كي يكون في مرمى مدافعه، وبمناورة سريعة أمر خير الدين درغوث باشا رئيس بالالتفاف حول الأسطول الأوروبي على شكل هلال، والتوسع على الجانبين لكي تسهل عملية الانقضاض عليه بواسطة الجناحين، ويكون الهجوم الفاصل بواسطة قلب الأسطول العثماني.[2]

بدأت المعركة بقصف الأسطول العثماني للأسطول الأوربي، وفي نفس الوقت أتم درغوث التفافه حول السفن المعادية، ليسود الاضطراب والفوضى قوات الأوروبيين، وما إن حل الظلام حتى أمر أندريا دوريا قواته بالانسحاب لعله ينقذ ما بقي له من قوات، مسجلا بذلك أكبر هزيمة للأسطول المسيحي على يد خير الدين آنذاك، وأسفرت هذه المعركة على عدة نتائج نذكر منها:

- هزيمة القوات المسيحية بقيادة أندريا دوريا.
- خسرت القوات المسيحية حوالي 123 سفينة حربية.
- غنم العثمانيون حوالي 36 سفينة و3 آلاف أسير.
- خسرت القوات العثمانية حوالي 400 شهيد و500 جريح.
- سيطرت القوات العثمانية على شرق ووسط البحر المتوسط.
- زيادة شهرة خير الدين وكسبه ثقة السلطان العثماني سليمان القانوني.[3]

---

1 - خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص184.

*- يذكر جون وولف أن عدد السفن الأوروبية كان 131 سفينة موزعة كما يلي: 55 سفينة من البندقية، 27 سفينة من روما وفرسان القديس يوحنا، 49 إسبانيا، أما عدد سفن خير الدين فقدر بـ 120 سفينة خفيفة، جون وولف: المرجع السابق، ص53.

2 - محمد دراج: المرجع السابق، ص302-304.

3 - نفسه، ص307.

- تصدع التحالف الأوروبي بعد انسحاب البندقية وتوقيعها معاهدة سلام مع الدولة العثمانية.[1]

1 - محمد فريد بك المحامي: المصدر السابق، ص235.

ثانيا: العلاقات الجزائرية الإسبانية (1538–1541م)

المبحث الأول: أول اتصالات دبلوماسية بين الجزائر وإسبانيا

1- الإتصالات الرسمية

على الرغم من الصراع المرير الذي ميز العلاقات بين الطرفين الجزائري والإسباني، والذي لم يستطع الإمبراطور الإسباني شارلكان حسمه بالقوة والقضاء عل خصمه خير الدين باشا، إلا أنه أراد أن يجرّب الطرق الدبلوماسية، لعله يستطيع إقناعه بخيانة سلطانه وفصل بلاد المغرب عن الدولة العلية، فبادر بإجراء مفاوضات بينه وبين خير الدين -بصفته قبودان باشا للأسطول العثماني وبايلرباي الجزائر- مابين سنوات 1538–1541م وفي المقابل كانت هناك مفاوضات أخرى بين حاكم وهران الكونت دالكوديت «Le conte D'Alcaudéte» الذي حكم ما بين 1534– 1558م وحسن آغا نائب خير الدين على الجزائر.*

بعد فشله في هزيمة العثمانيين في الجهة الشرقية للمتوسط، حاول شارلكان السيطرة على بلاد المغرب خاصة وأن قواته كانت تحتل طرابلس الغرب، تونس، وهران، المرسى الكبير، بجاية وعنابة، إلا أنه كانت تواجهه مشاكل داخل أوروبا ذاتها[1] خاصة مع فرانسوا الأول ملك فرنسا، لأن كل واحد منهما كان يحاول كسب خير الدين ومن ورائه الجزائر إلى صفه.

عرض شارلكان على خير الدين سرا أن يكون ملكا على كل البلاد الإفريقية الواقعة بين البحر الأحمر والمحيط الأطلسي، وأن يكون صديقا لا تابعا، مع التأكيد عليه أن يقطع صلته بالعثمانيين، لكي يسهل على شارلكان السيطرة على الجزائر وعزلها عن فضائها الإسلامي العثماني والانقضاض عليها بسهولة فيما بعد، وفي ذلك يقول خير الدين على لسان شارلكان: «إن تنزيلك من منصبك كملك للجزائر لتكون بايلرباي عليها تقضي به التقاليد العثمانية، يعتبر إهانة بالغة لك، وها أنا ذا أعرض عليك أن تتخلى عن خدمة السلطان سليمان، على أن أجعلك ملكا وحيدا على كل البلاد الإفريقية الواقعة بين البحر الأحمر والمحيط الأطلسي وليكن معلوما لديك بأنني لا أريد أن تكون حليفا لي، بل يكفي أن تكون صديقا لي، وتقطع صلتك

* - يذهب مولاي بلحميسي واستنادا إلى المصادر الأوروبية أن المفاوضات جرت بالقسطنطينية ما بين 1538 و 1540م، مولاي بلحميسي: غارة شارل الخامس....، المرجع السابق، ص56، واستنادا إلى ما قاله خير الدين فإن المفاوضات كانت تجري بالجزائر عن طريق نائبه حسن آغا، بالإضافة إلى أن الواقع ينفي هذا الطرح، بحيث لا يمكن لشارلكان أن يغامر بمثل هذا الأمر، لأن خير الدين كان قائدا للأسطول العثماني وهو قريب من مركز القرار في استانبول فهل يعقل أن يجري المفاوضات في مكان يتم اكتشافه بسهولة؟

1-*Grammont (H. De), op.cit, p56.*

بالعثمانيين فهذا كل ما أريد»[1]، لكن خير الدين أبلغ الصدر الأعظم لطفي باشا بهذا العرض الذي قُـدم لـه، وحذره من خديعة شارلكان ومحاولة سيطرته على الجزائر.[2]

لجأت الدبلوماسية الإسبانية إلى كل الأساليب من أجل إغراء خير الدين، بما في ذلك المكر والخديعة والمناورات السياسية[3]، وكان أندريا دوريا الوسيط المباشر لهذه المفاوضات، بحيث أعلمه خير الدين أن يبعث رسولا عنهم إلى نائبه في الجزائر حسن آغا*وانطلقت المفاوضات السرية بوصول الوفد الإسباني المتكون من ألونسو دي ألاركون «Alonso de Alrcon» والقبطان فيرغار «Kaptan Vergarra» بمعية طبيب يهودي من رعايا الدولة العلية يدعى روميو «Romeo» ، وقد أعطى خير الدين تعليماته إلى نائبه حسن آغا بأن يجاري الإسبان في أفكارهم وفي نفس الوقت يحاول ربح الوقت والاستعداد لأي طارئ قد يحدث.[4]

تواصلت المفاوضات لمدة قاربت العامين كان خلالها خير الدين ومن ورائه حسن آغا يفاوضون الإسبان ويقبلون هداياهم وفي الوقت ذاته يُطلعون السلطان العثماني بكل تفاصيل هذه المفاوضات[5]، وفي المقابل كان الإسبان يعتقدون أنهم استطاعوا كسب خير الدين إلى صفهم والذي كان يخادعهم في كل مرة[6] وبعد طول مدة المفاوضات، واستحالة توصل الطرفين إلى نتائج ملموسة، قرر حسن آغا طرد المفاوضين الإسبان، أما الطبيب اليهودي روميو ولكونه من رعايا الدولة العلية فقد أرسله إلى استانبول حيث أمر خير الدين بحبسه في سجن يدي كولة (Yedi Kule).[7]

إن إخلاص خير الدين وحسن آغا للدولة العلية وسلطانها سليمان القانوني عوامل ساهمت في إفراغ المفاوضات من محتواها الذي كانت تهدف إليه، وهو محاولة إغراء خير الدين لإبعاده عن الدولة العلية، فيما

1 - خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص193.

2 - عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص156.

3 - *Watabled et Monnerau, Négociation entre Charles- Quint et Khair Eddine (1538-1540), R.AF, Alger, 1871, N15, p139.*

* - كان من مسيحي سردينيا وقع أسيرا في سن الشباب مع الكثير من أمثاله في يد خير الدين أثناء إحدى الغارات على إحدى القرى الساحلية بسردينيا، ثم اعتنق الإسلام كان ذا ذكاء خارق عرف عنه الجد والصرامة، عينه خير الدين كاتبه الخاص وفوض إليه العديد من المهام، ثم عينه نائبا له على الجزائر، تصدى لحملة شارلكان سنة 1541م وحقق فيها نجاحا باهرا...، سلفاتور بونو: "العلاقات بين الجزائر وإيطاليا خلال العهد التركي"،**مجلة الأصالة**، ع6، ترجمة، أبو القاسم بن التومي، الجزائر، 1972م، ص 190.

4 - خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص194.

5 - *Grammont (H. De), op.cit, p57.*

6 - خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص195.

7 - محمد خير فارس: المرجع السابق، ص35.

يرى المؤرخون الأوروبيون أن سبب فشل المفاوضات يرجع إلى الدور الذي لعبه الملك فرانسوا الأول بإطلاع السلطان العثماني بالمؤامرة.[1*]

وبالعودة إلى المفاوضات السرية التي جرت بين حاكم وهران الكونت دالكوديت وحسن آغا الـــذي حاول الكونت استمالته ببعض الوعود في مقابل تسليم مدينة الجزائر له بسهولة بمجرد ما يُنزل الإسبان قـــواتهم ويشرعون في الحصار[2]، فأظهر حسن آغا بعض التراخي من خلال الرســـائل الـــتي كانـــت بينـــهما، إلا أن المفاوضات فشلت وتمكن حسن آغا من خداع الكونت دالكوديت[3]، كما حدث في المفاوضات التي جـــرت مع خير الدين.

أرجعت المصادر الأوروبية فشل هذه المفاوضات إلى ضغط أحد القادة الجزائريين واسمـــه القائد محمد –وهو أحد يهود الأندلس الذين هاجروا إلى الجزائر– على حسن آغا وأخبره بعلمه بهذه المفاوضات، فـــأدرك حسن آغا عواقب هذه الأخيرة، وأعلن رفضه للمندوب الإسباني الدون لـــوريترو مانويـــل « Don Lorenzo Manuel» الاستمرار في هذه المفاوضات.[4]

2– أسباب فشل المفاوضات الجزائرية الإسبانية

- إخلاص خير الدين وحسن آغا لدينهم ووطنهم والدولة العلية، ودليلنا في ذلك إخبارهمـــا بهـــذه المفاوضات للسلطان العثماني والصدر الأعظم.
- إدراك خير الدين للكره الذي يكنه الجزائريون والأندلسيون للإسبان، لذلك كان متأكـــدا أن أي تقارب مع الإسبان يعني انقلاب الجزائريين ضده وضد خليفته حسن آغا.
- تأكد الإسبان من العلاقة المتينة التي تربط خير الدين بالسلطان العثماني وإدراكهم أنه غـــير قابـــل للمساومة.[5]

على الرغم من فشل هذه المفاوضات للأسباب السالفة الذكر، إلا أنها شكلت مظهـــرا مـــن مظـــاهر العلاقات الدبلوماسية بين الجزائر وإسبانيا.

* – يبدو أن الرواية واهية من وجهة نظرنا لأن خير الدين أصلا كان قد أعلم لطفي باشا وسليمان القانوني بهذه المفاوضات.

1 – مولاي بلحميسي: المرجعالسابق، ص 96.

2 – جون.ب.وولف: المرجع السابق، ص55.

3 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص156.

4 - *Berbrugger (A), Négociation Entre Hassan Aga et le Comte D'Alcaudette Gouverneur D'Oran, 1541-1542, R.Af, N°9, Alger, 1865, p380.*

5 - *Watbled et Monnerau, op.cit, p145.*

المبحث الثاني: حملة شارلكان على الجزائر 1541م*

تولى شارلكان عرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة وهو يفكر في كيفية القضاء على الإيالة الجزائرية واحتلالها نهائيا، حتى يستطيع السيطرة على كامل الجهة الغربية للمتوسط، لكن تشتت جهوده وكثرة مشاكله داخل أوروبا وخارجها حال دون تحقيق مشروعه، وما إن استطاع تسوية مشاكله خاصة مع فرانسوا الأول -الذي تعهد له شفويا بعدم تدخله في حربه ضد الجزائر- حتى عادت إليه أحلامه القديمة في تحقيق مشروعه وتمكن من جمع العديد من الدول المسيحية حوله، وتجهيز حملة عسكرية ضخمة لم يشهد البحر المتوسط مثيلا لها آنذاك، وكان شارلكان على رأس الحملة ضد مدينة الجزائر تدفعه عدة أسباب نذكر منها:

1- أسباب الحملة

- الإنتقام للإسبان والمسيحيين بعد الهزيمة المدوية التي لحقت بهم في معركة بروزةBROZA سنة 1538م من طرف الأسطول العثماني بقيادة خير الدين.
- استغلال شارلكان فرصة ذهاب خير الدين إلى القسطنطينية، الذي استدعاه السلطان سليمان القانوني لقيادة الأسطول العثماني، لذلك ظن شارلكان أن غيابه سيضعف الإيالة ويترك فراغا كبيرا بصفته مخططا بارعا وقائدا شجاعا كان قد هزم الإسبان في عدة مواضع، وبالتالي سوف يفقد الجيش تماسكه وقوته المعنوية التي كان يستمدها من شخصية خير الدين وقيمته المؤثرة وسمعته داخل الإيالة.[1]
- فشل المفاوضات السرية بين شارلكان من جهة، وخير الدين وحسن آغا من جهة أخرى، والتي كان يهدف من ورائها ملك إسبانيا إلى السيطرة على بلاد المغرب وبالتالي قطع الطريق على العثمانيين حتى لا يسيطروا على الحوض الغربي للمتوسط.
- زيادة الهجمات التي كان يقودها حسن آغا على السواحل الإسبانية التي تضررت كثيرا وللرد على ذلك أراد شارلكان القيام بحملة للحد من نشاط البحرية الجزائرية.[2]
- تخفيف الضغط العثماني المفروض على شرق أوروبا خاصة النمسا وألمانيا وذلك بفتح جبهة صراع أخرى في الجزائر لتشتيت شمل القوات العثمانية، فينقص بذلك الخطر العثماني أو يتلاشى ولو مؤقتا.[3]

* – توجد دراسة باللغة الفرنسية فيها جميع تفاصيل الحملة، وللاطلاع عليها من وجهة نظر أجنبية ينظر:

De Paradis (V), Expédition Contre Alger le Prince Charles-Quint à L'Assant de la Régence D'Alger en Octobre, 1541, Collection Regarde, Alger, 2013.

1 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص251.

2 – مجهول: المصدر السابق، ص211.

3 – مولاي بلحميسي: المرجع السابق، ص 95.

- محاولة شارلكان استغلال قلة الجيش العثماني الموجود بالجزائر حسب تقارير الجواسيس الإسبان واعتقادهم أن القوات المحلية قليلة العدة والعتاد وغير قادرة على رد الهجوم والدفاع عن المدينة.[1]

2- استعدادات الطرفين

أ- الجزائر

لما علم حسن آغا باستعدادات شارلكان لغزو الجزائر، حاول أن يسابق الزمن والاستعداد لمواجهة هذه الهجمة والتصدي لها، وشرع في بناء تحصينات جديدة وترميم التي بناها خير الدين، فأمر ببناء أسوار المدينة وإصلاح ما تهدم منها، ووضع المدافع عليها، منها ثلاثة مدافع كبيرة و5 مدافع صغيرة في البرج الفوقاني ومدفعان كبيران في البرج الكبير بباب الواد، و11 مدفعا في زاوية باب الواد، ومن هذه الزاوية إلى الباب المقابل للجزيرة 17 مدفعا ومن هذا الباب إلى المسجد الكبير 17 مدفعا من البرونز، و4 مدافع من الحديد وبين المسجد الكبير ودار الصناعة 21 مدفعا، وبين دار الصناعة وباب عزون 8 مدافع وفوق نفس الباب 8 مدافع وكان في المرسى 8 سفن أكبرها تتكون من 17 صفا للجدافين.[2]

أما بالنسبة لعدد الجنود المدافعين عن المدينة فقدر عددهم بحوالي 3 آلاف جندي من الأتراك والأندلسيين والعرب، حيث كانوا على الشكل التالي: 600 تركي ،و 2000 فارس عربي متطوع ،بالإضافة إلى عدد هائل من السكان المحليين[3] يتقدمهم حسن آغا الذي قرر قيادة المقاومة بنفسه[4] بمساعدة بعض أعيان مدينة الجزائر، وعلى رأسهم سيدي السعيد الشريف شيخ المدينة، الحاج مامي، القائد رمضان، القائد يوسف، القائد أرسلان، الحاج باشا (تركي الأصل) والقائد صفر.[5]

وآخر خطوة في استعدادات حسن آغا لصد هذه الحملة؛ جمعه لأهل مدينة الجزائر وعلمائها ومشايخها وصلحائها ونصب لذلك ديوانا، ثم بدأ في تشجيعهم وحثهم على الجهاد والمقاومة، وتذكيرهم بمرتبة المجاهدين والشهداء في الآخرة وما يجدونه من جنات الخلد عند ربهم، وخاطبهم بقوله: «... يا أهل الجزائر فقد تعين الجهاد علينا معشر المسلمين كغرض الحياة الدنيا، بل نريد بذلك إعلاء كلمة الله وتحصيل درجة الشهادة...»[6] كما أمر بقطع أشجار البساتين كلها كي لا يستتر بها النصارى أثناء القتال، ثم فتح خزائن السلاح ووزعه على

1 - محمد دراج: المرجع السابق، ص308.

2 - حكمت ياسين: المرجع السابق، ص250.

3 - *Haedo (F.De), op.cit, p70.*

4 - خليفة أفندي: إتحاف ملوك الزمان بتاريخ شارلكان، تعريب، خليفة محمود، مطبعة بولاق، القاهرة، مصر، 1266هـ/1849م، ص 151.

5 - مولاي بلحميسي: المرجع السابق، ص99.

6 - ابن رقية الجديري التلمساني: المصدر السابق، ص15.

أهل المدينة مع ما يحتاجونه من البارود والرصاص، وجعل حسن آغا في كل برج من أبراج الجزائر الطبول والأنقِرة.[1]

ب- إسبانيا

بدأ شارلكان استعداداته لهذه الحملة بتجهيز أسطول ضخم لم يشهد له مثيل خلال القرن السادس عشر الميلادي في الحوض الغربي للمتوسط، يشاركه في ذلك ملوك أوروبا، ألمانيا،إيطاليا، فرسان مالطة والبابا يوحنا بولس الثالث، الذي أصدر في أوروبا أمرا بابويا يعلن فيه أن هذه الحملة صليبية يجب على كل مؤمن بالمسيح أن يشارك فيها، ودخلت الاستعدادات مرحلتها الأخيرة في أواخر 1540م، وكاتب يوحنا الثالث في الموضوع كاردينال طليطلة ورئس أساقفة إشبيلية وأسقف قرطبة وبعث إلى حاكم جنوة يأمره بتجهيز ما عنده من السفن وإعدادها للسفر، وتوجه شارلكان على رأس أسطوله فالتقى الأسطولان هناك وكان عدد ما فيهما من السفن 400 وقيل 450 سفينة[2]، أما عدد الجنود فكان حوالي 70 ألفا[3]، وكان يقود هذه الأرمادة الإسبانية شارلكان بنفسه، يساعده الكثير من القادة الأكفاء مثل أندريا دوريا وكورتيس "Cortices" والكونت دالكوديت.

3- المفاوضات الإسبانية الجزائرية قبيل المعركة

عندما حل شارلكان بمدينة الجزائر كان يظن أنه في نزهة، وأن مدينة الجزائر سيسلمها حسن آغا بسهولة، خاصة وأنه كانت هناك مفاوضات سابقة بين حسن آغا والكونت دالكوديت، ولذلك بمجرد أن وصل وحط رحاله، بعث برسالة تحمل الكثير من التهديد والوعيد، وفي الوقت ذاته يحاول استمالة حسن آغا ومفاوضته على سلامته وسلامة أهله ،مقابل تسليمه مدينة الجزائر دون مقاومة، مؤكدا أن استسلام مدينة الجزائر تحصيل حاصل وقدر لا مفر منه، فلا يمكن الرجوع إلى إسبانيا بدون السيطرة على الجزائر[4]، فخاطب شارلكان حسن آغا قائلا له: «أنا ملك إسبانيا الذي استولى على تونس وأخرج منها خير الدين بربروس، وتونس أعظم من الجزائر وخير الدين أعظم منك..».[5]

إن هذا التهديد الصادر عن الملك شارلكان يدل على أنه كان واثقا من النصر وفي نفس الوقت يدل على غروره بقواته القادمة من كل أنحاء أوربا، لأن هذه القوات لا يمكن للسلطان سليمان القانوني بقواته

1 – مجهول: المصدر السابق، ص213.

2 - De Paradis (V), op.cit, p28.

3 – حساني مختار: التراث الجزائري المخطوط في الجزائر والخارج، ج2، الوثائق المخطوطة بالمكتبة الوطنية الجزائرية (نماذج)، ط1، منشورات الحضارة، الجزائر، 2009م، ص 54.

4 – مجهول: المصدر السابق، ص215.

5 – محمد بن عبد القادر الجزائري: المصدر السابق، ص106.

وأسطوله الضخم أن يصدها، فكيف لقوات قليلة العدة والعتاد مواجهتها وصدها عن هدفها الذي قدمت من أجله.[1]

أعطى شارلكان لحسن آغا مهلة زمنية محددة لتسليم مدينة الجزائر تدوم إلى غاية بداية المعركة، فإن لم يستجب فما عليه إلا أن يقبل النتائج المترتبة على عدم قبول هذه المبادرة، لأنه فيما بعد لا يمكنه إعطاء السلامة والأمان، وطلب من حسن آغا أن يشاور أهل العقد والحل في هذا الطلب، وإلا أمر عساكره بالهجوم على المدينة دفعة واحدة واحتلالها حجرا حجرا، وقتل من فيها كبيرا أو صغيرا.[2]

أما رد حسن آغا على عرض الملك شارلكان فإنه كان حازما تجاه هذا الطلب، مذكرا إياه بتلك الهزائم التي مني بها على يد عروج وخير الدين بربروس، ويؤكد له أنه لا يستطيع مفاوضته على شيء لا يملكه أو يتحكم فيه بل هذه الأرض تابعة للسلطان العثماني سليمان القانوني، ولن يغامر بموالاته للسلطان، مقابل إرضاء شارلكان، معلنا له أنه لا يخافه أو يهابه، وأن الأيام القادمة هي التي تفصل بينهما، وبرفضه لعرض شارلكان، أعلن حسن آغا الحرب بين الطرفين.

على الرغم من أن المفاوضات كانت موجهة من جهة واحدة هدفها واضح، ألا وهو السيطرة على إيالة الجزائر والقضاء عليها، وقطع الطريق أمام العثمانيين في الحوض الغربي للمتوسط، مما يسهل للإسبان السيطرة على كامل بلاد المغرب الإسلامي، إلا أن هذه المفاوضات عُدّت شكلا من أشكال العلاقات الدبلوماسية بين الطرفين.

4- سير الحملة ونتائجها

أ-سير الحملة

تحركت الأرمادة الإسبانية من ميناء قرطاجنة "Carthagène" في يوم 15 أكتوبر 1541م*، وفي طريقها لمدينة الجزائر مرت بمدينة وهران، حيث تزودت هناك بقوات إضافية ليصل إلى مدينة الجزائر يوم 19 أكتوبر 1541م، فأرست بجنوب تامنفوست يوم الأربعاء 27 جمادي الثانية سنة 948هـ الموافق لـ 20 أكتوبر

1 - خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص199.

2 - ابن رقية الجديري التلمساني: المصدر السابق، ص16.

* - الملاحظ أن شارل الخامس لم يحظ بالتأييد اللازم من جانب الكنيسة بروما، فيما ما يخص توقيت الحملة فقط، إذ طلب البابا بولس الثالث (1534-1549م) من الإمبراطور العدول عن شن الحملة في الخريف وكتب إليه قائلا: «إنك سترتكب خطأ فادحا إذا ما خرجت غازيا لإفريقيا في نوفمبر... فانتظر الربيع»، وشاطره الرأي القائد البحري أندريا دوريا، إلا أن شارل الخامس كان مصمما على شن هذه الحملة، علي العبيدي: "الحملة الإسبانية على مدينة الجزائر 1541م وأثرها على توازن القوى في غرب المتوسط"، ع17، **مجلة عصور**، جامعة وهران، الجزائر، جوان/ ديسمبر 2011م، ص 11.

1541م[1]، ونزل الجيش الإسباني في شمال الحراش يوم 23 أكتوبر 1541م ونزل شارلكان عند الحامة شرق المدينة، وعندما رآها سكان مدينة الجزائر خُيِّل لهم أن جبلا استقر هناك، لأنهم لم يروا مثل هذه العمارة سابقا.[2]

حاول سكان مدينة الجزائر منع الإسبان من الإنزال، لكنهم اضطروا للتراجع أمام قذائف العدو فاسحين له المجال لإنزال الجنود والسلاح، بينما أعطيت الأوامر من القادة الإسبان لترك المؤونة والعتاد في السفن، لأنهم كانوا يعتقدون أن السيطرة على المدينة يتم بسهولة وخلال ساعات فقط، وفي الليل شنت فرقة من الجيش الجزائري هجوما مفاجئا على الجيش الإسباني، كبدته خسائر كبيرة وعادت سالمة إلى المدينة[3]، وفي اليوم الموالي أمر الإمبراطور شارلكان بقصف المدينة، فرد عليه المدافعون بقذائف المدفعية، مما اضطر الجيش الإسباني للانسحاب إلى رأس تافورة قرب باب عزون على الساحل الشمالي الشرقي للمدينة، لتشن فرقة من السكان هجوما خاطفا على الجناح الأيسر لجيش الإمبراطور، وأمام هذه الوضعية لجيش شارلكان اهتدى إلى فكرة مفادها احتلال المرتفعات المحيطة بالمدينة، حتى يتحصن بها ويراقب من خلالها سير المعارك.[4]

وقد تمكن من احتلال كدية الصابون وجعلها قاعدة لانطلاق عملياته الحربية، ومن ثم الانتشار في التلال المجاورة واحتلالها لتسهيل السيطرة على المدينة، لكن هذا الفعل جعل القوات الإسبانية تتفرق، مما زاد من حدة المقاومة وانتشارها في كل مكان، وبقوا على ذلك الحال عدة أيام وأهل المدينة يقاتلونهم.[5]

وفي يوم الثلاثاء 25 أكتوبر1541م هبت عاصفة بحرية على مدينة الجزائر وأمطرت السماء، فتقطعت حبال سفن الإسبان، و لم يستطيعُوا الرمي بالمدافع والبنادق، وحدث هرج ومرج بين صفوفهم، ليستغل حسن آغا هذه الظروف ويشن هجوما معاكسا في منتصف الليل، كبّد فيه القوات الإسبانية خسائر فادحة، قدرت بحولي 3 آلاف قتيل[6]، لينتشر الرعب والخوف في قلوب الجنود الإسبان نتيجة ما أصابهم فضاق الأمر بهم، و لم يستطيعوا استعمال أسلحتهم النارية للدفاع عن أنفسهم.

1 – مولاي بلحميسي: المرجع السابق، ص99.
2 – ابن رقية التلمساني: المصدر السابق، ص15.
3 – مولاي بلحمسي: المرجع السابق، ص103.
4 – محمد دراج: المرجع السابق، ص314.
5 – مجهول: المصدر السابق، ص216.
6 – خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص 203.

إستمرت المعارك بين الطرفين عدة ساعات قتل فيها من الإسبان أكثر من 4 آلاف، أما من الجزائريين فحوالي 200[1]، ومع حلول يوم 26 أكتوبر تيقن شارلكان أنه لن يستطيع السيطرة على المدينة فما بالك بإخضاعها، فكانت أمنيته الوحيدة كيفية الخروج من هذه الورطة، لذلك أمر قواته بالانسحاب، لكن الظروف الجوية السيئة والهجمات التي كان يشنها الأهالي على أطراف القوات الإسبانية عرقلت سيرها، فبادر أندريا دوريا بالانسحاب إلى رأس ماتيفو ليلحق به شارلكان ويعسكر بوادي الحراش جنوب شرقي مدينة الجزائر، فقضوا الليلة هناك بعد أن أنهكهم الجوع والتعب، مما اضطرهم إلى أكل 400 من أحصنتهم، وفي صبيحة 27 أكتوبر عبروا وادي الحراش بعد أن صنعوا جسرا من ألواح سفنهم المحطمة.[2]

وأثناء الانسحاب كان أهل الجزائر يهاجمون القوات الإسبانية وقتلوا منهم الكثير، ولذلك لم يصل الجيش الإسباني إلى رأس ماتيفو إلا يوم 29 أكتوبر، حيث قضى شارلكان يومين للراحة، ليقلع الأسطول يوم 01 نوفمبر متجها إلى إسبانيا، لكن عاصفة بحرية عرقلت سيره وغيّرت مجرى الرحلة ليتجه الإمبراطور نحو بجاية التي وصلها يوم 04 نوفمبر 1541م، ليغادر بعدها إلى ميورقة ومنها إلى قرطاجنة التي دخلها يوم 02 ديسمبر 1541م.[3]

ب-نتائج الحملة

1. انهزام الجيش الإسباني بقيادة شارلكان أمام قوات حسن آغا هزيمة نكراء لم تعرف لها أوربا مثيلا في ذلك العصر، ولاذ بالفرار تحت طلقات المدافع ومطاردة الجنود والمتطوعين، تاركا وراءه الآلاف من القتلى والجرحى والأسرى، مع الكثير من سفن أسطوله المدمر، وعندما كان في عرض البحر خلع تاجه من على رأسه وألقى به في البحر من شدة الغيظ.[4]
2. بلغت الخسائر البشرية في صفوف الإسبان حوالي 12 ألف قتيل، ويقال أن جثث الكفرة وفرائس خيلهم ملأت ما بين الجزائر ودلس شرقا وشرشال غربا.[5*]

1 - ابن رقية الجديري التلمساني: المصدر السابق، ص18.

2 - مولاي بلحميسي: المرجع السابق، ص140.

3 - محمد دراج: المرجع السابق، ص ص318، 319.

4 - محمد الفاسي الأندلسي: رحلة الوزير في افتكاك الأسير (1690-1691م)، حررها وقدم لها، نوري الجراح، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2002، ص 75.

*- قد تكون هذه الأرقام مبالغا فيها كثيرا، ولا يمكننا التصديق بمثل هذه الروايات، لكن في المقابل المصادر الأوروبية كذلك تبالغ في التقليل من حجم الخسائر.

5 - مجهول: غزوات عروج وخير الدين...، المصدر السابق، ص121؛ المنور مروش: المرجع السابق، ص102.

3. خسائر مادية ضخمة تكبدها الإسبان إذ تقدر بـــ 130 سفينة و17 قادس و200 مدفع خلفها الإسبان و 400 حصان جاء بها شارلكان و لم يعد بواحد منها إلى بلاده[1]، وعموما قدرت الخسـائر المادية بحوالي 4 ملايين دوقة، وهو مبلغ كبير جدا في ذلك الوقت.[2]
4. أما من الجانب الجزائري فقد أقيمت الأفراح وبعث رسول إلى القسطنطينية لحمل بشـائر النصـر إلى السلطان وخير الدين، وحمل هذا الأخير كتاب النصر بنفسه إلى السلطان العثماني الذي أثـنى علـى حسن آغا وبعث له بخلعة عظيمة وأمر كريم يتضمن نيابته بالجزائر، وأنه من جملة وزرائـه[3]، ومـن خلال هذا العمل والانتصار الكبير على الإسبان وهذا التكريم من طرف السـلطان العثمـاني زادت شهرة حسن آغا لدى الجزائريين وفي كامل العالم الأوروبي والمسيحي.
5. إنقاذ الأسرى المسلمين الذين أتى بهم شارلكان كجدافين لسفنه،ــ والذين قدر عـددهم بحـوالي 3 آلاف أسيرــ من طرف حسن آغا من الغرق والموت المحتم.[4]
6. احتفل الجزائريون كثيرا بهذا اليوم المشهود في تاريخ بلادهم واعتبروه يوما مجيدا للإسلام، حيث بقـوا يحتفلون به خلال قرنين من الزمن، لأنه من أعظم انتصاراتهم، وحتى اليهود احتفلوا بهذا النصر العظيم[5] العظيم[5] لأنهم لم ينسوا للإسبان الاحتقار والقتل والمحاكمات التي كانت تقام في دواوين التفتيش.

5- لماذا تأخر خير الدين على نجدة الجزائر؟

على الرغم من الانتصار الذي حققه حسن آغا وقواته بالجزائر ضد الملك شارلكان وقواته المسـيحية إلا أنه لا يمكننا التغافل عن سؤال مهم وهو: لماذا لم يأت خير الدين إلى الجزائر وينجد أهلها خاصة وأنه بقـي سنوات وهو يكافح من أجل تحريرها وتثبيت أركان الحكم العثماني بها؟

وعد خير الدين حسن آغا خليفته على الجزائر بالمساعدة، فيما يبقى حسن آغا يحاول مواصلة إلهـاء الإسبان حتى يأتي لنجدته من استانبول، مع إقراره أنه لا يستطيع التعجيل بالقدوم إلى الجزائر[6]، إلا أنه لم يذكر يذكر الأسباب التي دعته إلى تأخير قدومه، أما عزيز سامح ألتر فقد ذكر أن السلطان العثماني كان قد أمر خير الدين باشا بالتحرك صوب الجزائر لمساعدتها على رد الهجوم المتوقع عليها من طرف الإسبان، وكان الأسطول

1 - مجهول: سيرة المجاهد، المصدر السابق، ص228.
2 - المنور مروش: المرجع السابق، ص102.
3 - ابن رقية الجديري التلمساني: المصدر السابق، ص18.
4 - خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص207.
5 - جون.ب.وولف: المرجع السابق، ص59.
6 - خير الدين بربروس: المصدر السابق، ص197.

العثماني مكونا من 100 قادرغة علاوة على السفن الأخرى، فقام خير الدين بتقسيم الأسطول وبعث 50 قادرغة إلى السواحل الإسبانية، و50 إلى صقلية لضرب قطع الأسطول الإسباني أثناء تسليحها وتجهيزها في موانئها، لكنه لم يتمكن من الخروج إلا في منتصف أكتوبر*، ليذكر لنا أن خير الدين التجأ لمكان آمن متقيا العاصفة التي قضت على الأسطول الإسباني[1]، أما الأستاذ محمد دراج في كتابه "الدخول العثماني للجزائر" فإنه يذكر أن السلطان سليمان القانوني أرسل من بودين بالمجر فرمانا همايونيا يأمر فيه خير الدين بإرسال الدعم اللازم إلى الجزائر[2]، ولم يذكر أيضا لنا لماذا تأخر الأسطول عن نجدة الجزائر؟ أما بعض المراجع فتذهب إلى أن خلافا وقع بين الصدر الأعظم وخير الدين، وهذا ما يؤكده لنا المنور مروش في كتابه " القرصنة " حيث يذكر أن حسن آغا طلب النجدة من خير الدين الذي حاول قدر المستطاع إقناع حكومة الباب العالي بإرسال الأسطول لمساندة الجزائر، ولكنه اصطدم بمعارضة لطفي باشا الصدر الأعظم في غياب السلطان الذي كان يقود حملة بنفسه في المجر.[3]

وربما بعد يأس خير الدين من إقناع الصدر الأعظم بفكرته، حاول الإتصال بالسلطان الذي ما إن وصله الخبر حتى أمر بإرسال أسطول إلى الجزائر[4]، ولكن كانت المعركة قد انتهت بانتصار حسن آغا لذلك بعد عودة السلطان عزل لطفي باشا من منصبه وهذا ما يعزز فرضية الخلافات التي أدت لتأخر الدعم العثماني.

ثالثا: العلاقات الجزائرية الإسبانية (1541–1600م)

المبحث الأول: الصراع الجزائري الإسباني (1541–1563م)

إنتقل الصراع الجزائري الإسباني إلى الغرب الجزائري بعد الهزيمة المدوية التي حلّت بالجيش الإمبراطوري الإسباني، الذي قاده شارلكان بنفسه خاصة وأن الأهالي أدركوا حقيقة مفادها أنه لا أحد يستطيع أن يخلصهم من الاحتلال الإسباني إلا الأتراك، وبذلك زادت شعبية هؤلاء بين السكان وتناقلوا

* – كيف لأسطول مجهز من أجل الحرب لا يطيع أوامر السلطان والخروج بالسرعة المطلوبة؟ ربما يرجع ذلك لأن السلطان في هذا الوقت لم يكن باستانبول إنما كان ببودين بالمجر لمحاربة المسيحيين، ومن كان موجود هو الصدر الأعظم الذي ربما هو من أخر هذا الانطلاق لوجود خلافات بينه وبين خير الدين مما يؤكد بداية تدخل الصدر الأعظم في شؤون الدولة العلية.

1 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 167.

2 – محمد دراج: المرجع السابق، ص312.

3 – المنور مروش: المرجع السابق، ص101.

4 – نفسه.

أخبارهم، واتسع نفوذ الأتراك داخليا، فالسلطان الزياني الذي كان أعلن تبعيته للإسبان خصوصا بعد هزيمة خير الدين أمام شارلكان في تونس سنة 1535م، أعاد النظر في سياسته وأعلن ولاءه وتبعيته للأتراك.[1]

وبعد وفاة الملك الزياني سنة 1541م حدث صراع على العرش بين أبي محمد عبد الله وأخيه أبي زيان أحمد، وانتهى هذا الصراع باستيلاء أبي محمد عبد الله على الحكم وإعلان تبعيته للإسبان، لذلك توجه حسن آغا إلى تلمسان في أواخر 1542م، فدخلها وخلع أبا عبد الله محمد عن العرش ونصب مكانه أخاه أبا زيان أحمد كخليفة عنه، ثم قفل راجعا إلى الجزائر بعد أن دانت له القبائل باستثناء قبيلة بني عامر، وبهذا العمل أصبح الإسبان في الجهة الغربية محصورين في الساحل فقط.[2]

لم يبق الإسبان مكتوفي الأيدي وهم يرون معظم المدن في الجهة الغربية تعلن تبعيتها للعثمانيين، خاصة إمارة تلمسان التي كانت تعيش اضطرابات داخلية أساسها الصراع على العرش، فحاول الإسبان استثمار هذه المشاكل والتضييق على أتباع العثمانيين، لذلك ما إن استنجد بهم أبو عبد الله ضد أخيه أبي زيان أحمد الذي كان قد أعلن على تبعيته للعثمانيين، حتى أمده الكونت دالكوديت بقوة عسكرية من أجل السيطرة على الحكم، ودارت معركة بين الطرفين في جانفي 1543م أسفرت عن انهزام أبي عبد الله، لذلك قرر الكونت دالكوديت السير بنفسه على رأس حملة لإخضاع تلمسان.[3]

اتصل الكونت دالكوديت بالسلطات الإسبانية لمساعدته في تجهيز حملة ضد تلمسان لكن الحكومة الإسبانية لم تستطع تلبية طلبه لانشغالها بالحرب داخل أوروبا[4]، إلا أن دالكوديت استطاع بمساعدة أسرته تجنيد حوالي 9 آلاف فارس سار بهم إلى تلمسان، والتي استولى عليها في 06 فيفري 1543م ولم يمكثوا بها إلا 40 يوما، وبعدها غادروها عائدين إلى وهران[5]، وتعتبر هذه آخر مرة يحتل فيها الإسبان تلمسان، لأن العثمانيين سوف يحررونها ويتولون حكمها بعد القضاء على الفتن الداخلية بين أبناء البيت الزياني، وفي عهد حسن بن خير الدين قاد حاجي باشا حملة إلى المناطق الغربية واستطاع حصار تلمسان، ثم لحق به بعد ذلك حسن بن خير الدين ودخلها سنة 1545م سلميا فرحب به سكانها وبايعوه، وفي أوت 1546م قام الكونت

1 – محمد دراج: المرجع السابق، ص332.
2 – محمد بن عبد القادر الجزائري: المصدر السابق، ص101.
3 – مارمول كاربخال: المصدر السابق، ص314.
4 – المنور مروش: المرجع السابق، ص104.
5 – مارمول كربخال: ج2، المصدر السابق، ص ص 314، 315.

دالكوديت بحملة ضد مستغانم واحتل مازغران وأطراف مستغانم[1]، لكنه اضطر إلى الإنسحاب منها مرة أخرى بسبب النجدة التي قدمت من مدينة تلمسان.[2]

استمر الصراع الجزائري الإسباني حول المدن الغربية للجزائر لأن حكام تلمسان كانوا تابعين بعد 1546م للعثمانيين الذين حافظوا على مملكة تلمسان دون إسقاطها[*]، لكن ظهور الخطر السعدي عجل بالتدخل المباشر للأتراك وإسقاط نظام الحكم الزياني نهائيا.

1- تلمسان تحت سيطرة العثمانيين

تشتتت الأسرة الحاكمة بتلمسان ما بين موالٍ للعثمانيين على اعتبارهم إخوة في العقيدة والدين والمصير المشترك والجهاد ضد الإسبان، وبين موال للإسبان راغبا في الحكم ومحافظا على عرشه ولو على حساب السكان ومصالحهم المتعارضة مع طموحات هؤلاء الحكام الخاضعين للإسبان، ومما زاد الأوضاع تأزما تدخل الأشراف السعديين في شؤون الزيانيين محاولين توسيع نفوذهم على حساب الأراضي الزيانية على يد الشريف محمد المهدي السعدي، الذي قاد حملة عسكرية تم بموجبها محاصرة تلمسان تسعة أشهر كاملة ليسيطر عليها يوم 05 جوان 1550م، ثم استطاع السيطرة بعد ذلك على مستغانم، وبعدها حاول الاتجاه نحو مدينة الجزائر للسيطرة عليها وطرد العثمانيين منها.[**][3]

وما إن سمع حسن بن خير الدين بهذه الحملة حتى أمر بتجهيز جيش بقيادة حسن قورصو (1556-1557م) لمواجهة الجيش السعدي، والتقى الطرفان في وادي الشلف، وألحق بهم الجيش الجزائري هزيمة نكراء واضطرهم إلى الانسحاب والتراجع، وطرد القوات التي كانت متمركزة بتلمسان، هذه الأخيرة التي دخلها حسن بن خير الدين

1 - المنور مروش: المرجع السابق، ص104.

2 - *Belhamissi (Moulay), Marine et marins D'Alger 1518-1830, T3, Alger, Bibliothèque Nationale Algérie, 1996, pp 75, 76.*

* - ربما يرجع هذا الأمر إلى إدراك حكام الجزائر للقيمة التاريخية التي يتمتع بها حكام تلمسان الموالين لهم، بحيث لم يكونوا يريدون تأليب السكان المحليين لتلمسان ضدهم لأن الحكام الزيانيين لديهم شرعية تاريخية.

- صعوبة المهمة في ظل تواجد القوات الإسبانية وعدم اكتمال توحيد تراب المغرب الأوسط.

- النقص العسكري لدى العثمانيين ربما هو الذي أخر انضمام الدولة الزيانية.

** - الملاحظ أن المغاربة منذ القديم لم يخفوا نواياهم العدوانية تجاه الجزائر، وعلى الرغم من وجود الإسبان بوهران والمرسى الكبير وحتى المغرب الأقصى نفسه، لم يوجه الشريف السعدي قواته لمحاربتهم، وقام بتوجيه حملة لاحتلال تلمسان وهذا ما يؤكد رغبة المغاربة دائما في احتلال الجزائر.

3 - يحي بوعزيز: مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، ط.خ، دار البصائر للنشر والتوزيع، حسين داي، الجزائر، 2009م، ص 59؛ عمار بن خروف: العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب الأقصى في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، ج1، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 1427هـ/2006م، ص 80.

باشا وقام بطرد الأمير المتعاون مع المغاربة أبي زيان أحمد، ونصب بدلا عنه الأمير الحسن بن عبد الله الزياني.[1]

ولما تم تعيين صالح رايس بايلرباي (1552-1555م) على الجزائر في أفريل 1552م وضع نصب عينيه توحيد التراب الجزائري تحت سلطة مركزية تابعة للدولة العلية، فاستطاع ابتداءً أن يخضع إمارة بني جلاب بتوقرت وورقلة[2] ثم توجه إلى تلمسان لتأديب السعديين الذين كانوا ينشرون الفتن ويحيكون المؤامرات مع الإسبان ضد العثمانيين بالجزائر، ودارت معارك طاحنة بين الطرفين كانت الغلبة فيها للعثمانيين، وقتل أثناء هذه المعارك مولاي عبد القادر بن الشريف السعدي وهو يحاول أن ينظم الجيش الذي فقد قوته وتماسكه بعد وفاة قائده.[3]

ولما دخل صالح رايس تلمسان قام بعزل الأمير الحسن بن عبد الله الزياني سنة 1554م الذي فر إلى الإسبان، وقد ثبت تعاونه وعمالته لهم ضد العثمانيين والجزائر، وتم بذلك إخضاع مملكة تلمسان نهائيا وإلحاقها رأسا بالسلطة المركزية بالجزائر[4]، وبذلك تم وضع حد لإمارة بني زيان التي كانت تعيش في فوضى وانحلال تام و لم يكن من مخلص لها إلا التدخل العثماني، وبذلك أصبحت قطعة من التراب الجزائري الموحد، وتم قطع الطريق على السعديين والإسبان للتدخل في شؤون هذه الإمارة.

2- تحرير بجاية 1555م

بعد أن استطاع صالح رايس ضم تلمسان نهائيا إلى السلطة العثمانية بالجزائر سنة 1554م وقيامه بتأديب الإمارات المتمردة مثل إمارة بني جلاب بورقلة وتوقرت وإمارة كوكو بمنطقة القبائل، التفت إلى الخطر الإسباني الذي كان حجر عثر في وجه توحيد الأراضي الجزائرية، فغربا كان لا يزال الإسبان بالمرسى الكبير ووهران،وشرقا كانت بجاية تحت السيطرة الإسبانية، وبالتالي كان صالح رايس محاصرا شرقا وغربا من طرف الإسبان ومادامت الجهة الغربية قريبة من الإسبان وحلفائهم المغاربة[5] في ذلك الوقت فإنه كان يرى أن الوقت مناسب لتحرير بجاية.

1 - محمد بن عبد القادر الجزائري: المصدر السابق، ص101.

2 - محمد بن معمر: "علاقات بني جلاب سلاطين توقرت بالسلطة العثمانية بالجزائر"، **مجلة الحضارة الإسلامية**، ع12، ، جامعة وهران، الجزائر، جوان 2005، ص19.

3 - دي كودي صوريس: تاريخ الشرفاء، ترجمة محمد حجي محمد الأخضر، شركة النشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب الأقصى، 1989، ص 174.

4 - يحي بوعزيز: الموجز...، المرجع السابق، ص20.

5 - عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص ص 193، 194.

ففي شهر جوان 1555م سار صالح رايس إلى بجاية على رأس جيش قوامه 30 ألف جندي، وفي الطرق تعزز هذا الجيش بالكثير من رجال إمارة كوكو[1]، بينما قدم الأسطول البحري محملا بالمدافع والمؤن، ومباشرة بعد وصول صالح رايس أعطى الأوامر لحصار المدينة من جهة البر بحوالي 40 ألف جندي كان من بينهم 10 آلاف من الفرسان المسلحين بالبنادق ومن جهة البحر 22 سفينة حربية صغيرة والقادرغات الحاملة للمدفعية ومن حسن حظ صالح رايس أن واد الصومام كان فائضا لتهاطل أمطار الخريف، لذلك تمكنت السفن الجزائرية من اجتياز مصبه إلى خلف المدينة على مسافة 5 كيلومترات تقريبا، ودخلت السفن من مجرى الوادي إلى أن استقرت خلف القلاع، فأنزل صالح رايس مدفعيته وآلاته الحربية وقام بحصار المدينة وتطويقها بإحكام.[2]

باشرت قوات صالح رايس في قصف بجاية بشدة حتى تمكنت من هدم قصر الإمبراطور في حصن موسى، ليتم اقتحام هذا الحصن الذي غادره الإسبان لتعذرهم الدفاع عنه، وبعد خمسة أيام استطاع السيطرة على حصن البحر، لتحاصر القوات الجزائرية الحصن الأعظم الذي لجأ إليه قائد قوات حرس بجاية الدون ألونزودي برالتا "Don Alonzo de Biralta" وجنوده، حيث حوصر هناك مدة 22 يوما، وبعد تأكد القائد الإسباني أنه لا جدوى من المقاومة، قرر الفرار مع 120 جندي* فيما فضل بعض المسيحيين من الأهالي الاستسلام، بعد أن أعطيت لهم ضمانات بتوفير سفينة لنقلهم إلى أليكانت إحدى المدن الإسبانية.[3]

ولما وصل الدون ألونزودي برالتا والذين معه إلى إسبانيا، قام الإمبراطور الإسباني شارلكان بسجنه وحوكم فيما بعد، وصدر بحقه حكم بقطع رأسه أمام العامة من الناس، في ساحة عمومية ببلد الوليد[4] بعد اتهامه بجناية الخيانة العظمى وعدم قدرته على الدفاع عن مصلحة بلاده، إذ لم يُدخل نصوصا يستفيد منها رجال الحامية والأهالي المسيحيين في وثيقة الاستسلام، وبتاريخ 28 جويلية دخل صالح رايس بجاية منتصرا وألقى القبض على 600 شخص من الأهالي المسيحيين، كما غنم الكثير من الأسلحة والذخائر الإسبانية، ليعم بذلك الحزن والأسى جميع أنحاء إسبانيا، وكان أكثرهم تأثرا لهذا المصاب الذي ألم بهم سنة 1555م الإمبراطور شارلكان وقادته ، وبعد هذا الانتصار الذي استغل فيه صالح رايس الأوضاع الحرجة للحامية الإسبانية ببجاية[5]،

---

1 – بلبراوات بن عتو: بجاية من الاحتلال الإسباني...، المرجع السابق، ص 185.

2 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص323.

* – يذكر مارمول كربخال أن القائد استسلم بعد أخذ العهد من صالح رايس مقابل إنقاذ حياة النساء والأطفال المسيحيين، وتمكينه من سفن يرحل على متنها إلى إسبانيا ولكن صالح رايس خان الوعد حسب رأيه ، للمزيد ينظر: مارمول كربخال: المصدر السابق، ص380.

3 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص195.

4 – مارمول كربخال: المصدر السابق، ص380.

ببجاية[1]، وانتقم من الإسبان عن تلك المحاولات الفاشلة التي قادها عروج وخير الدين لتحريرها، حيث فقد عروج ذراعه نتيجة لذلك.

وبعد طرد الإسبان من بجاية رجع صالح رايس إلى الجزائر، تاركا وراءه ببجاية خليفة له يدعى علي باردو مع 600 جندي انكشاري، مُكلفا إياهم بالمحافظة عليها وحراستها جيدا، فقام علي باردو بترميم ميناء المدينة وزاد من الإستحكامات، وبهذه الخطوة التي قام بها صالح رايس لم يبق تحت سيطرة الإسبان من السواحل الجزائرية إلا المرسى الكبير ووهران.

3-الهجمات الجزائرية على الجهة الغربية

بعد الانتصار الكبير الذي حققه صالح رايس حاول مواصلة تحرير الأراضي الجزائرية من الاحتلال الإسباني، ليوجه أنظاره هذه المرة باتجاه المرسى الكبير ووهران، وبغية تحقيق هذا الهدف أرسل ابنه محمد بك إلى استانبول محملا بالهدايا والتحف الثمينة مع رسالة يطلب فيها مساعدات عسكرية ليتمكن من توجيه ضربة قاضية للإسبان والسعديين المتعاونين معهم، فقبل السلطان العثماني هذا الطلب بسرعة[2] لأنه كان يدرك أهمية القضاء على الإسبان بالسواحل المغاربية.

قام صالح رايس بتجهيز جيش وسار به إلى مدينة وهران لتحريرها، وأثناء الحصار توفي جراء إصابته بالطاعون في جوان 1556م/ رجب 963هـ، ومع ذلك واصل القائد يحي وحسن قورصو الحصار حيث تم فتح حصن رأس العين وشرعوا في التضييق على باقي الحصون، لكن الباشا الجديد قلج علي أعطى الأوامر بفك الحصار والعودة إلى مدينة الجزائر لمواجهة حملات القرصان الإيطالي أندريا دوريا في الجهة الشرقية للمتوسط.[3*]

1 - *Primaudid(De la), Document Inédits Relation du frère Juan de Iribes sur les événement du Tunis, 4 Janvier, 1535, R.Af, N°19, Alger, 1875, pp 267,268.*

2 - عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص195.

3 - يحي بوعزيز: مدينة وهران...، المرجع السابق، ص 44.

*- تختلف الروايات التاريخية عن سبب رفع الحصار فقد ذهب ديكودي صوريس إلى أن رجلا كان خليفة صالح رايس على تلمسان وكان صديقا لحاكم وهران الإسباني و متعاطفا معه لذلك رفع الحصار ،ديكودي صوريس:المصدر السابق، ص ص 175، 176؛ فيما ذهب جون وولف إلى أن السبب تخوف بعض حاشية السلطان من استقلال الجزائر عن الدولة العلية لأنها بعيدة جدا ولا يمكن التحكم فيها خاصة بعد وفاة صالح رايس، ولا يمكن ضمان ولاء حسن قورصو،جون وولف:المرجع السابق، ص 71، أما ألتر فقد ذكر رواية مفادها: أن السلطان العثماني هو الذي أمر بعودة 40 قادرغة إلى إستانبول لمساعدة الأسطول العثماني في مواجهة أندريا دوريا والرد عليه بسرعة..، عزيز سامح ألتر:المرجع السابق، ص 196، 197.

أ- محاولة تحرير مستغانم سنة 1558م

قرر الحاكم الكونت دالكوديت التحرك لاحتلال مستغانم لما لها من أهمية استراتيجية، ولأنها أصبحت قاعدة متقدمة في مواجهة الإسبان في الجهة الغربية، فجهز جيشا لذلك[1]، وبتاريخ 22 أوت 1558م ابتدأ الهجوم على مدينة مستغانم، ولما علم حسان باشا بخبر الحملة الإسبانية، جهز جيشا من الجزائريين واتجه نحوها ترافقه قوة برية تعززت في الطريق بأعداد أخرى من الراغبين في الجهاد[2]، لتنطلق مجموعة من الجيش الجزائري المرابط بتلمسان باتجاه مستغانم لمنع القوات الإسبانية من التوغل داخل البلاد وحرمانها التزود بالمؤن من السكان.

دخل الإسبان مدينة مزاغران يوم 23 أوت دون مقاومة لأن سكانها قد غادروها، ثم واصل الإسبان التوجه نحو مستغانم التي وصلوا إليها يوم 24 أوت وتمكنوا من احتلالها، إلا أن قوات حسان بن خير الدين وصلت في الوقت المناسب وتمكنت يوم 24 أوت من محاصرة الإسبان من جهة الشرق بقوة نظامية والمتطوعين، ومن الغرب قوات قلج علي، ودارت معركة عنيفة انتصر فيها الجزائريون وقتل الكونت دالكوديت[3] وأُسر ابنه دون مارتن« Don Martin »، لتواصل القوات الجزائرية الزحف نحو مزاغران يوم 26 أوت 1558م[4] وقامت بتحريرها وهكذا تلقى الإسبان هزيمة أخرى،أدركوا بعدها أن الجزائريين لن يسكتوا على احتلالهم للمرسى الكبير ووهران، وأنه ليس باستطاعتهم معاودة احتلال مناطق أخرى في ظل هذه القوة التي تتمتع بها الإيالة الجزائرية، لذلك اقتنعوا بالمحافظة على وهران والمرسى الكبير اللذين ظلت المحاولات مستمرة لتحريرهما.

ب- محاولة تحرير وهران والمرسى الكبير سنة 1563م

من بين أهم المحاولات لتحرير وهران والمرسى الكبير ما قام به حسن بن خير الدين، حيث تم تجهيز جيش قدره 15 ألف و1000 فارس من الصباحية يقودهم أحمد أمقران الزواوي و12 ألف راجل من زواوة وبني عباس، وعهد إلى الأسطول بحمل المؤن واتجه إلى أرزيو للرسو بها.[5]

وبتاريخ 05 فيفري 1563م، خرج حسن باشا من مدينة الجزائر، متجها إلى مدينة وهران التي وصلها يوم 03 أفريل 1563م[6]، وبدأ في حصارها معطيا الأوامر لحاكم تلمسان علي إسكندر بمنع أي تعاون بين

1- *Haedo (F.De), op.cit, p117.*

2 - *Belhamissi (M), op.cit, p78.*

3 - محمد بن عبد القادر الجزائري: المصدر السابق، ص101.

4 - أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 354.

5 - عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص213.

6 -أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص356.

الإسبان والقبائل، وفي نفس الوقت تأمين طريق العودة في حالة انسحابه، وبدأت القوات الجزائرية في مهاجمة وهران، حيث استطاعت السيطرة على المرسى الكبير، وطلب من حاكم وهران الدون مارتن الاستسلام لكنه رفض ذلك، ليستمر الهجوم برا وبحرا لمدة يومين كاملين، لكنه لم يحقق أي نتائج تذكر، وذلك راجع لاستبسال القوات الإسبانية في الدفاع عن المدينة.[1]

استمر الحصار على مدينة وهران، والذي تخللته معارك ضارية من يوم بداية الهجوم 03 أفريل إلى غاية 05 جوان، أين قرر حسان باشا إجراء المعركة الحاسمة والأخيرة، لكنه لم يستطع تحقيق النصر المنتظر، إلا أنه أبقى على الحصار إلى أن وصلت النجدة الإسبانية يوم 07 جوان 1563م بقيادة أندريا دوريا للمحاصرين والذين كانوا في أمس الحاجة إليها لأن المعارك أنهكت الطرفين (الجزائري والإسباني)، وقد استطاعت قوات أندريا دوريا قلب الموازين وفك الحصار وإفشال الهجوم الجزائري على وهران، لذلك أمر حسن بن خير الدين قواته بالانسحاب لأن المعارك أنهكت قواهم، وأندريا دوريا كان يريد قطع خط العودة عنهم.[2]

وعلى الرغم من فشل حسان بن خير الدين في تحرير وهران إلا أنه استطاع التضييق على الإسبان وجعلهم يتأكدون من أن المرسى الكبير ووهران سيكونان الهدف القادم لا محالة للقوات الجزائرية، وفي الأخير ننوه ببسالة وعزيمة القوات الإسبانية المحاصرة في وهران، وعلى الرغم من طول مدة الحصار التي فاقت الشهرين وخسارتهم الكثير من المعارك أمام الجزائريين، إلا أنهم استطاعوا الصمود في انتظار وصول النجدة، وبصمودهم ووصول النجدة بقيادة أندريا دوريا حافظوا على وهران والمرسى الكبير إلى غاية 1708م وهو تاريخ التحرير الأول لها من طرف الجزائريين.

4- الصراع الجزائري الاسباني ما بين 1563-1600م

بعد تحرير تونس سنة 1574م بدأت إسبانيا تراجع سياستها الخارجية، وتأكدت أن الدولة العلية وحليفتها في الجهة الغربية للمتوسط قد سيطرتا تماما على بلاد المغرب، ولم يبق لهما إلا التوجه لضرب الإسبان في وهران والمرسى الكبير، ولعلم حكام إسبانيا بمدى تبعية حكام الجزائر للسلطنة العلية حاولوا جاهدين توقيع صلح معها ، لعلهم يحفظون شيئا من هيبة الأسطول الإسباني المتهاوي أمام ضربات البحرية الجزائرية، وقد تم لهم ما أرادوا ووقعوا صلحا مدته ثلاث سنوات مع الدولة العلية سنة 1582م.[3]

1 - عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص214.
2 - أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص360.
3 - محمد سي يوسف: المرجع السابق، ص232.

ورغم أن إسبانيا كانت تجري اتصالات مع الدولة العلية، إلا أن الجزائريين كانوا في المقابل يواصلون هجماتهم عليها ، ففي عام 1578م أغار حسن فنزيانو (1577-1580م) على سواحل جزر البليار، ليواصل الرياس هجوماتهم ضد الإسبان غير مبالين بمعاهدة الصلح التي وُقّعت بين الدولة العلية وإسبانيا، فقد شنوا هجمات متواصلة على كورسيكا وسردينيا وصقلية[1]، وقام مراد رايس بهجوم على جزر الكناري وأسر 300 شخص أرسلهم إلى الجزائر العاصمة، وللرد على هذه الهجمات المتواصلة حاولت إسبانيا التوسع ومد نفوذها بالجهة الغربية انطلاقا من وهران والمرسى الكبير، فقابلها الجزائريون بمقاومة شديدة أفشلت مشروعها سنة 1008هـ/1599م.[2]

وكانت آخر محاولة في هذا القرن لتحرير وهران محاولة مصطفى باشا(1596–1599م) سنة 1007هـ/ 1598م[3]، إلا أنه فشل في تحريرها على الرغم من اقتحام حصن المرسى وتدميره، وتكبدت قواته خسائر فادحة في الأرواح جراء هذه المحاولة، وبمناسبة اقتحام مصطفى باشا حصن المرسى نظم الفقيه سيدي عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن موسى (929 /1011هـ) هذه الأبيات:

هَنِيئًا لَكَ بَاشَا الجَزَائِرِ والْغَرْبِ بِفتْحِ أَسَاسِ الكُفْرِ مَرْسَى قُرَى الكَلْبِ
ستَفْتحُ وهْرانَ ومَرسَاهَا التــِي أضَرَّت بِذا الإِقْلِيمِ ضرًّا بِــــلا رَيْبِ
فَثِقْ بالإلهِ واسْتَعِنْ به وأصْبِرنَّ يَنَلْكَ المُــــرادُ يا أَمِيــري ومــَطْلبِي
وقَدْ وَعَدَ الرَّحْمنُ جَلَّ جَلالهُ معَ العُسْرِ يُسْرا فَــداني ذاكَ في الكُتُبِ[4]

ولما حزن الداي على خسائر جيشه في المعركة نظم نفس الفقيه هذه الأبيات:

أمَوْلاَيَ بالمُخْتارِ منْ آلِ غَالــبٍ أحبَّتَهُ والصَّحْبُ كُلُّ الأقَـــارِبِ
تَحْيَا بِنصْرٍ مع فُتُوحٍ تَواتَــــرتْ علَى نَجْلِ خيرِ الدينِ خَيْرَ المَطَالِبِ
وتُرْضيهِ يا مَوْلايْ في كُلِّ وِجْهَةٍ وتَمْنَحُهُ عِــزًا وخَيْرَ العَواقِــــبِ.[5]

1 – يحي بوعزيز: علاقات الجزائر...، المرجع السابق، ص54.
2 – الشافعي درويش: المرجع السابق، ص69.
3 – ابن المفتي حسين رجب شاوش: تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها، دراسة وتحقيق، فارس كعوان، ط1، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م، ص44.
4 – ابن مريم الشريف التلمساني أبي عبد الله محمد بن محمد بن أحمد: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق محمد بن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1212هـ/ 1908م، ص، 132.
5 – نفسه، ص 133.

المبحث الثاني: العلاقات الجزائرية الإسبانية على ضوء بعض القضايا الخارجية (1551–1574م)

1– تحرير طرابلس الغرب 1551م

كانت مدينة المهدية محتلة من طرف الإسبان منذ سنة 1535م بموجب تنازل السلطان الحفصي مولاي حسن عنها لشارلكان، إلا أن درغوث باشا استطاع استرجاعها سنة 1549م بمساعدة مراد آغا، حيث أصبحت قاعدة لشن الهجمات ضد السفن المسيحية، خاصة الموجودة على سواحل إيطاليا، لذلك أمر شارلكان قائد أسطوله أندريا دوريا تجهيز حملة عسكرية لاحتلالها، بمساعدة فرسان مالطة، واستطاعوا السيطرة على المدينة في 10 سبتمبر 1550م[1]، على الرغم من صمودها لمدة شهر كامل في وجه الهجمات الإسبانية وبعد احتلالها للمدينة ألحقت القوات الإسبانية أضرارا جسيمة بها، ناهيك عن عمليات السلب والنهب والتدمير انتقاما من أهلها.[2]

وعلى إثر ذلك قرر درغوث باشا طلب مساعدة السلطان العثماني سليمان القانوني الذي كان رده سريعا بعد التقرير الذي قدمه له يحذره فيه من خطر الإسبان وفرسان القديس يوحنا بمالطة على الوجود العثماني بالمغرب الإسلامي، خاصة وأن الإسبان مازالوا مسيطرين على تونس، ليبيا، المرسى الكبير ووهران بالجزائر، فأدرك بذلك السلطان العثماني حقيقة المرامي الإسبانية الهادفة لطرده من المنطقة والسيطرة على البلاد المغاربية، لذلك أمر بتجهيز حملة عسكرية لاسترجاع طرابلس الغرب.

كان الأسطول العثماني بقيادة سنان باشا يساعده درغوث باشا وصالح بك حاكم رودس، قد سلك طريقا مر من خلاله على السواحل الإيطالية حتى وصل إلى مالطة، وفي الأخير وصل إلى سواحل طرابلس الغرب يوم 04 أوت 1551م، وحاصرها لمدة 10 أيام وضيق عليها حتى أصبح سقوطها أمرا لا مفر منه[3] وبدأت المعركة الفاصلة بين القوات العثمانية وقوات القديس يوحنا، وقد قام العثمانيون بقصف القلعة التي كانت قوات القديس يوحنا متحصنة بها، والتي كان ردها سريعا، حيث كبّدت العثمانيين خسائر معتبرة في الأرواح، لكنّ إصرار العثمانيين على الانتصار مهما كانت الخسائر جعلهم يحدثون أضرارا بليغة بالقلعة لم يتمكن فرسان مالطة من إصلاحها.

---

1 – إيتوري روسي: المرجع السابق، ص206.

2 – أحمد بك النائب الأنصاري الطرابلسي: المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، ط2، مكتبة الفرجاني، طرابلس الغرب، ليبيا، د.س.ط، ص189.

3 – جون ب. وولف: المرجع السابق، ص68.

ونتيجة للحصار المحكم المفروض على القلعة بدأت المؤن تتناقص على القوات المسيحية خاصة الماء، لذا بدأت بوادر التفكك والانقسام تظهر بشكل واضح، لذلك اضطر قائد الحامية العسكرية المسيحية غاسياري فالينس لعقد اجتماع لدراسة الأوضاع، وقد انتهى إلى نتيجة حتمية وهي الاستسلام مقابل أن يُسمح لهم بمغادرة المدينة سالمين، فوافق سنان باشا على الطلب.[1]

دخلت القوات العثمانية بقيادة سنان باشا طرابلس الغرب يوم 11 شعبان 958هـ/ 14 أوت 1551م[2]، فقد ساعدت الظروف العثمانيين لتحرير طرابلس من الاحتلال المسيحي لفرسان مالطة المتحالفين مع الإسبان، وكان التفوق واضحا للعثمانيين، كما أن الحصار برا وبحرا أنهك القوات المسيحية، وبتحرير طرابلس الغرب من طرف القوات العثمانية الجزائرية بدأ النفوذ الإسباني في بلاد المغرب ينحصر يوما بعد يوم، وفي المقابل تزايد النفوذ العثماني، والأهم أن طرابلس الغرب أصبحت إيالة عثمانية تابعة للجزائر وتحت إشرافها مباشرة، وكان ذلك بداية تحقيق مشروع الوحدة.[3]

2-حرب مالطة 1565م

اتبعت كلا من الدولة العلية والإمبراطورية الإسبانية استراتيجية معينة من أجل تغلب إحداهما على الأخرى والسيطرة على الحوض المتوسط، فكما كانت إسبانيا ترى أنه لا يمكن السيطرة على الحوض الغربي للمتوسط إلا باحتلال بلاد المغرب الإسلامي وتوقيف الزحف العثماني، كانت بالمقابل الدولة العلية ترى وجوب تصفية المراكز المسيحية الخطرة جدا عليها[*]، ومن الواضح أن تكون مالطة وتونس ومعهما حلق الوادي هي الأهداف القادمة للأسطول العثماني.[4]

مثلت مشاركة الإيالة الجزائرية في حرب مالطة إلى جانب الدولة العلية مظهرا من مظاهر الصراع الجزائري الإسباني، الذي لم يعد داخل الأراضي الجزائرية والمغاربية وحسب، بل تعداه إلى مواطن أخرى من العالم المسيحي، فقد بعث السلطان العثماني سليمان القانوني برسائل إلى كل قادة الإيالات العثمانية يدعوهم

---

1 – أبو عبد الله محمد بن خليل غلبون الطرابلسي: المصدر السابق، ص94.

2 – محمد سي يوسف: المرجع السابق، ص94.

3 – قدادرة شايب: "الصراع الإسباني العثماني في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط وانعكاساته على شمال إفريقيا خلال القرن السادس عشر الميلادي"، **حولية المؤرخ**، ع14/12، الجزائر، 2011م، ص، 256.

* – منذ أن وطّن شارلكان فرسان القديس يوحنا جزيرة مالطة سنة 1529م ومن بعدها طرابلس كانوا يهاجمون السفن التجارية العثمانية والإسلامية، حيث شكلوا خطرا دائما على تجارتهم، فقد كانت مالطة في نظر العثمانيين وكر القرصنة واللصوصية، ولذلك قرر السلطان سليمان القانوني السيطرة عليها...، جون.ب.وولف: المرجع السابق، ص78.

4 – نفسه، ص79.

فيها إلى المشاركة في حملة ضد مالطة، وكان من بينهم حسن بن خير الدين باشا حاكم الجزائر، ودرغوث وقلج علي وغيرهم.[1]

وقد شاركت البحرية الجزائرية بدور هام في هذه الحرب بسبب قوتها، خاصة وأنها استطاعت هزم القوات الإسبانية في الكثير من المواقع، لذلك كان حسن بن خير الدين بايلرباي الجزائر قد تلقى عدة رسائل من طرف السلطان سليمان القانوني بداية من شهر سبتمبر 1564م إلى شهر مارس 1565م، يخبره عن عزمه توجيه حملة عسكرية للسيطرة على مالطة وطرد فرسان القديس يوحنا منها، ويطلب منه الاستعداد للمشاركة في الحملة، التي كان انطلاقها من استانبول يوم الخميس 26 شعبان 972هـ الموافق لـ 29 مارس 1565م.[2]

شُكِّل الأسطول العثماني من 140 قادسا، 10 ماهونات، 20 سفينة دائرية وجيش يتراوح ما بين 30 إلى 36 ألف جندي بقيادة الصدر الأعظم مصطفى باشا[3]، والتحق بهم من الجزائر حسن باشا على رأس أسطول بحري مكون من 28 سفينة[*] على متنها 3 آلاف جندي من أشجع وأمهر المقاتلين[4]، ليبدأ في حصار مالطة بقيادة الصدر الأعظم يوم الخميس 18 شوال الموافق لـ 09 ماي 1561م ودخل الجند العثماني أرض الجزيرة التي كان يدافع عنها حوالي 9 آلاف جندي مرفوقين بـ 900 فارس من مختلف الأجناس بقيادة لافاليت، وبعد استراحة يوم، أي يوم 20 شوال الموافق لـ 11 ماي 1565م استطاع العثمانيون الاستيلاء على قلعة صاشرمه، وفي أثناء ذلك أصيب درغوث باشا بقنبلة توفي على إثرها.

وقد استمر الحصار من 15 ماي 1565م إلى غاية 12 سبتمبر 1565م، ورغم اشتداده، وشدة الهجمات العثمانية إلا أن الجزيرة لم تسقط بيد العثمانيين، نتيجة لقوة نظامها الدفاعي واستبسال المدافعين عنها، بالإضافة إلى عدم التنسيق الجيد للقوات العثمانية فيما بينها، كلها عوامل ساعدت على صمود القوات المدافعة عن مالطة.[5]

1 – المنور مروش: المرجع السابق، ص137.

2 – خليل الساحلي: "وثائق عن المغرب العثماني أثناء حرب مالطة سنة 1565م"، **المجلة التاريخية المغربية**، ع8/7، تونس، 1977م، ص 41.

3 – المنور مروش: المرجع السابق، ص137.

* – حاول درغوث باشا وقلج علي التأثير على السلطان سليمان القانوني من أجل توجيه الحملة لتحرير وهران ،المرسى الكبير ،تونس وحلق الوادي، لأنها مناطق يجب أن تكون تابعة للدولة العلية لأنها أراضي إسلامية خاضعة للاحتلال الإسباني، وهذا خلافا لمالطة التي هي إحدى القلاع المسيحية المحصنة والبعيدة عن الأراضي العثمانية، إلا أن السلطان العثماني أصرّ على فتح مالطة ولم يعبأ باقتراحات ونصائح قادته العسكريين...، محمد سي يوسف: المرجع السابق، ص ص 103، 104.

4– المنور مروش: المرجع السابق، ص137.

5 – نفسه.

أما عن دور البحرية الجزائرية في هذا الحصار فقد تولى حسن بن خير الدين بنفسه الهجوم على قلعة سان ميشال[1] وتمكن من إلحاق خسائر فادحة بالمدافعين عنها وواصل الحصار رفقة قلج علي باشا، حتى قرر الصدر الأعظم رفعه لكنهما لم يحققا أي نتائج تذكر[2]، وعلى الرغم من فشل هذه الحملة، إلا أن السلطان العثماني كافأ حسن باشا وعينه أميرالا على البحرية العثمانية في رجب 974هـ/ جانفي 1565م ليغادر الجزائر بلا رجعة.[3]

كانت حرب مالطة شكلا من أشكال الصراع الإسلامي المسيحي، فالدولة العلية تدعمها الإيالة الجزائرية التي كانت تريد السيطرة على حوض المتوسط، فيما تعد إسبانيا الداعمة الأولى لفرسان القديس يوحنا، الذين كانوا يشكلون خطرا على المسلمين في بلاد المغرب، لينتقل الصراع الجزائري الإسباني لأول مرة إلى الأراضي المسيحية في الجهة الشرقية للمتوسط، وبذلك لعبت حرب مالطة دورا فعالا في توتر العلاقات الجزائرية الإسبانية.

3- الثورة الموريسكية (1568-1571م)

شكلت القضية الموريسكية إحدى أهم القضايا التي كانت سببا في توتر العلاقات الجزائرية الإسبانية فقد ساهمت الإيالة الجزائرية بشكل فعال في تدعيم الثوار الموريسكيين وثورتهم التي اندلعت سنة 1568م وكانت عبارة عن تراكمات سابقة قام الإسبان بفرضها على الأندلسيين منذ سقوط غرناطة سنة 1492م وهي تلخص وضعا آل إليه الأندلسيون نتيجة تعرضهم للاضطهاد والتنكيل على يد الإسبان.

ففي 12 مارس 1524م، أصدرت السلطات الإسبانية مرسوما يفرض على الأندلسيين الذي لم يغادروا إسبانيا التنصير أو مغادرة البلاد، وكل مسلم يخالف هذا القرار يسترق مدى الحياة بعد انتهاء المهلة المحددة له من أجل تطبيق هذا المرسوم الذي سمح لديوان التحقيق بتنفيذه، حيث استعمل جميع الوسائل القمعية من جوسسة وتحقيق، محاكمات صورية، تعذيب، ملاحقات وتحويل المساجد إلى كنائس[4]، ونتيجة لتطبيق هذا المرسوم قامت ثورة في سنة 1526م في معظم المناطق التي يسكنها المسلمون ولكنها أخمدت بسهولة.[5]

1 - *Haedo (F.De), op.cit, p130.*

2 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 219.

3 – عمار بن خروف: المرجع السابق، ص105.

4 – ليلى الصباغ: المرجع السابق، ص120.

5 – محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، ص256.

ونتيجة للإضطهاد المتواصل الذي كان يتعرض له المسلمون بالأندلس لم يتـردد هـؤلاء في طلـب مساعدة السلطان العثماني سليمان القانوني سنة 1541م، بعد الانتصار الذي حققه حسن آغا على شـارلكان وطلبوا منه إعادة خير الدين إلى الجزائر ليعمل من جديد على صد العدوان الإسباني وإنقاذ مسلمي الأنـدلس[1] وهذا يدل على المكانة التي كانت تحتلها إيالة الجزائر لدى الموريسكيين، خاصة وأن حكامها كانوا السـباقين دائما لنصرة هؤلاء المضطهدين.

وبعد وفاة شارلكان سنة 1558م خلفه فليب الثاني (1558-1598م)، الذي كان أشد عداء من سابقه لأنه كان خاضعا لأهواء قادة الكنيسة الكاثوليكية، لذلك أعلن عداءه للأندلسيين، فقد أصـدر سـنة 1563م مرسوما يحرّم على الموريسكيين حمل السلاح إلا بترخيص من الحاكم العام، وفي سـنة 1567م مـنح لـرئيس أساقفة غرناطة الحق في منع المسلمين من الاستحمام، الصلاة، الصوم، استعمال اللغة العربية، ارتداء الحجـاب للنساء المسلمات، الذبح على الطريقة الإسلامية، الزواج بمسلمات، منع الختان وأن تظل البيوت مفتوحة يـوم الجمعة.[2]

واصلت الحكومة الإسبانية التضييق على الموريسكيين، وأصدرت مرسوما جديدا في جـانفي 1568م يُحرّم على المسلمين العمل بكل ما يتعلق بتاريخهم القديم أو تذكره وكتابته أو العمل به، ونتيجة للاضـطهاد المتزايد قرر الموريسكيون إعلان الثورة ضد الإسبان في 1568م[3] لأسباب عديدة نذكر منها:

- الاضطهاد المتواصل الذي كان يتعرض له الموريسكيون منذ سقوط غرناطة إلى قيـام هـذه الثـورة فكلما زاد الاضطهاد أُعلنت الثورات هنا وهناك بالأندلس، محاولة منهم للـتخلص مـن التعـذيب والتنكيل.
- استئناس الموريسكيين بالانتصارات التي كانت تحققها الإيالة الجزائرية ضد الإسبان والـتي كسـرت حاجز الخوف لديهم، وتأكدوا أنه بإمكانهم هزم الإسبان بمساعدة الجزائريين.
- إعلان الجزائر نيتها مساعدة الأندلسيين في ثورتهم[4]، وبالتالي تهديد إسبانيا مـن الـداخل بمسـاعدة الموريسكيين.

فكانت المحاولة الأولى لإعلان الثورة مقررة يوم 15 أفريل 1568م عندما يكون النصـارى منشـغلين يومئذ باحتفالاتهم وصلواتهم، وقد رسم قلج علي خطة لمهاجمة القوات الإسبانية في وهران لإرباكهم وتشتيت

1 – عبد الجليل التميمي: المرجع السابق، ص 43.
2- ليلى الصباغ: المرجع السابق، ص145.
3 – عبد القادر فكاير: المرجع السابق، ص157.
4 – الشافعي درويش: المرجع السابق، ص 65.

قواهم ما بين الداخل والخارج، وأرسل جيشا يتألف من 14 ألف جندي ليدعموا حوالي 60 ألف من الثـــوار، إلا أن أحد الثوار أُكتشف من طرف الإسبان، ونتيجة للتعذيب الذي تعرض له إعترف بمكان مخابئ البـــارود والأسلحة وأجهضت هذه المحاولة.[1]

إلتف الموريسيكون حول شاب في العشرين من عمره من حي البيازين، ينتسب إلى سلالة بـــني أميـــة يدعى الدون فرناندو وكوردو وفالورو، كان من أعيان غرناطة ومستشارا في بلديتها، وتوّجَهُ الموريســـكيون ملكا عليهم وقائدا لثورتهم في 09 رجب 976هـــ الموافق لــ 29 ديسمبر 1568م في احتفال ديني مهيب[2]، وقد ظهرت المساعدات الجزائرية في هذه الثورة بشكل جلي وواضح مباشرة بعد اندلاعها، حيث لم يتأخر حكـــام الإيالة وبتوجيه من السلطان العثماني سليم الثاني (1566-1574م) في تقديم المساعدات المادية والمعنوية.[3]

مما لا شك فيه أن هذه المساعدات كانت من بين أهم الأسباب التي جعلت الثورة تستمر لمدة قاربـــت ثلاث سنوات، و لم تنقطع المساعدات الجزائرية للموريسكيين الثائرين بالأندلس، فخلال سنة 926هـــ/ 1569م بعث قلج علي عدة أساطيل محملة بالأسلحة والجنود لمساعدة المجاهدين الأندلســـيين، لتتواصـــل المســـاعدات الجزائرية خلال سنة 1570م[4] وذلك بتوصية من السلطان العثماني سليم الثاني، الذي أمر قلج علـــي بإرســـال النجدات والمعونة للمجاهدين بالأندلس ريثما يتم الانتهاء من فتح جزيرة قبرص القريبة من ممالكه[5] بل تذهب بعض المراجع إلى أن قلج علي كان يريد الذهاب بنفسه ليتولى قيادة الجهاد هناك، لكنه اضطر إلى تأخير هـــذه الحركة لدى سماعه بأن دون خوان دوتريس "Don Juon Dotris" يقوم بجمع وإعداد قـــوة كـــبيرة لمهاجمـــة عنابة[6]، بعدها قرر قلج علي استغلال الفرصة وهاجم تونس في شهر أكتوبر 1569م، محاولة منه لتحريرها مـــن قبضة سلطانها حميد بن مولاي حسن (1542-1569م) الذي عقد سلاما مع الإسبان مثل والده، الذي فرضـــه شارلكان على التونسيين.[7]

1 - عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص226.
2 - ليلى الصباغ: المرجع السابق، ص ص 149، 150.
3 - مهمة دفتر، علبة رقم 2، عدد 127، 977هـ.
4 - *Haedo (F.De), op.cit, P139.*
5 - محمد سي يوسف: المرجع السابق، ص131.
6 - عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص ص227، 229.
7 - جون. وولف: المرجع السابق، ص85.

أدركت إسبانيا خطر الثورة الموريسكية لذلك قرر الملك فليب الثاني العمل بسرعة للقضـاء عليها ودارت معارك ضارية بين الطرفين أسفرت عن الهزيمة النهائية للأندلسيين يوم 28 أكتوبر 1570م على يد دون خوان صاحب الـ 23 عاما الذي استطاع قلب الموازين وترجيح الكفة لصالح الإسبان.

لعبت الإيالة الجزائرية بقيادة قلج علي دورا بارزا في هذه الثورة و لم تتأخر في تقديم المساعدة المادية أو المعنوية، إلا أن التدخل المباشر بأسطول كبير لتغيير موازين القوى بين الطرفين لم يكن ممكنا، نتيجة انشـغال الأسطول العثماني بالمشرق في محاولته فتح قبرص، ومع ذلك استطاعت الإيالة أن تستغل الفرصة وتهاجم تونس وحاولت بكل حزم وقوة نقل المعركة إلى قلب إسبانيا، كما فعلت إسبانيا عندما كانت تحـارب الجزائـريين داخل أراضيهم، ومع ذلك أسفرت هذه الثورة على عدة نتائج منها:

- فشل ثورة الموريسكيين التي قاربت الثلاث سنوات، نتيجة لتوقيت هذه الثورة التي قامـت و كـون الإيالة الجزائرية لم تحقق وحدتها بالكامل، بالإضافة إلى انشغال الباب العالي بمسألة قبرص القريبة مـن ممتلكات الدولة العلية.
- صدور قرار ينفي المسلمين من مملكة غرناطة يوم 28 أكتوبر 1570م إلى داخـل الـبلاد ومصـادرة أملاكهم العقارية.[1]
- انهيار آمال الأندلسيين وفقدانهم الثقة بأنفسهم وإدراكهم أن الأمر صعب في إعادة التحـرر وعـودة الأندلس إلى حاضر الدولة الإسلامية، وتأكدوا أن عودتها لا تكون إلا باتحاد المسلمين جميعا.
- تعرض الأندلسيون لأبشع أنواع العقاب والاضطهاد من ذبح وحرق وتنكيل[2] وهذا يعتبر أحد أكـبر أنواع الاضطهاد الذي عرفه التاريخ الحديث، إن لم نقل عبر التاريخ الإنساني الطويل.

1 - ليلى الصباغ: المرجع السابق، ص161.

2 - أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص379، 388

4- معركة الليبانت* 1571م

شكلت هذه المعركة التي جرت يوم 07 أكتوبر 1571م مظهراً من مظاهر الصراع الجزائري الإسباني الذي ابتدأ مع بداية القرن السادس عشر الميلادي، فقد كانت إسبانيا تريد نقل الصراع بين الطرفين إلى منطقة بعيدة عن سواحلها، خاصة بعد تلك الثورة التي أشعل لهيبها الموريسكيون بدعم واضح من طرف الجزائريين لأن الإسبان كانوا يدكون أن الصراع لا يمكنه أن يزول، والدولة العلية التي زاد خطرها على الإسبان مازالت تدعم الجزائر.

ولقد لعبت الكنيسة الكاثوليكية بقيادة البابا بيوس الخامس "Pie V" دورا مهما في توحيد الدول الأوروبية من أجل الوقوف صفا واحدا في مواجهة الخطر العثماني في شرق المتوسط، وقد كللت هذه المساعي بتوقيع اتفاق الحلف المقدس يوم 25 ماي 1570م، والذي ضم كل من إسبانيا، ألمانيا، إيطاليا، والبابوية، وعُيّن دون جوان النمساوي كقائد عام للقوات الأوروبية المتحالفة.

ونظرا للإنتصارات المتتالية التي حققتها الإيالة الجزائرية في مواجهة إسبانيا أدركت الدولة العلية أهمية الأسطول الجزائري في مواجهة أي تحالف أوروبي، ومباشرة لما علم السلطان سليم الثاني بهذه التحركات الأوروبية بعث برسالة إلى قلج علي بتاريخ 02 ذو القعدة 978هـ أفريل 1571م يدعوه فيها إلى تجهيز سفنه للإلتحاق بالأسطول العثماني بقبرص.[1]

ولما وصل الأمر الهمايوني إلى قلج علي لبى هذا الأخير النداء بسرعة، وقام بتجهيز 50 سفينة والتحق بقائد الأسطول العثماني في كورون "Coron"، وهاجم في طريقه عدة جزر في الساحل الأدرياتيكي[2]، وكان ذلك في ربيع 1571م[3] ونتيجة للخبرة العسكرية التي كان يتمتع بها قلج علي، رأى أنه من الحكمة التريث لمدة معينة، ليقوم العثمانيون بتقوية وتجهيز الأسطول ليكون جاهزا لمواجهة التحالف الأوروبي، وفي نفس الوقت

* - تعرف عند الأتراك باسم ابنه بختي وهي تقع شمال المضيق الذي يؤدي من البحر الأيوني باليونان إلى خليج كورينيت والذي يعرف منذ العصور الوسطى بخليج لبانت، وقعت بيد البندقية خلال القرن الثالث عشر الميلادي، وقد حاول محمد الفاتح افتكاكها سنة 1477م لكنه لم ينجح، وتمكن بعد ذلك بايزيد الثاني من فتحها وأنشأ بها قلعتين لحماية مدخل الخليج، ينظر: نعيمة حموش: "دور البحرية الجزائرية في معركة الليبانت 1571م"، **حولية المؤرخ**، ع1، المطبعة الحديثة، الجزائر، 2005م، ص 206.

1 - محمد سي يوسف: المرجع السابق، ص 151.

2 - *Grammont (H. De), op.cit, p108.*

3 - محمد سي يوسف: المرجع السابق، ص112.

كلفه بورتو باشا بالهجوم على جزيرة كاندي* "Condie" وجزيرة أخرى قربها اسمهـــا جزيـــرة طورطـــورا "Turtura" وعدة جزر أخرى.[1]

وفي 17 جمادى الأولى 979هـــ الموافق لـــ 07 أكتوبر 1571م، اصطدم الأسطولان العثماني والمسيحي في مضيق الليبانت، وأسفر هذا اللقاء عن هزيمة الأسطول العثماني[2]، ومع ذلك وفي الجناح الأيمـــن للقـــوات العثمانية كان قلج علي يقود قوات الأسطول الجزائري، وهو الوحيد من القادة العثمانيين الذي نجا من المعركة واستطاع الوصول إلى سفن الفرسان يوحنا والسيطرة على رايتهم، وأنقذ جزءا كبيرا من الأسطول العثمـــاني وعاد به إلى استانبول سالما[3]، وعلى الرغم من هزيمة الجيش العثماني في هذه المعركة إلا أن قلج علي اســـتطاع أن يجلب إليه الأنظار من أعدائه قبل أصدقائه وإخوانه من المغاربة والعثمانيين، لذلك عين قائـــدا للأســـطول العثماني وأسند حكم إيالة الجزائر إلى حسان بن خير الدين.[4]

وأسفرت هذه المعركة على عدة نتائج أهمها:

1. كان للإنتصار المسيحي في هذه المعركة صدى واسعا في أوروبا، فهو أول انتصار علـــى الأســـطول العثماني بهذه الطريقة، فأقيمت الأفراح في كل مكان ابتهاجا بهذا النصر وكان لقائد الأســـطول دون خوان النمساوي نصيبا من الثناء والمدح.
2. نتيجة للبلاء الحسن للقوات الجزائرية في هذه المعركة والشجاعة والدهاء اللذين تميز بهما قلـــج علـــي وعرفانا بالمجهودات التي بذلها في المعركة من أجل إنقاذ الأسطول العثمـــاني تم تعيينـــه قائـــدا عامـــا للأسطول وتكليفه بإعادة بنائه من جديد.[5]
3. قيام دون خوان النمساوي بالهجوم على تونس واحتلالها دون أية مقاومة تذكر.[6]
4. قدرت خسائر العثمانيين بـــ : فقدان حوالي 200 سفينة، و30 ألفا بين قتيـــل وجـــريح، و 3 آلاف أسير.[7]

* - تقع غرب يوغسلافيا (قبل تفككها) على البحر الأدرياتيكي.
1 - محمد سي يوسف: المرجع السابق، ص156.
2 - عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص231.
3 - جون.ب. وولف: المرجع السابق، ص90.
4 - نفسه، ص 231.
5 - محمد فريد بك المحامي: المصدر السابق، ص ص 111، 112.
6- *Devoulx (Albert), L'amarine de la Régence D'Alger, R.Af, N°13, Alger, 1869, p390.*
7- محمد فريد بك المحامي: المصدر السابق، ص ص 111، 112.

شكلت هذه المعركة إحدى حلقات الصراع الإسلامي المسيحي عامة والجزائري الإسباني خاصة ليتواصل الصراع بين الطرفين على عدة جبهات أخرى.

5- تحرير تونس 1574م

شكلت تونس إحدى حلقات الصراع بين الجزائر وإسبانيا بعد أن أعاد دون خوان النمساوي -وهو مزهوا بفرحة الانتصار الباهر على العثمانيين في معركة الليبانت سنة 1571م- افتكاكها من قلج علي الذي كان قد حررها سنة 1569م، فكانت بذلك حجرة عثر في توحيد طرابلس الغرب والجزائر تحت سلطة واحدة تابعة للسلطان العثماني، ولذلك أدرك العثمانيون خطورة التواجد الإسباني في تونس، فقرر سليم الثاني استعادة تونس وضمها للدولة العلية، فأرسل إلى قيادات كل من طرابلس الغرب والجزائر يدعوهم للمشاركة في الحملة، وتولى القيادة قلج علي باشا وسنان باشا، وفي طريقهما إلى طرابلس الغرب التحقت بهم قوات القيروان وطرابلس الغرب والجزائر بقيادة رمضان باشا.[1]

وفي 12 جويلية 1574م وصلت القوات العثمانية التي كان يقودها قلج علي وسنان باشا إلى السواحل التونسية بقوة قوامها 230 سفينة و 40 ألف رجل[2]، حيث فرض حصار مشدد على المدينة، التي اندلعت بها المعارك يوم 17 جويلية 1574م، وتكبد الإسبان خلالها خسائر فادحة، ومما زاد من وضع الإسبان تفاقما انسحاب العرب الموالين لهم أثناء المعارك، وهذا ما جعل الأمير الحفصي الموالي للإسبان وقائد القوات الإسبانية يفران إلى حصن الباسيتون ويتحصنان به، ومع ذلك واصلت القوات الإسبانية الدفاع عن نفسها إلى غاية 13 سبتمبر 1574م على الرغم من الحصار الشديد الذي ضرب عليها، وقد اشترك في هذا الحصار أمير أمراء الجزائر رمضان باشا، وأمير الأمراء السابق أحمد باشا وأمير أمراء طرابلس الغرب مصطفى باشا.[3]

وبعد السيطرة على قلعة الباستيون من طرف القوات العثمانية، وقتل الكثير من الجنود المتحصنين بداخلها، حيث تم الاستيلاء على الكثير من الأسلحة والذخيرة والمؤن، كما ألقي القبض على القائد الإسباني سيربلوني«Serbellouni » والقائد زاموقيرا «Zamoguerra » وبورتو كاريرو«Porto carrero» والسلطان الحفصي مولاي محمد (1569-1574م) الذين أرسلوا جميعا إلى استانبول.[4]

1 -*Braudel (F), La Méditerranée…, op.cit, p 422.*

2 – جون.ب.وولف: المرجع السابق، ص 92.

3 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص246.

4 – محمد سي يوسف: المرجع السابق، ص209.

وبانتهاء هذه المعركة الحاسمة والتي تم من خلالها استرجاع تونس نهائيا وضمها للدولة العلية، دانت طرابلس الغرب وتونس والجزائر للعثمانيين ما عدا المرسى الكبير ووهران، وبذلك توحدت الإيالات المغاربية الثلاث تحت سلطة واحدة، فقدتها منذ عقود من الزمن، وقد لعبت الجزائر دورا بارزا ومهما في هذا العمل حيث حملت على عاتقها إنجاح مشروع الوحدة.

6- نتائج تحرير تونس

1. هزيمة الأسطول الإسباني مرة أخرى أمام القوات العثمانية عامة والقوات الجزائرية خاصة.
2. الإنتقام من هزيمة الليبانت وتمكن قلج علي وفي ظرف وجيز من إعادة بناء الأسطول العثماني المتهالك أثناء المعركة سالفة الذكر.
3. بضم تونس إلى الدولة العلية توحدت الإيالات الثلاث، وأصبح حكام الجزائر في مأمن من المؤامرات الحفصية والإسبانية التي كانت تحاك ضدهم.[1]
4. تأمين طرق المواصلات البحرية بين الجزائر والدولة العلية، لأن طرابلس الغرب، مصر وبلاد الشام كلها تحت سيطرة الدولة العلية.
5. تبادل عدد كبير من الأسرى بين الطرفين، ومن أهم الأسرى الذين تم إطلاق سراحهم أحد أمراء الإسبان، ومحمد بن صالح رايس الذي وقع في الأسر أثناء معركة الليبانت.[2]

1 - عمار بن خروف: المرجع السابق، ص ص 86، 87.

2 - محمد سي يوسف: المرجع السابق، ص ص 206، 2111.

الفصل الثاني: العلاقات الجزائرية الإسبانية خلال القرن السابع عشر الميلادي

أولا: العوامل المؤثرة في العلاقات الجزائرية الإسبانية خلال القرن السابع عشر

المبحث الأول: القضية الموريسكية (1609-1614م) ودروها في العلاقة الجزائرية الإسبانية

1- ثورة الموريسكيين بجبال مويلا دي كورتيس

2- انتفاضة الموريسكيين بجبال لاغوار «Laguar» سنة 1609م

3- هجرة الأندلسيين الموريسكيين الأخيرة للجزائر 1609-1614م

4-الأسباب التي أدت إلى قرار الطرد النهائي

5- قرار الطرد النهائي في عهد فليب الثالث (1609-1614م)

6- طرد أندلسي بلنسية

7- تنفيذ قرار الطرد في بقية المناطق في المملكة الإسبانية

8- طرد أندلسي قشتالة

9- طرد أندلسي أراغون ومرسية

10- نتائج قرار الطرد النهائي

11-موقف الأندلسيين من قرار الطرد

المبحث الثاني: الجزائر والقضية الموريسكية بعد قرار الطرد 1609م

1- الهجرة الأندلسية إلى الجزائر

2- التأثير الأندلسي الموريسكي على العلاقات الجزائرية الإسبانية

المبحث الثالث: دور الأسرى في العلاقات الجزائرية الإسبانية

1- الأسرى الجزائريين لدى الإسبان

2- الأسرى الإسبان لدى الجزائر

ثانيا: الصراع الجزائري الإسباني (1600-1609م)

المبحث الأول: أوضاع البلدين في بداية القرن السابع عشر

1- أوضاع الجزائر

2- أوضاع إسبانيا

المبحث الثاني: حملة جيوفاني دوريا على مدينة الجزائر سنة 1010هـ/1601م

1-أسباب الحملة

2- تجهيز الحملة الإسبانية

3-خطة الهجوم

4-سير الحملة ونتائجها

المبحث الثالث: حملة الأب بيرماثيو على مدينة الجزائر سنة 1012هـ/1603م

1– أسباب الحملة

2–خطة الهجوم

3–سير الحملة

4–نتائج الحملة

المبحث الرابع: حملة التوسكان وفرسان مالطة على الجزائر ومحاولة تحرير وهران 1603-1609م

1– حملة دوق توسكانيا على مدينة الجزائر سنة 1012هـ/1603م

2–محاولة تحرير وهران الأولى سنة 1606م

3– حملة سلفيو بيكو لوميني «Silvio piccolomini» على عنابة سنة 1016هـ/1607م

4–حملة فرسان سان إتيان وتوسكانيا على مدينة الجزائر وجيجل 1609م

ثالثا: العلاقات الجزائرية الإسبانية 1620–1700م

المبحث الأول: الصراع الجزائري الإسباني (1620-1685م)

1–الهجوم الإسباني الإنجليزي على مدينة الجزائر 1620م

2–حصار وهران 1622م

3– محاولة إبراهيم باشا تحرير وهران 1658م

4–الإسبان في مواجهة قبائل الغرب 1660م

5– محاولة الإسبان احتلال مدينة تلمسان سنة 1675م

المبحث الثاني: محاولة الباي شعبان تحرير وهران 1686م

1–أسباب الحملة

2– تجهيز الحملة

3– الاستعدادات الإسبانية لمواجهة الحملة

4– سير المعارك

5– نتائج الحملة

المبحث الثالث: العلاقات الجزائرية الإسبانية ما بين (1687-1700م)

1– هجوم إبراهيم خوجة على وهران 1687م

2–حملة السلطان المغربي مولاي إسماعيل على وهران 1700م

3–الصراع الجزائري الإسباني في عرض البحر (المتوسط والمحيط الأطلسي)

أولا: العوامل المؤثرة في العلاقات الجزائرية الإسبانية خلال القرن السابع عشر

المبحث الأول: القضية الموريسكية (1609–1614م) ودورها في العلاقات الجزائرية الإسبانية

يجب الإشارة أن الملك فليب الثالث (1598-1621م) واصل سياسة والده تجاه الموريسكيين، والمتمثلة أساسا في القمع والتهجير والمضايقة، فكانت فترة حكمه حافلة بالوقائع العظام، إذ يعتبر عصره عصرا ذهبيا بامتياز في نظر الإسبان، لأنه حقق لهم ما عجز عنه أسلافه، ووافق على اتخاذ قرار الطرد النهائي بتاريخ 1609/09/22م وبذلك حقق رغبة رجال الدين والكثير من المتعصبين الإسبان الرافضين لأي تواجد للمسلمين على أراضيهم وبكامل شبه الجزيرة الأيبيرية[1]، لكن الأندلسيين لم يبقوا مكتوفي الأيدي أمام هذا القرار الجائر في حقهم وكان لزاما عليهم القيام بعمل ما يعبر عن رفضهم له، واستمرار تشبثهم بهويتهم الإسلامية، ورفضهم محاولات التنصير والدمج في المجتمع الإسباني المسيحي[2] ولم يجدُوا حلا أمام هذه المضايقات إلا إعلانهم الثورة كرد فعل على هذه الممارسات، فكانت ثورة جبال مويلا دي كورتيس (Muelade cottes) وثورة جبل لاغوار (Laguar).

1– ثورة الموريسكيين بجبال مويلا دي كورتيس

تعتبر هذه الثورة الأولى خلال القرن السابع عشر ميلادي، بعد أن سبقتها عدة ثورات خلال القرن السادس عشر ميلادي، وكانت كرد فعل على قرارات الطرد النهائي التي اتخذها فليب الثالث، بالإضافة إلى التعبير عن رفض التام لكل الممارسات التعسفية الصادرة من طرف السلطات الحاكمة بإسبانيا، فكانت أولى الثورات التي انطلقت من جبال (مويلادي كورتيس).

اندلعت هذه الثورة على إثر تجمع عدد كبير من الأندلسيين الموريسكيين للتعبير عن رفضهم لقرار الطرد النهائي والأسباب الواهية التي اعتمدت في إصداره[3]، لذلك تجمع حوالي 6 آلاف موريسكي قرب أحد الأنهار مدججين بالأسلحة ومهيئين لمواجهة أي اعتداء من طرف الإسبان، بقيادة زعيم لهم اسمه بابلييو أوبيكار

---

1 – محمد رزوق: الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16-17م، ط3، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب الأقصى، 1998م، ص 119.

2 – عبد القادر الميلق: تأثير ثورات الموريسكيين الأندلسيين على العلاقات الجزائرية الإسبانية (897-1017هـ/1492-1609م)، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، المركز الجامعي، غرداية، 1433-1434هـ/2012-2013م، ص89.

3 – عبد الله حمادي: الموريسكيون ومحاكم التفتيش في الأندلس (1492-1616م)، د.د.ط، الجزائر، 1989م، ص76.

وما إن سمعت السلطات الإسبانية بهذه الحركة الثورية حتى جندت لها كل الوسائل وحشدت الدعم الجماهيري بتحريض من الكنيسة الكاثوليكية.[1]

أسندت قيادة الجيش الإسباني المكلف بالقضاء على هذه الثورة إلى الماركيز بيدرو دي طوليدو «Pedro de Toledol» الذي توجه مباشرة إلى مكان تواجد الثوار وشرع في محاصرة المنطقة قصد منع انتشار الثـــورة في أماكن أخرى[2]، إذ كان يعتقد أن كل حجر كبير تحته مسلم يجب القضاء عليه، ثم عرض على المعتصـــمين بالجبل التفاوض، فشكل الثوار هيئة منهم لتمثلهم في التفاوض على جملة من المطالب التي كانوا يرونها ضرورية لإنهاء هذه الثورة ومنها نذكر:

- يجب تعيين مفاوضين من الطرفين (المسلم والمسيحي).
- تأمين مكان التفاوض يكون بمعزل عن أي تهديد.
- تعيين ستة أشخاص من الطرفين للقيام بمهمة المحادثات شريطة الإلمام باللغتين.
- إعطاء مهلة للمفاوضين تدوم ثلاثة أيام.

لكن هذه المفاوضات لم تسفر عن أي نتيجة تذكر لتشبث كل طرف بمواقفه، خاصة الطرف الإسباني الذي كان يريد ربح الوقت فقط، حتى يتسنى له محاصرة الثوار والقضاء عليهم، وإلا بماذا نفسر قمـــع هـــذه الثورة والقضاء عليها وإلقاء القبض على قائدها أوبيكار الذي أخذ إلى المقصلة وأعدم أمام النـــاس، وعلقـــت رأسه في إحدى بوابات مدينة بلنسية، وكان ذلك في شهر ديسمبر عام 1609م، وبذلك انتصر الإسبان وكانت لهم الغلبة، إلا أن بعض الثوار قدر عددهم بحوالي 33 مقاتل، واصلوا القتال ضد القوات الإسبانية إلى غاية 06 مارس 1612م، أين استطاعوا الخروج من إسبانيا على متن سفينة محملين بأسلحتهم باتجاه الجزائر.[3]

لقد أثبتت هذه الثورة أن العمل المسلح لم ينقطع بمجرد سقوط غرناطة، بل اســـتمر طـــوال القـــرن السادس عشر ميلادي وحتى بداية القرن السابع عشر ميلادي، فقد شهدت جبال مويلادي كورتيس محاولتين للانتفاضة الموريسكية لكنهما باءتا بالفشل.[4]

استمرت هـــذه الثورة سنتين كاملتين مما كبد السلـــطات الإسبانية خسائر مادية وبشـــرية فادحـــة وجعلها تكلـــف القناصة المحـــترفين المرتزقة للقضاء على هذه الثورة، وعـــلى رأسهم غارسيا برابودي أكونتا «Garcia Bravode Acunta» الذي قاد مجموعة من قطاع الطرق، إلا أنه فشل في مهمته، واستبدل بالقائـــد

1 - بورونات إي براتشينا: الموريسكيون الإسبان ووقائع طردهم، ج1، ترجمة، كنزة الغالي، مركز العمودي للترجمة ونشر التراث المخطوط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1432هـ/2012م، ص38.

2 - عبد الله حمادي: المرجع السابق، ص ص 76، 77.

3 - عبد القادر الميلق: المرجع السابق، ص92.

4 - جمال يحياوي: سقوط غرناطة ومأساة الأندلسيين (1492-1610م)، دار هومه للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م، ص 165.

سيمون ثاباتا «Simeon Zapata» الذي يلقب بعميد اللصوص لقدمه في مهنة اللصوصية والسطو والأعمال القبيحة، فاستخدم كل وسائل التنكيل والتعذيب، ونجح في مهمته، ما جعل مكانته الاجتماعية ترتفع نتيجة لهذه الأعمال الجليلة التي قدمها للإسبان وبذلك يلتحق بمصاف الأبطال الخرافيين.[1]

2- انتفاضة الموريسكيين بجبال لاغوار «Laguar» سنة 1609م

تزامنت هذه الثورة تقريبا مع ثورة جبال مويلادي كورتيس، وكانت نفس الأسباب التي أدت إلى انفجار هذه الثورة هي تقريبا نفسها التي فجرت الثورة الأولى، وقد جاءت رفضا لكل ممارسات القمع والتنكيل التي مارستها السلطات الإسبانية وقرار الطرد النهائي.

لقد كانت السلطات الإسبانية تستغل أدنى الأسباب للتنكيل بالموريسكيين، وخير مثال على ذلك أن سبب بداية هذه الثورة أن شابا موريسكيا أندلسيا يدعى عبد الله جمعته علاقة بفتاة تدعى تيدورا«Tudora» لكن بحكم القوانين الجائرة الإسبانية التي ترفض أي تقارب بين المسيحيين والموريسكيين، كان لا بد من وضع حد لهذه العلاقة، إلا أن إصرار الشاب والفتاة جعلهما يهربان إلى الجبل، ولما بلغ الخبر للسلطات المحلية خرجت دورية في طلبهما، وتم العثور عليهما بسهولة تامة[2]، وقد صور لنا الشاعر أقيلار «Aguilar» المشهد المحزن والمؤلم بقوله «فأما الفتاة النصرانية فإنها تعرضت لانتهاك شرفها من طرف أهل ملتها، وأما مصير عبد الله فإنه لم يتمالك نفسه أمام بربرية الجاني فاندفع إليه بخنجر دفاعا عن شرفه وشرف من ستصبح زوجة له، لكن حراس الدورية ألقوا بثقلهم العدائي عليه وطرحوه أرضا وانهالوا عليه بكل وسائل التعذيب حتى أغمي عليه وفقد وعيه».[3]

قدرت بعض المراجع التاريخية عدد الثوار بحوالي20 ألف أندلسي موريسكي بما فيهم النساء والأطفال[4] وكانوا مصحوبين بمواشيهم وأمتعتهم وألبستهم[5]، يتزعمهم شاب يدعى ميليني«Mellini» الذي وضع خطة هجومية تعتمد على نصب الكمائن للقوات الإسبانية، والاعتماد على عنصر المفاجأة والمباغتة لإرباكهم، الأمر الذي جعل السلطات الإسبانية تتبع سياسة المراوغة باستعمال أسلوب الحوار الخادع كخيار لمواجهة هذه الثورة، وفرض شروطها التي تركزت على أربعة محاور كبرى:

1 - عبد الله حمادي: المرجع السابق، ص77.

2 - عبد القادر الميلق: المرجع السابق، ص92.

3 - عبد الله حمادي: المرجع السابق، ص ص 79، 80.

4 - نفسه، ص81.

5 - بورونات إي براتشينا: المرجع السابق، ص38.

- يجب طاعة المبعوث الإسباني الذي يمثل الناطق الرسمي للملك، والملك هو الذي بيده زمـــام الأمـــور، وهو الآمر والناهي في كل شيء، وأوامره مطاعة وسارية على جميع رعايا الإمبراطوريـــة بمـــا فـــيهم الأندلسيين الموريسكيين، وعصيان أوامره يعد خرقا لفروض الطاعة والولاء.[1]
- إرهاب الموريسكيين وإشعارهم بأنهم يمثلون أقلية لا يمكنها الوقوف في وجه القوات الإســبانية الــتي باستطاعتها إبادتهم والقضاء عليهم بأسرع مما يتوقعون.
- تحذيرهم من مغبة الدخول في مواجهة مباشرة تكلفهم نتائج وخيمة وقاسية.
- وضعهم أمام الأمر الواقع، وأن الشيء الوحيد الذي يضمن لهم الحياة هو الاستسلام والقبول بقـــانون التهجير القسري الذي سوف ينجيهم من مجازر رهيبة، ولذلك يجب الشروع في تطبيق هذا القـــانون بأقصى سرعة ممكنة.[2]

أما رد الأندلسيون الموريسكيون فكان رفض هذه المقترحات، وأكدوا أنهم لا يخشون عاقبة المواجهـــة المفروضة عليهم من طرف الإسبان حتى ولو تمت إبادتهم جميعا، لأنهم كانوا يرون في هذه الشروط المفروضـــة إهانة لهم لا يمكن القبول بها.

ونظرا للفرق الشاسع بين القوتين وأمام الهزائم المتكررة والضربات الموجعة التي تلقاها الموريســـكيون على يد الإسبان، قبلوا بمبدأ التفاوض وقبول الشروط السابقة، مع إعطائهم مهلة قبل ترحيلهم إلى ما بعد جني المحاصيل وتسويق سلعهم، لكن الإسبان رفضوا هذا الشرط بإجماع قادتهم سواء السياسيين أو العســـكريين أو رجال الدين، وذلك خوفا من إعادة الموريسكيين تنظيم أنفسهم وجمع أكبر عدد منهم وإشعال فتيل الثورة في مدن أخرى، وذلك بالاستعانة بالأتراك العثمانيين الموجودين ببلاد المغرب، وهم يقومون بالمماطلة وربح الوقت فقط.[3]

وأمام فشل كل محاولات الإسبان في استدراج الثوار الموريسكيين، وإصرار هؤلاء على مواصلة الدفاع عن أنفسهم ورفضهم الخضوع لقانون الطرد الإجباري من أراضيهم بعد أن رفضت السلطات الإسبانية طلبهم بتأخير ترحيلهم، كانت المعركة الفاصلة بين الطرفين يوم 28 نوفمبر 1609م، والتي تكبد على إثرهـــا الثـــوار

1 – عبد القادر الميلق: المرجع السابق، ص83.
2 – عبد الله حمادي: المرجع السابق، ص ص 82، 83.
3 – بورونات إي براتشينا: المرجع السابق، ص32.

الموريسكيون خسائر فادحة في الأرواح يتقدمهم قائد الثورة ميليني و3 آلاف من أتباعه، والذين تعهدوا فيما بينهم على عدم الاستسلام، وبذلك تم القضاء على هذه الثورة.[1]

نتائج الثورتان

- تعتبر هاتان الثورتان آخر الثورات التي قام بها الموريسكيون داخل إسبانيا حيث بدأ الإسبان في تطبيق قرار الطرد النهائي الذي تفرق على إثره الموريسكيون إلى عدة مناطق من العالم الإسلامي مثل: استانبول، تونس، مصر والجزائر، وكان النصيب الأكبر من المهجرين لبلاد المغرب بمجموع 116.022 أندلسي موريسكي.[2]
- فشل الثورتين لأنهما لم تحققا ما كانتا تصبوان إليه، بل أكثر من ذلك وجدت إسبانيا فرصة في هاتين الثورتين لزيادة حرصها على تنفيذ قرار الطرد.
- زيادة الحقد الذي يكنه الإسبان للمسلمين مما جعلهم ينكلون بكل مسلم موريسكي حتى ولو بمجرد التسمية.
- القضاء نهائيا على الحكم العربي الإسلامي بشبه الجزيرة الأيبيرية، وبذلك تمت الوحدة الإسبانية نهائيا لأول مرة.
- مع كل هذه القرارات التعسفية المتخذة بحق الموريسكيين من طرف الإسبان، لم يكتفُوا بذلك فقد لحقوا بهم إلى عرض البحر وقتلوهم ونهبوا سفنهم، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على الحقد الأعمى الذي يكنه الإسبان للمسلمين.[3]

3- هجرة الأندلسيين الموريسكيين الأخيرة للجزائر 1609-1614م

مثلما حدث أثناء الهجرات السابقة كانت الجزائر الملاذ الآمن للأندلسيين الموريسكيين، مباشرة بعد بداية تنفيذ قرار الطرد النهائي في فترة حكم فليب الثالث، وكانت المناطق الساحلية للجزائر الوجهة الأولى والمفضلة للموريسكيين لعدة معطيات منها:

- السمعة الطيبة التي كان يتمتع بها حكام الإيالة لدى الموريسكيين الذين تناقلوها ممن سبقوهم إلى الجزائر.
- المساعدات التي قدمها حكام الجزائر أثناء الثورات السابقة خاصة خير الدين وقلج علي.

1 - ليلى الصباغ: المرجع السابق، ص 162.
2 - عبد الله حمادي: المرجع السابق، ص 84.
3 - نفسه، ص104.

- التسامح الذي طبع سكان الجزائر في ذلك الوقت، حيث تعايشوا مع الأندلسيين وشكلوا مجتمعا واحدا بمساعدة العثمانيين، لمواجهة الخطر المشترك المتمثل في الاحتلال الإسباني.
- العامل المشترك لعب دوره في هذه الهجرة وهو الدين الإسلامي الذي مثّل الرابط الأساسي بين الطرفين.

4-الأسباب التي أدت إلى قرار الطرد النهائي

- فشل سياسة الإدماج التي حاولت السلطات الإسبانية تطبيقها، رغم جميع المحاولات التي قامت بها لمدة قاربت القرن والنصف من الزمن (1492-1609م).
- فشل سياسة الترهيب والتنكيل، وكان عمادها محاكم التفتيش، والتي سلطت جميع أنواع التنكيل والضغط النفسي والجسدي على الموريسكيين.*
- كثرة الثورات الأندلسية الموريسكية والتي أشعرت الإسبان بالخطر الذي مازال يهدد وحدتهم السياسية خاصة بعد الدعم الذي تلقته هذه الثورات من بلدان المغرب الإسلامي، خاصة الجزائر وسلطتها القائمة من العثمانيين وهذا نستشفه من خلال النص التالي: «... إنه من المعلوم أن موريسكيي هذه الممالك القتشالية تقدموا أكثر فأكثر لتنفيذ مشاريعهم الشنيعة، وبما أنني علمت بنفسي من تقارير صادقة وصحيحة على أنهم في إصرارهم على الردة والضلال أرادوا ويريدون دائما الشر والفساد لمملكتنا عن طريق سفرائهم وكذلك بسبل أخرى».[1]
- لعبت الكنيسة دورا مهما ورئيسيا في قرار الطرد النهائي الصادر بحق الموريسكيين من إسبانيا، وأن المحرض الأول على هذا العمل هو رجال الكنيسة، وقد واصل البابا كليمانت السابع سياسة التحريض ضد الأندلسيين طوال حياته، ومن ذلك بتاريخ 11 حزيران 1534م أصدر أمرا بابويا يأمر فيه الملك شارلكان بأن لا يترك أي عربي على أراضي مملكتيْ أراغون وبلنسية، وأن يقوم بطردهم إذا لم يقبلوا الدخول في الدين المسيحي وترك الدين الإسلامي، ولما تزايد ضغط الكنيسة للقضاء على العرب بإسبانيا بدأ الملوك الإسبان يخضعون لنزوات رجال الكنيسة، ففي عام 1561م سأل الملك فليب الثاني

* – وصف ريشيليو كاردينال فرنسا ورئيس وزرائها في عهد لويس الثالث عشر الأعمال الانتقامية وإبادة الموريسكيين الأندلسيين من طرف الإسبان بأنه أكثر ما عرفه التاريخ في جميع عصوره من أعمال القسوة والبربرية والجرأة وطرد من بقي منهم ما بين 1609-1614م، وقد كان شاهد عيان على هذه المأساة التي ستبقى راسخة في ذهن كل من اطلع على فصولها عبر الأزمنة والعصور...، أسعد حومد: محنة العرب في الأندلس، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 1988م، ص5.

1 – محمد رزوق: المرجع السابق، ص ص 120، 121.

شخصا يدعى غريغوري دوميراندا عن رأيه في العرب فأجاب:«أن الموريسكيين هم عرب مسلمون تماما كالجزائريين، وأنهم يمارسون شعائرهم وعبادتهم علنا ولديهم الكثير من المساجد، وأنهم خونة لا يفكرون إلا في الثورة حينما تسمح لهم الفرصة، وإنهم يغيرون على النصارى ويخفون القراصنة ويتعاونون مع الأتراك، وإنه من الضروري نزع سلاحهم وإعادة تنشئتهم على النصرانية»[1]، والملاحظ أنه حتى اقتراحات الطرد كان أغلبها صادرا من رجال الكنيسة -وسوف نتطرق لهذه القضية لاحقا- وطوال الفترات السابقة لقرار الطرد النهائي عمل رجال الكنيسة على التحريض على الموريسكيين الأندلسيين، حتى جاءت الفرصة المناسبة في عهد الملك فيليب الثالث، الذي وجدت فيه الكنيسة الرجل الذي يحقق أحلامها والتي طالما تمنوا تحقيقها منذ زمن بعيد.[2]

- أثناء السفارة التي قام بها الشهاب الحجري -أفوقاي- إلى هولندا ولما سئل عن السبب الذي جعل فليب الثالث يصدر قرار الطرد النهائي في حق الموريسكيين الأندلسيين أجاب بما يلي: «أعلم أن الأندلسيين كانوا مسلمين في خفاء من النصارى، ولكن تارة يظهر عليهم الإسلام ويحكمون فيهم ولما تحققوا من ذلك لم يأمنُوا فيهم، ولا كان يحمل منهم أحدا إلى الحروب، وهي التي تفني الكثير من الناس، وكان أيضا يمنعهم من ركوب البحر لئلا يهربوا إلى أهل ملّتهم والبحر يفني كثيرا من الرجال وأيضا من النصارى كثيرون قسيسون ورهبان ومترهبات وبتركهم الزواج ينقطع فيهم النسل، وفي الأندلس لم يكن فيهم قسيسون ورهبان ولا متراهبات وجميعهم يتزوجون ويزداد عددهم بالأولاد وبترك الحروب وركوب البحر، وهذا الذي ظهر لي حمله إخراجهم، لأنهم بطول الزمن يكثرون».[3]

قد يكون هذا من الأسباب المهمة -خاصة وأن هذه الشهادة جاءت من مصدر مهم- لإدراك الإسبان بأن تكاثر الأندلسيين الموريسكيين قد يؤدي في يوم من الأيام إلى تغير الخارطة السكانية الإسبانية لتكون لصالح الموريسكيين، لذلك كان لا بد من الإسراع في إصدار قرار طردهم للتخلص منهم نهائيا، غير مباليين بتبعات هذا القرار الخطير سواء على الأندلسيين الموريسكيين أو على إسبانيا ذاتها، التي فقدت الكثير من الطاقات

1 - أسعد حومد: المرجع السابق، ص 354.

2 - بورونات إي براتشينا، ج2، المرجع السابق، ص45.

3 -أحمد بن قاسم الأندلسي الشهاب الحجري: ناصر الدين على القوم الكافرين، ط1، تحقيق، محمد رزوق: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، المغرب الأقصى، 1407هـ/1987م، ص 109.

البشرية واليد العاملة المؤهلة والمؤثرة في جميع مجالات الحياة خاصة الجانب الاقتصادي منه، فمباشرة بعد الهجرة عاشت اسبانيا أزمة اقتصادية حادة أثرت فيما بعد على جميع مجالات الحياة.[1]

5- قرار الطرد النهائي في عهد فليب الثالث (1609-1614م)

لم يكن فليب الثالث إلا منفذا لقرار الطرد النهائي، حيث كانت الفكرة قديمة قد استقرت في أذهان الملوك السابقين والباباوات منذ سقوط غرناطة سنة 1492م[2]، فبتاريخ 12 مارس 1524م أصدر البابا كليمانت السابع أمرا بابويا تم بموجبه حل الملك شارلكان من قسمه[*] تجاه الموريسكيين الأندلسيين، وقد تناول هذا الأمر ما يلي:

أ. حل الملك شارل الخامس من القسم الذي أقسمه عام 1519م، وهو القسم الذي يلتزم به ملوك أراغون حينما يتولّون العرش، وفيه يلتزمون باحترام المعاهدات الموقعة مع المسلمين حين الاستسلام، وأيضا احترام حريتهم في ممارسة دينهم ولغتهم وعاداتهم وتقاليدهم.

ب. يكلف الملك المحققين بمهمة التبشير ودعوة المسلمين إلى الدين المسيحي، ويحدد لهم مهلة يتحولون خلالها إلى المسيحية.

ج. أن يُخرج الملك من المملكة الإسبانية المسلمين الذين يرفضون التعميد.[3]

نلاحظ من خلال ما جاء في هذا القرار البداية الفعلية للتحريض على طرد الموريسكيين الأندلسيين.

قبل تنفيذ قرار الطرد النهائي الذي اتخذه فليب الثالث مر بعدة مراحل كانت أهمها:

أ- المرحلة الأولى: إرهاصات الطرد النهائي

يمكننا القول أنه منذ سقوط غرناطة 1492م، حاول الإسبان جاهدين القضاء النهائي على الوجود العربي بإسبانيا، ولذلك عمل الساسة الإسبان وبمباركة ودعم رجال الكنيسة، الضغط بكل الوسائل والأساليب

---

1 - بورونات إي براتشينا، المرجع السابق، ص39.

2 - نفسه، ص 120.

* - لما رأى نبلاء أراغون ذلك التأثير الذي كانت تلعبه الملكة إيزابيلا في سياسة قشتالة، وخشية من محاولة الضغط على العرب للهجرة من إسبانيا ألزموا الملك فرديناند بأن يتعهد لهم بعدم المساس بحقوق العرب الموجودين بأراغون، والالتزام ببنود المعاهدات الموقعة معهم، فوعدهم بذلك وتثبت صيغة وافق عليها ووقعها وأقسم باحترامها، وبذلك أصبح تقليدا يعمل به كل ملك في أراغون، وقد جاء في هذه الصيغة ما يلي: (إن المسلمين الموجودين في مملكة بلنسية لا يمكن أن يطردوا أو يخرجوا من المملكة وأن لا يجبروا على أن يصبحوا مسيحيين) وجاء في النص الذي وقعه الملك فرديناند (وإننا نرغب ونريد أن لا يكون من قبلنا ولا من قبل أحفادنا أي قيد على تجارة العرب في هذه المملكة، وعلى علاقاتهم بالنصارى ونريد أن يساسوا بتسامح كما في السابق)، أسعد حومد: المرجع السابق، ص 353.

3 - بورونات إي براتشينا، ج1، المرجع السابق، ص131.

لإرغام الأندلسيين على الرحيل، أو تغيير دينهم، لذلك تأخر قرار الطرد النهائي إلى غاية بداية القرن السابع عشر ميلادي، نتيجة لعدة عوامل داخلية وخارجية نذكر منها:

- ضغط النبلاء الإسبان على السلطات الحاكمة الإسبانية، حتى لا يتم ترحيل الأندلسيين إلى خارج إسبانيا، نتيجة لارتباط مصالحهم بهذه الفئة التي كانت تخدم أراضيهم وتحافظ على ممتلكاتهم (النبلاء) ومن ذلك قيام هؤلاء النبلاء بالضغط على ملوك أراغون لإدراج بنود في قسم الملوك يتم بموجبه احترام دين العرب وعاداتهم، وهذا طبعا لخدمة مصالحهم الشخصية (النبلاء).[1]
- تشبث الأندلسيين بأراضيهم على الرغم من المضايقات والممارسات الوحشية ضدهم خاصة من طرف ديوان التحقيق.
- الدعم الذي كان يتلقاه الأندلسيين خاصة أثناء ثوراتهم من طرف الإيالات المغاربية والجزائرية خصوصا، مثلما قام به خير الدين وقلج علي الذي كان يريد الذهاب بنفسه ليتولى قيادة الجهاد.[2]
- لعب العلماء المسلمون دورا مهما في بقاء الأندلسيين ببلادهم، وذلك بإصدار الفتاوى التي تجيز لهم البقاء واستعمال أسلوب التقية للمحافظة على دينهم، على آمال قيام الدولة العلية بمساعدتهم في استرجاع وطنهم والبقاء فيه، مثل الفتوى التي أصدرها أبي جمعة المغراوي في حق الأندلسيين.[3]

وأمام تزايد الضغط على النبلاء والسلطات الملكية الإسبانية، من طرف الكنيسة والمتعصبين الإسبان بدأ التفكير الفعلي للقضاء على الأندلسيين في إسبانيا، لذلك أصدر الملك الإسباني فليب الثاني أمرا ملكيا بتاريخ 02 جانفي 1563م يتم بموجبه نزع سلاح الأندلسيين الموريسكيين في يوم واحد هو 08 فيفري 1563م على أن لا تتعدى المدة الممنوحة لهم لتسليم أسلحتهم الأربع ساعات، وجمع أكثر من 25 ألف قطعة سلاح وبعد نزع الأسلحة من الموريسكيين صدر أمر من ديوان التحقيق الأعلى يأمر فيه بحضور المتنصرين القداس الديني والاحتفال مع عائلاتهم، كما أُلزموا بإرسال أولادهم الذين تتراوح أعمارهم ما بين 4 و 7 سنوات إلى الكنيسة لتعلم الدين المسيحي لمدة ساعة كل يوم.[4]

وكانت بلدة في بلنسية تدعى "شيا" (Xea)، التي كان سكانها من الأندلسيين الموريسكيين الذين عرف عنهم تمسكهم بدينهم وعاداتهم وتقاليدهم، وكانوا في اتصال دائم مع إخوانهم من سكان بلاد المغرب

1 – بورونات إي براتشينا، المرجع السابق، 156.
2 – حنيفي هلايلي: بنية الجيش الجزائري....، المرجع السابق، ص114.
3 – محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، ص342.
4 – بورونات إي براتشينا: المرجع السابق، 181.

الإسلامي عن طريق البحارة المغاربة والسفن التجارية بحكم موقع بلدهم على ساحل البحر، ولما أدركت السلطات الإسبانية هذه الاتصالات قامت بمحاكمة الكثير منهم بتهم التآمر والاتصال بالقراصنة[1]، وحكم على عدد كبير منهم بالإعدام، لذلك بدأ التفكير في طرد الأندلسيين الموريسكيين من بلنسية كخطوة أولى، وتعميم القرار على كامل المدن الإسبانية فيما بعد إلى مناطق داخلية تكون بعيدة عن السواحل، فيما اقترح بعض حكام المنطقة طردهم نهائيا من البلاد، لكن هذا القرار قوبل بالرفض على اعتبار أن هؤلاء الأندلسيين هم في الأصل إسبان ويجب خضوعهم إلى القانون الإسباني، والعفو عنهم والتسامح معهم رغم أنهم لا يستحقون كل هذا التساهل.[2]

وأمام إصرار الأندلسيين الموريسكيين على التمسك بدينهم وعاداتهم، على الرغم من الممارسات الوحشية ضدهم، ارتأى المسؤولون في إسبانيا أن يبحثوا عن طريقة تمكنهم من القضاء على الوجود الأندلسي الموريسكي في شبه الجزيرة الأيبيرية، وفي الأخير خرجوا بمقترحين لإنهاء هذا الوجود الأندلسي: إما إخراجهم من أراضيهم عن طريق إصدار أحكام ضدهم، أو ملاحقتهم أمام ديوان التحقيق وإصدار أحكام قاسية بإعدامهم، وفي هذه الحالة لا يبقى منهم من أحد في المملكة الإسبانية بعد سنوات قليلة.

تبلورت الأفكار السابقة وأصبحت حقيقة ماثلة للعيان في عهد فليب الثاني، الذي قرر وضع خطة للقضاء نهائيا على الوجود الأندلسي الموريسكي بالمملكة الإسبانية، ولذلك طلب دعم النبلاء والسادة الإقطاعيين، والذين كانوا دائما يحاولون الوفاء بالشروط التي ضمنت للأندلسيين حريتهم الدينية، حتى لا يضطرهم الاضطهاد للهروب وترك الأراضي الشاسعة عرضة للإهمال[3]، لكن بمرور الزمن وأمام ضغط الكنيسة والمتعصبين الإسبان بدأ موقف النبلاء والإقطاعيين يتغير شيئا فشيئا، لذلك بدؤوا ينصحون رجال الكنيسة بتكثيف سياسة التبشير بين الأندلسيين واتباع سياسة الإغراء لإقناعهم بتغيير دينهم، بدل استعمال أسلوب الترهيب الذي يُنفر الموريسكيين من الدين المسيحي ويضطرهم للهروب من إسبانيا – وفي كل الأحوال كان النبلاء والإقطاعيون حريصين على خدمة مصالحهم الشخصية، وليس حبا في الأندلسيين– ولأجل إرضاء النبلاء كان الملك فليب الثاني يريد إشراكهم في عملية الطرد.

1 – محمد رزوق: المرجع السابق، ص118.
2 – بورونات إي براتشينا: المرجع السابق، ص180.
3– أسعد حومد: المرجع السابق، ص 358.

وأمام فشل كل محاولة لتنصير الأندلسيين وإرغامهم على ترك دينهم، وفي شهر سبتمبر 1582م اتصل الملك فليب الثاني سرا بعدد من كبار أمراء الإقطاع الذين كان لهم نفوذ كبير داخل البلاط الإسباني الحاكم وكان يعيش في إقطاعاتهم الكثير من الأندلسيين الموريسكيين وأخذ يشرح لهم أهمية طرد هؤلاء من إسبانيا.[1]

وفي عام 1584م توجه شخص يدعى أنطونيو دي كوردوبا إي لارارسال إلى الملك فليب الثاني واقترح عليه تحصين طليطلة، وتسليح مجموعة من سكانها الإسبان يقدر عددهم بـ 300 ألف شخص لإخراج الأندلسيين منها، وإرسالهم إلى منطقة باياخو وإسكان بدلا عنهم مسيحيين أصليين لتعمير طليطلة[2]، ومقترحا في نفس الوقت تعميم هذه الفكرة في كامل أنحاء المملكة الإسبانية، حتى لا يستطيع الأندلسيون القيام بالثورات أو طلب الدعم من جهات أخرى مثل: (القراصنة) العثمانيين ببلاد المغرب خاصة الجزائر، وقد وجد هذا المقترح استجابة واسعة من طرف النبلاء والكثير من الناس، لذلك استغل الملك الفرصة وشرع في اتخاذ التدابير القاسية بحق الأندلسيين الموريسكيين ومنها:

- إصدار قرار ملكي بتاريخ 18 كانون الأول 1585م يلغي فيه الاتفاق المبرم مع الأندلسيين سنة 1571م والذي كان متساهلا ومتسامحا، ونصّ الأمر الجديد على أن الأندلسيين الذين لا يطيعون أمر الطرد خلال شهرين، ينفذ فيهم حكم الإعدام شنقا.
- أما الأولاد الصغار فللكنيسة الحق في رعايتهم وإدخالهم دور التعليم.

ب-المرحلة الثانية: تبلور فكرة الطرد (1599-1600م)

وبتاريخ 02 فيفري 1599م أعلن مركيز دانية أمام المجلس الملكي أن الأندلسيين الموريسكيين هم الآن عرب كما كانوا في عز مجدهم، ولذلك هم يستحقون الموت، ويمكن الحكم عليهم بالشغل في السفن كمجدافين مدى الحياة كعبيد، ويمكن مصادرة أموالهم وأملاكهم، أما الكبار من النساء والشيوخ فيطردون إلى إفريقيا، وأمّا أولادهم فيسلمون إلى الكنيسة لتربيتهم وتنشئتهم تنشئة مسيحية في الأديرة ودور التعليم[3] ومواصلة للضغط على الأندلسيين وترهيبهم لإجبارهم على تغيير دينهم أو الرحيل عن إسبانيا، عُرض على المجلس اقتراح آخر يقضي بإخراج الأندلسيين الموريسكيين من منازلهم، وتوزيعهم بين المسيحيين بمعدل عائلة موريسكية لكل 500 أو 1000 عائلة مسيحية، وبذلك يندمجون ويذوبون في وسطهم الجديد نهائيا.[4]

1 - بورونات إي براتشينا: المرجع السابق، ص ص31، 32.

2 - أسعد حومد: المرجع السابق، ص 358.

3 - بورونات إي براتشينا: المرجع السابق، ص 32.

4 - أسعد حومد: المرجع السابق، ص359.

وبعد مناقشات طويلة توصل المجلس الملكي سنة 1599م إلى اتخاذ قرار ينص على ما يلي:

- يجب العمل بسرية تامة لتنفيذ قرار الطرد.
- جمع قوة عسكرية كافية للقيام بهذه المهمة.
- إحصاء العدد التقريبي للأندلسيين الموريسكيين الموجودين بالمملكة الإسبانية، وتكون البداية من قشتالة ثم ينظر فيما بعد لأمر بلنسية وأراغون، وكان كل ما يشغل بال المجلس الطريقة المثلى لتنفيذ قرار الطرد، وبذلك يمكن القول أن الفكرة التي طالما حلم بها رجال الكنيسة المتعصبون الإسبان تبلورت وأصبحت خطة واضحة وجاهزة بحلول سنة 1599م ولا ينقصها إلا التنفيذ.[1]

وفي سنة 1599م انعقد مجمع إقليمي بمدينة بلنسية لدراسة موضوع الأندلسيين حضره البطريك وكبار رجال الكنيسة والكاردينال جاسبار دوكورودوبا، درس هذا المجمع مسألة حمل الأندلسيين على التنصر و لم يدرس مسألة إخراجهم، وفي سنة 1600م اقترح الكاردينال دوكورو دوبا إخراج العرب من ديارهم ليوزعوا على قشتالة ويعاملوا برفق على أن يستعمل معهم العنف وإرسالهم بالقوة إذا لم يوافقوا على هذا المقترح، ثم رأى المجلس في 19 جويلية 1600م وبالإجماع أن يخضع الأندلسيون الموريسكيون لتعلم الدين المسيحي وزيادة التضييق عليهم في مجال اللغة، اللباس، العادات والتقاليد[2]، وأمام فشل كل الإجراءات السابقة لإرغام الأندلسيين على الرحيل أو قبول الدين المسيحي، انتقل الإسبان إلى مرحلة جديدة خطيرة لتنفيذ قرار الطرد ومن أجل ذلك وفي سنة 1601م ناقش المجلس اقتراحات خطيرة منها:

- انتزاع الأطفال الصغار من آبائهم وتسليمهم إلى النصارى لتنشئتهم على الدين المسيحي.
- إعطاء مكافأة لكل من يقبض على الأندلسيين المخالفين لقرار الطرد.
- التحريم على الأندلسيين الاقتراب من البحر حتى لا يطلبوا المساعدة من القراصنة المسلمين أو التزود بالأسلحة والذخيرة من أجل القيام بثورات ضد هذه القرارات المجحفة بحقهم، لكن بعد مناقشات طويلة داخل المجلس ارتأى عدم الأخذ بها.[3]

1 – أسعد حومد: المرجع السابق، ص359.

2 – أحمد بن قاسم الأندلسي الشهاب الحجري: المصدر السابق، ص111.

3- أسعد حومد: المرجع السابق، ص360.

لكن ما يمكن ملاحظته أنه على الرغم من الممارسات القاسية والأحكام التعسفية التي كانت بحق الأندلسيين الموريسكيين في عهد فليب الثاني وبداية تبلور فكرة الطرد وصولا إلى خطة جاهزة لا تنتظر إلا التنفيذ، إلا أن الملك الإسباني لم يجرأ على تنفيذ خطة الطرد في عهده، ربما لضغط رجال الإقطاع والنبلاء والإصرار الذي تميز به الأندلسيون في الصمود والبقاء في أرضهم، بالإضافة إلى المشاكل الداخلية والخارجية التي كانت تعيشها إسبانيا، ليتأجل قرار الطرد إلى أن تولى فليب الثالث ابن فليب الثاني الحكم سنة 1598م.[1]

مباشرة بعد تولي فليب الثالث زمام الأمور بإسبانيا وضع ثقته في شخص يدعى فرانسيسكو دوسان دوفان "مركيز دانية"، فبدأ هذا الأخير يتصرف في شؤون المملكة الإسبانية كيف يشاء، ولذلك فرض نظرته الشخصية في مصير الأندلسيين الموريسكيين، وبتاريخ 1602/01/30م عقد مجلس الدولة الإسبانية جلسة بحث فيها مسألة طرد الأندلسيين الموريسكيين من المملكة الإسبانية، وتوصل المجتمعون بعد مناقشات طويلة إلى مقترحات أهمها:

- الحكم على الرجال الذين تتراوح أعمارهم ما بين 15-60 سنة بالعمل في السفن مدى الحياة وتصادر أموالهم وممتلكاتهم.
- الأطفال يسلمون إلى أسرة مسيحية لتنشئتهم على الدين المسيحي، أما الرجال والنساء الذين تزيد أعمارهم عن الستين فيرسلون إلى بلاد المغرب، ولكن هذا القرار استبعد لعدم واقعيته، إذ قدر عدد الأولاد الذين يراد انتزاعهم بحوالي 40 ألفا، فكيف تستطيع الأسرة المسيحية تحمل عبء نفقات هذا العدد الهائل من الأطفال ؟ وأيضا من يضمن لهم اندماج هؤلاء في بيئتهم المسيحية الجديدة؟ وعدم تمسكهم بدينهم؟ خاصة وأن منهم من نشأ وهو يعرف الدين الإسلامي، وأمام عدم واقعية هذه المقترحات عرض مقترحٌ آخر يحرم الزواج على الأندلسيين الموريسكيين، ولكن هذا المقترح استبعد لتعارضه والعادات الإنسانية.[2]

وبتاريخ 03 ديسمبر 1603م عقد مجلس الدولة الإسباني جلسة قرر فيها اقتراحا يُبلّغ إلى الملك فليب الثالث يقضي باتخاذ قرار طرد الأندلسيين الموريسكيين من مملكة أراغون، وذلك لأن المجلس رأى أن ديوان التحقيق فشل في تحقيق مهمته طوال مدة قاربت القرن من الزمن، على الرغم من الممارسات الوحشية والقرارات الصارمة التي اتخذها بحق الأندلسيين، بالإضافة إلى أن المجلس كان يرى أن الموريسكيين مازلت

1 - بورونات إي براتشينا: المرجع السابق، ص77.

2 - علي مظهر: محاكم التفتيش بإسبانيا والبرتغال وغيرها، دار المكتبة العلمية، مصر، 1997م، ص 93.

تصلهم المساعدات من بالمغرب الإسلامي[1]، لذلك وجب الإسراع في قطع هذه العلاقة التي تشكل خطرا على إسبانيا.

ب-1-الحلول المقترحة للقضاء على الوجود الأندلسي الموريسكي بإسبانيا ما بين 1582-1609م

الحل الأول: من اقتراح الراهب فرانسيسكو ديرياس سنة 1582م وألونسو كورتريس سنة 1588م، ويعتمد على تجميع الأندلسيين الموريسكيين الذين يرفضون الدين المسيحي ويتمسكون بدينهم الإسلامي في أحياء خاصة بهم، ويشدد عليهم الخناق ويضيق عليهم.

الحل الثاني: اقترحه الراهب تريخوس[*] سنة 1573م، وفحوى هذا الاقتراح اختطاف كل الأطفال الأندلسيين الذين تقل أعمارهم على الست سنوات، وتسليمهم للعائلات المسيحية لتنشئتهم على الدين المسيحي، ومنع الزواج عنهم حتى لا يتكاثروا، وبهذا ينقرضون نهائيا بمرور الأيام والسنوات.[2]

الحل الثالث: اقترحه فرانسيكسو دوسان دوفان ويعتمد الحكم على الرجال الذين تتراوح أعمارهم ما بين 15-60 سنة بالعمل في السفن مدى الحياة ومصادرة أموالهم، أما الرجال الذين تزيد أعمارهم عن الستين فيرسلون إلى إفريقيا.[3]

الحل الرابع: اقترحه المطران ريزا، وهدفه القضاء على الأندلسيين بالاسترقاق، وأخذ في كل سنة الآلاف منهم للعمل في السفن أو المناجم حتى يتم القضاء عليهم.

الحل الخامس: اقترحه بعض وزراء الملك فليب الثاني يعتمد على جمع كل الموريسكيين الأندلسيين ووضعهم في سفن وإغراقهم في عرض البحر.

الحل السادس: اقترحه مارتين دي سالبيتير "أسقف سقورية" بمملكة بلنسية يقوم على إخصاء كل الذكور الأندلسيين الموريسكيين كبارا أو صغارا، وبهذا ينعدم نسلهم وينقرضون بسرعة.[4]

1 - أسعد حومد: المرجع السابق، ص361.

* - من والدين نصرانيين، وفي أثناء ثورة غرناطة الكبرى استطاعت عائلة أمه حمايته من بطش النصارى...، حنيفي هلايلي: أبحاث ودراسات في التاريخ الأندلسي الموريسكي...، المرجع السابق، ص 102.

2 - نفسه.

3 - أسعد حومد: المرجع السابق، ص361.

4 - حنيفي هلايلي: المرجع السابق، ص102.

الحل السابع: اقترحه ألونسو كورتيس يقوم كذلك على الإحصاء لكن لتحديد نسلهم فقط[1]، وذلك لأن تكاثر الأندلسيين الموريسكيين كان بكثرة على عكس الإسبان الذين كان تكاثرهم بطيئا وقد أرجع الشهاب الحجري سبب اتخاذ قرار الطرد النهائي تخوف الإسبان من التكاثر المتزايد للأندلسيين.[2]

الحل الثامن: اقترحه المجلس الملكي بتاريخ 1599/01/30م والقاضي بمنع الزواج عن الأندلسيين الموريسكيين حتى لا يتكاثروا وينقرضوا بمرور بضعة سنين فقط.[3]

الحل التاسع: قتل جميع الأندلسيين دفعة واحدة، أو قتل البالغين منهم واسترقاق الباقين منهم.

الحل العاشر: اقترحه بيدرو بونسي دي ليون ويعتمد على إرسال الشباب الأندلسيين الموريسكيين الذين تتراوح أعمارهم ما بين 18-40 سنة للعمل في السفن وبذلك يقل نسلهم وينقرضون مع الوقت.

الحل الحادي عشر: وهو أهم قرار اتخذ في حق الأندلسيين الموريسكيين ولاقى قبول كبار رجال المملكة الإسبانية والكنيسة، ويقوم على طرد الأندلسيين خارج إسبانيا، وهذا هو الحل الذي سوف تعتمده السلطات الإسبانية ويتم تطبيقه سنة 1609م، وقد طبق ابتداءً على أندلسي بلنسية ثم على باقي المناطق خلال الخمس سنوات التالية، وقد كان لثالوت الشر والحقد الأعمى ممثلا في خوان دي ريبيرا، دوق دوليرما وخايمي بليدا مجهودات جبارة ومساعي حثيثة من أجل إقناع المعارضين لقرار الطرد خاصة النبلاء بإيجابيات قرار الطرد النهائي للأندلسيين.[4]

ج- المرحلة الثالثة: تنفيذ قرار الطرد النهائي 1609-1614م

كتب محققوا ديوان التحقيق في مملكة أراغون إلى كاردينال طليلة يستفسرونه عما تقرر بشأن مصير الأندلسيين الموريسكيين، لذلك كتب الكاردينال بدوره إلى مجلس الدولة يستفسرهم عن الأمر وعن القرار ولما بُلّغ بالإجابة، اقترح أن يبقى الأمر سرا حتى يتم مباغتة الأندلسيين ومحاصرتهم في أماكن محددة، وحتى لا تُعطى لهم الفرصة من أجل القيام بثورة أو طلب المدد، ومقترحا في نفس الوقت إعطاء تعليمات سرية بخصوص قرار الطرد إلى ديوان التحقيق في كل من أراغون وبلنسية وكتالونيا.[5]

---

1 - حنيفي هلايلي: المرجع السابق، ص102.
2 - أحمد بن قاسم الأندلسي الشهاب الحجري: المصدر السابق، ص103.
3 - أسعد حومد: المرجع السابق، ص360.
4 - حنيفي هلايلي: المرجع السابق، ص103.
5 - أسعد حومد: المرجع السابق، ص361.

بدأت السلطات الإسبانية تسارع الزمن من أجل تنفيذ قرار الطرد ومباغتة الأندلسيين الموريسكيين بهذا القرار، فبتاريخ 30 جانفي 1608م اجتمع مجلس الدولة القشتالي بجميع أعضائه، وقرر بالإجماع الموافقة على قرار الطرد النهائي للأندلسيين من الأراضي الإسبانية، ولتأكيد هذا القرار والسير في طريق تنفيذه، أصدر مجلس الدولة الإسباني قرارا بطرد الأندلسيين بتاريخ 09 أفريل 1609م نهائيا للحفاظ على الأمن داخل المملكة الإسبانية، مقترحا أن يتم تطبيق قرار الطرد بحق أندلسي بلنسية أولا وبطريقة سرية.[1]

لم تكتفي السلطات الإسبانية بمعاقبة الأندلسيين باتخاذ قرار الطرد، بل تمادت في اتخاذ إجراءات ردعية أخرى من أجل إحباط نفسيتهم والقضاء على عنفوانهم الذي تميزوا به طوال محنتهم، لذلك اتخذ مجلس الدولة الإسباني عدة إجراءات نذكر منها:

- حرمان الأندلسيين من أبنائهم الصغار على الرغم من اعتراف السلطات الإسبانية أن هذا القرار يعرقل عملية الطرد، ولأجل تنفيذ قرار الحرمان أُلفت لجنة من رجال الدين والقانون للنظر في وضعية الأبناء.
- أخذ الثمار والأموال المنقولة لتنفق في تربية الأولاد.[*]
- إبقاء النساء المسيحيات أصلا والمتزوجات من أندلسيين مع أولادهن بالمملكة.[2]

ولتأكيد القرارات والإجراءات السابقة، وقّع الملك فليب الثالث بتاريخ 11 سبتمبر 1609م قرار الطرد بحق أندلسي مملكة بلنسية، إلا أنه أجل الإعلان عنه إلى غاية 22 سبتمبر 1609م، وقد بلغ عدد الذين صدر بحقهم قرار الطرد النهائي حوالي 15 ألف أندلسي نقلوا إلى مدينة وهران[3]، وقوبل هذا القرار بالرفض والثوران في بعض مناطق بلنسية، لكن الثوار تعرضوا إلى الاضطهاد والتقتيل.[4]

وقد اتخذت عدة إجراءات واحتياطات لتنفيذ قرار الطرد في حق أندلسي بلنسية منها:

- بتاريخ 12 سبتمبر 1609م أذيع أمر ملكي يقضي بفرض عقوبات بحق كل من يسيء معاملة أندلسي مملكة بلنسية.

1 - حنيفي هلايلي: المرجع السابق، ص103.

* - من أعجب الإجراءات التعسفية وأغربها وأظلمها عبر التاريخ الحديث، فكيف يعقل أن تنزع أموال فئة معينة مهما كانت؟، لتنفق أموال هذه الفئة على تربية أبنائها، ولكن على غير عاداتهم وتقاليدهم وتنشئتهم على دين غير دينهم الأصلي، وهكذا هو التعصب الديني المسيحي الأعمى، الذي مارسه الإسبان في أقبح صورة عبر التاريخ الإنساني الطويل.

2 - أسعد حومد: المرجع السابق، ص ص 361، 363.

3 - عبد القادر الميلق: المرجع السابق، ص102.

4 - حنيفي هلايلي: المرجع السابق، ص104.

- 17 سبتمبر 1609م، دخول السفن الإيطالية والإسبانية التي كانت تحت قيادة أمير البحر الإسباني بيدرو دوتوليدو، بعض الموانئ لتولي حراسة المعابر والممرات الرابطة بين مملكتي أراغون وبلنسية.
- 21 سبتمبر 1609م، اجتمع الملك بأعضاء مجلس الدولة -النواب- وأمراء الإقطاع وأصحاب الرتب العليا في المملكة.
- 22 سبتمبر 1609م، قراءة الأمر الملكي الصادر بتاريخ 11 سبتمبر 1609م على المجتمعين ومن ثم إخراجه للعلن لتطبيقه.[1]

ولإنجاح هذه الإجراءات طلب الملك فليب الثالث من نبلاء بلنسية التعاون معه لتطبيق هذا القرار على أرض الواقع، لأن المتضرر الأول من هذا القرار من الإسبان هم النبلاء، الذين كانت أغلب أراضيهم وممتلكاتهم مسيرة من طرف الأندلسيين الموريسكيين، ومع ذلك وعلى الرغم من معارضتهم لهذا القرار إلا أنهم فضلوا مصلحة المملكة وطاعة أوامر الملك، خاصة بعد الدور الكبير الذي لعبه رجال الكنيسة الكاثوليكية في إقناعهم وعامة الناس بإيجابيات هذا القرار، الذي سوف يخلص إسبانيا نهائيا من مشاكل هذه الفئة، وقد استندت السلطات الإسبانية إلى ذريعة واهية لتنفيذ هذا القرار وهي:

- اتهام الأندلسيين ببلنسية بأنهم تعهدوا لأهل المغرب بتوفير 200 ألف مقاتل، إذا تم إرسال 20 ألف مقاتل من المغرب لمساعدتهم على إعادة احتلال المملكة الإسبانية، لذلك يجب الإسراع في القضاء عليهم قبل استفحال أمرهم وتنفيذ مشروعهم.*[2]

6- طرد أندلسي بلنسية

أ-مضمون قرار الطرد

بعدما أشار الأمر الملكي للمجهودات الجبارة التي بذلت في سبيل إدماج هذه الفئة في المجتمع الإسباني والتعايش معها داخل المملكة، إلا أنهم -الأندلسيين- رفضوا كل محاولات السلطات الإسبانية التي مدت لهم

---

1 - أسعد حومد: المرجع السابق، ص ص 363، 364.

* - هل يمكن تصديق مثل هذه الادعاءات خاصة وأن الأندلسيين في هذه الفترة في كامل إسبانيا كانوا يمرون بمرحلة ضعف شديد لم يسبق له مثيل، بالإضافة إلى تفرقهم في كامل تراب المملكة قشتالة، أراغون، وبلنسية، وكتالونيا، خاصة بعد ثورة 1568-1571م، إضافة إلى أنهم لم يستطيعوا هزم الإسبان في أوج قوتهم بعد سقوط غرناطة ومساعدة الجزائر لهم في ثورتهم الكبرى، والآن يفكرون في هزيمة الإسبان! ولكنه الحقد الأعمى والحجج الواهية.

2 - عادل سعيد بشتاوي: الأندلسيون المواركة -دراسة في تاريخ الأندلس بعد سقوط غرناطة-، منشورات دار أسامة، القاهرة، مصر، 1983م، ص163.

يد العون، وقابلوا ذلك بالثورات والتمردات، رافضين أي سلطة عليهم، لذلك وجب طردهم والتخلص نهائيا من مشاكلهم، وتطبيق الإجراءات الآتية بحقهم.

- إخراج جميع الأندلسيين الموريسكيين رجالا ونساءً وأطفالا من بلنسية في مدة لا تتجاوز الثلاثة أيــام، وإذا وُجدوا بعد هذه المهلة في الطرق والأماكن العامة أو أي مكان آخر يتم القبض عليهم وتجريدهم من أمتعتهم، وإذا حاولوا الدفاع عن أنفسهم يجوز في هذه الحالة قتلهم.[1]
- خلال هذه المهلة المقدرة بثلاثة أيام الممنوحة لهم يجب عليهم الالتزام بالبقاء في بيوتهم، وعدم الخــروج منها حتى يأتي إليهم المكلفون من السلطة الإسبانية لتنفيذ قرار الطرد في حقهم.
- السماح لهم بحمل أموالهم المنقولة فقط.
- إذا قبل الجيران إخفاء الأموال للأندلسيين تعرضوا لعقوبة الإعدام.[2]
- تُسلم الأموال والأثاث والعتاد التي لا يستطيعون حملها إلى صاحب الإقطاع التابعين له للتصرف فيها.
- السماح لستة أشخاص عن كل مائة شخص أندلسي البقاء لتسوية الأمور العالقة على أن يتجاوز عمر كل واحد منهم 60 سنة.[3]
- بعد انقضاء المهلة المحددة والمقدرة بثلاثة أيام يُلغى الأمر الصادر بتحريم إساءة معاملة الأندلسيين.
- يسمح لعشرة من المطرودين في الفوج الأول بالعودة إلى البلاد لإخبار إخوانهم الذين لم يتم طــردهم بعد، لإخبارهم بالمعاملة التي لاقوها في الطريق من قبل موظفي الدولة المكلفين بمرافقتهم.[4]
- الأولاد الذين تقل أعمارهم عن الأربع سنوات ويرغبون في البقاء*، ويوافق آباؤهم وأولياؤهم علــى ذلك يمكنهم البقاء في إسبانيا.
- الأولاد الذين تقل أعمارهم عن السبع سنوات، ويكونون من أب نصراني أو أم نصرانية أصلا يمكنهم البقاء، وتبقى معهم أمهم، إن كانت أندلسية ولكن إذا كان الأب أندلسيا والأم نصرانية يطــرد الأب وتبقى الأم والأولاد.

---

1 – عادل سعيد بشتاوي: المرجع السابق، ص ص 183، 184.

2 – أحمد بن قاسم الأندلسي الشهاب الحجري: المصدر السابق، ص 112.

3 – عادل سعيد بشتاوي: المرجع السابق، ص 184.

4 – أحمد بن قاسم الأندلسي الشهاب الحجري: المصدر السابق، ص 112.

* – وبدورنا نحن نتساءل هل يمكن لطفل صغير في مثل هذا العمر تمييز الأشياء؟ فما بالك بعواقب هذا القرار الخطير، وهل فعــلا يوافــق الآبــاء والأولياء على بقاء أبنائهم؟، وهم الذين شاهدوا بأنفسهم جرائم محاكم التفتيش، وكيف يعقل أن يسمح رجل مسلم تحمّل كل أنواع الاضــطهاد والتنكيل والتقتيل في سبيل التمسك بدينه، أن يترك ابنه بين أيادي مسيحية لتغير دينه !

- الأشخاص الذين يعيشون مع المسيحيين أصلا ويثبت أنهم نصارى منذ أكثر من سنتين، يسمح لهم بالبقاء.[1]

ب-تنفيذ قرار الطرد

بعد صدور قرار الطرد وما تضمنه من تعليمات صارمة لإنجاح عملية الطرد بدأ الشروع في تنفيذ قرار مرسوم النفي، الذي تميز بالصرامة والشمولية، فبتاريخ 17 سبتمبر 1609م وصل إلى ميناء بلنسية 62 قادسا و14 غليونا، حملت على متنها حوالي 8 آلاف جندي لتنفيذ مرسوم الطرد في حق أندلسيي بلنسية وأشعر فيما بعد الأندلسيين بالمدينة وطلب منهم عدم مغادرة بيوتهم لمدة ثلاثة أيام، ومن يخالف القرار يقتل فورا أويلقى القبض عليه.[2]

وبدأ في ترحيلهم باتجاهات متعددة كان الحظ الأوفر من نصيب الإيالات المغاربية خاصة سبتة تيطوان، طنجة، أغادير والكثير من المدن المغربية بالإضافة إلى تونس[3] والجزائر، وأيضا هناك من اتجه إلى فرنسا والدولة العلية، ونفي من مملكة بلنسية ما يقارب 15 ألف نسمة.[4]

7- تنفيذ قرار الطرد في بقية المناطق في المملكة الإسبانية

بعد النجاح غير المتوقع لعمليات تنفيذ قرار الطرد بحق أندلسي بلنسية التفتت السلطات الإسبانية إلى الممالك الأخرى لتنفيذ قرار الطرد بحق الأندلسيين المقيمين بها، خاصة غرناطة ومرسية وجيان والأندلس فبتاريخ 12 جانفي 1610م أذاع خوان دو ميندوسا الأمر الملكي القاضي بوجوب خروج الأندلسيين الموريسكيين المقيمين في مناطق غرناطة ومرسية وجيان والأندلس، وأعطيت لهم مهلة 30 يوما مع أولادهم ونسائهم، وإلا تعرضوا إلى عقوبة الموت ومصادرة الأملاك والأموال، وقد سُمح لهم بحمل النقود بما يكفيهم للرحلة إلى المنطقة التي يريدون الخروج إليها، فيما حرّم عليهم التوجه إلى أراغون وبلنسية[5]، وقد نص القرار على أن الملك صادر عقارات الأندلسيين واحتفظ بها لنفسه، وقدر عدد الذين طردوا من هذه المناطق بما يقارب 100 ألف أندلسي.[6]

8- طرد أندلسي قشتالة

---

1 - محمد عبد الله عنان: المرجع السابق ص397.

2 - أحمد بن قاسم الأندلسي الشهاب الحجري: المصدر السابق، ص113.

3 - عادل سعيد بشتاوي: المرجع السابق، ص ص 183، 188.

4 - محمد عبد الله عنان: المرجع السابق ص398.

5 - أسعد حومد: المرجع السابق، ص 368.

6 - علي مظهر: المرجع السابق، ص44.

ادعت السلطات الإسبانية أن أندلسي قشتالة والإستاريمادورا قد أعربوا للسيد برناردو دو فالاسكو كونت سالازار عن قلقهم مما يحدث للأندلسيين الآخرين في الممالك الأخرى، لذلك أبدوا رغبتهم في الخروج من البلاد ولتحقيق رغبتهم صدر أمر ملكي بتاريخ 28 جانفي 1610م يقضي بالسماح لهم بالخروج في مدة أقصاها ثلاثون يوما إلى حيث يشاؤون، وسمح لهم بحمل منقولاتهم[1]، ولذلك فضل بعضهم الخروج إلى فرنسا التي سمح لهم ملكها هنري الرابع بالبقاء شرط أن يحافظوا على المذهب الكاثوليكي، وقد قدر عدد هؤلاء بـ 17 ألف أندلسي من مملكة قشتالة.[2]

وبتاريخ 10 أوت 1610م أذيع أمر ملكي جديد يقضي بطرد كل أندلسي بقي في البلاد، باستثناء النساء الأندلسيات المتزوجات من نصارى وأولادهم، ونتيجة لهذا الأمر خرج من بورغوس وحدها إلى فرنسا أكثر من 10 آلاف أندلسي، فيما تذكر بعض الروايات الإسبانية أن الذين أخرجوا من قشتالة نتيجة لهذا الأمر يقدر عددهم بحوالي 100 ألف أندلسي.[3]

9- طرد أندلسي أراغون ومرسية

أ- طرد أندلسي أراغون

بتاريخ 17 أفريل 1610م أصدر الملك أمرا بإخراج الأندلسيين المقيمين في مملكة أراغون، إلا أنهم أدركوا خطورة المؤامرة وما كان ينتظرهم من مأساة جراء إصدار قرار الطرد بحقهم، خاصة وأنهم سمعوا ما لحق بإخوانهم في الممالك الأخرى، لذلك شرعوا في التسلل من البلاد إلى فرنسا، فباعوا ما استطاعوا بيعه من أثاث وأمتعة، وخرج الكثير منهم قبل صدور قرار الطرد الملكي، ورحل ما يقارب 25 ألف أندلسي من أراغون إلى اتجاهات متعددة.[4]

وبتاريخ 22 مارس 1611م، نُشر تقرير ملكي يذكر فيه الملك أن عددا من الأندلسيين مازالوا موجودين بإسبانيا، والبعض الآخر عاد إليها بعد أن طرد منها، وحدد لهم مدة سنتين للخروج نهائيا من مملكة غرناطة وحتى العبيد الأندلسيين الذين هم تحت سيادة الإسبانيين طلب من أسيادهم تحريرهم حتى يستطيعوا الخروج خلال المهلة المحددة، وتطبيقا لهذا الأمر الملكي خرج من قشتالة والإستاريمادورا مجتمعين 6 آلاف

1- أسعد حومد: المرجع السابق، ص368.
2- محمد عبد الله عنان: المرجع السابق ص401.
3 - أسعد حومد: المرجع السابق، ص 369.
4 - علي مظهر: المرجع السابق، ص 43.

شخص، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على أن الأندلسيين على الرغم من قرارات الطرد والإجراءات الردعية بقيت طائفة منهم متشبثة بأرضها ومفضلة الموت والاضطهاد على الرحيل.

لم تحقق هذه الأوامر مرادها، لذلك صدر بتاريخ 31 ماي 1611م تجديد الأمر بالطرد ثانية وتشديد الإجراءات على الذين عادروا بطريقة سرية للعمل كمجدافين في السفن، ويسمح أن يبقى فرد أندلسي في كل مكان، ليقوم ببيع ممتلكاتهم وتسوية الأمور العالقة نيابة عن جميع المبعدين، وأعطى هذا الأمر للملك الحق في أخذ نصف قيمة ما يبيعه الأندلسيين من ممتلكاتهم.[1]

ب- طرد أندلسي مرسية

تأخر قرار الطرد النهائي لأندلسي مرسية عن بقية مناطق المملكة الإسبانية، فبتاريخ 10 جانفي 1610م صدر قرار طرد أندلسي مرسية، ولكنه لم ينفذ إلى غاية 08 أكتوبر1610م، وكان خروجهم من ميناء قرطاجنة، وشمل هذا القرار جميع الأندلسيين الموريسكيين الموجودين بالمدينة وطرد حوالي 15 ألف أندلسي بموجب هذا القرار، باستثناء الأطفال الذين تقل أعمارهم عن ثماني سنوات فلم يشملهم القرار وسُمح للعائلات المسيحية الاحتفاظ بهم وتنشئتهم على النصرانية.[2]

وأسدل الستار رسميا على هذه المأساة التي لم يشهد لها التاريخ مثيلا سنة 1614م، بصدور قرار طرد أندلسي وادي ريكوتي، وبهذه الممارسات العنصرية والقرارات التعسفية الجائرة سطرت الكنيسة الكاثوليكية بدعم من السلطات الحاكمة الإسبانية صفحة جديدة من صفحات جرائمها بحق المخالف لها.[3]

10- نتائج قرار الطرد النهائي

- شهدت قرارات الطرد النهائي مأساة حقيقية لم يشهد لها التاريخ مثيلا عبر الأزمنة والعصور فبالإضافة إلى المعاناة من التعذيب والتقتيل، اختلفت الروايات حول عدد الذين تم ترحيلهم، فدون لورنتي مؤرخ ديوان التحقيق يقدرهم بمليون نسمة، ويقدرهم غيره بـ 600 ألف و 900 ألف[4] فيما ذهب علي حسن الشطشاط أن عدد المنفيين من الأندلسيين منذ سقوط غرناطة إلى غاية قرار

1 - أسعد حومد: المرجع السابق، ص 369.

2 - محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، ص 402.

3 - حنيفي هلايلي: المرجع السابق، ص104.

4 - محمد عبد الله عنان: "موقف القسطنطينية وباقي العالم الإسلامي من سقوط الأندلس وآخر مسلميها وأمام الغزو الأوروبي للعالم الإسلامي عموما"، **مجلة الأصالة**، ع27، الجزائر، 1975م، ص110.

الطرد النهائي بحوالي 3 ملايين[1*]، فيما ذهب شاكر مصطفى إلى أن عدد الذين طردوا بلغ نصف مليون على أقل تقدير.

- نتج عن قرار الطرد ضياع كامل للممتلكات ونهب الأموال والعقارات وإخراج الأندلسيين من بيوتهم ومزارعهم قصرا وصودرت أملاكهم.[2]
- نزوح الكثير من الأندلسيين إلى بلاد المغرب (تونس، الجزائر، المغرب الأقصى)، فأدى ذلك إلى تنشيط التجارة والصناعات المختلفة نتيجة للمهارات التي كان يمتلكها الأندلسيون.[3]
- أمرت السلطات الإسبانية بأن لا يحمل الأندلسيون الموريسكيون غير ما يستطيعون حمله ويلبي حاجياتهم أثناء السفر، أي ما يستطيعون حمله بأنفسهم، وليس ما يحملون على دابة أو وسيلة من وسائل النقل، وبذلك خلّفوا وراءهم كل غال ونفيس خاصة التحف الأندلسية الثمينة والماشية والمؤن.
- تعرض الأندلسيون إلى عملية سرقة مقوننة برعاية ومباركة السلطات الإسبانية، وذلك راجع إلى أن بعض الأندلسيين حاولوا بيع أشيائهم الثمينة بالدراهم، وأخذ المال معهم، ولطول مدة انتظار وصول دورهم في الموانئ للترحيل، كانوا يضطرون للرجوع إلى المدينة لبيع أشيائهم، وفي أثناء العودة يتربص بهم الإسبان فيسرقون منهم الأثاث على مرأى من السلطات[4]، وحينما رأت هذه الأخيرة أن بعض الأندلسيين يصلون إلى المدن لبيع أثاثهم، أصدرت أمرا بتاريخ 01 أكتوبر 1610م تحرم فيه على الأندلسيين بيع كل ما يملكون من حبوب وزيوت ومواشي...بعد هذا التاريخ، وأمرت أن تصادر منهم في حالة البيع وتسلم إلى السادة الإقطاعيين.
- أثناء الطريق تعرض الأندلسيون لعمليات النهب والسلب لممتلكاتهم من طرف بعض العصابات الإسبانية التي تشكلت للقيام بهذه المهمة[5]، ولذلك حاولت السلطات العليا في إسبانيا التصدي لهذه المظاهر السلبية، وأصدر الملك فليب الثالث أمرا ملكيا تضمن اتخاذ إجراءات ردعية في حق كل إسباني تثبت عليه ممارسات اللصوصية والنهب والقتل، أو أي ممارسات ضد الأندلسيين الذين استجابوا لأمر

1 – علي حسن الشطشاط: نهاية الوجود العربي في الأندلس، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2002م، ص98.

* – خالف علي حسن الشطشاط كل المؤرخين والمصادر والمراجع، فقال بأن نهاية الوجود العربي في الأندلس كان سنة 1609م حتى أنه لم يبق من العرب أحد في إسبانيا، مع أن سنة 1609م كانت سنة أول قرار طرد واستمر الحال إلى غاية 1614م وما بعدها.

2 – شاكر مصطفى: الأندلس في التاريخ، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، 1990م، ص158.

3 – علي حسن الشطشاط: المرجع السابق، ص 98.

4 – بورونات إي براتشينا: المرجع السابق، ص39.

5 – أسعد حومد: المرجع السابق، ص 367.

الطرد، وقد كلف سكرتير الملك بتنفيذ هذا الأمر، إلا أن الحكومة لم تقم بتطبيقه وحماية الأندلسيين من المرتزقة واللصوص والقتلة.[1]

- خسرت إسبانيا نتيجة هذا القرار الكثير من الطاقات في جميع المجالات والآلاف المؤلفة التي كانت الزهرة اليانعة والمحرك الأساسي لعجلة التنمية الاقتصادية، فقد تعطلت المصانع والمعامل والمؤسسات وخرّبت الأراضي الزراعية والمشاتل والكثير من القطاعات الاقتصادية الأخرى، نتيجة لتهور السلطات الإسبانية والحقد الأعمى باسم الدين، من أجل القضاء على التواجد العربي الإسلامي بالأندلس وبذلك كانت أكبر وأعظم مأساة تاريخية فظاعة وقسوة وبربرية حسب ما قال الكاردينال ريشيليو.[2]

11-موقف الأندلسيين من قرار الطرد

على الرغم من المأساة والفظائع التي تعرض لها الأندلسيون منذ سقوط غرناطة وإلى غاية قرار الطرد إلا أن بعضهم اعتبر هذا فرجا من الله عليهم للمحافظة على دينهم وعقيدتهم والهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، بعد أن أصبح الأندلسيون لا يأمنون على دينهم، عقيدتهم، أموالهم، أبنائهم، نسائهم وأنفسهم، لذلك كانت الهجرة واجبة من دار الكفر إلى دار الإسلام واجبا شرعيا ومن خالفه كان آثما[*]، ولذلك كان هذا فرجا من الله وجزاء لهم على ثباتهم وتشبثهم بالإسلام[3]، وهذا ما نستشفه من خلال نص الشهاب الحجري «وبعد اثنتي عشرة سنة فرّج الله تعالى على مسلمي الأندلس الذين كانوا فيها تحت قهر سلطان البلاد المسمى فليب الثالث»[4] وقال ابن عبد الرفيع: « ولا يخفى أن هذا أمر عظيم ومحال عادة، لما كنا فيه معه من الشدة والضيق في الدين والنفس والمال، فسبحان ربِّ السماوات والأرض الذي إذا أراد أمرا قال له كن فيكون فيا لها من أعجوبة ما أعظمها ومن فضيلة ما أشرفها».[5]

---

1 – بورونات إي براتشينا: المرجع السابق، ص39.

2 – علي مظهر: المرجع السابق، ص 45.

* – تطرق الأستاذ حنيفي هلايلي بالتفصيل لموقف فقهاء الإسلام من الهجرة الأندلسية الأولى بعد سقوط غرناطة ممثلة في فتوى الونشريسي الأولى والثانية وفتوى أبي جمعة المغراوي، للاستزادة ينظر: حنيفي هلايلي: المرجع السابق، ص ص 105، 119.

3 – نفسه، ص 104.

4 – أحمد بن قاسم الأندلسي الشهاب الحجري: المصدر السابق، ص02.

5 – حنيفي هلايلي: المرجع السابق، ص ص 104، 105.

المبحث الثاني: الجزائر والقضية الموريسكية بعد قرار الطرد 1609–1614م

1– الهجرة الأندلسية إلى الجزائر

مباشرة بعد بداية تطبيق قرار الطرد النهائي في حق الأندلسيين، من طرف السلطات الإسبانية سنة 1609م، كانت الهجرات الأندلسية باتجاهات مختلفة إلى عدة بلدان، ومن أهم هذه البلدان الجزائر التي كانت السباقة لاحتضانهم والترحيب بهم ومساعدتهم، سواء أثناء الهجرات الأولى قبل وبعد سقوط غرناطة، أو أثناء محنة الطرد النهائي، وقد عبر الآلاف من هؤلاء الأندلسيين إلى الجزائر، وازدادت الهجرات الأندلسية تسارعا بعد ثورة 1568–1570م بمساعدة من السكان المحليين الذين ساعدوا ورحبوا بهؤلاء الموريسكيين، وبمساعدة حكام الإيالة الجزائرية الذين قدموا الدعم اللازم لهم سواء أثناء الثورة أو بنقلهم إلى الجزائر ومساعدتهم، ومن ذلك قيام حسن فنزيانو إنقاذ حوالي 2000 موريسكي من الرجال والنساء من منطقة أليكانت (Alicante) سنة 1584م[1]، وتواصلت الهجرات الأندلسية قبل صدور قرار الطرد، وتميزت سنة 1591م بوصول أعداد ضخمة من الأندلسيين إلى الجزائر[2]، وبعد سنوات استطاع مراد رايس نقل عدد كبير من الأندلسيين إلى الجزائر وإنقاذهم من خطر محاكم التفتيش، وذلك على إثر غارة شنها على لورقة غرب قرطاجنة.[3]

وما إن حلت سنة 1609م حتى أصبح عدد الأندلسيين بمدينة الجزائر لوحدها حوالي 25 ألف، توزعوا على العديد من المدن الساحلية الجزائرية التي وجدوا فيها كل الترحاب والاهتمام، ففي أوائل شهر أكتوبر سنة 1609م قامت السلطات الإسبانية بنفي حوالي 28 ألف أندلسي من ثغر دانية وعدة ثغور أخرى، حيث نقلتهم السفن إلى وهران، وهناك من ذهب إلى مدينة تلمسان تحت حماية السلطات المحلية.[4]

وقد أضحت الهجرات الأندلسية الموريسكية ظاهرة عامة كان لها تأثير واضح على أغلب جهات الجزائر الساحلية، وذلك بسبب قرار الطرد النهائي الذي اتخذه الملك فليب الثالث فيما بين 1606–1614م فقد اضطر حوالي 15 ألف من أندلسي بلنسية الهجرة إلى وهران على نفقتهم الخاصة، وذلك باستئجار السفن التي حملتهم إلى السواحل الجزائرية، وتسببت ثورة سييرا (Siarra) –التي قام بها بقايا المسلمين– في نزوح جماعات أندلسية أخرى، وقد تفاوض معهم في شأن الرحيل إلى الجزائر نائب الملك سيمون ثاباتا «Simon Zapata»

1 – حنيفي هلايلي: بنية الجيش...، المرجع السابق، ص115.
2 – ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر–العهد العثماني–، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص132.
3 – محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس...، المرجع السابق، ص 386.
4 – علي مظهر: المرجع السابق، ص43.

الذي بعث أخاه إلى الجزائر كرهينة ليكون محل ثقة لدى الثائرين، ونتيجة ذلك نزل حوالي 15 ثائرا من معاقلهم بتاريخ 23 فيفري 1612م، ونقلوا مع مجموعات أخرى من مرسى بلنسية إلى ميناء الجزائر.[1]

ومع أن الأندلسيين كانوا يفضلون التوجه إلى الجزائر إلا أن أعدادا كبيرة منهم لم تستطع التوجه رأسا إليها، خاصة أندلسي أمسترامادور، أراغون والمنانشا (La Mancha , Eshema dure, Avagon)[2] فكانت وجهتهم أولا فرنسا خاصة مرسيليا، ثم توجهوا إلى ليفورن ومنها إلى السواحل الجزائرية، وهذا راجع للمضايقات التي تعرضوا لها بفرنسا بسبب حادث اغتيال الملك الفرنسي هنري الرابع، واتهامهم بالوقوف وراء ذلك.[3]

وقد انضم إلى هؤلاء الأندلسيين القادمين من فرنسا وإيطاليا كثير من أندلسي النواحي الجنوبية الإسبانية، الذين كانوا برفقة أبنائهم الصغار وقد حرصوا على المجيء بهم إلى الجزائر ليكونوا مسلمين ويُنْشَؤوا تنشئة إسلامية، لأن القانون الإسباني كان يمنع أخذ الأبناء الصغار مع آبائهم رأسا عن طريق البحر إلى البلاد الإسلامية، لذلك استعمل الأندلسيون الحيلة في إنقاذ أبنائهم من الكنيسة التي كانت تريد إبقاءهم وتنشئتهم على الدين المسيحي.[4]

وما يمكن ملاحظته في هذا الخصوص أن الهجرة الأندلسية بعد قرار الطرد النهائي باتجاه بلاد المغرب عموما والجزائر خصوصا، كان لها صدى واسعا في كامل البلاد المغاربية، حيث اختلف المؤرخون في الأعداد التي هاجرت نتيجة هذا القرار، فقد نقل لنا المقري نصا لم يبين لنا فيه عددهم بالضبط ولكنه قدرهم بالآلاف حيث قال: «إلى أن كان إخراج النصارى إياهم بهذا العصر القريب أعوام تسعة عشر وألف فخرجت ألوف بفاس وأخرى بتلمسان ووهران»[5]، فيما قدر الشهاب الحجري عددهم بحوالي 800 ألف مهاجر أندلسي[6]، أما أما الشريف الأندلسي محمد بن عبد الرفيع الذي ذكر في كتاب الأنوار النبوية أنه وجد في دفاتر السلطان

---

1 – ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص132.

2 – محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، ص ص 396، 398.

3 – ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص133.

4 – نفسه.

5 – المقري أحمد بن محمد التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، ج4، تحقيق وتعليق، إحسان حقي، دار صادر، بيروت، لبنان، 1408هـ/1988م، ص 528.

6 – أحمد بن قاسم الأندلسي الشهاب الحجري: المصدر السابق، ص55.

الكافر أبعده الله تعالى أن جملة من أخرج من أهل الأندلس كان ينف وستمائة ألف كبيرا وصغيرا سنة 1610م.[1]

أما المصادر الإسبانية فقد اختلف هي أيضا في تقدير عدد الذين تم نفيهم بعد صدور قرار الطرد النهائي، فهذا مؤرخ ديوان التحقيق الإسباني لورفنشي يقدر عدد المطرودين من أهل الأندلس بنحو مليون نسمة[2]، وهو رقم يقارب الرقم الذي قدمه الشهاب الحجري على الرغم من فارق المائتي ألف نسمة بين المصدرين، فيما يقدرهم المؤرخ النمساوي فون يور خشتال بـ 300 ألف و10 آلاف أندلسي، أما فليورنتي يقدرهم بـ 200 ألف أندلسي، فيما يقدرهم غيره بـ 600 ألف وآخرون بـ 900 ألف، فيما يقدرهم نافاريتي وهو من كبار المؤرخين الإسبان بحوالي 300 ألف من الأندلسيين.[3]

وعلى الرغم من الاختلاف الحاصل حول عدد المطرودين الأندلسيين إلا أن كل المؤرخين اتفقوا أن عددهم لا يقل على 200 ألف أندلسي، أرغموا على الهجرة إلى عدة مناطق من العالم مخلفين ورائهم الكثير من المتاع والممتلكات وحتى أبناءهم بيد المسيحيين، وبذلك ارتكبت السلطات الإسبانية أبشع صور التطهير العرقي عبر التاريخ القديم والحديث، وعاش الأندلسيون محنة عظيمة في دينهم، معتقدهم، أموالهم، أبنائهم وأرضهم.

وما يميز هذه الهجرات الجماعية الأخيرة أنها شملت جميع المناطق الساحلية الجزائرية وفي طليعة هذه المدن مدينة الجزائر، وهران، مستغانم وتلمسان، وقد وفد أول فوج من المهاجرين الأندلسيين من مدينة ألدة ونوفيلد (Elda) (Nouveldha)، وكانت وجهتهم تلمسان بعد أن تفاوض في أمر نقلهم من وهران الحاكم الإسباني لوهران الدوق داغيون «le Duc D’Aguillon»، ثم جاء بعدهم فوج آخر ضم مهاجري النواحي الجنوبية من كاستلون (قشتالة) (Castellons) وكولين (Collins) الواقعة غرب بلنسية، ونقلوا رأسا إلى المراكز الإسبانية بوهران والمرسى الكبير وبعض المناطق القريبة منهما مثل أرزيو ومستغانم، ورأس فالكون على متن أربعين سفينة تجارية كانت تحت حراسة الأسطول الإسباني المتوجه إلى وهران والمرسى الكبير، وقدر عدد الذين تم نقلهم في ثلاث دفعات من الأقاليم الشرقية بالأندلس عن طريق موانئ دانية وقووا وكاليفانت ومونكالا ما بين شهري أكتوبر ونوفمبر 1610م حوالي 116.022 أندلسي موريسكي.[4]

---

1 – ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص133.

2 – محمد عبد الله عنان: "موقف القسطنيطينية ..."، المرجع السابق، ص110.

3 – علي مظهر: المرجع السابق، ص45.

4 – ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص134.

وقد نزح إلى مدينة وهران وحدها حوالي 22 ألفا، نزلوا بها يوم 17 أكتوبر 1610م، حيث اكتظت بهم شوارع المدينة، و لم تستطع تحمل أعداد أخرى منهم بالإضافة إلى الضغوطات التي مارستها السلطات الإسبانية الموجودة بالمدينة من أجل جعل هؤلاء الأندلسيين يغادرون المدينة، وحتى لا يشكلون ضغطا إضافيا عليهم، وبدعم ومساندة من السلطات الجزائرية التي كانت تحاول طرد الإسبان من المدينة، لذلك سارعت السلطات الإسبانية للضغط على الأندلسيين لترحيلهم حتى لا يكونوا سندا للجزائريين إذا حاولوا استرجاع المدينة، ونتيجة لهذه الممارسات وعدم توفر الإمكانيات لديهم داخل المدينة، اتجه فريق منهم مكون ما بين 5 إلى 6 آلاف أندلسي إلى مدينة تلمسان، و40 آخرين نحو مستغانم.[1]

وأثناء سيرهم في المناطق الداخلية باتجاه تلمسان ومستغانم وغيرها من المدن تعرض هؤلاء الأندلسيين إلى أبشع صور النهب والاعتداء على يد الأعراب لعدم توفرهم على حراسة كافية، وقد أخذت منهم كل أسلحتهم التي كانوا يدافعون بها عن أنفسهم وممتلكاتهم، وقد أشار المقري إلى هذه القضية الخطيرة التي تعرض لها هؤلاء المفجوعين في دينهم ودنياهم، بقوله: «فتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات ونهبوا أموالهم، وانتهى بهم الأمر إلى قتلهم، وبقروا بطونهم ظنا منهم أن الجواهر موجودة بها وذلك ببلاد تلمسان وفاس».[2]

ومع أن المقري يورد لنا هذا النص الذي يعبر عن مأساة حقيقية تعرض لها الأندلسيون في المناطق الداخلية أثناء ترحُّلهم للبحث عن مكان يكون مستقرا لهم، إلا أنه يمكننا القول أنها أفعال معزولة صدرت من بعض الأجلاف وقطاع الطرق، وهي لا تعبر بأي حال من الأحوال عن ممارسات يمكن تعميمها على سكان الجزائر في ذلك الوقت، بل بالعكس فقد وجدت هذه الأفعال القبيحة والمعزولة التشنيع والشجب ومطاردة أصحابها ومعاقبتهم بأقصى العقوبات، وقد أثارت هذه الأفعال استنكار وغضب رجال الدين وشيوخ القبائل الذين دعوا إلى معاقبة هؤلاء الأعراب ونصرة الأندلسيين، وكان في طليعة هؤلاء الشيخ محمد أقدار التوجيبي[*] الذي استنهض الشيخ احميدة العبد وحثه على تحريض عشائر سويد لغزو وقتال قبيلة هبرة لاعتدائها على الأندلسيين بين المحمدية وسيق، ولما فعلوه بالمسلمين الخارجين من غرناطة إلى مرسى أرزيو، ودارت معركة بين الطرفين أسفرت عن انهزام قبيلة هبرة، وفي ذلك يقول الراشدي: «فأتاه احميدة بجنود عظيمة يوم الجمعة ووافق

1 - ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص134.

2 - المقري أحمد بن محمد التلمساني: المصدر السابق، ص528.

* - توفي سنة 1065هـ وقبره موجود بأرض مينا قرب البطحاء التي كانت تقع بمكان محطة القطار بالمطمر بغليزان حاليا...، ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص136.

ذلك ختمته صحيح البخاري، ثم ساروا ولقيتهم جموع هبرة فانهزموا وركبت سويد أكتافهم فقتلوهم كيف شاؤوا».[1]

ومن هذه الرواية التي نقلها لنا الشقراني الرشدي في كتابه القول الأوسط، نستطيع أن نؤكد أن أفعال قبيلة هبرة هي أفعال معزولة لا يمكن تعميمها على كامل سكان السواحل الجزائرية خاصة الغربية منها، وقد تصدى العلماء وشيوخ القبائل لهذه الأفعال خاصة قبيلة سويد التي أبلت البلاء الحسن وقامت بتأديب هذه القبيلة المتمردة.

بالإضافة إلى مأساة الطرد التي تعرض لها الأندلسيون، كانوا يتعرضون لمحن أخرى ومشاكل لا تنتهي أثناء طريقهم إلى المدن الجزائرية، ففضلا عن تعرضهم لاعتداءات الأعراب من قبيلة هبرة، والتي وقف لها العلماء وشيوخ القبائل بالمرصاد، نجدهم تعرضوا للأوبئة والأمراض الفتاكة، ومما زاد من معاناتهم تعرضهم لأبشع أنواع التعسف والاضطهاد على أيدي ربابنة السفن الإسبانية، حيث ينتهي بهم الأمر إلى إغراقهم في البحر كما حدث لمهاجري سفينتين كانتا متجهتين من قرطاجنة إلى وهران في شهر ديسمبر 1609م، ولعل هذه الظروف الصعبة والممارسات اللامسؤولة من طرف البعض هي التي دفعت البعض منهم إلى العودة مرة أخرى إلى إسبانيا وإعلان تبعيتهم للملك الإسباني[2]، وهي أيضا حالات شاذة لا يمكن تعميمها على كل الأندلسيين لأن الدراسات المعاصرة أثبتت لنا أن هذه الجاليات الأندلسية استقرت بالجزائر وكان لها دور بارز في كل المجالات، سواء الاقتصادية أو الاجتماعية وكذلك الحضارية والعمرانية.[3]

وما يمكن تسجيله أن الوجود الأندلسي بإسبانيا بقي موجودا على الرغم من قلته، مقارنة بما كان قبل قرار الطرد النهائي سنة 1609-1614م، فقد اضطرت الظروف بعض الأندلسيين للبقاء أو العودة بعد أن رأوا بعض الممارسات القبيحة في حقهم، إلا أن السلطات الإسبانية ممثلة في محاكم التفتيش كانت لهم بالمرصاد ومارست عليهم أبشع صور التعذيب النفسي والجسدي عقابا لهم على العودة أو محاولة التفكير في البقاء بإسبانيا، وقد قُبض في بلنسية على رجل يدعى فرنشيسكو دي لوكي المتنصر سنة 1625م وكان قد فر من إسبانيا وانضم إلى بحارة جزائريين كانوا يغيرون على شواطئ أوروبا وإسبانيا خاصة، ولما أمسك به وعرف أنه أدى فريضة الحج ووصف رحلته في كتاب ألفه، حكمت عليه محاكم التفتيش بالجلد والسجن مدى الحياة.[4]

1 - أحمد بن عبد الرحمن الشقراني الراشدي: المصدر السابق، ص65.

2 - ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص136.

3 - حنيفي هلايلي: دراسات وأبحاث في التاريخ الأندلسي الموريسكي...، المرجع السابق، ص ص 129-130.

4 - علي مظهر: المرجع السابق، ص47.

وفي سنة 1645م قبض على مجموعة من العبيد الأندلسيين بإسبانيا، حكم عليهم ديوان التحقيق في بلنسية بتهمة محاولة الفرار إلى الجزائر، وأذاقوهم شتى أنواع العذاب، أما في قرطبة فقد صدر بحق امرأة مسلمة أندلسية حكما بإجبارها على التنصر بتهمة محاولة الفرار إلى الجزائر وارتدادها عن المسيحية، أما في برشلونة وماجريط (مدريد) فقد صدرت أحكام سنة 1680م بحق مسلم أندلسي من قادس كان اسمه مسيحيا يدعى لازاروا فرنندو، وقد انضم إلى بحارة الجزائر، وعندما قبض عليه لم ينكر إسلامه بل أصر عليه فأعدم حرقا هو جماعة أخرى لفقت لهم تهم عديدة.[1]

وقد بقى هذا التواجد إلى غاية نهاية القرن السابع عشر الميلادي كما ذكر ذلك محمد الغساني الأندلسي بقوله:« أضريرة وهي مدينة بين الصغير والكبير وجل أهلها من بقايا الأندلس الذين تنصروا وأصبحوا يحملون الصليب، وكذلك شخص اسمه دون ألونصو حفيد موسى أخ السلطان أبو عبد الله المتغلب عليه في غرناطة، وهو كما قال رجل حسن الأخلاق حسن اللباس له قوة وشجاعة معروف لدى النصارى مائل إلى من يلقاه من أهل الإسلام، ويذكر نسبه، ويعجبه ما سمعه من الحديث عن الإسلام وأصله».[2]

ومواصلة لاضطهاد الأندلسيين الذين بقوا بإسبانيا لم يتوان ديوان التفتيش في ممارسة مهامه القذرة فقد صدرت أحكام قاسية ببلد الوليد وطليطلة ومجريط (مدريد) وقرطاجنة التي ضُبطت بها جماعة من الأندلسيين سرا بمسجد هناك سنة 1173هـ/1779م، وتعرضوا إلى شتى أنواع التعذيب والحرق.[3]

الملاحظ إذن أن الوجود الأندلسي لم ينقطع عن إسبانيا نهائيا بعد صدور قرار الطرد النهائي سنة 1609-1614م، ولكن بقي البعض الذين فضلوا المخاطرة بأنفسهم والبقاء، معرضين بذلك أنفسهم لخطر ديوان التحقيق وممارساته القاسية والقذرة بحق أناس لا يملكون حق الدفاع عن أنفسهم ومعتقداتهم، وبذلك ارتكبت إسبانيا أقسى أنواع الظلم والتعسف الذي مورس على جنس آخر مختلف في العرق والدين.

2- التأثير الأندلسي الموريسكي على العلاقات الجزائرية الإسبانية

لعب الأندلسيون الموريسكيون دورا بارزا ومهما خلال بداية تأسيس الإيالة الجزائرية، حيث كانوا من الفاعلين الرئيسيين في البحرية الجزائرية ضد الهجمات الإسبانية على السواحل الجزائرية خلال القرن السادس عشر ميلادي، ومع قلة نشاطهم خلال محنة الطرد النهائي، إلا أنهم حاولوا جاهدين الاستعانة بالبحرية الجزائرية والانخراط فيها، لعلهم يسترجعون بعض متاعهم وأبنائهم الذين بقي عدد كبير منهم بإسبانيا، لذلك حاولوا

1 - علي مظهر: المرجع السابق، ص47.

2 - محمد الغساني الأندلسي: المصدر السابق، ص ص 39، 40.

3 - علي مظهر: المرجع السابق، ص48.

لعب دور بارز وهام في التعريف بقضيتهم سواء لدى حكام الجزائر وسكانها أو على الأراضي الإسبانية نفسها التي كانوا في الكثير من المرات يغيرون عليها ليلا لامتلاكهم أسلوبا حربيا متميزا ومعرفتهم بالسواحل الإسبانية ونقاط قوة وضعف بحريتها، فكانت السلطات الإسبانية تسلط أقسى أنواع العذاب والتنكيل على كل أندلسي يشتبه فيه أنه يتعامل مع الجزائريين.[1]

عمل الموريسكيون على المساهمة في تنشيط حركة الجهاد البحري، والإغارة على السواحل الإسبانية باستمرار بمساعدة الأسطول البحري الجزائري، الذي كان يقوم بعمليات بحرية ضد الأهداف الإسبانية من أجل المساعدة في نقل المهاجرين الأندلسيين المطرودين وإيصالهم إلى السواحل الجزائرية سالمين، وقد ساهم الأندلسيون في تجهيز السفن والمعدات، وهذا لإنقاذ إخوانهم من مخاطر الإسبان.[2]

وعلى الرغم من المخاطر التي كان يتعرض لها الموريسكيون جراء مساعدتهم للبحارة الجزائريين والانخراط معهم، إلا أنهم كانوا دائما يقدمون المساعدات كلما أتيحت لهم الفرصة للانتقام من الإسبان، فبينما كان مراد رايس يغزو الشواطئ الإسبانية كانت مساعدة السكان الأندلسيين تساهم كثيرا في نجاح الغزوات التي شنها على شلش، موريرة، ألتية، يولوب، كاداكيس، كالوزا وكايومارش... وعلى إثر هذه الهجمات الناجحة لم يتوان الإسبان في إعدام 34 موريسكي، بينما استطاع حوالي 2000 منهم الفرار واللجوء إلى الجزائر، فكانت جزر البليار وكل الشواطئ الشرقية لإسبانيا وشواطئ كورسيكا مستهدفة باستمرار من طرف البحرية الجزائرية، ردا على الممارسات التعسفية لإسبانيا، ونصرة للأندلسيين وإنقاذهم من البطش الإسباني.[3]

كان التعاون وثيقا بين حكام الإيالة الجزائرية والأندلسيين* المطرودين من إسبانيا الذين كان منهم الكثير من الصناع المهرة وأصحاب الحرف المتميزين والمهندسين المعماريين، الذين لقّنوا السكان المحليين العديد من المهنة والصناعات التي قدموا بها من إسبانيا، خاصة المجال العسكري، وبذلك انتقل هذا التأثير إلى مدينة الجزائر التي أصبحت معروفة باستحكاماتها وحصونها، وقد عرف عن هؤلاء الموريسكيين براعتهم في صنع

1 – علي مظهر: المرجع السابق، ص47.

2 – حنيفي هلايلي: المرجع السابق، ص53.

3 – المنور مروش: المرجع السابق، ص ص 305، 306.

* – ولم يقتصر هذا التعاون على الصعيد الخارجي بل تعداه إلى الصعيد الداخلي، وأمام ضعف وقلة عدد جيش حسن علي حاكم مليانة استعان بالأندلسيين، واستطاع إقناع عدد منهم قدر بـ 500 أندلسي شكلوا فرقة للرماة بالإضافة إلى 4 آلاف مقاتل من المشاة و 600 من الصبايحية للقضاء على ثورة الشيخ بوطريق بمدينة الجزائر.

Devoulx (A), El Hadj Pacha 1545, R.Af, N°8, Alger, 1864, p296.

الأسلحة والبارود وصناعة السفن خاصة في مدن الجزائر، شرشال وجيجل[1]، فكان التعاون وثيقا بين الطرفين في مواجهة الخطر الخارجي المشترك بينهما وهو الإسبان، فالبحارة بأموالهم وعتادهم وقوتهم، والأندلسيون بمعرفتهم لجغرافية إسبانيا ونقاط قوة وضعف بحريتها.

ومع توسع النشاط العسكري للأندلسيين داخليا وخارجيا، خاصة بعد الاستقرار النهائي بالسواحل الجزائرية نتيجة لفقدانهم أمل العودة إلى إسبانيا بعد تنفيذ قرار الطرد، ظهرت أسر أندلسية موريسكية اختصت في مجال الجهاد البحري، ومن أبرزها أسرة أولاد النقيس التي هاجمت البرتغاليين والإسبانيين، وكان لها باع طويل في ذلك، فضلا عن ذلك فقد ساهمت في ازدياد الهجمات الجزائرية على السواحل الأوروبية[2]، وقد برز أيضا عدة رياس (بحارة) اشتهروا بالشجاعة والإقدام في مواجهة الإسبان انتقاما منهم جراء الممارسات الظالمة التي مورست ضد إخوانهم الأندلسيين، ومن أشهرهم الرايس بلانكوا والرايس أحمد أبو علي من أشونية ومراد الكبير وجواد يانوا من بنو دال ريال.[3]

لعب الأندلسيون دورا بارزا في حركة الجهاد البحري خلال هذه الفترة وقدموا مساعدات هامة لقادة البحرية الجزائرية، لامتلاكهم الخبرة العسكرية والمهارات الفنية التي ساعدت الجزائريين في تطوير إمكانياتهم الحربية لمواجهة قرصنة الأوروبيين، وقد أشارت معظم المصادر التاريخية إلى الدور البارز الذي لعبه الأندلسيون الموريسكيون في المرحلة الثانية من تأسيس الحكم العثماني في الجزائر (1614-1830م)، حيث كان هذا التواجد واضحا في الإدارة والجيش.[4]

و لم يقتصر دور الأندلسيين في جهادهم البحري مع الأسطول الجزائري ضد الإسبان فقط، بل تعداه إلى الدول الأوروبية الأخرى التي كانت في الكثير من المرات في عداء دائم مع الجزائر خلال القرن السابع عشر ميلادي، خاصة فرنسا التي زادت مشاكلها مع الجزائر ومما يدل على أهمية النشاط العسكري الأندلسي ضد الفرنسيين أن المعاهدة الفرنسية الجزائرية لعام 1640م خصت السفن الأندلسية بالذكر عندما حددت في البند العاشر مسؤولية ما يلحق بالمراكب الفرنسية من خسائر جراء التعرض لها من طرف السفن الجزائرية.[5]

1 - حنيفي هلايلي: المرجع السابق، ص55.
2 - عبد القادر الميلق: المرجع السابق، ص125.
3 - محمد عبد الله عنان: تاريخ الأندلس...، المرجع السابق، ص388.
4 - حنيفي هلايلي: المرجع السابق، ص54.
5 - نفسه، ص56.

إلا أن الذي نسجله في هذا الصدد أن السلطات الفرنسية حاولت جاهدة مساعدة الأندلسيين انتقاما من الإسبان الذين كانوا معها في خلافات وخصومات داخل القارة الأوروبية، فقد استطاع الدوق دي كون لافروس «Duk Gemon La Fros» إقامة اتفاق مع الأندلسيين لإعلان ثورة بإسبانيا، وعرض خطته على الملك الفرنسي الذي وافق عليها، وتم الاتفاق على تنفيذها، إلا أنها اكتشفت من طرف السلطات الإسبانية في آخر لحظة، بسبب خطإ ارتكبه أحد الأندلسيين الذي ألقت عليه السلطات الإسبانية القبض، وعلى الرغم من عدم تبليغه بالمخطط إلا أن الإسبان كثفوا مراقبة سواحلهم وشددوا الرقابة على الأندلسيين.

وفي سنة 1013هـ/ 1604م قدمت مجموعة من كبار الأندلسيين إلى فرنسا لطلب تأجيل الخطة، حتى يتم تبليغ الجزائر بذلك، ويستطيع الأسطول الجزائري تأمين الحماية لهم من الساحل، إلا أن مقتل هنري الرابع مطعونا بخنجر في مدينة رافياك (Ravaillac) أفسد هذه الخطة، وبذلك تخلصت إسبانيا من مشاكل كبيرة وعدو لدود، لأن فليب الثالث كان على علم بتلك المباحثات ولذلك أسرع في إصدار قرار الطرد النهائي.[1]

وقد وجد الأندلسيون فرصة للانتقام من الإسبان سواء بمساعدة البحارة الجزائريين في غزواتهم ضد السواحل الأوروبية عامة والسواحل الإسبانية خاصة، أو في مجال التجارة بالأسرى والرقيق، وعلى الرغم من قلتهم بالمقارنة مع السكان الأصليين فإنهم كانوا أغنياء، استثمروا أموالهم في الجهاد البحري وتجارة الأسرى وبيع الرقيق إلى عائلات مسيحية في أوروبا، فاستثمروا عائدات هذه التجارة في الإغارة على بلاد أجدادهم القديمة (الأندلس) بدراية ومهارة لا تأتي إلا من معرفتهم بالبلاد[2]، وعليه فلا غرابة أن تكون السواحل الجزائرية قد تطورت تطورا سريعا وحركة الجهاد نشطة بفضل الموريسكيين ذوي الأصول الأرغوانية والبلنسية وغيرها.[3]

إذن لعب الأندلسيون دورا بارزا بعد هجرتهم إلى الجزائر، وتطبيق قرار الطرد النهائي بحقهم، فعملوا بكل السبل للانتقام من الإسبان، وبذلك تشكل تحالفٌ غير معلن بين حكام الإيالة الجزائرية والأندلسيين في مواجهة خطر مشترك كان يمثل تهديدا مباشرا لكليهما، مما استوجب عليهم التعاون في مواجهته والانتقام منه بكل الطرق والوسائل، إلا أنه ما يمكننا ملاحظته أن دور الموريسكيين لم يكن بذلك الزخم خلال القرن السادس عشر ميلادي، والسؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا كان الأندلسيون في بداية القرن السادس عشر

1 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص ص 136، 137.
2 – جون وولف: المرجع السابق، ص166.
3 – حنيفي هلايلي: المرجع السابق، ص57.

ميلادي عاملا محفزا على ازدياد الصراع بين الطرفين، فيما لم يكن الدور نفسه خلال القرن السابع عشر ميلادي؟ ويمكننا تفسير ذلك بعدة أسباب منها:

- الانهزام النفسي الذي تولد لدى الموريسكيين بعد قرن ونصف من الزمن عن سقوط غرناطة وتأكدهم من أن الأندلس لن تعود إليهم.
- خيبة أمل الموريسكيين من نجدة الدول الإسلامية خاصة الدولة العلية، لعدم تدخلها المباشر وإعلانها حربا ضد إسبانيا.
- فشل التجربة الأولى التي تمت بين حكام الإيالة الجزائرية والأندلسيين مع أنها حققت بعض النتائج إلا أنها فشلت في تحقيق الهدف الأسمى وهو استرجاع الأندلس أو حتى جزء منها.
- غياب الدعم الداخلي في إسبانيا نتيجة التهجير الجماعي مما أدى إلى عدم إعلان ثورات جديدة والتأكد من عدم قيام ثورات داخلية بإسبانيا.
- المشاكل الداخلية التي كانت تعيشها الجزائر أدت إلى عدم التفكير في مواجهة إسبانيا بنفس الكثافة التي كانت خلال القرن السادس عشر ميلادي، مما أدى إلى عدم وجود تعاون عسكري قوي بين الأندلسيين والجزائريين كما كان في القرن السادس عشر ميلادي.
- ركون إسبانيا والجزائر إلى هدنة غير معلنة بينهما، مما أدى إلى عدم نشوب صراع بينهما مثلما كان عليه الحال خلال القرن السادس عشر ميلادي.

ولذلك لم يستطع الأندلسيون التأثير على الصراع بين الطرفين بشكل كبير.

المبحث الثالث: دور الأسرى في العلاقات الجزائرية الإسبانية

اشتد الصراع بين البحريتين الإسبانية والجزائرية في عرض البحر المتوسط وفي المحيط الأطلسي، مما نتج عنه انتشار ظاهرة الأسر من الجانبين، ولذلك لعب الأسرى دورا مهما وبارزا في توتر العلاقات بين الطرفين خاصة الأسرى المسيحيين بالجزائر.

1- الأسرى الجزائريين لدى الإسبان

اختلفت طرق أسر الجزائريين من طرف الإسبان، فكان منها الأسر أثناء القيام بحملات عسكرية على القرى المجاورة لوهران والمرسى الكبير للحصول على المؤن والتزود بما يحتاجونه، نظرا للحصار الذي كان مضروبا عليهم في أغلب الأحيان[1] وكانوا كلما أغاروا على القبائل الرافضة لتواجدهم يأسرون الكثير من

1 - عبد القادر فكاير: المرجع السابق، ص 316.

الرجال والنساء والأطفال[1]، ويقتادونهم إلى إسبانيا لبيعهم كعبيد هناك، إلى جانب الأسرى الذين يقعون بين أيديهم في عرض البحر نتيجة للمعارك البحرية التي كانت تجري بينهم وبين الجزائريين.

في سنة 1620م أثناء الحملة المشتركة بين الإنجليز والإسبان ضد الجزائر، استطاع الأسطول الإسباني أسر 17 جزائري واقتيادهم إلى إسبانيا وبيعهم هناك من طرف ماسنيل و لم يعرف مصيرهم بعدها.[2]

في سنة 1624م قاد حسن خلفات الملقب من طرف الأوربيين بـ"القرصان المخيف الساحر" خمس سفن صغيرة وواحدة كبيرة من نوع غاليون "Galion"، وفي أثناء سيره في عرض البحر اعترضت سبيله 15 سفينة إسبانية من نوع غالر "Galère" ودارت معركة بحرية عنيفة بين الطرفين دامت تسع ساعات، أسفرت عن استسلام السفن الجزائرية ونهب ما فيها وأسر عدد من رجالها من طرف الجنود الإسبان.[3]

طلب الكثير من الأوروبيين الترخيص من سلطات بلدانهم للتجار من المدن الساحلية الأوروبية بالهجوم على المدن والقرى الساحلية الجزائرية، لأسر الرجال والنساء والأطفال وبيعهم في أسواق إسبانيا ومالطة[4]، وأقام الإسبان الكثير من الأسواق المختصة في بيع الأسرى سواء الجزائريين أو من باقي المسلمين وكانت هذه الأسواق تحكمها قوانين غير محددة، فمتوسط سعر العبد من المسلمين في الغالب أقل من 100 قرش إسباني لكنها بالمقابل أكبر من الأسعار في السنوات الماضية، وهذا دليل واضح على أن تجارة العبيد في تطور مستمر من سنة لأخرى، فقد كانت الأسعار في أسواق بعض الدويلات الإيطالية التابعة للإمبراطورية الإسبانية كنابولي وتوسكانيا تتراوح ما بين 110 دوقة في سنة 1605م، أما في السنوات التالية فكانت الأسعار تتراوح ما بين 100 و 150 قرش إسباني للأسير في جنوة وليفورن ونابولي.[5]

وقد كانت العديد من المدن الإسبانية تستقبل في كل سنة عددا هائلا من الأسرى المسلمين ومن بينهم الجزائريين الذين يتم بيعهم في الأسواق التي تقام في المدن مثل بلنسية، مالقة، رندة (Ronda) وأنتيكيرا (Antequera)، بالإضافة إلى مدينة وهران، التي كانت تستقبل العديد من الأسرى الجزائريين من القبائل المجاورة للموقعين المحتلين الذين يرفضون دفع الضرائب أو يدخلون في مناوشات مع الإسبان، وكانوا يعرضون

1 - محمد أبو راس الناصري: الحلل السندسية في تاريخ وهران والجزيرة الأندلسية، مخطوط المكتبة الوطنية، الجزائر، رقم 3182، ص16.
2 - نفسه، ص 258.
3 - *Belhamissi (M), op.cit, p156.*
4 - جون وولف: المرجع السابق، ص255.
5 - المنور مروش: المرجع السابق، ص208.

الأسرى في الأسواق، ومن يدفع أكبر مبلغ يحصل على الأسير، وكان الإسبان يتدافعون لشراء أكبر عدد من الجزائريين، ومن لم يتم بيعه، يأمر الحاكم العام لوهران والمرسى الكبير بإرساله إلى المدن الإسبانية لبيعه هناك.[1]

وقد يكون النبلاء والإقطاعيون الإسبان أكبر المستفيدين من شراء هؤلاء الأسرى لتوظيفهم في خدمة الأراضي التي أصبحت تعاني شح اليد العاملة، نظرا للفراغ الكبير الذي تركه الأندلسيون الموريسكيون بعد صدور قرار الطرد النهائي بحقهم، وبقيت الأراضي الشاسعة عرضة للإهمال، وقل الإنتاج وخربت الضيعات وقد ذكر لنا محمد الغساني الأندلسي أنه في كل مدينة من مدن إسبانيا التي مر بها كان يستقبله الكثير من الأسرى المسلمين[2] وقد يكون هذا دليلا واضحا على أنهم كانوا يستخدمون في خدمة الأراضي.

لا توجد لدينا إحصائيات عن عدد الأسرى الجزائريين لدى الإسبان خلال القرن السابع عشر الميلادي إلا بعض المراجع التي تكلمت عنهم، والذين كانوا يعملون كجدافين للسفن البابوية، حيث قدرتهم بـــ 200 جزائري سنة 1695م، وفي سنة 1698م أصبح عددهم 80 جزائريا[3]، أما في مقاطعة بلنسية فقدر عدد الأسرى الذين استقدموا من وهران ما بين سنتي 1609-1666م حوالي 80 أسيرا، أما من كامل بلاد المغرب وفي نفس الفترة فكان العدد يقدر بـــ 176 أسيرا[4]، يدخل بينهم الأسرى الجزائريين الذين أسروا في البحر أثناء المعارك البحرية، أو الذين اقتيدوا من مناطق أخرى.

لم تذكر لنا المصادر المحلية الجزائرية أي معلومات عن الأسرى الجزائريين عند الإسبان، سواء فيما يخص طرق أسرهم أو أماكن تواجدهم أو عددهم، إلا أن ابن زرفة ذكر لنا رحلة الوزير المغربي محمد الغساني الأندلسي إلى البلاط الإسباني مبعوثا من السلطان العلوي مولاي زيدان لتحرير الأسرى المسلمين، وإرجاع الكتب التي أخذت من الخزانة الملكية أثناء احتلال الإسبان للمغرب، وحتى هذه الرحلة التي لم تكلل بإطلاق سراح الأسرى المسلمين أو إرجاع الكتب[5]، ولم تعطي لنا أي تفاصيل عن العدد الحقيقي للأسرى المسلمين فما بالك بالجزائريين، الذين لم يذكر الوزير المغربي عنهم أي إشارة، إلا أننا نعتقد أنهم داخلون في جملة الأسرى المسلمين الذين أرسل السلطان المغربي في تحريرهم من العبودية.

1 - عبد القادر فكاير: المرجع السابق، ص230.

2 - محمد الغساني الأندلسي: المصدر السابق، ص 36.

3 - عبد القادر فكاير: المرجع السابق، ص 323.

4 - نفسه، ص 324.

5 - ابن زرفة مصطفى بن عبد الله بن عبد الرحمن: الرحلة القمرية، تحقيق، مختاري حسان: مخبر المخطوطات، جامعة الجزائر، الجزائر، 2002م، ص 372.

لذلك لم نستطع تحديد العدد الحقيقي بالضبط للأسرى الجزائريين لدى الإسبان خلال القرن السابع عشر الميلادي، نظرا لسكوت المراجع المحلية والأجنبية عن إثارة هذه القضية على عكس الأسرى الأوروبيين بالجزائر، حيث وجدوا كل الاهتمام من طرف المؤرخين الجزائريين والأجانب،و الذين وصفوا أدق التفاصيل عن حياتهم وطرق عيشهم وكيفية افتدائهم وأعدادهم أثناء أسرهم بالجزائر، ولذلك ونحن ننجز هذا البحث لم نستطع الحصول على معلومات عن الأسرى الجزائريين يمكننا الاعتماد عليها في تحديد عددهم ولو بالتقريب، وأماكن أسرهم بإسبانيا.

ذكر لنا الآغا المزاري ومحمد بن يوسف الزياني أن الإسبان بعد استشهاد الباي شعبان سنة 1686م قاموا بالهجوم على القبائل المعادية لهم* واستطاعوا أسر الولي الصالح سيدي ابلاحة المهاجي العلمي بوطن تسالة وسيطروا على زاويته وهدموها، وقتلوا خلقا كثيرا فيها وأسروا بناته الثلاثة، وخمسين رجلا من زاويته ورجعوا بهم إلى وهران، حيث بقي الولي مع بناته الثلاثة سنة كاملة أسرى لدى الإسبان، بعدها تم فداء الشيخ وإحدى بناته من طرف بوعزة بن حميدة شيخ أولاد سليمان، أما إحدى بناته ففداها الشيخ والد دموش شيخ أولاد علي وزوجها له أبوها لما قبلت الزواج به، وبقيت الثالثة بلا فداء، فكثر بكاء أمها وتأثر هو (سيدي ابلاحة) لذلك، فخرج إلى ساحة بيته وتوضأ ودعا الله أن يطلق سراحها، فإذا بها مقبلة فقال لزوجته أخرجي لابنتك فإنها قادمة وقد أطلق سراحها[1]، وهذا أنموذجا لعمليات أسر الإسبان للجزائريين.

2- الأسرى الإسبان لدى الجزائر

نتج عن الصراع الجزائري الإسباني ازدياد عدد الأسرى الإسبان لدى الجزائر، نظرا لكثرة المعارك البحرية والهجمات الجزائرية المتكررة على السواحل الإسبانية، زيادة على النشاط الدائم للسفن التجارية الإسبانية، التي كانت تجوب البحر المتوسط باتجاه الدويلات الإيطالية وبقية الدول الأوربية، والمحيط الأطلسي باتجاه مستعمراتها في العالم الجديد، لذلك كان البحارة الجزائريون يعترضون طريقها ويغنمون ما تحمل ويأسرون ما فيها، وكانوا عندما يأسرون الإسبان ويغنمون السفن يأتون بها إلى الجزائر لتباع في أسواقها.

فيما بين 1619-1621م استطاعت البحرية الجزائرية السيطرة على 25 سفينة تحمل على متنها 578 أسيرا منهم 535 إسبانيا، وتم مصادرة هذه السفن واحتجاز حمولتها وأخذها إلى مدينة الجزائر[2]، بالإضافة إلى

*- ذكر محمد أبو راس الناصري أن اليهود كانوا يساهمون في أسر المسلمين من القبائل العربية، لأنهم ساعدوا الإسبان في احتلال وهران، وكانوا يحظون بمكانة كبيرة لدى الحاكم العام الإسباني لوهران، محمد أبو راس الناصري: المصدر السابق، ص17.

1 - محمد بن يوسف الزياني: المصدر السابق، ص ص 150، 151.

2 - المنور مروش: المرجع السابق، ص ص315، 316.

احتجاز العديد من المراكب الإسبانية الأخرى التي تحمل على متنها العديد من الأشخاص من جنسيات مختلفة منهم البلجيكيين، الإسبان والفرنسيين الذين كانوا في خدمة ملك إسبانيا، ولكن لا يعرف عدد الأشخاص الذين تم أسرهم.[1]

وما بين سنة 1639م و 1695م استطاع الجزائريون السيطرة على 59 سفينة تابعة لإسبانيا وبعض الدويلات التابعة لها مثل جنوة ونابولي على متنها المئات من الأسرى المسيحيين، وعرفت سنة 1689م أسر 280 جندي إسباني والكثير من الغنائم، وقد شكل هؤلاء الأسرى تجارة رابحة للجزائريين بكل طبقاتهم سواء من السكان المحليين أو الأتراك أو الموريسكيين طالبي الثأر من الإسبان الذين أجبروهم على الرحيل من وطنهم إلى مناطق مختلفة في الأرض، وكان من بين الأسرى: القادة في الجيش، النبلاء، المثقفون، الطبقة البورجوازية ضباط السفن بالإضافة إلى رجال البحر العاديين والفلاحين والفقراء من الإسبان.[2]

وكان غالبية الأسرى يتمركزون بمدينة الجزائر التي عرفت حركة تجارية نشطة، حيث لعب الموريسكيون دورا مهما في تجارة الأسرى نظرا لحقدهم على الإسبان وامتلاكهم لرؤوس الأموال التي نقلوها معهم من موطنهم الأصلي، ونموها بعد ذلك بالاشتراك في نشاط الجهاد البحري وتجارة الأسرى.[3]

لعب الأسرى دورا مهما في تنشيط الحركة التجارية بمدينة الجزائر وبعض المدن الأخرى، ذلك أن نظام الاسترقاق كان ضروريا لاقتصاد الإيالة، سواء بافتداء الأسرى وما يجلبه من أموال للخزينة العامة، أو ما يتعلق بالتجارة الداخلية، حيث عرفت مدينة الجزائر بكثرة نشاط تجار الأسرى، الذين كانوا يجنون أرباحا ضخمة من وراء ذلك، وقد بلغ عدد الأسرى من جميع الجنسيات حوالي 35 ألف أسير في منتصف القرن السابع عشر ميلادي.[4]

1 - عطلي محمد أمين: نشاط البحرية الجزائرية في القرن السابع عشر ميلادي وأثره في العلاقات الجزائرية الفرنسية، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ، معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية ، المركز الجامعي بغرداية، 2011-2012م، ص 88-95.

2 - جون وولف: المرجع السابق، ص208.

3 - ناصر الدين سعيدوني: أبحاث ودراسات...، المرجع السابق، ص 142.

4 - وليم سبنسر: المرجع السابق، ص 133.

ثانيا: الصراع الجزائري الإسباني (1600–1609م)

المبحث الأول: أوضاع البلدين في بداية القرن السابع عشر

1– أوضاع الجزائر

تميزت أوضاع الجزائر في بداية القرن السابع عشر الميلادي بعدم الاستقرار على المستويين الداخلي والخارجي، فعلى المستوى الداخلي كانت هناك صراعات بين طائفتي الرياس والانكشارية من جهة والانكشارية والكراغلة من جهة ثانية، وكثرت التمردات والثورات ضد الطبقة الحاكمة، بالإضافة إلى انتشار الأوبئة والأمراض، أما على المستوى الخارجي فقد تميز هذا القرن بتزايد الحملات الأوربية على الجزائر بشكل لم يسبق له مثيل خلال القرن الماضي، واضطربت الأوضاع على الحدود الشرقية والغربية مع الجارتين تونس بسبب مشاكل الحدود، والمغرب؛ الذي كان له أطماع توسعية على حساب الجزائر.[1]

عرفت نهاية القرن السادس عشر الميلادي تغير نظام الحكم بالجزائر، من نظام البايلربايات إلى الباشاوات (1587–1659م)، حيث عرفت هذه المرحلة صراعا حقيقيا بين طائفة الرياس والانكشارية[*]، الذين استغلوا فرصة انصراف الرياس لمواجهة الأوروبيين في عرض البحر وقاموا بتعزيز نفوذهم على حساب الباشاوات الذين حاولوا التخلص من هذا النفوذ، والتقليل من حدة الصراع بين الطائفتين القويتين، وتجنيب البلاد الوقوع في متاهات خطيرة[2]، ولذلك قرر البايلرباي محمد باشا[**] ابن صالح رايس عام 1568م إصدار مرسوم سمح بموجبه للإنكشارية بالانضمام إلى البحرية ومشاركة الرياس في نشاطهم، وبالمقابل سمح للرياس

---

1 – أرزقي شويتام: نهاية الحكم ...، المرجع السابق، ص41.

* – يرجع الأستاذ حنيفي هلايلي الصراع بين الرياس والإنكشارية إلى ما قبل سنة 1556م، خاصة بعد وفاة صالح رايس حيث حاولت الانكشارية السيطرة على الحكم، ومنعوا الباشا الجديد محمد كردوغلي من النزول إلى ميناء الجزائر، وعينوا أحد الرؤساء المدعو حسن قورصو، لكن الرياس رفضوا هذا التعيين وساندوا الباشا الجديد وساعدوه على الدخول إلى الجزائر، وتولى زمام الحكم، وأعدموا المتمردين من رجال الأوجاق وعلى رأسهم حسن قورصو (1556-1557م)، كما يرجع سبب هذا الصراع إلى الغنائم الضخمة التي كان يتحصل عليها الرياس من عائدات البحر، مما أحدث انزلاقات خطيرة كادت تعصف بمصير الإيالة، للمزيد ينظر: حنيفي هلايلي: بنية الجيش...، المرجع السابق، ص ص 127، 128.

2 – أرزقي شويتام: المرجع السابق، ص27.

** – محمد بن صالح رايس حكم خلال الفترة الممتدة من 1567-1568م، حدثت في أيامه المجاعة الكبرى، فاستغل بتخفيف وطأتها وأثار التونسيون ضده باي قسنطينة فأخذه وأقام حصون بباب الوادي بالجزائر ثم استعاده السلطان لمهمة أخرى...، أحمد توفيق المدني: محمد عثمان باشا...، المرجع السابق، ص47.

بالانخراط في الصفوف الانكشارية والمساهمة معهم في جمع الضرائب[1]، وبذلك سمح اندماج الطائفتين داخل الهيئتين العسكريتين (البحرية والجيش البري) إحداث توازن بينهما داخل أجهزة الحكم بالإيالة ولو إلى حين.

إلا أن هذا الإجراء لم يمنع الإنكشارية من محاولة تعزيز نفوذهم، ولذلك حاول خصر باشا[*] سنة 1596م الاعتماد على الكراغلة[**] للتقليص من نفوذ الإنكشارية ووضع حد لوصايتهم وسطوتهم، إلا أن محاولته باءت بالفشل، مما اضطره في الأخير لقبول مشاركة الديوان[***] معه في السلطة، وكان الباشا يعلن القرارات على النحو التالي: «نحن باشا وديوان ميليشيا الجزائر التي لا تغلب...» ولكي يحتفظ الباشا بمنصبه كان عليه أن يساير الديوان ويقر بقراراته.[2]

خلال القرن السابع عشر الميلادي تولى زمام السلطة في الجزائر رجال أقل كفاءة من الذين سبقوهم وفقدوا نفوذهم وسلطتهم لصالح الديوان، لذلك عمل الإنكشارية خلال هذه المرحلة السيطرة على الديوان واستغلاله لصالحهم، وزاد تدهور سلطة الباشا خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي من تعزيز فرصة الديوان للسيطرة على الحكم، وجرد الباشا في الأخير من سلطة القرار وترك له دورا شكليا فقط.[3]

وما إن حلّ النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادي حتى تضاعف عدد فرق اليولداش، لذلك أحس الإنكشارية بزيادة قوتهم ونفوذهم، فانتشرت الخلافات فيما بينهم وكثرت أعمال السلب والنهب والغطرسة ضد السكان المحليين وطائفة الكراغلة، هاته الأخيرة التي يرجع أول تكتل لها إلى عام 1596م، وذلك حينما حاول خضر باشا الاستنجاد بهم للقضاء على عصيان الإنكشارية، ومنذ ذلك الحين أدرك الإنكشارية خطر الكراغلة عليهم، خاصة وأنهم كانوا يمثلون نسبة لا بأس بها من مكونات الجيش البري، زيادة على ذلك

---

1 - حنيفي هلايلي: المرجع السابق، ص128.

* - خضر باشا حكم على ثلاث فترات من 1589-1592م، من 1595-1596م، من 1599-1603م، نشط الجهاد البحري ضد السفن الأوروبية التي لا ترتبط بمعاهدة مع الجزائر، اتهم بالاختلاس فسجن إلى أن ظهرت براءته، استعان بالأعراب على الجند التركي وثارت عليه فرق الأوجاق فعزله الباب العالي، وقع خلاف بينه وبين فرنسا فهدم مركزها التجاري القديم في القالة وسجن قنصلها، وبعد تدخل من فرنسا لدى الباب العالي صدر حكم بإعدامه، أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص ص 50، 51.

** - أولاد الأتراك من نساء محليات وقد تربوا تربية تختلف عن تربية آبائهم، وحرموا من تقلد المناصب العليا في الجيش والإدارة، إلا في بعض الحالات النادرة، ولم تسند لهم إلا بعض المهام العسكرية البسيطة أو بعض المناصب الإدارية الغير هامة...للاستزادة حول هذا الموضوع ينظر: فارس كعوان: النظام العثماني والفئات الاجتماعية في الجزائر (الكراغلة أنموذجا) 1629-1830، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة،2004-2005، ص ص 44-51.

*** - يتكون من رؤساء جند الإنكشارية والباشا والمفتي والقاضي والكواهي (الكتاب) بالإضافة إلى الآغاوات السابقين، وكان رئيسه في بداية القرن السابع عشر الميلادي هو الباشا وآغا القمريين....، جون وولف: المرجع السابق، ص128.

2 - محمد خير فارس: المرجع السابق، ص60.

3 - جون وولف: المرجع السابق، ص128.

كان أهل البلد سندا لهم لأن أمهاتهم من السكان المحليين، الذين حاولوا الاتحاد معهم من أجل انتزاع بعض الحقوق.

كانت تخوفات الإنكشارية في محلها، خاصة بعد مساندة الكراغلة لخضر باشا سنة 1596م، ومع حلول سنة 1629م تأكدوا من قوتهم، ونظموا تمردا ضد الإنكشارية في محاولة لطردهم من الجزائر، إلا أن رد فعل هؤلاء كان سريعا وحازما، واستطاعوا هزيمة الكراغلة وطردهم من مدينة الجزائر، وإحكام القبضة عليها فيما تفرق الكراغلة عبر العديد من مناطق الوطن.[1]

وفي سنة 1633م ثار الإنكشارية ضد حسين باشا*، لعجزه عن دفع مرتباتهم، فاستغل الكراغلة حالة الفوضى والاضطراب الحاصل في مدينة الجزائر وتسللوا إلى القصبة التي تشرف على المدينة، ودارت معارك عنيفة بين الطرفين، أسفرت في نهايتها عن فرار الكراغلة وعودتهم إلى المناطق التي كانوا يعيشون فيها بعد خروجهم من مدينة الجزائر سنة 1629م[2]، وفي سنة 1659م اندلعت ثورة للدفاع عن حقوق الرياس الذين حرمهم إبراهيم باشا** من المبالغ المالية التي خصصها لهم الباب العالي تعويضا عن خسائرهم في البحر الأدرياتيكي، وقاموا بمهاجمة قصر الباشا وألقوا عليه القبض وأودعوه السجن، وفي هذا الوقت استغل الإنكشارية الفرصة وقاموا بالانقلاب على الرياس ثم استولوا على الحكم، واتفقوا على إسناده للآغا على أن لا تزيد مدة حكمه عن الشهرين.[3]

وقد نتج عن تغيير الأغوات اختلال في السلطة لأنهم كانوا عاجزين عن توفير الاستقرار الداخلي وعرضة لتمرد الرياس أو الإنكشارية أو القبائل[4]، وهكذا بقيت الأوضاع الداخلية مضطربة نتيجة هذه

---

1 – حمدان بن عثمان خوجة: المصدر السابق، ص 154.

* – حكم ما بين 1627-1633م في عهده اشتد الخلاف بين الجزائريين والتونسيين على الحدود جرت معركة (سطارة) قرب مدينة الكاف في ماي 1628م، وعلى إثرها تم تسوية مشكلة الحدود، وعقد معاهدة جديدة مع فرنسا، تم على إثرها تحقيق السلام بين الطرفين بإرجاع المدفعين البرونزيين اللذين سرقهما دنسا واستطاع إخضاع الديوان لسلطته، على إثر ثورة الإنكشارية ضده لاستبداده بالحكم وتهميش الديوان، سجن عام 1633م، واستلم الديوان من جديد زمام السلطة، أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص55.

2 – أرزقي شويتام: المرجع السابق، ص ص 112، 113.

** – حكم خلال الفترة الممتدة من 1656- 1659م، عرفت الجزائر في عهده الاستقرار والهدوء، في عهده ثار الرياس ورجال الديوان ضد الباشا ونظام الثلاث سنوات وأبقوا على منصب الباشا احتراما للسلطان، ولكنهم قرروا أن يتولى الديوان الحكم مباشرة، ويرأس الآغا سنتين فقط ثم يتولى آغا آخر مكانه، وأرسلوا للباب العالي يطلبون الموافقة على هذا النظام، الذي وافق على ذلك، مع شرط عدم تقديم المساعدات المالية لحكام الجزائر الجدد...، أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص88.

3 – يحي بوعزيز: الموجز...، المرجع السابق، ص 42.

4 – حنيفي هلايلي: المرجع السابق، ص129.

الصراعات داخل أجهزة الحكم، وأصبح القتل هو الإجراء الثابت بحق الأغاوات الأربعة* الذين تعاقبوا على الحكم ما بين 1659-1671م، لتستمر الأوضاع على ما هي عليه طيلة هذا القرن الذي عرف صراعا مريرا بين الطائفتين على الحكم.[1]

تميز هذا القرن أيضا بحدوث عدة ثورات وتمردات ضد السلطة الحاكمة بسبب ممارسات الإنكشارية**، وزيادة الضرائب المجحفة بحق السكان، وكان من بين أهم التمردات ما قامت به بعض القبائل بتشجيع من الاسبان في محاولة منها للسيطرة على مدينة الجزائر التي فرضوا عليها حصارا شديدا ، إلا أن الإنكشارية ردوا بحزم واستطاعوا إفشال هذا التمرد والتنكيل بالمتمردين، وكان من نتائجه زيادة الحقد والكراهية بين الطرفين.[2]

أما في البايلكات فقد عمت الفوضى، ففي بايلك الغرب كانت وهران والمرسى الكبير لا زالتا تحت حكم الاحتلال الإسباني، وما زاد الطين بلة محاولة السلطان المغربي مواصلة سياسة أسلافه التوسعية على حساب الأراضي الجزائرية الغربية، إذ شنت القوات المغربية عدة حملات على الجزائر، منها حملتي سنة 1678م و1686م و لم تتوقف هذه الحملات إلا بعد تدخل الدولة العلية عام 1701م، وطلبت من مولاي إسماعيل عدم الاعتداء على الجزائريين[3]، أما في بايلك الشرق فقد استمرت الصراعات الجزائرية التونسية، بسبب الخلافات حول الحدود والمؤامرات التي كانت تحيكها تونس بالتعاون مع المغرب الأقصى ضد الجزائر، ومع اكتشاف الجزائر لهذه المؤامرات زاد التوتر بين الطرفين ،فكانت المواجهات العسكرية في الكثير من المرات هي الحل، ففي سنة 1628م جرت معركة كبيرة سميت بمعركة السطارة، التي حقق فيها الجيش الجزائري انتصارا ساحقا على الجيش التونسي، ليعقد على إثرها صلح بين الطرفين بتدخل عدد من أعيان تونس أوفدهم يوسف باي حاكم تونس.[4]

* - خليل آغا 1659-1660م، رمضان آغا 1660-1661م، شعبان آغا 1661-1665م، علي آغا 1665-1671م، حنيفي هلايلي: المرجع السابق، ص129.

1 - محمد خير فارس: المرجع السابق، ص67.

** - أصبحت الإنكشارية خطرا يهدد السلطة والدولة من ناحيتين الأخلاقية والسياسية، وصار الشعب يعاني الأمرين من ظلمهم وجبروتهم وسطوتهم على الأموال، وهكذا ثار السكان ضدهم...، يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص38.

2 - عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص283.

3 - توفيق دحماني: دراسة في عهد الأمان-القانوني الأساسي السياسي والعسكري للجزائر في العهد العثماني-، دار العثمانية، المدنية، الجزائر، 1430هـ/2009م، ص 15.

4 - محمد خير فارس: المرجع السابق، ص ص 109، 110.

وفي فترة حكم حسن باشا شاوش (1698ـ1700)، وبالضبط سنة 1692م قدم مراد باي[*] -صاحب تونس-وحاصر قسنطينة، إلا أنه لم يفلح في احتلالها، وارتحل إلى مكان يسمى الحجاز الأحمر قرب مدينة سطيف وهناك التقى مع الجيش الجزائري الذي باغته ليلا وكبد الجيش التونسي خسائر فادحة في الأرواح حيث قتل حوالي 6 آلاف جندي تونسي، واضطر على إثر ذلك مراد باي الفرار إلى تونس يجر أذيال الخيبة والأسى.[1]

وفي سنة 1700م حشد مراد باي جيشا كبيرا من التونسيين لغزو قسنطينة واحتلالها، وفي نفس الوقت الرد على هزيمته سنة 1692م، وقد التقى الجيشان التونسي والجزائري بقيادة علي خوجة، الذي تلقى هزيمة وتشتت جيشه واضطر للانسحاب من ميدان المعركة، فاسحا المجال لمراد باي احتلال قسنطينة مدة خمسة أشهر، إلى أن وصله المدد من الجزائر (علي خوجا)، حينها استطاع فك الحصار عن المدينة وطرد مراد باي منها، هذا الأخير الذي اضطر للانسحاب والاستعداد جيدا لمواجهة الجيش الجزائري، ودارت معركة عنيفة بين الطرفين أسفرت عن انهزام الجيش التونسي[2] وفرار مراد باي إلى تونس ومعه 50 جندي فقط، أما بقية الجيش فقد تفرق بين قتيل وأسير، ومجموعة أخرى انضمت إلى الجيش الجزائري.[3]

عرفت الجزائر خلال هذا القرن ازدياد الحملات الأوروبية ضدها، فما تكاد تنتهي حملة حتى تشن عليها أخرى ومن بينها محاولات الإسبان احتلال مدينة الجزائر سنة 1601م، وجيجل سنة 1611م وحملات التوسكانيين وفرسان مالطة سنة 1603م، 1609م، 1647م، والحملات الهولندية المتتالية سنوات 1620م، 1623م، 1624م، 1662م، والحملات الإنجليزية سنوات 1620م، 1655م، 1672م، والحملات الفرنسية سنوات 1663م، 1664م، 1665م، وحملتي دوكين 1682م، 1683م، بالإضافة إلى حملة الماريشال دوستري 1688م.[4]

وفي الأخير يمكننا تلخيص أوضاع الجزائر خلال هذا القرن فيما يلي:

---

* - قال عنه حسين خوجة: «وسار مراد باي سيرة خبيثة وأخذ في قتل النفوس ونهب الأموال وهتك الستور وشرب الخمور، وأفعال الشنائع والفجور، وارتكب كل قبيحة، وقتل الأطفال واستباح المحرمات، وهدم مدينة القيروان وقتل كبارها وعلماءها وسلبهم الدرهم والدينار، وحارب أهل الجزائر...»، حسين خوجة: ذيل بشائر أهل الإيمان في فتوحات آل عثمان، تعليق وتحقيق، الطاهر معموري، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، مصر، 2001م، ص ص 14، 15.

1 - محمد الصالح العنتري: فريدة منيسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها- تاريخ قسنطينة-، مراجعة وتقديم وتعليق، يحي بوعزيز، ط2، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م، ص ص 50، 51.

2 - حسين خوجة: المصدر السابق، ص15.

3 - الحاج أحمد المبارك: تاريخ حاضرة قسنطينة، تصحيح وتعليق، نور الدين عبد القادر، المدرسة العلمية للدراسات العربية، تونس، 1952م، ص12.

4 - يحي بوعزيز: علاقات الجزائر...، المرجع السابق، ص 18.

- صراع داخلي على السلطة بين عدة مكونات داخل الإيالة (الرياس ضد الإنكشارية، الإنكشارية ضد الكراغلة).
- تدهور العلاقات بين الحكام والسكان المحليين نتيجة سوء المعاملة وكثرة الضرائب، مما نتج عنه عدة ثورات وتمردات.
- تكالب أوروبي، واتفاق غير مباشر فيما بينهم على احتلال الجزائر أو الحد من قوتها.
- تآمر تونسي مغربي على الجزائر أثر سلبا على قدرات الجزائر في مواجهة الإسبان والدول الأوروبية.

2- أوضاع إسبانيا

شهدت إسبانيا نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر الميلاديين أزمة خطيرة أثرت على وحدتها السياسية فيما بعد، وكانت بداية هذه الأزمة في عهد فليب الثاني (1556-1598م) ، حيث اندلعت ثورة عارمة شملت جميع الأراضي المنخفضة بسبب إرهاق السكان بالضرائب، وممارسات محاكم التفتيش ضد الذين لا يعتنقون المذهب الكاثوليكي، بلغت الثورة ذروتها سنة 1566م بزعامة وليم أورنج الذي استطاع تنظيم الثوار وإلحاق خسائر فادحة بالإسبان، مما اضطر فليب الثاني لإرسال جيش للقضاء عليها، وقد استطاع هذا الجيش السيطرة على الأوضاع مؤقتا، وذلك باعتقال قادة الثورة وتنفيذ حكم الإعدام بحق الكثير منهم.[1]

وأمام الأوضاع السائدة حاول أورنج الاستعانة بفرنسا هذه الأخيرة التي كانت لها أطماع توسعية على حساب الأراضي المنخفضة، مما اضطر أورنج لصرف النظر عنها وإعلان قرار الانفصال من جانب واحد سنة 1581م، ووضع دستورا ينظم البلاد، وقبل استكمال مشروعه تعرض أورنج للاغتيال على يد أحد الكاثوليك الموالين للإسبان، فخلفه ابنه موريس نساو «Mourisse Nassau » .[2]

بعد تولي موريس نساو الحكم، تمكن وابن عمه وليم من هزم الإسبان في العديد من المعارك، فقاما بتحرير جميع مقطعات الأراضي المنخفضة، بمساعدة ودعم إنجلترا التي زودتهما بالمال والرجال نظرا لوجود عداوة بينهم وبين الإسبان ناتجة عن الصراع بين الطرفين حول مناطق النفوذ والتجارة.[3]

1 - شوقي عطا الله الجمل، عبد الله عبد الرازق إبراهيم: تاريخ أوروبا من النهضة حتى الحرب الباردة، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، مصر، 2000، ص 58.

2 - جلال يحي: أوروبا في العصور الحديثة، ط2، الهيئة العامة للكتاب، الإسكندرية، مصر، 2002، ص482.

3 - شوقي عطا الله الجمل، عبد الله عبد الرزاق إبراهيم: المرجع السابق، ص58.

تمكنت البحرية الهولندية من هزم الإسبان في جبل طارق سنة 1607م، مما اضطرهم إلى التوقيع علـــى هدنة أنتويرب في 09 أفريل 1609م تدوم لمدة 12 عاما بين الطرفين، وبذلك اعترفت إسبانيا باستقلال هولنـــدا فيما بعد وفقدت بذلك جزء مهم من الأراضي التابعة لها.[1]

وبالموازاة مع الأوضاع المضطربة في الأراضي المنخفضة، ونتيجة للاختلافات المذهبية الموجــودة بــين الإسبان الذين يعتنقون المذهب الكاثوليكي، والإنجليز الذين يعتنقون المذهب الأنجلوكاني، بالإضافة إلى الصراع حول مناطق النفوذ داخل أوروبا وفي العالم الجديد، كان هناك صراع بين الإنجليز والإسبان تطور فيما بعد إلى حروب متعددة استطاعت بعدها انجلترا في الأخير إلحاق هزائم عديدة بإسبانيا، الذين اضطروا إلى توقيع صلح معهم سنة 1604م في عهد جيمس الأول.[*2]

وما كادت إسبانيا تنهي مشاكلها مع هولندا أو إنجلترا، حتى دخلت في مواجهات مباشرة مع فرنســا بسبب الحروب الأوروبية، حيث حاولت هذه الأخيرة السيطرة على بعض المقاطعات التي كانت تحت سيطرة الإسبان، وهي: أرثوا وروسيليون وفرانس كونتيه، والألزاس التي كانت من ممتلكات النمسا، وقــد توســعت الحرب بين الطرفين فيما بين 1635-1648م، واستطاعت القوات الإسبانية التوغل داخل فرنسا إلا أن قــوات هذه الأخيرة تمكنت من صدهم، وحدثت معركة فاصلة بين الطرفين على الأراضي المنخفضة بإقليم شمبانيــا في مدينة وركوروا بتاريخ 19 ماي 1643م أسفرت عن انهزام الإسبان وبداية النهاية لتفــوقهم داخــل أوروبــا وإعلان التفوق الفرنسي وبذلك توقف التوسع العسكري الإسباني في أوروبا والعالم ابتداء من هولنــدا الــتي حققت استقلالها بالقوة، وفرنسا التي وصل هنري الرابع إلى عرشها، ومع إنجلترا التي هزمت إسبانيا في الكــثير من المواقع، لتتفق بذلك أوروبا فيما بينها واستطاعت تسوية خلافاتها السياسية والدينية في واستفاليا بتاريخ 24 أكتوبر 1648م.[3]

أما في الجانب الاقتصادي فقد عاشت إسبانيا أوضاعا خطيرة تمثلت في تقلص الإنتاج الزراعي نتيجــة مغادرة الأندلسيين، الذين عرف عنهم الكفاءة والخبرة، اللتان كانتا سببا في ازدهار إســبانيا ســابقا، ولكــن

---

1 - جلال يحي: المرجع السابق، ص482.

*- حين توفيت إليزابيت آخر ملوك تيودور، انتقل الملك في سنة 1603م إلى جيمس السادس ابن ماري ستيوارت ابنة عمة إليزابيت، التي كانت قد أعدمتها هذه الأخيرة، وكان ملك على اسكتلندا، وأصبح ملكا على إنجلترا باسم جيمس الأول، وأصبح أول ملوك ستيورات في إنجلتــرا...، جلال يحي: التاريخ الأوربي الحديث والمعاصر حتى الحرب العالمية الأولى، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصــر، د.س.ط، ص ص 34-35.

2 - جلال يحي: أوروبا في العصور الحديثة...، المرجع السابق ، ص493.

3 - جلال يحي: التاريخ الأوربي الحديث والمعاصر...، المرجع السابق، ص ص 27، 29.

مباشرة بعد مغادرتهم تعطلت المصانع والمزارع، ولم يستطع العمال الإسبان تعويضهم، فأدى ذلك إلى حدوث أزمة في الإنتاج.[1]

عرفت إسبانيا اضطرابات داخلية وخارجية كانت لها انعكاسات مباشرة على علاقاتها مع الجزائر فقد قلت حدة الصراع بين الطرفين خلال هذا القرن، الذي استطاعت فيه الجزائر مواجهة الحملات الأوروبية والإسبانية على قلتها، ونقل المواجهات إلى عرض البحر وحتى إلى السواحل الإسبانية والأوروبية نفسها، إلا أن الإسبان استطاعوا المحافظة على وهران والمرسى الكبير وإبقائهما تحت سيطرتهم.

المبحث الثاني: حملة جيوفاني دوريا على مدينة الجزائر سنة 1010هـ/1601م

1-أسباب الحملة

- حاولت إسبانيا استغلال حالة التراخي التي ميزت الجزائر في هذه الفترة بعد الهدوء النسبي في العلاقات الجزائرية الأوروبية عامة، والجزائرية الإسبانية خاصة، مما طمأن الجزائر من جانب الهجمات الخارجية لذلك توجه الجيش الجزائري إلى المناطق الساحلية والداخلية لجمع الضرائب، أما البحرية الجزائرية فقد توجهت إلى مناطق عدة من أجل مواصلة الجهاد البحري، فاستغل أحد القباطنة الفرنسيين ويدعى روكسن هذه الأوضاع، وقام بإجراء دراسة سريعة لتحصينات مدينة الجزائر*، لأن مدينة وهران والمرسى الكبير الواقعتان تحت السيطرة الإسبانية وأعد خطة للهجوم على مدينة الجزائر التي كانت تعاني من قلة الحراسة، وعرض الخطة على الملك الإسباني الذي وافق عليها.[2]
- الخوف من مساعدة الجزائر للأندلسيين الباقين في إسبانيا، التي كانت تُعد بها ثورة بمساعدة هنري الرابع بالاعتماد على الجزائر، فأرادت إسبانيا إجهاض هذا المشروع المزدوج بين الجزائر وفرنسا

1 - نور الدين حاطوم: الموسوعة التاريخية الحديثة -القرن السابع عشر في أوروبا-، ط1، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1406هـ/1986م، ص 11.

* - الجوسسة: هي صراع من نوع آخر بين إسبانيا من جهة، والدولة العلية والجزائر من جهة ثانية، استعملت فيها جميع الوسائل للحصول على المعلومات، مثل استنطاق الأسرى وبث الجواسيس في المدن الإسبانية والدويلات التابعة لها، وتبادل المعلومات بين الباب العالي وإيالة الجزائر منذ تأسيسها، أما من جانب إسبانيا فاستعملت نفس الطرق زيادة على استعمال قبائل الجهة الغربية للجزائر كجواسيس وعملاء، للاستزادة ينظر، حنيفي هلايلي: "عملاء وجواسيس الإسبان في بايلك الغرب على ضوء كتاب بهجة الناظر"، **مجلة الحوار الفكري**، ع7، جامعة قسنطينة، ذي الحجة 1426/ ديسمبر 2005م، ص ص 143-147؛ أما في يخص التعاون الجزائري العثماني، ينظر: مهمة دفتر، علبة 05، عدد171، 992هـ.

2 - عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 311.

لمساعدة الأندلسيين، وهذا ما يمكننا استنتاجه من خلال التسهيلات التي تلقاها الأندلسيون بفرنسا في عهد هنري الرابع قبل مقتله واتهام الأندلسيين بذلك.[1]

- محاولة إسبانيا استغلال الصراعات الداخلية والفوضى التي كانت تعيشها الجزائر، وما زاد الوضع تأزما الاضطرابات والاقتتال في المناطق الداخلية بين القبائل والمشيخات التي تريد تـزعم بعـض المنـاطق فاضطرت السلطات المركزية لتوجيه حملات لتأديب وإخضاع هذه القبائل، وقد انشغلت السلطة بهذه الأوضاع وتناست الأخطار الخارجية، واحتلال الإسبان لوهران والمرسى الكبير.
- حدوث فتنة داخلية بين السلطة الحاكمة وبعض القبائل المحلية بالغرب الجزائري بتحريض من السـلطة الإسبانية بوهران وبمباركة من الملك الإسباني الذي حاول استغلال هذا القلق والاضطراب الحاصل بين الطرفين، والذي قرر على إثره سليمان باشا توجيه ضربة قاسية لهذه القبائل وإخضاعها لسلطته، فأعد حملة من أجل ذلك، إلا أنه تكبد خسارة فادحة سنة 1009هـ/1600م، ثم عاود الكرة مرة ثانية لكنـه مني بهزيمة أكبر من الأولى بمنطقة جمعة الصهريج، فقد خلالها الكثير من قواته، لذلك حاول الإسـبان استغلال هذه الأحداث لصالحهم من خلال توجيه حملة لاحتلال مدينة الجزائر.[2]
- حاول الإسبان توجيه الرأي العام الإسباني وإبعاده عن المشاكل الداخلية التي كانت تعيشـها الـبلاد حيث عرفت انكماشا اقتصاديا خطيرا أدى إلى حدوث أزمة مالية كبيرة جـدا[3] وإفـلاس الخزينـة العمومية نتيجة الإنفاق الباهظ على الحروب الخارجية المتواصلة، وبذلك ضيعت جـزء كـبيرا مـن مواردها في حروب داخل القارة الأوروبية وخارجها[4]، فتوجب على السلطات الإسبانية توجيه حملة عسكرية خارجية باتجاه الجزائر تُشغل بها الرأي العام الإسباني الداخلي وتلهيه عن المشاكل الداخليـة التي يعانيها، وكذلك الحصول على موارد مالية إضافية تعوض بها خسائرها المادية الناتجة عن الحروب المتواصلة.

1 - محمد خير فارس: المرجع السابق، ص113.
2 - عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص311.
3 - نور الدين حاطوم: المرجع السابق، ص11.
4 - جلال يحي: المرجع السابق، ص 07.

- محاولة استرجاع هيبة الجيش الإسباني التي فُقدت أمام الضربات المتتالية التي تلقاها علي يد الجيوش الأوروبية النظامية مثل الجيش الإنجليزي* والفرنسي، وعلى يد الثوار في الأراضي المنخفضة، لذلك كان لزاما تجهيز حملة عسكرية تكون أمام جيش يكون أقل قوة من الجيوش التي واجهها، فوقع الاختيار على الجيش الجزائري من أجل إعادة الهيبة المفقودة لمحاولة التغطية على العجز الحاصل في المواجهات داخل أوروبا.
- التغطية على فشل السياسة الخارجية الإسبانية في مواجهة القوتين الأوروبيتين المتناميتين فرنسا وإنجلترا هذه الأخيرة التي ما إن استطاعت السيطرة على جبل طارق حتى أصبحت المنافس الرئيسي لإسبانيا في حوض المتوسط وداخل القارة الأوروبية، خاصة في فترة حكم الملكة إليزابيت** ، لذلك أصبحت تدعم الكثير من الحركات الانفصالية التي ظهرت داخل الإمبراطورية الإسبانية مثلما حدث مع ثوار الأراضي المنخفضة[1]، حيث قدمت المساعدات لفائدة الثوار بقيادة موريس نساو، وأمدته بالرجال والأموال نظرا للعداء الحاصل بين إسبانيا وإنجلترا، زاد الطين بلة العداء المستمر بين إسبانيا وفرنسا التي كانت لها أطماع داخل أراضي الإمبراطورية الإسبانية، التي بدأت تظهر بها حركات انفصالية في إيطاليا وحتى في شبه الجزيرة الأيبيرية نفسها والبرتغال التي ضمها فليب الثاني سنة 1580م وكاتالونيا[2] وأمام هذه التحديات والنكسات العسكرية المتتالية في مواجهة القوى الأوروبية، ارتأت إسبانيا التغطية على فشلها أوروبيا، بتوجيه حملة عسكرية ضد مدينة الجزائر لعلها تجلب نصرا يشفع لها أمام المعارضين والرأي العام الإسباني.

* – مثل حملة الأرمادا سنة 1588م التي أمر بها فليب الثاني لغزو إنجلترا وكان أسطول هذه الأخيرة قد تحتم عليه مواجهة هذه الأرمادا على الرغم من أن سفنه الحربية صغيرة الحجم إلا أن امتلاكه لقادة أكفاء مكنه من القيام بهجمات خاطفة وسريعة أربكت الأسطول الإسباني، وألجأته إلى الركون بساحل كالية و لم يستطع مقاومة الهجمات الإنجليزية، التي تميزت بالسرعة في الحركة، فتشتت الأرمادا الإسبانية وانهزمت بعد معركة طاحنة، زاد الطين بلة هبوب عواصف أتت على بقية الأرمادا، و لم ينجوا منها سوى 54 سفينة أصبحت غير قادة على خوض المعارك فيما بعد، وشكلت هذه المعركة بداية النهاية للأسطول الإسباني، واعتبرت انتصارا للبروتستانتية على حساب الكاثوليكية الإسبانية وكان هذا الصراع سياسيا، تجاريا ودينيا بين الطرفين...، عبد العزيز سليمان نوار، محمود محمد جمال الدين: المرجع السابق، ص ص 201، 202.

** – ولدت سنة 1533م واعتلت سدة الحكم وعمرها 25 سنة (سنة 1558-1603م)، وتعتبر المساهم الفعلي في ازدهار إنجلترا خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر، حيث أطلق المؤرخون عليه اسم عصر إليزابيت، وفي عهدها تطورت البحرية الإنجليزية وأصبحت لها سيادة في البحر مما انعكس على البلاد داخليا فازدهرت الحياة الأدبية واتسع النشاط البرلماني وتوطد نهائيا نظام الكنيسة الأنجليكانية، اشتهرت بممارسة الحكم على نطاق واسع واستطاعت توطيد المذهب البروتستاني بإنجلترا، كانت معتدة بنفسها ومعتقدة أن إنجلترا تحتاج إلى حاكم قوي يسيرها ويحافظ على مصالحها، لذلك كان عصرها عصر قوة وتفوق، عرف عنها تأييد البروتستانت بالأراضي المنخفضة، وأيضا عداؤها الشديد لملك إسبانيا فليب الثاني، نفسه، ص ص 199، 200.

1 – نفسه، ص 200.

2 – شوقي عطا الله الجمل، عبد الله عبد الرازق إبراهيم: المرجع السابق، ص 58.

2- تجهيز الحملة الإسبانية

حاولت إسبانيا تجهيز حملة عسكرية كبيرة من أجل السيطرة على مدينة الجزائر نهائيا للتغطية على الفشل العسكري داخل القارة الأوروبية وفي العالم الجديد أمام الضربات المتتالية التي تلقاها أسطولها على يد الأسطول الإنجليزي في عدة معارك، لذلك جهزوا هذه الحملة وكلهم أمل في تحقيق نصرٍ ينسيهم هذه النكسات، فأعدوا أسطولا يتكون من سبعين سفينة حربية من نوع غاليري[1] و 10 آلاف جندي، وأسندت مهمة قيادة هذا الأسطول للأميرال الذي عرف عنه عداؤه الشديد للجزائر وسعيه الدائم للسيطرة عليها وهو جيوفاني دوريا ابن أندريا دوريا الجنوي.[2]

3-خطة الهجوم

حاولت إسبانيا استغلال الأوضاع الداخلية للجزائر، التي تميزت بالفوضى والاضطرابات فقام أحد القباطنة الفرنسيين ويدعى روكسن بإعداد خطة لهجوم مباغت على مدينة الجزائر، وأعد هذه الخطة وعرضها على الملك الإسباني، وكانت على النحو التالي:

- استغلال خروج البحارة للجهاد، والجيش الإنكشاري لتحصيل الضرائب وحينها يتم الدخول إلى المدينة ليلا، وإرسال جيش إسباني ينقسم إلى قسمين، القسم الأول يهاجم الميناء والقسم الثاني لمهاجمة باب البحر، ولقلة الحراس وتشتت الجيش الإنكشاري في تحصيل الضرائب ومواجهة القبائل المتمردة[3] حتى يتمكن روكسن وقواته من السيطرة على القسم السفلي للمدينة وفي نفس وقت الهجوم يستغل الفرصة ويقوم بإطلاق سراح الأسرى المسيحيين البالغ عددهم 25 ألفا[4] لإحداث فوضى بداخل المدينة ومساعدة الجيش المهاجم، حيث يقوم بتسليحهم ويطلب منهم مهاجمة مخازن الأسلحة والمؤن وإتلاف ما أمكن إتلافه وإشعال النيران في المخازن لإحراقها وإرباك الجيش والسكان، وأمام هذه الفوضى والارتباك تقوم القوات الإسبانية بمهاجمة المدينة والانقضاض عليها وقصفها بشدة حتى الفجر، حيث تكون المدينة قد خلت نهائيا من جميع القوات الجزائرية التي باستطاعتها الدفاع عنها.[5]

---

1 - *Belhamissi (M), op.cit, p29.*

2 - *Conestaggio (J), op.cit, p4.*

3 – محمة عائشة: الأسرى الأوروبيون في مدينة الجزائر ودورهم في العلاقات بين الجزائر ودول الحوض الغربي للمتوسط خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر للميلاد، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ، المركز الجامعي، غرداية، 1432-1433هـ/2011-2012م، ص 96.

4 - *Belhamissi (M), op.cit, p29.*

5 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص ص 311، 312.

4-سير الحملة ونتائجها

أ-سير الحملة

بعد دراسة هذه الخطة من طرف المجلس الملكي الإسباني ومشاورات طويلة وافق عليها، وأسندت قيادة الأسطول إلى جيوفاني دوريا الذي كان يرى أن هذه الخطة لا تجدي نفعا مع الجزائر التي حاول آباؤه ومنهم والده أندريا دوريا والملك شارلكان السيطرة عليها وتدميرها إلا أنهم فشلوا جميعا، نتيجة لتحصيناتها المنيعة وقوة جيشها وتماسكه، بالإضافة إلى الدفاع المستميت الذي كان يبديه السكان المحليون في الدفاع عن بلادهم في كل مرة تتعرض فيها للهجمات الإسبانية، لذلك حاول اختلاق العديد من الأسباب والعراقيل للتهرب من تنفيذ هذا المشروع، وأخذ في تعديله حتى يتلاءم وما كان يخطط له، وهو المبادرة بالهجوم المباشر وتدمير المدينة والقضاء نهائيا على قدرات جيشها خاصة البحري منه الذي كان يشكل الخطر المباشر على الإسبان، لذلك اضطر المجلس الملكي للموافقة على الخطة الجديدة وبدأ يعد لحملة سرية كبيرة، بمساعدة جيوش سردينيا صقلية، القوات البابوية، قوات جنوة[1]، توسكانيا، جزر البليار ونابولي.[2]

وبتاريخ 16 أوت 1601م خرج جيوفاني دوريا على رأس الأسطول الإسباني باتجاه مدينة الجزائر ولعله أخذ العبرة من قادة الأسطول السابقين وملوكهم، حيث خرج هذه المرة في شهر أوت ولم يؤخر الحملة إلى الشتاء كما فعل شارلكان الذي مني بهزيمة نكراء على أسوار مدينة الجزائر سنة 1541م، وقد دعا جيوفاني دوريا الأمم المسيحية للمشاركة في هذه الحملة باعتبارها حملة مقدسة يجب تنفيذها ضد "الشياطين"، كما كان يرى أنه من واجبه تنفيذ هذه المهمة وإنجاحها مهما كانت الظروف، وعدم تكرار فشل والده، وفي حالة فشله هو أيضا يجب على أولاده مواصلة المهمة حتى يتم الانتقام من الجزائريين والسيطرة على مدينتهم.[3]

أعد جيوفاني دوريا خطة بديلة للسيطرة على مدينة الجزائر، حيث رأى أن يهاجم الميناء سرا ويشعل النار في جميع السفن الراسية به، وذلك بواسطة المتفجرات لمفاجأة الجزائريين وإحداث الفوضى والهلع بداخلهم وفي غمرة هذه الفوضى والاضطرابات تقوم قواته بتحرير الأسرى المسيحيين، الذين سيكونون عونا لقواته في إتمام مهمتها للسيطرة على المدينة، إلا أنه تفاجأ هو نفسه بقوة تحصينات المدينة والتي ستحول حتما دون احتلالها.[4]

---

1 - *Grammont (H. de), op.cit, pp10, 11.*

2 - يحي بوعزيز: مراسلات...، المرجع السابق، ص17.

3 - محمة عائشة: المرجع السابق، ص97.

4 - محمة عائشة: المرجع السابق، ص97.

علم الجزائريون بخبر هذه الحملة فسارعوا في أخذ الاحتياطات اللازمة لمواجهتها والتصدي لها وردهـا خائبة كما فعلوا بسابقيها منذ سنة 1519م، وصادف ذلك إنهاء القوات المكلفة بجمع الضرائب من السكان العودة إلى مدينة الجزائر، بالإضافة إلى أن هذا الوقت كان موسما لهبوب العواصف، لذلك كان من الصعب إنزال القوات الإسبانية على البر.[1]

وأمام هذه الصعوبات والاستعداد الجيد للجزائريين، قرر جيوفاني دوريا عدم المغامرة بقواته والزج بها في معركة خاسرة منذ بدايتها، ولذلك أمر قواته بالانسحاب فعاد الأسطول يجر أذيال الخيبة دون أن يحقق شيئا من أهدافه التي انطلقت الحملة من أجلها، وبذلك تحملت إسبانيا مصاريف باهظة نتيجة لقيامها بحملة فاشلة[2] حاول جيوفاني أن لا يقوم بها منذ البداية، إلا أن إصرار السلطات الإسبانية على تنفيذها أرغمه على ذلك، لعله يأتي بمجد لنفسه ولبلده، لكنه فشل كسابقيه وبقيت مدينة الجزائر الحصن المنيع الذي لم تستطع إسبانيا اختراقه أو السيطرة عليه.

ب- نتائج الحملة

- فشل ذريع لهذه الحملة التي لم تستطع حتى مهاجمة المدينة، و لم تحقق أي نتيجة تذكر، وبذلك أكدت قوة الجزائر ومقولة الجزائر المحروسة، التي لم تستطع إسبانيا إخضاعها منذ تحريرها نهائيا سنة 1529م.[3]
- تكبدت الخزينة الإسبانية خسائر فادحة جراء فشل هذه الحملة التي خصصت لها أموال ضخمة لإنجاحها، ومن ثم الاستفادة من خيرات الجزائر وتعويض الأموال التي صرفت على الحملة.[4][*]
- زاد فشل هذه الحملة من مهابة الجزائر ومكانتها المرموقة لدى الدول الأوروبية عامة وإسبانية خاصة التي تأكدت نهائيا أنها لا تستطيع احتلال مدينة الجزائر.
- ساد إسبانيا والطبقة الحاكمة خصوصا حزن شديد جراء فشل الحملة، التي كانوا يريدون منها تعويض خسائرهم داخل أوروبا والعالم الجديد.
- عمت الأفراح بالجزائر نتيجة لانسحاب الأسطول الإسباني وعدم تعرضه للمدينة التي لم تسجل بها أية خسائر، حيث فشل الإسبان في النزول على البر.[5]

1 - عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص212.
2 - محمة عائشة: المرجع السابق، ص98.
3 - يحي بوعزيز: الموجز...، المرجع السابق، ص36.
4 - عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص212.
* - لم نجد في المصادر والمراجع التي اطلعنا عليها أي إشارة إلى المبالغ التي صرفت على هذه الحملة.
5 - محمد خير فارس: المرجع السابق، ص 113.

- قيام الجزائر بحملة انتقامية من الدويلات الإيطالية التي ساعدت إسبانيا، فقامت السفن الجزائرية بالهجوم على السواحل الإيطالية ودمرت ما فيها من السفن وعادت سالمة إلى قواعدها.[1]

ج – الأسباب التي أدت إلى فشل الحملة

- التردد الذي تميزت به القيادة الإسبانية، ففي البداية وافق المجلس الملكي على خطة روكسن، ثم استطاع جيوفاني دوريا إقناع المجلس بعدم جدوى هذه الخطة، لتتغير مرة ثانية وتصبح خطة هجومية ولكنها لم تُنفذ وبقيت مجرد مشروع على الرغم من تجهيز حملة ضخمة اتجهت إلى مدينة الجزائر و لم تستطع الهجوم عليها أو النزول على البر، نظرا لتخوف الإسبان من تكرار الفشل السابق وتكبدهم لخسائر بشرية تذكرهم بما حدث لشارلكان، بالإضافة إلى أن الحملة كانت في موسم هبوب العواصف.[2]*
- عودة الجيش إلى مدينة الجزائر الذي كان منشغلا بجمع الضرائب وتأديب القبائل المتمردة، مما جعل الإسبان يتخوفون من تلقي هزيمة جديدة ولذلك قرروا الانسحاب.
- قوة تحصينات مدينة الجزائر حالت دون اجتياز الجيش الإسباني لها، وكانت هذه الحصون سدا منيعا في مواجهتهم، وحالت دون احتلالهم للمدينة.
- انتشار خبر الحملة لدى الجزائر لذلك أمرت قيادة الجيش بعودته إلى المدينة استعدادا لمواجهة الحملة والتصدي لها وهذا دليل على نشاط الجوسسة الجزائرية وقوتها آنذاك.
- الاستعداد الجيد للجزائريين قيادة وسكانا، واتخاذهم جميع الاحتياطات اللازمة لمواجهة هذه الحملة.[3]

---

1 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص312.

2 – نفسه.

* – يمكننا مخالفة هذا الرأي لأن شهر أوت هو عز الصيف في مدينة الجزائر و لم تشتهر بكثرة العواصف في فصل الصيف، لأن موسم العواصف يبدأ في شهر أكتوبر، وحتى المؤرخ قال بأنه بداية لموسم العواصف و لم يقل بأن العواصف قد هبت ومنعت نزول القوات الإسبانية، وربما أن خوف دوريا على نفسه وقواته من الجيش الجزائري هو الذي جعله يفر ويحاول إيجاد المبررات لذلك، لأن الواقع أثبت أن كل الحملات الفاشلة كانت في فصل الخريف وليس الصيف، وربما خوف دوريا من تكرار الفشل وتكبده خسائر مادية وبشرية هو الذي جعله ينسحب.

3 – محمة عائشة: المرجع السابق، ص97.

المبحث الثالث: حملة الأب بيرماثيو على مدينة الجزائر سنة 1012هـ/1603م

1– أسباب الحملة

- لم تتقبل السلطات الإسبانية فشل حملة جيوفاني دوريا على مدينة الجزائر سنة 1601م، لذلك قررت كعادتها تجهيز حملة جديدة تُنسيها فشل الحملة السابقة.
- محاولة إسبانيا استغلال حالة التوتر والصراع الحاصل داخل الجزائر ممثلا في إمارة كوكو، وهي منطقة وعرة يقوم بحراستها السكان المحليون من بربر وعرب، قريبة من مدينة الجزائر التي حاول حكامها إخضاع الإمارة فتوترت العلاقة بين الطرفين، فلما علم الإسبان عن طريق جواسيسهم بهذا التوتر أردوا استغلال هذه الظروف والقيام بهجوم على مدينة الجزائر.[1]
- الدور الكبير الذي لعبه بيرماثيو للقيام بهذه الحملة، حيث كان له الدور الرئيسي فيها وذلك راجع للعلاقة التي ربطها مع الرياس أثناء وقوعه في الأسر، بالإضافة إلى علاقته المتميزة مع أمير إمارة كوكو الذي مكث عنده مدة طويلة، فنقل أخبارا للإسبان عن استعداد الأمير لمساعدة الإسبان في حالة الهجوم على الجزائر.
- ظن الإسبان أن التمرد الداخلي لإمارة كوكو سوف يسهل عليهم مهمة السيطرة على مدينة الجزائر التي سوف يتوزع جيشها بين مواجهة القوات الإسبانية في الخارج ومواجهة تمرد إمارة كوكو، التي اعتقد أميرها أن تحالف القوتين ضد الجيش الجزائري سوف يؤدي إلى هزيمته[2] (الجيش الجزائري).

2–خطة الهجوم

بعد سنتين من فشل الحملة الأولى وبالضبط سنة 1012هـ/1603م قرر أحد القساوسة الفراسيسكان* ويدعى بيرماثيو إقناع والي جزيرة ميورقة بإعداد حملة عسكرية على مدينة الجزائر للسيطرة عليها وإخضاعها وذلك لمعرفة بيرماثيو بالحالة العامة للجزائر وجغرافيتها، لأنه كان أسير لمدة طويلة عند سلطان إمارة كوكو حيث عرف المنطقة وتعلم عاداتها وتقاليدها ولغتها، بل أكثر من ذلك كانت له مكانة مميزة لدى أميرها وعلى الرغم من إطلاق سراحه وعودته إلى إسبانيا إلا أن علاقاته المتميزة استمرت مع سلطان إمارة كوكو، هذا

---

1 - *Pierre (Dan), Histoire de Barbarie et de Ses Corsaires, Seconde Edition, Paris, 1646, p114.*

2 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص ص 212، 213.

* – أحد التنظيمات الدينية أسسه القديس الفرنسي فرانسوا دي أسس "François d'Assisse" سنة 1206م، والذي عاش ما بين 1182-1226م وكان محاطا بالكثير من الموريدين والأتباع منهم تنظيم الإخوة مينور (1209م) تنظيمات السيدات الفقيرات (1212م)، وعمل طيلة حياته على التبشير بالدين المسيحي خاصة في أواسط المسلمين، حيث عرف عنه سفره إلى المغرب ومصر من أجل نشر الدين المسيحي...، محمة عائشة: المرجع السابق، ص98.

الأخير الذي وعد بيرماثيو بإعطاء الإسبان بعض الحاميات للإقامة بها واستعمالها في الهجوم على مدينة الجزائر في حالة قرر الإسبان مهاجمتها، وأكثر من ذلك وعدهم بإعطائهم قلعة صغيرة يحتمون بها ويتخذونها كقاعدة للهجوم لاعتقاده أنه بالتعاون مع الإسبان يستطيع مواجهة القوات النظامية الجزائرية.[1]

اتفق الأب بيرماثو مع أمير إمارة كوكو أن يتم إنزال القوات الإسبانية في مرسى الفحم الذي ادعى الأب ماثيو أن الرياس أبدوا له استعدادهم للتخلي عنه لصالح القوات الإسبانية المهاجمة[2]، فيما يتم إنزال السلاح بإحدى الحصون الصغيرة بأزفون، كما أن عبد الله ابن أخ سلطان إمارة كوكو قَبِلَ التنازل عن الاستحكام مقابل 50 ألف إيكو*، وكضمان لذلك قبل بتقديم ابنه كرهينة لضمان تعاونه[3]، وما إن علم حاكم ميروقة بهذه الخطة حتى أظهر استعداداه لتنفيذها وتقديم كامل المساعدات اللازمة لإنجاحها.[4]

3-سير الحملة

بدأت الاستعدادات في تنفيذ الخطة وتم الاتفاق على المكان الذي سوف ينفذ منه الهجوم، ولسوء حظ الإسبان فقد علم الباشا محمد قوصة (1603-1605م) والديوان في الجزائر بخبر هذه الحملة الجديدة التي كانت تستهدف مدينة الجزائر، لذلك أسرع الباشا بإرسال مجموعة كبيرة من الإنكشارية إلى المنطقة لمحاصرتها والتضييق عليها[5]، وعدم ترك أي منفذ يمكن استغلاله من طرف الإسبان للدخول إلى المنطقة، وللتأكد من هذه المؤامرة قام الجواسيس الجزائريون بمراقبة الأب بيرماثيو، فلاحظوا تردده وتقربه من الرياس، وعندما بلغ حسن قوصة بهذه التحركات قام باستدعاء الأب بيار ماثيو وحذره وهدده بالقتل، وأمام هذه التهديدات واكتشاف المؤامرة تظاهر ماثيو للسلطان بالانسحاب من ترتيب الخطة.[6]

ولإفشال هذه الخطة نهائيا وكشف خباياها، أنذر الباشا عبد الله ابن أخ سلطان إمارة كوكو ثم حاول بعدها استعمال اللّين معه لكسبه لصالحه وعرض عليه مبلغا من المال قدره 50 سلطاني، إذا استطاع أن يأسر أو

1- *Pierre (D), op.cit, p115.*

2 - عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 313.

* -إيكو "Ecu" أطلق هذا الاسم على الترس الفرنسي خلال العصور الوسطى، ثم اتخذ اسم لنوع من العملة القديمة، وكان يحمل على أحد وجهيه صورة ترس تحمل شعار فرنسا، وقد ضربت أول عملة منه بالذهب في عهد القديس لويس ملك فرنسا وذلك أثناء الحروب الصليبية...، عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص313.

3 - *Pierre (D), op.cit, p114.*

4 - عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 313.

5 - *Pierre (D), op.cit, pp 114, 115.*

6 - عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص313.

يأتي بكل رأس جندي إسباني يشارك في هذه الحملة و 200 سلطاني مقابل رأس الأب ماثيو المحرض الرئيسي على هذه الحملة.[1]

على الرغم من التهديدات التي تلقاها الأب ماثيو إلا أنه اتصل سرا بحاكم ميروقة وحصل منه على مبلغ مالي قدره 50 ألف إيكو وأربع غاليوطات تحمل على متنها 100 جندي بقيادة نائب حاكم ميروقة[2] وفي اليوم المتفق عليه، ولما وصلت السفن المهاجمة اتجه بها الأب ماثيو إلى المكان المتفق عليه، فوجد عبد الله في انتظاره، وكان يرافقه عدد من الأهالي الذين تظاهروا بالسرور والفرحة بهذه الحملة.[3]

استقبل عبد الله على البر الأب ماثيو مع 80 رجلا من القوة المهاجمة، وحسب الاتفاق المبرم بين الرجلين، والذي يقضي بتسليم الأموال لعبد الله أولا، ثم يقوم هذا الأخير بتسليم ابنه كرهينة للإسبان، وبعدها يقوم بإخلاء الاستحكام وتركه للإسبان للإقامة به، وعندما سأل الأب ماثيو عن ابن عبد الله أجابه بأنه في الاستحكام في انتظار تنفيذ الاتفاق السابق بينهما، إلا أن الأب ماثيو شك في وجود مؤامرة تحاك ضده وضد من معه فحاول الانسحاب بهدوء وعدم المغامرة في تنفيذ الخطة، وأخذ في كسب الوقت بالمماطلة في الحديث فأدرك عبد الله ومن معه من السكان مقصد الأب ماثيو، وبعدما سئموا من الانتظار فقاموا بالهجوم على الأب ومن معه من الجنود وقطعوا رؤوسهم وأرسلوها إلى باشا الجزائر كدليل حسن نية ووفاء له، أما قادة السفن الإسبان فلما طال انتظارهم أكثر من الوقت المتفق عليه أدركوا أن الأب ماثيو والجنود المرافقين له ذهبوا ضحية لخطة مضادة نفذتها القوات الجزائرية المدافعة، فقرروا الانسحاب عائدين إلى ميروقة مفضلين النجاة بأنفسهم.[4]
بأنفسهم.[4]

على الرغم من إدراك نائب ملك ميروقة بحجم المأساة التي لحقت بالأب ماثيو ومن معه إلا أنه ومع كثرة أعداد القوات الجزائرية وعدم قدرته على مواجهتها والتغلب عليها أعطى أوامره للسفن الإسبانية للإقلاع بسرعة[5]، أما عبد الله فإنه توجه إلى مدينة الجزائر حاملا معه رؤوس الإسبان وفي مقدمتهم رأس الأب ماثيو من من أجل الحصول على المال الذي وعده به الباشا، والذي بدل أن يفي بوعده وبّخ عبد الله بدعوى أنه كان

1 - Pierre (D), op.cit, pp 114,115.
2- Ibid, p115.

3 – محمة عائشة: المرجع السابق، ص99.
4 – عزيز سامح ألتر: المرج السابق، ص 313.
5 – محمة عائشة: المرجع السابق، ص99.

بإمكانه أسرهم بدل قتلهم جمعيا، لأن السلطات الإسبانية سوف تسعى لافتدائهم ودفع أموال كبيرة من أجل ذلك.[1]

4-نتائج الحملة

- اكتشاف مخطط الأب ماثيو وفشل الإسبان مرة أخرى في احتلال مدينة الجزائر.[2]
- تغيير الإسبان لأسلوبهم العسكري في مواجهة الجزائر، فبعد الانتكاسات العسكرية المتتالية وصمود الجزائريين وإلحاقهم لهزائم متتالية بالجيوش الإسبانية المهاجمة، حاول الإسبان تغيير أسلوب المواجهة والذي كان يعتمد على الهجوم بأكبر قدر من القوات والمواجهة العسكرية المباشرة مع الجزائر فتغيرت هذه المرة طرق المواجهة حيث أصبح الاعتماد على المؤامرات الداخلية، محاولة منهم لضرب الجزائر من الداخل وذلك بشراء ذمم سلطان إمارة كوكو وابن أخيه عبد الله.[3]
- فشل الإسبان في إحداث القطيعة بين نظام الحكم في الجزائر وإمارة كوكو، التي أراد الإسبان أن تكون العامل الأساسي هذه المرة في احتلال الجزائر، إلا أن اليقظة التي تحلى بها سليمان باشا أدت إلى اكتشاف المؤامرة، وهو دليل على قوة الجوسسة الجزائرية في مواجهة مخططات الإسبان الرامية لاحتلال مدينة الجزائر وإحداث القطيعة بين أبناء المنطقة الواحدة، وذلك بتعاون الإسبان مع سلطان إمارة كوكو في مواجهة القوات الجزائرية.[4]
- فشل الجوسسة الإسبانية في تنفيذ مخططاتها وانكشاف مؤامراتها الرامية لإيقاع البلبلة داخليا بالجزائر ومن ثم تسهيل الهجوم العسكري واحتلال المدينة.
- التعاون الواضح بين مكونات المجتمع الإسباني في مواجهة الجزائر، فحتى رجال الدين المسيحيون كان لهم دور بارز كما في المرات السابقة، لكن هذه المرة كان الأمر واضحا وهو دليل قوي على وجود حرب دينية بين الطرفين، فبالنسبة للجزائريين فهو جهاد ضد الكافر الذي يريد احتلال مدينتهم، وأما بالنسبة للإسبان فهي حرب مقدسة ضد أعداء الدين المسيحي والإمبراطورية المقدسة.[5]
- لعب الأندلسيون الموريسكيون دورا بارزا في بداية هذا القرن في مواجهة الإسبان خاصة في الحملة الأولى سنة 1601م وحملة الأب بير ماثيو رفقة السكان المحليين خاصة وأن الأندلسيين مازالوا ناقمين

1- Pierre (D), op.cit, p116.

2 – يحي بوعزيز: علاقات الجزائر...، المرجع السابق، ص61.

3 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص313.

4 – جون وولف: المرجع السابق، ص239.

5 - Pierre (D), op.cit, pp114,115.

على الإسبان ويتذكرون جيدا وحشيتهم عندما نزلوا على سواحل الجزائر ومآسي دواوين التفتيش لذلك كانوا مقتنعين أن إسبانيا هي العدو الأساسي للجزائر.

- خسر الإسبان حوالي 80 جندي وعلى رأسهم الأب ماثيو، الذي ذهب ضحية تعصبه الديني وطموحه الشخصي وخدمة لمصالح وطنه، دون أن يراعي معطيات أخرى في لعبة الصراع بين الطرفين، مثل قوة الجوسسة الجزائرية واحترام الرياس لدينهم ومصالح وطنهم، وقد أخذت رؤوس الجنود الإسبان إلى مدينة الجزائر وطيف بها في أرجاء المدينة ثم علقت على أسوارها، نكاية بالإسبان وتحذيرا لكل من تسول له نفسه خيانة الجزائر ومحاولة ضرب استقرارها من الداخل، وهذا الأمر حدث لأول مرة منذ بداية الصراع بين الطرفين.[1]

ما يمكننا استخلاصه أنه على الرغم من فتور الصراع في بداية القرن السابع عشر ميلادي، إلا أن الجزائريين بقوا يقظين لكل المخططات الإسبانية الرامية لاحتلال مدينتهم، وقد لعبت الجوسسة الجزائرية دورا بارزا في اكتشاف هذه المخططات التي اعتمدت هذه المرة على رجل دين من أجل تنفيذ مهمة عجز عن تنفيذها رجال عسكريين أكفاء طوال مدة قاربت قرنا من الزمن.

إلا أن فشل هذه الحملة أكد للإسبان أن مدينة الجزائر المحروسة لا يمكنها الخضوع لهم مرة أخرى ولذلك سنلاحظ خلال بقية القرن السابع عشر والنصف الأول من القرن الثامن عشر الميلاديين، عدم تسجيل أي محاولة لاحتلال المدينة، وانتقال الدور في هذه الفترة إلى الإمارات الإيطالية التابعة للإمبراطورية المقدسة، للقيام بالمهمة التي عجز عنها الإسبان، ولا يمكننا بأي حال من الأحوال فصل هذه المحاولات عن المحاولات الإسبانية للارتباط الوثيق بين الطرفين سواء فيما يخص التبعية للإمبراطورية المقدسة أو العامل الأساسي المشترك بينهما وهي الكنيسة الكاثوليكية بروما المحرض الأول على مهاجمة الجزائر، لأن جل الهجمات التي شاركت فيها الدويلات الإيطالية كانت بتحريض من الكنيسة.

المبحث الرابع: حملة التوسكان وفرسان مالطة على الجزائر ومحاولة تحرير وهران (1603–1609م)

ارتبطت الدويلات الإيطالية بإسبانيا ارتباطا وثيقا، هذه الأخيرة التي كانت تمثل الإمبراطورية الرومانية المقدسة والممثل الرسمي لها منذ أن هزم الإمبراطور شارلكان خصمه ومنافسه الأول على الدويلات الإيطالية فرانسوا الأول وأخذه أسيرا إلى مدريد سنة 1525م، وإمضائه معاهدة معه تم بموجبها تنازله عن الادعاء بحقه في

1 – جون وولف: المرجع السابق، ص ص 243، 244.

الدويلات الإيطالية مقابل إطلاق سراحه[1]، وقد كان الملك الإسباني ينال التزكية والمباركة من طرف البابا بروما كحام للمذهب الكاثوليكي والإمبراطورية الرومانية المقدسة، بالإضافة إلى أن الكنيسة كان لها دورٌ رئيسيٌ في توجيه السياسة الخارجية لإسبانيا، خاصة فيما يخص علاقاتها بالبلاد الإسلامية عامة والجزائرية خاصة والتي كانت تمثل العقبة الرئيسية في مواجهة التوسعات الإسبانية في البحر الأبيض المتوسط وبلاد المغرب.

تميزت علاقات الإمارات الإيطالية وإسبانيا خلال القرن السابع عشر ميلادي بالتبعية داخليا، أما خارجيا فكان هناك نوع من الاستقلالية، إلا أنهما يتفقان تماما عندما يتعلق الأمر بعلاقاتهما مع الجزائر، حيث كانا يعتبرانها مركز القرصنة الأساسي ومهددا رئيسيا لمصالحهما في الحوض الغربي للمتوسط، لذلك ما كانت تعلن إسبانيا عن حملة ضد الجزائر إلا وسارعت هذه الدويلات للمشاركة فيها مثلما حدث سنة 1601م.[2]

وكان العامل المشترك الذي يربط إسبانيا والدويلات الإيطالية الكنيسة الكاثوليكية بروما[*]، التي كانت تحاول دائما أن يبقى التحالف قائما بين الطرفين خدمة للدين المسيحي وشعوب أوروبا، ومنه نستطيع القول أن بعض الدويلات الإيطالية لعبت دورا مهما ومكملا للدور الإسباني في مواجهة الجزائر، وبالمقابل كانت الجزائر تهاجم السواحل الإيطالية انتقاما من هذا التعاون الحاصل بين الطرفين، وتحاول دائما مهاجمة هذه الدويلات في عقر دارها لإضعافها والانفراد بكل دولة على حدى، حتى لا تعطيهم فرصة ليتم هجوما مشتركا ضدها، كما كان في السابق، وهذه استراتيجية جديدة اتبعتها الجزائر في مواجهة التحالفات الأوروبية، هذا وقد عرف القرن السابع عشر مبادرة الجزائر بالهجوم في البحر بدل الانتظار والترقب الذي كان يميزها في القرن السادس عشر ميلادي.

1- حملة دوق توسكانيا على مدينة الجزائر سنة 1012هـ/1603م

بعدما استلم خضر باشا (1599-1603م) زمام الأمور بإيالة الجزائر للمرة الثالثة أعطى الحرية المطلقة للرياس لتوسيع نشاطهم في البحر المتوسط، وتتبع سفن الأعداء، فأخذ الرياس في مهاجمة السفن الأوروبية في كامل المتوسط فكانوا عادة ما يغنمون الكثير من السفن وما تحمله من أمتعة، ويأسرون من كان فيها من

1 - الآغا بن عودة المزاري: المصدر السابق، ج2، ص ص 64، 65.

2 - يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص17.

* - حدث صراع ديني داخل أوروبا مع نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر الميلاديين، انقسمت على إثره أوروبا إلى قسمان، قسم تتزعمه إسبانيا التي تمثل المذهب الكاثوليكي، وقسم تتزعمه إنجلترا التي تمثل المذهب البروتستاني أدت في النهاية إلى حروب بين الطرفين كانت لها عواقب وخيمة على أوروبا خاصة على إسبانيا التي خسرت الكثير من المواقع لصالح إنجلترا وفرنسا مثل انتصار المذهب البروتستاني في الأراضي المنخفضة... .

أشخاص، إلا من كان بينهم وبين الجزائر اتفاقية تمنع ذلك، ولذلك بلغ الجهاد الجزائري أوج ازدهاره في هذه الفترة بفضل تشجيع خضر باشا.[1]

صادف ذات مرة الرياس الجزائريين إحدى السفن التوسكانية، كان دوق توسكانيا الكبير فرديناند الأول (1587-1609م) قد أرسلها إلى التجار الفرنسيين تعويضا لهم عن بعض الخسائر التي لحقت بتجارتهم فاستولى عليها الرياس، وغنموا مبلغا من المال يقدر بـ 6 آلاف سكين، ولما علم الدوق بهذه الحادثة، عزم على تجهيز حملة على الجزائر يتم من خلالها حرق الميناء والسفن الراسية فيه.[2*]

ولما علم الرياس بما عزم عليه الدوق عن طريق اليهود الذين كانوا يشترون من الرياس الأشياء التي يغنمونها بأسعار رخيصة، ويعيدون بيعها بأسعار مرتفعة محققين من وراء ذلك أرباحا طائلة، ولذلك كانت علاقتهم مع الرياس حسنة يميزها التعاون الوثيق بين الطرفين خدمة لمصلحة كل طرف، ومن بين هؤلاء يهود ليفورن الذين كانوا على علم بمخططات دوق توسكانيا، فقاموا بإخبار الرياس، فاتخذت السلطات الجزائرية جميع الاحتياطات اللازمة لمواجهة هذه الحملة، ولما هاجم التوسكانيين الجزائر لم يتمكنُوا إلا من إحراق بعض السفن الخفيفة قدرتها بعض المصادر الأجنبية بـ 4 أو 5 سفن.[3]

لم تستطع الحملة التوسكانية تحقيق أي إنجاز يستحق الذكر، لأن نشاط الجوسسة الجزائرية كان له دور بارز في إفشال هذه الحملة الرامية للقضاء على نشاط البحرية الجزائرية في المتوسط، وقد استطاع الرياس استغلال علاقاتهم التجارية باليهود لمصلحة الجزائر، خاصة وأن اليهود عرف عنهم حبهم للربح المادي ولا يهمهم مصالح الدول التي يعيشون فيها.[**]

2-محاولة تحرير وهران الأولى سنة 1606م

شكلت قضية احتلال مدينتي وهران والمرسى الكبير الشغل الشاغل لحكام الإيالة الجزائرية وأكبر اهتماماتهم، التي كانت تشكل عائقا أمام إكمال وحدة الجزائر، وبذلك أصبحت تشكل الهاجس الأكبر

1 - عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص315.

2 - محمة عائشة: المرجع السابق، ص101.

*- أمر السلطان العثماني بتعويض الفرنسيين عن الخسائر التي لحقت بهم جراء هذا العمل ضد تجارتهم، لذلك أرسلت السلطات الجزائرية مبلغ 600 قطعة نقدية إلى فرنسا كتعويض عن الخسائر، لكن بعض الرياس استولوا على السفينة التي تحمل النقود، ولذلك قام الملك الفرنسي هنري الرابع بإعلام السلطان العثماني باعتداءات الرياس، واتهم خضر باشا بالوقوف وراء هذا العمل وكرهه للفرنسيين، لذلك أمر السلطان العثماني بإعدام خضر باشا وتعويضه بقوسة محمد باشا كحاكم للجزائر، وقد حكم هذا الأخير ما بين (1604-1606م)...، عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص315.

3 - *Grammont (H.de), op.cit, pp10, 11.*

** - كانت الجزائر إحدى الضحايا لمؤامرات اليهود ودسائسهم فيما بعد سنة 1830م، فقد تعاون اليهود مع الفرنسيين ضد الجزائر على الرغم من استفادتهم من خيراتها والخدمات الكبيرة التي قدمها حكامها لهم.

للسكان والحكام على حد سواء، فتم التفكير في نقل عاصمة بايلك الغرب من مازونة إلى معسكر ليكون قريبا من الإسبان[1]، حتى يسهل مهاجمتهم ومحاصرتهم وجرهم إلى حرب استتراف طويلة الأمد، تنهك قدرتهم العسكرية والاقتصادية، وتحول بينهم وبين القبائل المتعاونة معهم، هذه الأخيرة التي استطاع الجزائريون إنهاك قواها وعزلها عن المحتل الإسباني.[2]

ولما تولى مصطفى باشا (1606-1607م) الحكم، عمل على تقوية الحصون وزاد بناء الاستحكامات بمدينة الجزائر تحسبا من شن الإسبان لأي هجوم مفاجئ، ولما أمَّن المدينة قرر توجيه حملة عسكرية لتحرير وهران سنة 1015هـ/1606م يؤازره في ذلك السكان المحليون والجنود والمتطوعون فرحا بهذا القرار، لأن مدينة وهران ظلت لكثير من الوقت خارج اهتمامات الحكام الذين لم يوجهُوا لها أية حملة عسكرية لتحريرها[3]، وانتظروا إلى غاية أن طلب السكان المقيمون بجوارها النجدة يشتكون من ظلم الإسبان وجورهم ومن غارات القبائل المتعاونة معهم، وفي ذلك يقول الراشدي: «الذين قويت بهم شوكتهم فكانوا عيونه الذين يتطلع بهم على عورات المسلمين، وأعوانهم الذين يشن بهم الغارات على الأبعدين ويقتحم حلل المسلمين ودورهم».[4]

كان حاكم وهران خوان راميريز دي غوزمان «Don Juan Ramirez de Guzman» قد استطاع أن يتوغل في المناطق المجاورة لوهران ويلحق أضرارا جسيمة بالسكان، مما اضطر هؤلاء الهروب إلى قمم الجبال خوفا من بطش الإسبان وظلمهم، الذين منعوهم من دخول الجوامع للصلاة والعودة لبيوتهم، واضطروهم للبقاء بعيدا عن أماكن سكناهم، ولذلك جعلوا حراسا يراقبون خروج الإسبان للقيام بحملاتهم خوفا من مباغتتهم، وللتضييق على السكان المحليين المناوئين قرر الحاكم الإسباني تكليف اليهود بجمع الضرائب بمساعدة الأسرى المسلمين[5] من القبائل المناوئة لهم، لذلك كله أجاب مصطفى باشا القبائل التي طلبت المساعدة وسار بجيشه إلى وهران.[6]

1 - سلفاتور بونو: المرجع السابق، ص103.

2 - المهدي البوعبدلي: "الرباط والفداء في وهران والقبائل الكبرى"، **مجلة الأصالة**، ع13، الجزائر، 1973م، ص 28.

3 - عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص220.

4 - أحمد بن عبد الرحمن الشقراني الراشدي: المصدر السابق، ص63.

5 - عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص320.

6 - عبد القادر فكاير: المرجع السابق، ص188.

ومباشرة بعد وصول جيش مصطفى باشا إلى تخوم وهران بدأت المناوشات بين الجيشين، لم يستطع أي طرف منهما حسم المعارك لصالحه، ولذلك اضطر الجيش الجزائري للانسحاب، لعدم قدرته على هظم الإسبان، وعلى الرغم من محاولة مصطفى باشا تحرير وهران وتخليص القبائل المعادية للإسبان من بطش المحتل وظلمه إلا أنه فشل في مهمته وانسحب لكنه بقي مواظبا على مساعدة القبائل المتعاونة معه ومهاجمة القبائل المتعاونة مع الإسبان، واستطاع إقناع بعض القبائل بالانضمام إلى قواته المتمركزة في جمعة الصهريج بعدما وعدهم بإعفائهم من الضرائب ومساعدتهم بالمال.[1]

على الرغم من عدم تحقيق هذه الحملة لأهدافها إلا أننا نستطيع القول أنها أول حملة جادة وحقيقية باتجاه وهران، بعد مدة من الركود، فتأكد الإسبان بعد ذلك أن السلطات الجزائرية لم تنس تحرير وهران والمرسى الكبير، على الرغم من محاولة الإسبان إلهاء حكام الجزائر عن هذا الهدف، وذلك بتجهيز الحملات المتتالية ضد بعض المدن الجزائرية أو حتى مساعدة من ينوب عنهم مثلما حدث مع حملة التوسكان الأولى والثانية.

3- حملة سلفيو بيكو لوميني «Silvio piccolomini» على عنابة سنة 1016هـ/1607م

بعد فشل الحملة التوسكانية الأولى على مدينة الجزائر قرر دوق توسكانيا إعادة الكرة على السواحل الجزائرية، وأوكل مهمة القيام بهذه الحملة لفرسان القديس إتيان، وكانت الوجهة هذه المرة مدينة عنابة، لقربها من الدويلات الإيطالية، ومصدرا لتهديدها، والتي كانت تنطلق منها البحرية الجزائرية للهجوم على هذه الدويلات، إضافة إلى أنها كانت تحتضن كل سنة معرضا لبيع الأسرى المسيحيين، ورغبة فرسان القديس إتيان في تحرير أكبر عدد ممكن من الأسرى الأوروبيين.[2]

انطلقت الحملة من ميناء ليفورن بتاريخ 01 سبتمبر 1607م بقيادة سلفيو بيكو لوميني، وكان الأسطول يتكون من 9 غاليرات، و5 ناقلات و 2000 جندي من المشاة مدعمين بالمئات من المتطوعين، وبعد خمسة عشرة يوما من السير المتأني ضمانا للأمن والسلامة وصل الأسطول إلى مدينة عنابة بتاريخ 15 سبتمبر 1607م.[3]

ومباشرة بعد إنزال القوات التوسكانية على سواحل عنابة يوم 15 سبتمبر بدأ القصف الذي فاجأ السكان والحامية الإنكشارية بعنابة، التي كان يقدر عددها بـ 150 إنكشاري، وعلى الرغم من ذلك استماتوا في الدفاع عن المدينة التي حوصروا في قصبتها إلى أن وصل باي قسنطينة محمد بن فرحات (1588-1608م) لنجدتهم، الذي حارب التوسكانيين حتى استشهد.[4]

---

1 - أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 51.

2- *Belhamissi (M), op.cit, p63.*

3 - يحي بوعزيز: مقدمة كتاب فريدة منيسة...، المصدر السابق، ص 34.

4 -نفسه.

وقد وضع بيكولوميني خطة تقضي بمحاصرة القلعة الموجودة في المدينة، وتكثيف الهجوم عليها حتى لا يتقدم المدافعون عنها لمواجهة قواته، بالإضافة إلى إحداث ثغرات في القلعة لتسهيل الدخول للمدينة التي استطاعوا الوصول إليها، و لم يستطع الإنكشارية والسكان المتطوعون منعهم من ذلك بسبب قلة عددهم وكثرة عدد العدو وكثافة نيران مدفعيته.[1]

بعد ست ساعات من الاقتتال البري والبحري بين الطرفين سقطت المدينة، وقبل وصول الإمدادات من الجزائر والمدن القريبة منها استطاع التوسكانيون الانسحاب يوم 21 سبتمبر بسلام وهم محملين بالغنائم وعدد كبير من الأسرى من الرجال والنساء قدر عددهم بحوالي 1500 أسير[2]، فيما كانت خسائر التوسكانيين حوالي 42 قتيلا بينما فقد الجزائريون حوالي 470 قتيل.[3]

4-حملة فرسان سان إتيان وتوسكانيا على مدينة الجزائر وجيجل 1609م

لعب قراصنة فرسان القديس سان إتيان "Saint Etienne" دورا بارزا في العلاقات الجزائرية الإسبانية لأن هذا التنظيم وهب نفسه لخدمة الكنيسة الكاثوليكية والإمبراطورية الإسبانية، فبالرغم من أن الفرسان كانوا تابعين لمملكة صقلية فإن التزاماتهم للدولة الإسبانية كانت واضحة، وكان نشاطهم الهام هو الحرب المقدسة ضد الإسلام، ويشمل ذلك الحرب ضد الجزائر، لأن البحرية الإسبانية أصبحت مرتبكة ولديها مشاكل داخلية، و لم يعد باستطاعتها تحقيق أي نجاح.[4]

قرر فرسان القديس سان إتيان القيام بهجوم مفاجئ على السواحل الجزائرية لإرباك البحرية الجزائرية والحد من نشاطها المتزايد في عرض البحر المتوسط، ونظرا لاشتغال القوات الإسبانية بالمشاكل داخل القارة الأوروبية، اضطروا للقيام بالهجوم منفردين بالموازاة مع هجوم القوات التوسكانية على جيجل، فكان الهجوم خاطفا ومفاجئا للجزائريين، ولذلك استطاع فرسان القديس سان إتيان الاستيلاء على السفينة بعض السفن الجزائرية في اليوم الأول من الهجوم، وفي مساء اليوم الثاني استطاعوا إنزال بحارتهم إلى برسك (Bersk) وقتلوا الحراس ونهبوا وأحرقوا البلدة وعاثوا فيها فسادا، و لم ينج من هذا الخراب والدمار أي جزء من أجزاء المدينة[5] وموازاة مع هذا الهجوم المفاجئ كان القراصنة التوسكان قد وصلوا إلى جيجل واستطاعوا الاستيلاء على ثلاثة

1 - *Belhamissi (M), op.cit, p63.*

2 - يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص34.

3 -*Grammont (H.de), op.cit, p48.*

4 - جون وولف: المرجع السابق، ص277.

5 - عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص225.

سفن وانسحبوا إلى بلادهم بسلام لعدم وجود التحصينات والسرعة في تنفيذ الهجوم[1]، وشكل هـذا الهجـوم حلقة من حلقات الصراع الجزائري الإسباني من جهة، والجزائري الأوروبي من جهة ثانية.

ثالثا: العلاقات الجزائرية الإسبانية 1620–1700م

المبحث الأول: الصراع الجزائري الإسباني 1620-1685م

شكلت وهران والمرسى الكبير القضية الأساسية التي تهم الجزائر، خاصة وأنهما المنطقتان الوحيـدتان اللتان لم تحررا منذ احتلالهما، وكانتا حاجزا في إتمام الوحدة السياسية للجزائر، ولذلك ما إن يـأتي حـاكم للجزائر إلا وحاول أن يحررهما ليكسب مجدا خاصا له وللجزائر، فبعد محاولة قوصة محمد باشـا سـنة 1606م لتحرير المدينتين، حدث نوع من الفتور لدى حكام الجزائر الذين كانوا يعيشون بعض المشاكل الداخلية.[2]

كانت وهران والمرسى الكبير طوال هذه المدة منطقتا توتر ونزاع، ومجالا للصراع بين الطـرفين، لأن الإسبان رفضوا الجلاء عن المدينتين، لذلك حاول الجزائريون تحريرهما بتوجيـه الحمـلات العسـكرية، إلا أن محاولاتهم باءت بالفشل، لأن الإسبان استبسلوا في الدفاع عنهما وتحصينهما متبعين سياسـة عـدم مواجهـة الجزائريين خارج أسوار المدينتين إلا نادرا.[3]

1–الهجوم الإسباني الإنجليزي على مدينة الجزائر 1620م

اتفقتا إنجلترا وإسبانيا للقيام بحملة على مدينة الجزائر، وانطلق الأسطول الإنجليزي بقيادة مانسيل روبير «Mansel» ، الذي كان يملك سفينة تسمى الأسد "Lion" وهي سفينة حربية إنجليزية ذات حمولة 600 طـن و40 مدفع وطاقم من 250 رجلا، وصل مانسيل أمام مدينة الجزائر في أواخر شهر نوفمبر 1620م، إلا أن خضر باشا سارع إلى إرسال مبعوث عنه إلى مانسيل يؤكد له أن السلطان العثماني أعطى تعليمات لمعاملة الإنجليـز معاملة حسنة وباحترام، ولتأكيد حسن نية الباشا أخلى سبيل السفينتين اللتين كان الرياس قد استولوا عليهمـا سابقا.[4]

ولتنفيذ هذا الاتفاق بين الإنجليز والإسبان وصل بتاريخ 03 ديسمبر 1620م الأسـطول الإسـباني إلى سواحل مدينة الجزائر، وكان يتكون من 6 سفن حربية، ومباشرة بعد وصوله بدأ في قنبلة المدينـة وأطلـق 74 قنبلة، فردت عليه المدفعية الجزائرية بقوة، ولم يتكبد الطرفان أي خسائر، وعاد الأسطول الإسباني إلى بـلاده

1 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق ، ص 226.
2 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص52.
3 – أحمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة....، المرجع السابق، ص405.
4 – جون وولف: المرجع السابق، ص 119

بدون أن يقدم الإنجليز أي مساعدة له، وقد كتب المؤرخ جوليان كوربيت « J. Corbett» قائلا عن هذا التعاون «... إن الحكومة الإنجليزية لم يكن لها نية للمغامرة بأسطولها ومهاجمة أكثر أعداء إسبانيا قوة بطريقة مستعجلة».[1]

2-حصار وهران 1622م

بدأت المحاولات الجادة لتحرير وهران ابتداء من سنة 1620م في عهد خضر باشا (1620-1623م) على الرغم من المشاكل التي حدثت مع فرنسا بسبب العداء الكبير الذي كان يكنه الداي شعبان للفرنسيين خاصة بعد المذبحة التي ارتكبت في حق البعثة الجزائرية التي أرادت استرجاع المدفعين اللذين سرقهما سيمون دانسا « Simon Danssa» سنة 1608م[2]، فبتاريخ 14 مارس 1620م هاجم الرايس رجب سفينة فرنسية في خليج إيكو وقتل جميع ركابها إلا اثنين منهم استطاعا الفرار والوصول إلى مرسيليا ونشر خبر السفينة، فغضب السكان وهاجموا المترل الذي يقيم فيه الوفد الجزائري وقتلوه جميعا بما فيهم سنان باشا، ما عدا اثني عشرة شخصا كانوا خارج المترل خلال الهجوم[*]، وقد كانت هذه الحادثة سببا في توتر العلاقات بين الطرفين.[3]

ومع تعدد جبهات الصراع ضد فرنسا وإنجلترا وإسبانيا والكثير من الدول الأوروبية، إلا أن حكام الجزائر لم ينسوا قضيتهم الأولى، تحرير مدينتي وهران والمرسى الكبير، ففي سنة 1622م أمر الداي خضر باشا بحصار مدينة وهران ومهاجمة الإسبان بها، وتنفيذا لأمر الداي دارت معارك عنيفة بين الطرفين في العديد من مناطق قبيلة هبرة وعلى الرغم من الخسائر الكبيرة التي تكبدها الطرفان، إلا أنها لم تحسم الصراع لأحدهما لتهدأ الأمور نسبيا لانشغال كل طرف بمشاكله الخاصة.[4]

1 - جون وولف: المرجع السابق، ص 256.

2 - يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص ص 64، 65.

* - لم يكن الرايس رجب على علم بالاتفاق الذي أبرم بمدينة تور بتاريخ 21 مارس 1619م بين سنان باشا ومعه وفد مكون من 46 شخصا مبعوثا من طرف الداي حسين باشا، من أجل التفاوض وتحقيق السلم بين الطرفين الجزائري والفرنسي، والتقى هذا الوفد بالملك الفرنسي لويس الثامن الذي اعتذر له سنان باشا عن الخسائر التي لحقت بالفرنسيين من بعض الجزائريين وتم تسوية المشاكل العالقة وأبرمت معاهدة تور ومن ضمن ما نصت عليه إعادة المدفعين اللذين استولى عليهما سمون دنسا وأثناء تواجد الوفد بفرنسا قام رجب باشا بقتل بعض الفرنسيين...، نفسه، ص54.

3 - *Grammont (H. de), Relations entre La France et La Régence D'Alger au XVII Siècle, Premier Partie, Les Deux canons de Simon Dansa (1606-1628), R.Af, N°23, Alger, 1879, p25-26.*

4 - يحي بوعزيز: مدينة وهران...، المرجع السابق، ص52.

3- محاولة إبراهيم باشا* تحرير وهران 1658م

بعد الهدوء النسبي الذي عرفته الجهة الغربية من الجزائر، بدأ التوتر يعود من جديد بعدما تولى إبراهيم باشا حكم الجزائر مع بداية 1656م، حيث لعب العلماء والمرابطون دورهم في تحريض الحكام والبايات من أجل تحرير وهران، وقد نقل لنا ابن سحنون الراشدي نصا مهما في إصرار الحكام على تحرير وهران ودور العلماء والصلحاء فيه، حيث قال: «... ولم تزل بأيدي الكفرة وملوك الإسلام يطرقونها مرة بعد مرة، وأولياء الله وعلماء ملته يدعون الناس إليها ويغزونها بأنفسهم فلا يزيلون شجاها من حلقها، ولا يوفونها حظها فقد غزاها إبراهيم خوجة...».[1]

من هذا النص نستشف أن حكام الجزائر وبتحريض من العلماء والصلحاء، لم تتوقف محاولاتهم في تحرير وهران إلا في الحالات التي يكونون فيها منشغلين بمواجهة الأخطار الخارجية المتمثلة في الهجومات الأوروبية المتتالية، والتي لا تكاد تنتهي حملة حتى تأتي حملة أخرى، من أجل احتلال الجزائر لأن الدول الأوروبية قررت بطريقة غير مباشرة توزيع الأدوار فيما بينها من أجل القضاء على الدولة الجزائرية وتحطيم قوتها البحرية، فتارة تكون إسبانيا متزعمة هذه الحملات وأخرى فرنسا، ومرة إنجلترا أو هولندا...وهكذا.

قاد إبراهيم باشا حملة عسكرية باتجاه وهران لتحريرها سنة 1658م**، تؤازره في ذلك القبائل المجاورة لوهران التي تضررت كثيرا جراء اعتداءات الإسبان عليها، والتي كانت في استقبال الداي الذي ما إن وصل إلى وهران حتى نصب المدافع على جبل المائدة وبدأ في رمي المدينة بالقنابل.[2]

---

*- اسمه إبراهيم باشا البوشناقي -نسبة إلى إقليم بوشناق بالبوسنة- تولى الحكم للمرة الأولى في 12 ربيع الثاني 1066هـ /1656م ثم عزل، ليعود للمرة الثانية يوم 22 ذي القعدة 1067هـ الموافق لـ 1657م إلى غاية 1659م وهو آخر حاكم في عهد الباشاوات، ابن المفتي حسين: المصدر السابق ص ص 53، 54.

1 - أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص 192.

** - رجحنا هذا التاريخ لأن المصادر التي تكلمت عن هذه الحملة ذكرت منتصف القرن الحادي عشر الهجري بدون تحديد التاريخ بالضبط، فيما سكتت المراجع كليا عنها، إلا أننا استندنا إلى تاريخ التعيين وهو سنة 1656م، فلا يمكن للباشا في بضعة أشهر أن يستقر في الحكم وينفذ حملة بهذا الحجم لتحرير وهران، ثم عزل وأعيد سنة 1657م ولا ندري الشهر الذي عزل فيه بالضبط لأنه بالضرورة كان يؤَمِّن نفسه من الدسائس التي كانت تحاك ضد الحكام في ذلك الوقت، لذلك أخذ الحيطة من المرة الأولى التي عزل فيها وبقيت له سنة 1658م هي سنة الاستقرار الوحيدة، التي ربما هي التي توجه فيها إلى وهران لقيادة حملة عسكرية، لأن سنة 1659م كانت سنة عزله وتغيير نظام الحكم إلى نظام الأغاوات، مستندين في ذلك إلى قول عزيز سامح ألتر أنه حكم من سنة 1656 -1658م، لأن سنة 1659م هي سنة اضطرابات وقد اتهم فيها إبراهيم باشا بدفع رشاوى للباب العالي من أجل البقاء في المنصب ولذلك هاجم الرياس قصره واعتقلوه.

2 - الآغا بن عودة المزاري: المصدر السابق، ص225.

على الرغم من إسراع إبراهيم باشا لقصف المدينة بالقنابل والمدافع إلا أن محاولته باء بالفشل، نظرا لكثرة التحصينات واستماتة الإسبان في الدفاع عن المدينة لذلك اضطر إبراهيم باشا للرجوع إلى الجزائر، وبذلك امتنعت عليه وهران ورجع آيسا من فتحها إلى مملكته بالجزائر.[1]

وفي ذلك أشار أبو راس الناصري في سنيته:

وَقَيَّضَ اللهُ الأَتْراكَ بِمَزْغَنَـةٍ ... لَحَرْبِ وهْرانَ دارَ الكُفْرِ والأَلْسِ

أَتَاهَا إِبْراهِيمَ بَاشَا وَسَطَ حَادِي ... منَ القَرْنِ مِنْ بَعْدِ الأَلْفِ لِلْوَطَسِ

قَامَ بالمَائدَةَ حِينًا يُـزاوِلُهَا ... ثُمَّ قَفَا دَرْجَهُ مِنْ فَتْحِـهَا آسٍ.[2]

تعتبر محاولة إبراهيم باشا من أهم المحاولات خلال الفترة الماضية لتحرير وهران، ونقلت لنا بعض المصادر الحالة التي كان فيها الباشا بعد فشله أمام الإسبان، بأنها حالة يأس وإحباط، ولذلك يتأكد لنا أنه كان يعلق آمالا كبيرة على هذه الحملة، فهل نستطيع القول أن المشاكل التي كان يعيشها، وصراعه مع الديوان كانت سببا في رجوعه إلى الجزائر دون تحقيق هدفه من الحملة؟ ربما يكون ذلك صحيحا لأننا نلاحظ أن إبراهيم باشا عزل مباشرة بعد عودته إلى الجزائر.

4-الإسبان في مواجهة قبائل الغرب 1660م

استغل الإسبان فرصة عودة إبراهيم باشا إلى الجزائر بعد فشله في تحرير وهران، والاضطرابات الحاصلة بمدينة الجزائر نتيجة تغير النظام من الباشاوات إلى الآغاوات وعزل إبراهيم باشا وتولي خليل آغا (1659-1660م) الذي قتل بعد أشهر فقط من توليه، ليتولى بعده رمضان آغا (1660-1661م) الذي لم يبق في منصبه إلا سنة واحدة ليقتل هو أيضا، وبذلك استغل الإسبان هذه الاضطرابات الحاصلة وتزامنها مع الهجومات الفرنسية المالطية على مدينة الجزائر[3]، وأرادوا إخضاع القبائل التي شاركت في حصار وهران والدفاع عن تلمسان.

بدأ الإسبان في استعمال أسلوب التهديد والوعيد ضد القبائل التي أعلنت عداءها لهم، تحضيرا للهجوم عليها وإخضاعها لسلطتهم، ومن بين هذه القبائل: البرجية، هبرة، بنو شقران، والجشم الشراقة والغرابة وقد

1 – محمد بن يوسف الزياني: دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتحقيق المهدي البوعبدلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1398هـ/1978م، ص145.

2 – الآغا بن عودة المزاري: المصدر السابق، ص 225؛ محمد بن يوسف الزياني: المصدر السابق، ص146.

3 – أحمد توفيق المدني: محمد بن عثمان باشا...، المرجع السابق، ص 59.

استطاع الممدود عدة ولد الصحراوي أن يوحدهم تحت قيادته لمواجهة الإسبان[1] الذين جمعوا قواهم والقبائل المتعاونة معهم[*] مثل كرشتل، حميان، غمرة، بنو زيان، الونازرة، قيزة، شافع، أولاد عبد الله، أولاد سليمان، أولاد علي وغيرهم من بني عامر[2][**] بقيادة نزال العبداوي لكونه كان مسوؤل عسكريا على العرب عند الإسبان.[3]

أ- الخروج من وهران وطريق السير

بعد أن جمع الإسبان قواهم والمتحالفين معهم من القبائل خرجوا من وهران واتجهوا غربا سالكين طريق مسرقين إلى أن وصلوا إلى قبيلة أولاد عبد الله، وهي إحدى القبائل المتحالفة معهم، وتجنبا لهجمات القبائل المضادة لهم سلكوا طريق أسفل جبل تسالة إلى أن وصلوا إلى جبل ماخوخ وبعده جبل ماكره، ثم غيروا طريقهم للتمويه[***] حيث رجعوا إلى قبيلة أولاد سليمان الخاضعة لهم (الإسبان) ليحطوا الرحال بالمكان المسمى خشاب النصارى (سمي بهذا الاسم منذ أن حط النصارى به الرحال)، وبعد أن استراحوا من عناء السفر واصلوا المسير عبر وادي المبطوح ووصولا إلى سيق، حيث بدؤوا في الهجوم على السكان، وقتلوا منهم خلقا كثيرا وأخذوا أموالهم وسبوا البقية منهم.[4]

ب- رد القبائل العربية على هجوم الإسبان

اتبع الممدود عدة ولد الصحراوي رايس خطة عسكرية محكمة تنمُّ عن قدراته العسكرية وذكائه في تسيير المعارك، فقد ترك المجال مفتوحا أمام النصارى إلى أن وصلوا إلى سيق وبادروا بالهجوم على السكان العزل، ليقوم عدة ولد الصحراوي بالالتفاف حولهم، وأغلق عليهم جميع المجازات بعد أن أنهكهم التعب جراء السفر والمعارك، ليبدأ بالهجوم عليهم فقتل وشرّد ونكّل بهم، وأسر الكثير منهم، وأطلق سراح الأسرى من القبائل.[5]

---

1 - الآغا بن عودة المزاري: المصدر السابق، ص226.

* - ما نأسف له حقا أن وقود هذه المعارك سواء في هذه المرة أو المرات السابقة هي دماء عربية جزائرية، كانت ستغير موازين القوى بين الطرفين لو اختارت هذه القبائل دينها وقومها ووطنها.

2 - محمد بن يوسف الزياني: المصدر السابق، ص148.

** - لمعرفة هذه القبائل ودورها في خدمة الإسبان والتعاون معهم، ينظر: حنيفي هلايلي: عملاء وجواسيس...، المرجع السابق، ص ص 143-147.

3 - الآغا بن عودة المزاري: المصدر السابق، ص226.

*** - لأن الممدود بن عدة ولد الصحراوي رايس كان قد وضع عيون وجواسيس عبر كامل الطرق والمسالك التي من الممكن أن يسلكها الإسبان والمتعاونين معهم، وقد انتشرت في ذلك الوقت ظاهرة الجوسسة بين الطرفين لتتبع أخبار كل منهما، العودة بن آغا المزاري: المصدر السابق، ص 226.

4 - محمد بن يوسف الزياني: المصدر السابق، ص148.

5 - الآغا بن عودة المزاري: المصدر السابق، ص 226.

بعد أن تأكد عدة ولد الصحراوي من عدم قدرة النصارى على المواجهة بعد إنهاك قواهم من فتح لهم طريق المجاز وبقي يطاردهم وهم فارين قاصدين وهران للاختباء بحصونها، والقبائل العربية في آثارهم قتلا وسبيا حيث لم ينج منهم إلا القليل، وقد تكبد الطرفان خسائر فادحة في الأرواح خاصة الإسبان والقبائل المتحالفة معهم الذين مُنِيُّوا بهزيمة نكراء لم يُشهد لها مثيل[1]،

بعد نهاية المعارك بين الطرفين وفرار القوات الإسبانية واحتمائها بالحصون وهي في أسوأ حال، كتب الممدود بن عدة الصحراوي وهو مرابط على تخوم وهران كتابا إلى حاكمها يقول فيه: «...أيها الطاغية لمن علو الكلمة الآن، هل للعرب؟ أو للنصارى؟ كلا، لئن لم تنته عن فعلك الذميم ومحاربتك للمسلمين والغارات عليهم لأرجمنك شديدا...»[2]، وأسفرت هذه الحملة على عدة نتائج منها:

- أكدت هذه الحملة أن الإسبان لا يستطيعون مواجهة القبائل العربية الرافضة لإعلان الولاء لهم.
- عجز الإسبان عن المواجهة خارج أسوار المدينة وبدون الحصون الموجودة بوهران.
- قوة القبائل العربية على الرغم من عدم اتباعها لنظام عسكري معين، إلا أنها استطاعت مواجهة جيش منظم تؤازره قبائل عميلة لها قوة وباع في مواجهة الجيش الجزائري.
- العبقرية والحنكة العسكرية التي تحلى بها الممدود عدة ولد الصحراوي ودهائه في تسيير المعارك.
- تكبد الطرفان الكثير من الخسائر المادية والبشرية، إلا أن المصادر لم تفصل في ذلك.

5- محاولة الإسبان احتلال مدينة تلمسان سنة 1675م

أ-أسباب الحملة

- محاولة الإسبان فك الحصار الذي ضُرب عليهم بوهران والمرسى الكبير من طرف الجزائريين، فكان لهذا الحصار آثار اقتصادية وعسكرية جسيمة، فقد امتنعت الكثير من القبائل عن دفع ضريبة السغورو* وإعلان تمردها على الإسبان، خاصة بعد هزيمتهم على يد قبائل العرب سنة 1660م.
- حاول الإسبان استغلال المشاكل الداخلية التي كانت تعيشها الجزائر آنذاك الناتجة عن تغيير نظام الحكم من نظام الأغوات إلى الدايات سنة 1671م وما صاحب ذلك من اضطرابات داخلية وصراع بين طائفتي الرياس والإنكشارية.[3]

1 - محمد بن يوسف الزياني: المصدر السابق، ص 148.

2 - الآغا بن عودة المزاري: المصدر السابق، ص ص 226، 227.

* - تفرض هذه الضريبة على القبائل العربية المتعاونة مع الإسبان والتي أطلق عليها اسم "Moros de paz" أو "Moros de Pacees" أي العرب المسالمة أو عرب السلام، التي كانت تدفع عدة ضرائب أخرى مثل ضريبة الثمن وضريبة الأمن وضريبة الأمان والرومية والترجمانة وضريبة السغورو "Seguro" وتعني باللغة الإسبانية المؤَمَنْ ومنها عبارة "Seguidaa" ومعناها الأمن وقد قبلت القبائل العربية التي دخلت في طاعة الإسبان دفع ضريبة السغورو، وكان يطلق عليها ضريبة الثمن -ثمن الأمن الذي يوفره الإسبان لهذه القبائل- ولذلك أعدت الإدارة الإسبانية بوهران وثائق رسمية تسلم لرؤساء هذه القبائل، وتعد هذه الوثيقة بمثابة بيان قبولهم لشروط ضريبة السغورو، وما إن يتم التوقيع على هذه الوثائق حتى تعد القبيلة معترفة بسيادة الإسبان عليها، وبالتالي تكون ملزمة بدفع ضريبة السغورو...، عبد القادر فكاير: المرجع السابق، ص 244.

3 - محمد خير فارس: المرجع السابق، ص ص 69، 70.

- استغلال فرصة الهجمات الخارجية على مدينة الجزائر التي كانت تنفذها الدول الأوروبية مثل فرنسا وإنجلترا وهولندا*، وانشغال حكام الإيالة بها، من أجل التوسع واحتلال مدينة تلمسان.
- الرد على هجمات البحرية الجزائرية التي كانت تخوض حروبا من نوع آخر ضد الإسبان في المتوسط وبعض المناطق من المحيط الأطلسي، ولذلك حاول الإسبان إشغالهم بالجزائر، خاصة وأن الرياس كانوا قد هاجموا مناطق ماغلانيز (Magellenez) وليزبون (Lisbon) سنة 1675م، فحاول الإسبان منعهم لكنهم لم يستطيعوا، لذلك أرادوا تشتيت جهود البحرية الجزائرية والضغط عليها لمواجهتها في تلمسان.

ب- المواجهة بين السكان والإسبان

أراد الإسبان فك الحصار المضروب عليهم في وهران والمرسى الكبير، لذلك جهزوا قوة كبيرة من جنودهم بمساعدة القبائل المتعاونة معهم وبقيادة حاكم وهران دون أنيقودي طوليدو وبدؤوا في مهاجمة القبائل المجارة لأحوز وهران والرافضة الخضوع لهم، وقد تمكنوا من الوصول إلى مدينة تلمسان بتاريخ جوان 1675م وهاجموها بنية احتلالها[1]، إلا أن مجموعة من القوات الجزائرية، بمساعدة القبائل المحلية والسكان، كانت لهم بالمرصاد، وتصدت لهم.[2]

لم تستطع القوات الإسبانية الصمود أمام القوات الجزائرية التي كبّدتها خسائر بشرية فادحة اضطروا على إثرها للعودة إلى وهران للتحصن خلف أسوارها، أين ضرب الجيش الجزائري بالتعاون مع القبائل الساكنة بجوار وهران حصارا شديدا على الإسبان، بعدما أرسل الداي الحاج محمد باشا قوة من الإنكشارية لمساعدة المُحاصِرين.[3]

شدد الجزائريون الحصار هذه المرة على مدينة وهران لإنهاك الجيش الإسباني، خاصة وأن الحصار امتد لجهة البحر أيضا، وقد استمر لمدة ثلاث سنوات تعرض فيه الطرفان لخسائر فادحة بسبب تفشي الأوبئة والأمراض بين أفراد الجيشين[4]، ولذلك اضطر الجزائريون رفع الحصار وفشلوا في تحرير وهران، إلا أنهم استطاعوا منع الإسبان من التوسع واحتلال تلمسان.

ج- نتائج الحملة

- فشل الإسبان في احتلال تلمسان والتوسع على حساب الأراضي الجزائرية.

* – لعبت الدول الأوروبية أدوارا متكاملة فيما بينها لتحطيم الإيالة الجزائرية واحتلالها على الرغم من اختلافاتها فيما بينها، ولكن ما إن يتعلق الأمر بالجزائر حتى تتفق هذه الدول ولو بطريقة غير مباشرة، وما إن تتوقف دولة منهم عن الهجوم حتى تظهر دولة أخرى تنوب عنها.

1 – يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص52.

2 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص417.

3 – يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص52.

4 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص ص 417، 418.

- أكدت هذه الحملة أن الإسبان غير قادرين على احتلال المزيد من الأراضي، وليس باستطاعتهم المواجهة خارج أسوار مدينتي وهران والمرسى الكبير.
- تكبد الطرفان الكثير من الخسائر المادية والبشرية لم تتطرق إليهما المصادر والمراجع إلا تلميحا.
- ساهمت الأوبئة والأمراض في إفشال الحصار الجزائري على وهران، وفي نفس الوقت إنهاك القوات الإسبانية.
- أثبتت هذه الحملة اهتمام حكام الجزائر بتحرير وهران والمرسى الكبير، فكلما حاولت القبائل الجزائرية مواجهة الإسبان إلا وسارع الحكام في دعمهم على أمل تحرير المدينتين، أو على الأقل الحد من توسعات الإسبان خارجهما.[1]

المبحث الثاني: محاولة الباي شعبان* تحرير وهران 1686م

1-أسباب الحملة

- محاولة الباي شعبان تحرير وهران والمرسى الكبير من الإسبان، فقد عرف عنه كرهه لهم، ولذلك أوْلى اهتمامه بقضية تحرير المدينتين.[2]
- استشعار الخطر الإسباني بعد محاولة الدون أنيقودي طوليدو احتلال تلمسان بتاريخ جوان 1675م ومحاولته التوسع على حساب الأراضي الجزائرية.
- ازدياد الهجمات الإسبانية على القبائل العربية القاطنة في بايلك الغرب، فأراد الباي شعبان وضع حد لهذه التحرشات، والقضاء على الوجود الإسباني بوهران، لأن الإسبان كانوا يغزون قبائل العرب المعادية لهم والتي كانوا يطلقون عليها اسم "Moros de guerra"، وتعتبر هذه القبائل العدو الرئيسي لهم، لأنهم كانوا يرفضون دفع ضريبة السغورو والتحالف مع الإسبان أو الاعتراف بسلطتهم، ولذلك كانت عرضة للغزو.[3]

2- تجهيز الحملة

بدأ الباي شعبان التحضير لغزو وهران منذ توليه شؤون بايلك الغرب، وابتدأ في فرض الحصار والتضييق على الإسبان وفي ذلك يقول الآغا بن عودة المزاري: «...حتى منعهم من الخروج وضيق عليهم إلى

---

1 – يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص52.

* – تولى الباي شعبان أمر بايلك الغرب ما بين 1678-1686م وبقي على رأسه ثماني سنوات حتى استشهاده، قال فيه المزاري ويوسف الزياني "الغطريف الهمام والأسد الهصور الذرغام معز الدين وأهل الإيمان الباي شعبان أحد الأتراك الأنجاد وأعيانهم الأنجاد"...، الآغا بن عودة المزاري: المصدر السابق، ص227؛ وقال عنه الشقراني "العالم الفقيه الشجاع الوحيد السيد شعبان باي أحد الأتراك الأنجاد"...، أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الشقراني الراشدي: المصدر السابق، ص66.

2 – يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص52.

3 – عبد القادر فكاير: المرجع السابق، ص249.

أن صاروا في أحوج حال ولازموا بيوتهم والحصون وصاروا لا يفارقون الجواسيس والعيون...»[1]، وبذلك أنهك قواهم واضطرهم للمواجهة فجهز حملة لتحرير وهران.

كان الباي شعبان يدرك أن الإسبان لهم قوات كافية لمواجهة أي هجمة محتملة ضدهم، إضافة إلى احتمائهم بالحصون المنيعة التي كانت تحمي وهران والمرسى الكبير، لأنهم منذ احتلالهم لوهران، خاصة بعد الاحتلال الثاني سنة 1732م، حيث أدركوا أهمية الحصون فرمموا القديم منها وزادوا بناء حصون أخرى، لذا عمل الباي على تجهيز أكبر قدر ممكن من القوات، محاولة منه لتحرير المدينتين، واستطاع جمع 4 ألاف مقاتل منهم 3 آلاف فارس[2]، ووفر ما يلزمهم من عدة وعتاد كالأسلحة والذخيرة الحربية، وخرج على رأسهم قاصدا مدينة وهران وكله عزم على فتحها هذه المرة، وكان ذلك سنة 1686م.[3]

3- الاستعدادات الإسبانية لمواجهة الحملة

لما سمع الإسبان بخبر هذه الحملة سارعوا في تجهيز جيشهم، وطلبوا المساعدة من القبائل المتعاونة معهم كبني عامر وغمرة وكريشتل وغيرهم، فاستطاعوا أن يجمعوا حوالي 3 آلاف مقاتل، منهم ألف فارس[4]* وعندما وصل الباي إلى مشارف وهران خرج إليه الإسبان مستعينين بالخونة، واصطدم بهم في كدية الأخيار ودارت معارك طاحنة بين الطرفين.[5]

4- سير المعارك

التقى الطرفان بكدية الأخيار ودارت معارك طاحنة وعنيفة استبسل فيها الطرفان، وأظهر كل واحد منهم قدرات هائلة على الصبر والمناورة، لكن أثناء المعركة حدثت بلبلة في وسط صفوف الإسبان، مما أدى إلى اختلال صفوفهم وتفرق شملهم، فأثخن فيهم جيش الباشا قتلا وتنكيلا، وقد قتل منهم أكثر من 1100، وفي ذلك يقول محمد بن يوسف الزياني: «...فجعلهم الله غنيمة للمسلمين وفيئا للموحدين فقتل في تلك الهزيمة أكثر من إحدى عشرة مائة...».[6]

1 – الآغا بن عودة المزاري: المصدر السابق، ص228.

2 – يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص52.

3 – أحمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة...، المرجع السابق، ص405.

4 – الآغا ابن عودة المزاري: المصدر السابق، ص226.

*– اختلفت المصادر في تحديد العدد الحقيقي للقوات الإسبانية فقد نقل الآغا بن عودة المزاري أن النصارى كان عددهم 4 آلاف أكثرهم راجلين، الآغا بن عودة المزاري: المصدر السابق، ص228؛ أما الزياني نقلا عن أبي راس، فذكر عدد 8 آلاف، فيهم ألف فارس والباقي راجلين، الزياني: المصدر السابق، ص ص 198، 199؛ واعتمد المدني هذا العدد أيضا، احمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص405.

5 – يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص53.

6 – محمد بن يوسف الزياني: المصدر السابق، ص149.

لم يكتف الباشا بهذه المعركة التي جرت، بل لاحق بقايا القوات الإسبانية والمتعاونين معها من القبائل الموالية، وواصل زحفه حتى وصل إلى أسوار المدينة وبالضبط بجانب حصن رأس العين، ودارت معارك عنيفة بين الطرفين أسفرت مرة ثانية عن هزيمة الإسبان وتكبدهم لخسائر فادحة.[1]

واصلت قوات الباي شعبان تقدمها باتجاه المدينة، وكانت القوات الإسبانية تنسحب تدريجيا حتى ضيق عليهم الخناق وبدأ في قصف المدينة إلى أن وصل إلى باب وهران[2]، وكاد يحررها من الإسبان لأول مرة بعد احتلالها سنة 1509م، إلا أن الدسائس والمؤامرات التي كانت تحيكها القبائل العميلة للإسبان حالت دون تحقيق هذه الأمنية، فقد استطاع -أحد المغاطيس[*] الداخلين تحت ولاية النصارى- وهو من عرب بني عامر[**] مباغتته برمية استشهد على إثرها وذلك سنة 1686م[***]، واستطاع النصارى أخذ رأسه وعلقوها على باب وهران ثم استُرجع فيما بعد ودفن مع جسده خارج المدينة [3]- رحمه الله- وبعد استشهاده تأثرت القوات الجزائرية وانسحبت من أرض المعركة، وتحصن الإسبان وراء أسوار المدينة وفوتوا فرصة على الجزائريين لطردهم، وفي ذلك يقول ابن سحنون الراشدي: «... ثم سلط عليها السيد شعبان فأظهر فيها من نجدته ما سارت به الركبان، وشاع له به أكبر صوت وكاد أن يزيل الغصبة لولا أن الله عاجله بالموت...»[4]، ويقول الآغا ابن عودة المزاري في استشهاد الباي: «... حدثني بعض من حضر أنه تكسر في يده يوم استشهاده سيفان وأنه لبس أفخر الثياب وتحلى بأشرف حليته، وركب أجود مراكبه، وملأ جيوبه دنانير الذهب افتخارا على العدو أن بقي بأيديهم فوجدوه على تلك الحالة...».[5]

1 – الآغا بن عودة المزاري: المصدر السابق، ص228.

2 – محمد بن يوسف الزياني: المصدر السابق، ص149.

* – المغطسين تعني الذين غيروا دينهم ووطنهم خدمة للإسبان.

** – يقال أن الذي قتله اسمه أبو نصاصبة من النصاصيب أحد بطون أولاد عبد الله من قبيلة بني عامر العميلة للإسبان وقيل غير ذلك، محمد بن يوسف الزياني: المصدر السابق، ص 149.

***– انفرد أحمد توفيق المدني برواية مفادها أن الباي كان يتقدم الصفوف وفي أثناء تقدمه تلقى قذيفة أردته قتيلا، ولا ندري من أين استقى هذه الرواية، ولذلك نحن نرجح الروايات التي جاءت في المصادر واتفقت أن الباي قتل على يد أحد المغاطيس (القبائل العميلة للإسبان).

3 –الآغا ابن عودة المزاري: المصدر السابق، ص 228.

4 – أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص192.

5 – الآغا بن عودة المزاري: المصدر السابق، ص229.

5- نتائج الحملة

- استطاع الإسبان التصدي لهذه الحملة بفضل التعاون الحاصل بينهم وبين القبائل العربية الموالية لهم وبذلك فوتوا فرصة ثمينة على الجزائر لتحرير وهران[1]، خاصة وأن هذه الحملة كانت الأهم خلال القرن السابع عشر ميلادي.
- استشهاد قائد الحملة الباي شعبان بخيانة من أحد المغاطيس، فغير ذلك موازين القوى بين الطرفين وتأثر الجزائريون بهذا المصاب وانسحبوا من وهران بعد أن كانوا على مقربة من فتحها، وبذلك عمت الأفراح عند الإسبان واستبشروا، وحصل لهم فرج وزالت عنهم الهموم.
- من خلال سير المعركة واستشهاد الباي نتأكد أن الجيش الجزائري لم يكن فيه من يضاهي الباي في شجاعته وحنكته العسكرية، وإلا بماذا نفسر هذا الانسحاب مباشرة بعد استشهاد الباي، على الرغم من تفوقهم وتقدمهم في هذه المعركة.
- على الرغم من الخسائر الإسبانية الفادحة في الأرواح والتي قدرت بـ 1100 قتيل، إلا أنهم قاتلوا ببسالة وشجاعة، استطاعوا من خلالها إبقاء وهران تحت سيطرتهم.[2]
- رغم فشل الجزائريين في تحرير وهران إلا أنهم لم يرفعوا الحصار عنها، بل واصلوا التضييق على الإسبان ولم يسمحوا للمحاصرين بأدنى حركة خارجها.[3]

تعتبر حملة شعبان باي أهم حملة خلال القرن السابع عشر ميلادي، فقد استطاع أن يهزم الإسبان ويشتت شملهم، إلا أن الحصون المنيعة لوهران والخيانة والعمالة التي أظهرتها بعض القبائل هي التي حالت دون تحرير وهران، وبذلك نستطيع القول أن القبائل العربية العميلة لعبت دورا بارزا إن لم نقل رئيسيا في تأخير التحرير النهائي، وذلك راجع لمعرفتهم لطبيعة المنطقة وجغرافيتها، واستعمالهم كجواسيس يرصدون كل حركة تقوم بها القوات الجزائرية ومن يدعمها من القبائل العربية الرافضة لتواجد الإسبان على الأراضي الجزائرية.

المبحث الثالث: العلاقات الجزائرية الإسبانية ما بين 1687-1700م

1- هجوم إبراهيم خوجة على وهران 1687م

لما استشهد الباي شعبان فرح الإسبان وقويت شوكتهم وبدؤوا يهاجمون القبائل الممتنعة، فهاجموا منطقة تسالة وأسروا الشيخ بلاحة المهاجي مع ثلاثة من بناته[4]، ولما سمع إبراهيم خوجة بهذه الحادثة أراد

1 - يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص53.
2 - الآغا بن عودة المزاري: المصدر السابق، ص228.
3 - أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص406.
4 - محمد بن يوسف الزياني: المصدر السابق، ص150.

الانتقام، فوجه حملة لقتالهم وتحرير وهران، فضيق عليها الحصار ونصب المدافع المختلفة مقابل حصونها، وشرع في قصفها سنة 1687م.[1]

وفي هذه الأثناء التي كان القائد إبراهيم خوجة يهم بالهجوم على وهران واقتحام حصونها، كانت الأخبار قد تناهت إلى داي الجزائر حسين باشا ميزومورتو (1683-1688م) عن عزم الفرنسيين القيام بحملة على الجزائر بقيادة الماريشال دوستري، الذي بدأ في التضييق على مدينة الجزائر ومحاولة حصارها، لذلك اتخذ الداي بموافقة الديوان قرارا يقضي بسحب جميع الآليات الحربية التي كانت تحت تصرف إبراهيم خوجة في حصاره لوهران، من أجل الاستعداد والتصدي لحملة دوستري إذا ما أنزلت إلى البر[2][*]، وعلى الرغم من قصف الفرنسيين لمدينة الجزائر بحوالي 10 آلاف قذيفة إلا أنهم في الأخير انسحبوا و لم يحصلوا على شيء، لأن الداي لم يتنازل و لم يستسلم ورجع دوستري إلى فرنسا بدون نتيجة.[3]

2-حملة السلطان المغربي مولاي إسماعيل على وهران 1700م

ما إن سمع السلطان المغربي مولاي إسماعيل[**] باستشهاد الباي شعبان ، وما يقوم به الإسبان ضد القبائل العربية التي رفضت الخضوع لهم، وحادثة الشيخ بلاحة المهاجي وبناته، بالإضافة إلى غضبه من القبائل الموالية

---

1 - يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص53.

2 - أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 406.

* - حدثت مشاكل عديدة مع الفرنسيين الذين كانوا لا يوفون بالتزاماتهم تجاه الجزائر، ولا يحترمون حكامها ويعاملونهم على أساس قطاع طرق، وأمام هذه الممارسات التعسفية أعلن الجزائريون الحرب ضد فرنسا في أوت سنة 1687م وأخذ الرياس في إحضار الغنائم الفرنسية، لذلك أرسلت فرنسا أول سفنها الحربية إلى الجزائر في 13 جويلية 1688م، وفي 16 جويلية وصل أسطول ضخم إلى السواحل الجزائرية، وأرسل دوستري رسالة تهديد إلى حاكم الجزائر ميزو مورتو الذي أجابه بأنه إذا بدأ القصف فإن القنصل الفرنسي وجميع الفرنسيين سيوضعون في فوهة المدافع، ولما ذهب قنصل إنجلترا هوبمان "Hobman" للتوسط بين الطرفين رد دوستري بقوله لو لم تكن إنجليزيا لشنقتك على إحضارك هذا الجواب، -هذا هي دائما غطرسة الفرنسيين واستعلاؤهم على الجزائريين في ذلك الوقت فدائما ما كانت نواياهم سيئة تجاه الجزائر منذ تأسيسها وظهورها كقوة عالمية إلى أن جاءتهم الفرصة سنة 1830م-، وبدأ الفرنسيون في قصف المدينة يوم 22 جويلية حيث تضررت المنازل والدكاكين، فيما أوفى الداي بوعده ووضع ثلاثة فرنسيين في أفواه المدافع ولكن القنصل نجا من هذا الإعدام الأول لتتوالى الإعدامات من الطرفين، وكان من الضحايا القنصل العام الفرنسي بالجزائر، وفي أوائل أوت انسحب الأسطول الفرنسي من الجزائر وهو يجر أذيال الخيبة والهزيمة على يد الجزائريين، مع أن جون وولف لم يذكر الهزيمة والخيبة ولا ندري لماذا؟، للمزيد ينظر: جون وولف: المرجع السابق، ص ص 352، 353.

3 - أحمد توفيق المدني: محمد بن عثمان باشا...، المرجع السابق، ص63.

** - هو مولاي إسماعيل سلطان الدول العلوية (1083-1140هـ/ 1672-1727م) هو من ذرية موسى الجون ابن عبد الله الكامل أو من ذرية محمد النفس الزكية ابن عبد الله الكامل ابن حسن السبط ابن علي بن أبي طالب ابن فاطمة الزهراء، خلف أخاه مولاي الرشيد، نجح في إخضاع الأقاليم المتمردة على سلطته وأسس جيشا منظما سماه عبيد البخاري، حاول بناء منظومة اقتصادية تواكب عصره، أما في المجال الخارجي فربط علاقات ثنائية بارزة خاصة مع ملك فرنسا لويس الرابع عشر، عرف عنه حبه لمظاهر الأبهة والفخامة واهتمامه بالمنشآت العمرانية، كما فعل عندما أسس مدينة مكناس، حاول التوسع على حساب الأراضي الجزائرية، إلا أنه اصطدم بقوة الجزائر العسكرية واضطر للتخلي عن أحلامه التوسعية عندما انهزم مرتين الأولى سنة 1684م أمام الباي شعبان، والثانية سنة 1703م في جدوية على يد مصطفى باشا، وقد تشتت جموعه=

للإسبان[1] حتى قرر الانتقام منهم، ولذلك وجه حملة باتجاه وهران 1012هـ/1700م، وحط الرحال بجبل هيدور واستعان بمخنس من قبيلة سويد لمساعدته على قتال الإسبان[2]، وبدأ في قتالهم حتى وصل إلى بـرج مرجـاجو الذي حال دون اقتحامها، فغير مكان رباطه إلى جبل المائدة، حيث لاحظ مناعة تحصيناتها وقوة اسـتحكاماتها التي أتقن الإسبان صنعها، فتأكد من استحالة اقتحامها وهزم الإسبان فيها، فقال قولته الشهيرة «... هذه أفعى تحت حجر تضر ولا تضر...»[3]، وكان يقصد الحجر جبل مرجاجو لأنه كان سببا في منعه من اقتحامها كمـا حدث مع سابقيه الذين حاولوا تحرير وهران، وإلى ذلك أشار أبي راس في سينيته بقوله:

وَبَعْدَ أَلْفِ مَائَةِ فِي نَقْـطِ يَـبْ ... جَهَّـزَّ إِسْمَاعِـيلُ لها أَقَـاصِي سُوسِ
وَأَهْلَ تَامِسْنَا إلى أَهْـلِ مِلْـوِيَة ... وَوِجْـدةَ وَمَعْقَـلَ وَبنِـي أَنَـسِ
فَحَطَّ كَلْكَلَـهُ عَـلَيْهَا مُـعْتَزِمًا ... عَلَى النَّزَلَ فَلَمْ يَجِـدْ مَحَلَّ بُـوسِ
قَامَ بِهَيْدُورَ أَيَامًا يَـحْتَالُ عَلَيْهَا ... قَـدْ اسْتَعَانَ بِمَا حَـوْلَهَا مِـنْ مَخِيـسِ
أَعْيَتْهُ حِيلَتَهَا حَـزْمًا وَمَنَعَـتْهَا ... عِقَابَ جَوْ قَـدْ ارْتَقَـي مِـنَ الحَـرَسِ
فَقَالَ هَذَهَ أَفْعَى تَحْتَ صَـخْرَتِهَا ... تَضُرُّ لاَ الضُرُّ يـَأْتِي لَهَا مِـنْ أَنَـسِ
قَدْ حَلَّقَتْ بِحِـرْصٍ غَيْرَ غَافِلَـةٍ ... بَـلْ يَسْمَعُونَ حَسِيسَ الآَتِي كَالْحِـسِّ.[4]

وبذلك ينتهي القرن السابع عشر ميلادي و لم تستطع الجزائر تحرير المرسى الكبير ووهران من الاحتلال الإسباني، لوجود عدة موانع داخلية وخارجية حالت دون تحقيق هذا الهدف، في مقابل ذلك لم يستطع الإسبان السيطرة على مدينة الجزائر وإخضاعها، وكانت أكبر أمانيهم المحافظة على وهران والمرسى الكبير، زيادة علـى ذلك لم نجد ما يثبت وجود أي محاولة لتغيير نمط العلاقات الثنائية أو محاولة إيجاد سبل دبلوماسية للقضاء علـى المشاكل العالقة بين الطرفين، لتمسك كل طرف بمواقفه، ومع ذلك نلاحظ أن حدة التوتر والصـراع قلّـت بالمقارنة مع القرن السادس عشر ميلادي.

=وتفرّق جيشه في نواحي أرزيو فعرف المكان بزبوج أو غابة "مولاي إسماعيل"...، ناصر الدين سعيدوني: تهميش القول الأوسـط...، المصـدر السابق، ص67.

1 – أحمد بن عبد الرحمن الشقراني الراشدي: المصدر السابق، ص67.

2 – الآغا بن عودة المزاري: المصدر السابق، ص 230.

3 – محمد بن يوسف الزياني: المصدر السابق، ص151.

4 – الآغا بن عودة المزاري: المصدر السابق، ص 230.

3-الصراع الجزائري الإسباني في عرض البحر (المتوسط والمحيط الأطلسي)

بعدما تأكد الإسبان من استحالة احتلال مدينة الجزائر وإخضاعها لسيطرتهم، على الرغم من محاولاتهم المتكررة طيلة القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر الميلاديين، حاولوا جاهدين لإبقاء مدينتي وهران والمرسى الكبير تحت سيطرتهم، واتخاذهما كمركز ضغط على الجزائر، لإلهائها عما يجري من صراع ضد الدولة العلية في الجهة الشرقية من المتوسط، هذا من جهة، ومن جهة ثانية محاولة تشتيت قواها لإعطاء فرصة لبعض الدول الأوروبية القيام بعمليات عسكرية بحرية ضد الجزائر للحد من قوتها البحرية أو احتلالها إن أمكن ذلك.

ومن أجل ذلك عمل الإسبان على إثارة الفوضى والانتقام من الجزائريين- خاصة القبائل العربية المعارضة لتواجدهم-، وذلك بالقيام بهجمات خاطفة وسريعة في دواخل الجهة الغربية من البلاد وما وراء الموانئ المحتلة[1]، فيأسرون ويستولون على مؤن القبائل الرافضة لتواجدهم، من أجل إرباك السلطات الحاكمة في الجزائر.

وأمام الاستفزازات المتكررة للإسبان اتبعت الجزائر استراتيجية جديدة في مواجهتهم، ومواجهة القوى الأوروبية المتحالفة معهم، وذلك باتباع سياسة استنزاف العدو على المدى البعيد، ومواجهته في عرض البحر بدل السواحل الجزائرية التي تأثرت كثيرا جراء الحملات العسكرية المتتالية، وبدؤوا في مهاجمة السفن الإسبانية في عرض المتوسط وفي الشواطئ الإسبانية والأوروبية نفسها، وقد أثبتت هذه الاستراتيجية نجاعتها من خلال عدد الحملات والسفن التي استطاعت الجزائر السيطرة عليها، فقد استطاع الرياس في بضع سنوات تكبيد الإسبان والدول الأوروبية خسائر فادحة، والحصول على غنائم لها قيمة كبيرة نوضحها فيما يلي:

- في سنة 1613م بعد اجتياح جزيرة سانت ماري (sntine Marie) الواقعة في المحيط الأطلسي والقريبة من جبل طارق تم الاستيلاء على غنائم كبيرة و 120 أسير، ثم توجه الأسطول الجزائري بقيادة سليمان رايس إلى جزر الكناري وأسروا 700 شخص.[2]
- من 1613-1619م بلغت غنائم الجزائريين 936 سفينة وقاربا.
- ومن سنة 1619-1620م استطاع الرياس السيطرة على 1200 سفينة ومركب بحري بما فيها فرقاطات وسفن ذات أنواع وأحجام مختلفة، تابعة لدول أوروبية مختلفة كالإسبان 120 سفنية، الألمان 56

1 - جون وولف: المرجع السابق، ص240.

2 - المنور مروش: المرجع السابق، ص 283.

سفينة، الهولنديين 447 سفينة، الإنجليز 60 سفينة، وفرنسا 193 سفينة[1]، ناهيك عن عـــدد الأســـرى الذين تم أسرهم خلال هذه العمليات البحرية.

تواصل نشاط البحارة الجزائريون في عرض البحر وتعقب السفن الإسبانية والأوروبية، فقد خرج مراد رايس في حملة بحرية باتجاه جزيرة صغيرة بالقرب من جزيرة ترانسيروس بغليسيا لمرتين متتاليتين، وأسر حـــوالي 700 شخص[2]، وفي الفترة الممتدة من 1621 إلى 1627م بلغ عدد الأسرى في الجزائـــر 20 ألـــف أســـير مـــن جنسيات مختلفة فلامنديون، إنجليز، دنماركيون، هونغاريون، إسبان، فرنسيون وإيطاليون... فكل أمـــة لهـــا في الجزائر طابور من الأسرى.[3]

لم يكتف الرياس بمهاجمة السفن الإسبانية والأوروبية في الجهة الغربية للمتوسط والمحيط الأطلسي، بل حاولوا نقل نشاطهم إلى الجهة الشرقية، لذلك قرروا التنسيق مع الرياس التونســـيين في مواجهـــة القرصـــنة الأوروبية في عرض البحر، وتتويجا لهذا التنسيق توجهت حملة عسكرية بحرية -بتعـــاون الطـــرفين الجزائـــري والتونسي- تتكون من سبعة سفن منها خمسة تونسية واثنتان جزائرية، وتوجهت إلى شرق المتوسط، وقامـــت بالهجوم على قرية تدعى "سان مارك" التابعة لجزيرة صقلية، وأسروا ما بين 400 و 500 شخص وغنموا الكثير من الأموال وأحرقوا القرية، ثم توجهوا رأسا إلى السواحل الإسبانية وهاجموا قرية تدعى "أد" الـــتي اشـــتهرت بصناعة كميات كبيرة من السكر.[4]

واصل الجزائريون مهاجمة السفن الإسبانية في كامل المتوسط وحتى في المحيط الأطلسي، وقد عـــرف نشاط البحرية الجزائرية تزايدا مستمرا خلال القرن السابع عشر ميلادي حتى عرف بقرن القرصنة الجزائريـــة، نظرا لتوسع النشاط وزيادة الغنائم المتحصل عليها، فكانت الهجمات الجزائرية مستمرة على القلاع والقـــرى الإسبانية الموجودة على السواحل.[5]

زاد الصراع في عرض البحر بين الطرفين، فقد أصبحت السواحل الإسبانية والإيطالية عرضة لهجمات البحارة الجزائريين، فكانت سواحل نابولي وكالاريه، جنوة بإيطاليا وجزر البليار بإسبانيا عرضـــة لهجمـــات

1 - يحي بوعزيز: مراسلات...، المرجع السابق، ص 21.

2 - *Braudel (F), les Espagnoles…. op.cit, p 153.*

3 - جمال قنان: المرجع السابق، ص 98.

4 - *Grammont (H. de), Histoire…, op.cit, p138.*

5 - جمال قنان: المرجع السابق، ص 97.

الجزائريين الذين غنموا الكثير من السفن وأسروا العديد من الجنود الإسبان، والنساء والرجال والأطفال، بلـــغ عددهم في نابولي وحدها سنة 1644م حوالي 4 آلاف شخص.[1]

لا توجد لدينا إحصائيات عن خسائر الطرفين جراء هذا الصراع، إلا أنه يمكننا القـــول أن الجزائـــر استطاعت أن تتبع استراتيجية جديدة في صراعها ضد الإسبان والمتعاونين معهم، واستطاعت أن تنقل الحـــرب من سواحلها ومدنها إلى السواحل الإسبانية والأوروبية، بعد أن تأكد لها أنهم عاجزين عن احتلالها "الجزائـــر" وعدم قدرتهم على مواصلة الهجمات ضدها، بسبب تراجع قوة الإسبان نتيجة المشاكل الداخلية وصرا عهـــا ضد بقية الدول الأوروبية، ولذلك سوف نلاحظ أن الجزائر ومع بداية القرن الثامن عشر مـــيلادي ســـوف تستغل الفرصة وتقوم بتحرير وهران والمرسى الكبير من الاحتلال الإسباني سنة 1708م.

حاولت إسبانيا قدر الإمكان الاحتفاظ بمدينتي وهران والمرسى الكبير، وعدم المغامرة بحروب جديـــدة ضد الجزائر مخافة من أن تعرف نفس المصير السابق، فيما كانت الجزائر تنتظر الفرصة المواتية لتحرير المـــدينتين وكأنها كانت تدرك أنها لا تستطيع فعل ذلك خلال القرن السابع عشر ميلادي، ويجب عليها إنهاك الإســـبان قبل الإجهاز عليهم.

1 – المنور مروش: المرجع السابق، ص ص 220-223.

الفصل الثالث: العلاقات الجزائرية الإسبانية خلال القرن الثامن عشر ميلادي

أولا: العلاقات الجزائرية الإسبانية (1700-1732م)

المبحث الأول: الفتح الجزائري الأول لوهران 1708م)

1-الأوضاع العامة للجزائر وإسبانيا قبيل الفتح

2-العوامل المساعدة على فتح وهران والمرسى الكبير

3- سير عملية الفتح

4- مراحل عملية الفتح

5- نتائج تحرير وهران والمرسى الكبير

المبحث الثاني: إعادة احتلال المرسى الكبير ووهران سنة1732م

1- حملة الكونت دي مونتماريا واحتلال المدينتين

2 -الوضع العام للبلدين قبيل الحملة الإسبانية

3- أسباب الحملة:

4- استعدادات الطرفين

5- سير الحملة

6- النتائج

7-أسباب ضياع مدينتي وهران والمرسى الكبير

8- محاولة مصطفى بوشلاغم استعادة وهران

9-الحصار بعد وفاة الباي

ثانيا: العلاقات الجزائرية الإسبانية ما بين 1733 - 1786م

المبحث الأول: حملة الكونت أوررلي "Orelly" على مدينة الجزائر سنة 1775م

1- الوضع العام للبلدين قبيل الحملة

2- أسباب الحملة

3- استعدادات الطرفين

4- توزيع القوات الجزائرية المدافعة عن المدينة

5- توزيع المدافع على الأبراج

6- سير الحملة ونتائجها

7-العوامل المساعدة على انتصار الجزائريين

ثالثا: حملتا الدون أنطونيو بارسللو على مدينة الجزائر 1783-1784م

المبحث الأول: حملة الدون أنطونيو بارسللو"Don Antonio Barcelo" الأولى على مدينة الجزائر 1783م

1- أسبابها

2- استعدادات الطرفين

3- سير الحملة ونتائجها

المبحث الثاني: حملة الدون أنطونيو بارسيللو الثانية على مدينة الجزائر 1784 م

1- أسباب الحملة

2- استعدادات الطرفين

3- سير الحملة ونتائجها

4-أسباب هزيمة الإسبان

رابعا: العلاقات الجزائرية الإسبانية 1786-1800م

المبحث الأول: اتفاق الصلح بين الجزائر وإسبانيا 1786م

1- بداية النهاية للصراع العسكري بين الطرفين

2- أسباب توقيع الاتفاق

3- مفاوضات الصلح

4-مضمون الاتفاق "الصلح"

5-خلافات الطرفين بعد إمضاء اتفاق الصلح

6-نتائج الاتفاق على الطرفين

المبحث الثاني: التحرير الثاني والنهائي لوهران والمرسى الكبير سنة 1792م)

1-أسباب الانسحاب الإسباني من وهران والمرسى الكبير

2-مراحل التحرير النهائي

3-معاهدة 1791م وأهم بنودها

4-دخول الباي محمد عثمان الكبير المدينة في 22 فيفري 1792م

5-نتائج المعاهدة على الطرفين

6- العلاقات التجارية والسياسية بين الجزائر وإسبانيا 1792-1800م

أولا: العلاقات الجزائرية الإسبانية (1700-1732م)

المبحث الأول: الفتح الأول لوهران 1708م)

1-الأوضاع العامة للجزائر وإسبانيا قبيل الفتح

أ-إسبانيا

كانت إسبانيا في بداية القرن الثامن عشر ميلادي تعيش مشاكل داخلية، بسبب الصراع حول وراثة العرش الإمبراطوري* بعد أن تدهورت الحالة الصحية للملك شارل الثاني الذي وافته المنية سنة 1700م، وقد اتخذ المشكل بعدا أوروبيا نتيجة ظهور شخصيتين قويتين كانتا تطالبان بحقهما في وراثة العرش الإسباني، وهما لويس الرابع عشر (1650-1720م) ملك فرنسا الذي كان متزوجا أميرة من العرش الإسباني، وليوبولد الأول إمبراطور ألمانيا وهو ابن لأميرة إسبانية وكلاهما تزوج أخت زوجة الآخر[1]، ولكن آن النمساوية أم لويس الرابع عشر وماريا تيريزا زوجته كانتا أكبر من والدة وزوجة ليوبولد الأول، ولذلك كان لويس الرابع عشر يرى أنه الأولى بحقوق الوراثة الإسبانية من ليوبولد الأول.[2]

وقد اتخذت إنجلترا موقفا عدائيا تجاه هؤلاء الملوك، خاصة ملك فرنسا لويس الرابع عشر، لأنه إذا تولى عرش إسبانيا سوف يؤدي ذالك إلى ازدياد قوة فرنسا، وبالتالي تهديد المصالح الإنجليزية واختلال موازين القوى داخل أوروبا، وعلى الرغم من عقد معاهدة سنة 1700م بين فرنسا وإنجلترا إلا أن وفاة شارل الثاني في نوفمبر 1700م عجل بنقض هذه المعاهدة، لأن شارل الثاني ترك وصية لصالح فليب أنجو حفيد لويس الرابع عشر بحقه في وراثة العرش الإسباني، هذا الأخير الذي قبل هذه الوصية وكان مستعدا للدفاع عنها بكل ما أوتي من قوة

* – امتدت حروب الوراثة الإسبانية عبر سنوات عدة، وابتداء من سنة 1668م حتى معاهدة أترخت سنة 1713م، تخللتها عدة حروب كانت أطرافها فرنسا، هولندا، إنجلترا، انتهت بهزيمة فرنسا وانتصار إنجلترا، وتسوية مسألة وراثة العرش، فاحتفظ فليب الخامس بإسبانيا ومستعمراتها، وتنازل رسميا عن كل حقوق له في عرش فرنسا، أما الإمبراطور شارل السادس فإنه حصل على الأراضي المنخفضة وميلانو ونابولي وسردينيا، وأما دوق سافوا فقد حصل على صقلية وأصبح يلقب بملك صقلية، وأما إنجلترا فإنها حصلت من إسبانيا على امتيازات تجارية هامة في مستعمراتها تتمثل في احتكار تجارة العبيد، كما حصلت على جزيرة ميورقة وجبل طارق مفتاح البحر المتوسط وحصلت فرنسا على نيوفوندلاند وعلى الإقليم المحيط بمدخل نهر سان لوران الموصل لكندا...،جلال يحي: المرجع السابق، ص ص65، 79.

1 – جيفري براون: تاريخ أوروبا الحديث، ترجمة علي المرزوقي،ط1، دار الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2006، ص ص 300، 305.

2 – جلال يحي: المرجع السابق، ص65.

مما أثار حفيظة إنجلترا وحليفتها هولندا لخوفهما من ازدياد طموح الفرنسيين، وبذلك عجل بقيام حرب في أوروبا أطلق عليها تسمية حروب وراثة العرش الإسباني التي أدت في النهاية لانهزام فرنسا.[1]

يمكننا القول أن هذه المشاكل الداخلية لإسبانيا كان لها الأثر السلبي على الحامية الموجودة في وهران والمرسى الكبير، نتيجة لنقص الإمدادات وعدم تجديد التحصينات الموجودة بالمدينتين، فانتهز حكام الجزائر هذه الفرصة السانحة، وقاموا بمهاجمة المدينتين وتحريرهما، وبذلك استغلت الجزائر هذه الحروب لصالحها لأن الحملات قلت نتيجة لتشتت جهود الدول الأوروبية داخل القارة.

ب-الجزائر

ظل حكام الجزائر طيلة القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين يحاولون تحرير مدينة وهران والمرسى الكبير من الاحتلال الإسباني، لأنهما يشكلان آخر عقبة لإتمام وحدة الإيالة الجزائرية، فحاول حكام الإيالة في بداية القرن الثامن عشر ميلادي تهيئة الوضع الداخلي أولا ومحاولة استغلال الظروف الخارجية ثانيا واستطاع مصطفى باشا (الذي تولى الحكم في 10 ربيع الثاني 1116هـ الموافق لـ 1704م)[2] السير على رأس جيش قوي لمهاجمة مولاي إسماعيل الذي عقد اتفاق مع باي تونس لمهاجمة الغرب الجزائري، والتقى الجيشان عند وادي الجديوية (من فروع وادي الشلف) وألحق الجيش الجزائري هزيمة نكراء بالجيش المغربي الذي عاد إلى المغرب الأقصى يجر أذيال الخيبة والأسى لعدم قدرته على مواجهة الجيش الجزائري.[3]

أما على الجهة الشرقية فعلى الرغم من تدخل الدولة العلية ذاتها لإنهاء الخلاف القائم بين الطرفين الجزائري والتونسي واستجابة الإيالتين لذلك، وعقد صلح بينهما بإشراف كبير البوابين أحمد ليتم وقف القتال إلا أنه سرعان ما تجدد مرة أخرى سنة 1705م، حيث زحف الداي مصطفى باشا إلى تونس وحاصرها، ولكن هجوم الفرنسيين المفاجئ على مدينة الجزائر اضطره لفك الحصار والعودة يجر أذيال الخيبة والفشل في إخضاع تونس.[4]

وقبل وصول مصطفى باشا إلى الجزائر ثار الإنكشارية ضده، وأعلنوا تمردهم وعينوا مكانه حسين خوجة شريف بتاريخ 26 رجب 1117هـ الموافق لـ 1705م الذي تولى بفضل دسائسه التي كان مصطفى

1 – عمر عبد العزيز عمر: دراسات في التاريخ الأوروبي والأمريكي الحديث، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، مصر، 1992، ص ص 274، 276.

2 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص ص 453، 454.

3 – رجب شاوش ابن المفتي: المصدر السابق، ص58.

4– أحمد توفيق المدني: محمد بن عثمان باشا...، المرجع السابق، ص66.

باشا يعلم بها، هذا الأخير الذي وصل بجيشه إلى قرب رأس تافورة واعتزم الوصول إلى القليعة لكن الإنكشارية أدركوه وقاموا بذبحه ودفنه برأس تافورة .[1]

وكعادة حكام الإيالة في ذلك الوقت قام حسين خوجة الشريف بتوزيع الأموال والهدايا على الإنكشارية حتى يشتري سكوتهم ورضاهم عنه، وقام بتوجيه حملة عسكرية باتجاه تونس بعد أن قام بإطلاق سراح أحد حكامها واسمه إبراهيم الشريف الذي كان قد أسره مصطفى باشا في أحد هجوماته على تونس لكن التونسيين بقيادة حسين بن علي*، استطاعوا أن يلحقوا هزيمة نكراء بأتباع إبراهيم الشريف الذي لقي حتفته في هذه المعركة[2] فاستغل الإنكشارية هذه الأوضاع التي كان يعيشها الداي حسين خوجة بعد انهزام جيش حليفه في تونس، ونقص الأموال التي كان يوزعها على الجيش، فقاموا بعزله في 04 مارس 1707م بدون إراقة الدماء أو إحداث فوضى واضطرابات داخلية.[3]

وعلى الرغم من حدوث الكثير من الحروب بين الإيالتين الجزائرية والتونسية**، إلا أنه مع تولي الأسرة الحسينية الحكم في تونس سنة 1705م بدأت العلاقات بين الطرفين تعرف بعض الهدوء والاستقرار[4]، وفي سنة 1119هـ/ 1707م تسلم محمد بكطاش (بكداش)*** مقاليد الحكم في الجزائر وأول ما فكر فيه تحرير مدينتي وهران والمرسى الكبير، فكان أكثر استعدادا واستجابة لطموح السكان، وعقد العزم على محاربة الإسبان في

---

1 – رجب شاوش ابن المفتي: المصدر السابق، ص 59.

* – اسمه أبو عبد الله حسين بن علي عين واليا على تونس في 12 جويلية 1705م، مؤسس الأسرة الحسينية التي حكمت تونس في العهد العثماني وبقيت إلى غاية الاحتلال الفرنسي لتونس سنة 1881م ليتم إزاحة هذه الأسرة من حكم تونس سنة 1956م بعد استرجاع تونس لاستقلالها...، محمد السعيد بوبكر: العلاقات السياسية الجزائرية الإسبانية خلال القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر ميلادي (1119-1206هـ/1708-1792م)، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ، معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية، المركز الجامعي، غرداية، 1431-1432هـ/2010-2011م، ص 79.

2 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص66.

3 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 455.

** – قدرها ابن المفتي إلى غاية وقته بحوالي 8 حروب...، ابن المفتي حسين رجب شاوش: المصدر السابق، ص70.

4 – أحمد ابن أبي الضياف:إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، ج3، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1971، ص 110.

*** – محمد بن علي بن محمد الشريف الحسني النكداني (النكدالي)، حكم الجزائر ما بين (1707-1710م)، ويقال له بكداش (وبالتركية معناه الحجر القاسي) قال عنه الجامعي: «عالم فقيه، مشارك في عدة فنون من المعارف والعلوم، ماهر في علم اللسان، له ممارسات بعلم القوم وطريقتهم، تصدر للإقراء مرارا، وتولى خطابة بعض جوامع الجزائر سنة 1104هـ/1692م...»، يرتبط اسمه بفتح وهران الأول، قتل بعد ذلك بسبب عدم دفع رواتب الإنكشارية...، عبد الرحمن الجامعي: فتح مدينة وهران، تحقيق، حساني مختار، مخبر المخطوطات، جامعة الجزائر، الجزائر، 2003م، ص50.

وهران مستغلا في ذلك الأوضاع الخارجية التي كانت تصب في مصلحته مستعينا في ذلك بداي الغرب مصطفى بوشلاغم* الذي كان يحمل نفس الطموح إضافة إلى صهر محمد بكداش أوزان حسن.**[1]

2–العوامل المساعدة على فتح وهران والمرسى الكبير

أ– تولي الداي محمد بكداش باشا حكم إيالة الجزائر: عرف عن الداي إصراره على طرد الإسبان من الأراضي الجزائرية، وقوة شخصيته ودهائه العسكري، حيث استطاع تأمين الجبهة الداخلية والخارجية ليتفرغ إلى مواجهة الإسبان، فأرسل في ذلك إلى كل جهات الجزائر يحثهم على الجهاد.[2]

ب– تحريض العلماء والفقهاء والصلحاء والشعراء: هؤلاء الذين استبشروا خيرا بتولي هذا الداي شؤون الإيالة الجزائرية، وبدؤوا يحرضونه على الجهاد ضد النصارى لطردهم من وهران والمرسى الكبير، ومن ذلك قول محمد الكرحبيلي مخاطبا داي الجزائر:

أَضْــرِمْ عَلَى الْكُــفَّارِ نَارَ الحَرْبِ لاَ تــَقْلَعْ وَلاَ تُمْهِلْهُــــــمْ بِفُتُورِ
وَبِغَرْبِنَا وَهْـــرَانُ ضِرْسٌ مُـــؤْلِمٌ سَهْلُ اقْتِـــلاَعِ اعْتِنَاءُ يَســيرِ
كَمْ قَدْ أَذَتْ مِنْ مُسْلِمِينَ وَكَمْ سَبَتْ مِنْهُمْ بِقَـــهْرِ أَسِيرِهِ وَأَسِــيرِ
حــَلَّتْ بِأَرْضِ المُسْلِمِينَ فَهَـــلْ لَهَا مِنْ عَسْكَرٍ عَنِ الصَّبَاحِ مُغِــيرِ.[3]

ومن الذين استصرخوا العثمانيين لنجدة وهران وتحريرها أبو العباس أحمد بن أبي المحلى الذي قال هذه الأبيات:

بِمَا بِهَا المَلِكُ الَّــذِي أَيَّــامَــهُ غُرَرٌ غَــدَتْ بِــــكَمَالِهِ تَتَبَاهَى
وَمَنْ الَّذِي أَحْيَا مَـــعَالِمَ سُنَّةٍ أَشَادَ أَرْكَــــاناً لَهَا وَبَنَاهَـــا
ذَاكَ الأَمِيرُ أَبُو مُحَمَّــدًا الرِّضَا حَسُنَ بِهِ قُطْرُ الجَــــزَائِرِ أَتَاهَا
أَنْتَ الأَمِيرُ المُرْتَجَى لِكَرِيمِـــهِ يَوْمَ النَّزْلِ فَأَنْتَ قُطْبُ رَحَــاهَا
جَرِّدْ ظَبَاكَ لِمَحْوِ آثَارِ العِــدَا حَتَّى تَرَى الإِسْلاَمَ فِي مَعْنَاهَا[4]

*– مصطفى بوشلاغم بن يوسف بن محمد بن إسحاق المسراتي أول بايات وهران بعد تحريرها سنة 1708م تولى بايا على مازونة ثم معسكر، فهو أول من جمعت له الإيالة الغربية، حكم ما بين 1098-1146هـ/1686-1733م، توفي سنة 1733م ودفن بالمطمر، الآغا بن عودة المزاري: المصدر السابق، ص ص 275، 276.

**– حسن أوزان صهر الداي ووزيره، كما ذكر في أغلب المصادر العربية مثل الجامعي والحلفاوي، قاد الحملة العثمانية المرسلة لدعم الباي مصطفى بوشلاغم المحاصر لوهران، مات مقتولا مثل الداي محمد بكداش، عبد الرحمن الجامعي: المصدر السابق، ص79.

1 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص67.

2 – نفسه، ص 225.

3 – محمد أبو راس الناصري: المصدر السابق، ص16.

4 – نفسه.

ومن ذلك قول أبي عبد الله محمد بن عبد المؤمن:

نَادَتْكَ وَهْـــرَانَ فَلَبِّي نِــدَاهَا وَأَنْزِلْ بِهَا لاَ تَقْصِدَنَّ سِوَاهَا

واحْلُلْ بِهَا تِلْكَ الأَبَاطِحَ والرِّيَا واسْتَسْـرِخَنَّ دَفِينَهَا الأَوَّاهَا

واسَتَدْعِ طَائِفَةَ العَسَاكِرِ نَحْوَهَا يَغْزُو بِهَا وَلْيَنْزُلوا بِفِنَاهَـــا.[1]

الملاحظ إذن أن الشعراء والفقهاء والعلماء لعبوا دورا بارزا في تحريض حكام الإيالة الجزائرية على طرد الإسبان من وهران، وكانت هذه القضية مصدرا لإلهام وإبداع شعراء ذلك الوقت، ومادة دسمة من أجل المشاركة في تحرير المدينتين، فقد ازدهر الشعر المنظم و الملحون في هذه الفترة لوجود قضية مركزية ومحرك فعال من أجل نقل معاناة السكان الموجودين تحت الاحتلال، وقد أخذت الحمية هؤلاء الشعراء لدفع الحكام لتحرير وهران، فكان هذا الشعر محفزا لمحمد بكداش ومصطفى بوشلاغم لتوجيه حملة عسكرية لتحرير وهران والمرسى الكبير.

ج- عزلة الحامية الإسبانية بوهران والمرسى الكبير: يعود سبب العزلة التي عاشتها الحامية الإسبانية بالمدينتين إلى الأوضاع الداخلية التي كانت تعيشها إسبانيا، نتيجة للصراع حول العرش واشتغال الساسة والعسكريين بهذه الأوضاع، مما نتج عنه إهمال الحامية وعدم الاهتمام بأوضاعها خاصة تجديد الحصون والإمدادات بالمؤن والعتاد الحربي.

زاد أوضاع هذه الحامية تأزما رفض القبائل الموالية للإسبان دفع الضرائب وإمدادهم بالمؤن التي اعتادت دفعها[2]، ويرجع ذلك إلى الحصار الذي فرضه مصطفى بوشلاغم عليها مما قلص من تحركاتهم ونفوذهم، خاصة قبيلة بني عامر والقبائل المجاورة لها، والتي كانت تقيم علاقات وطيدة مع الإسبان مما سهل على مصطفى بوشلاغم إحكام الحصار عليهم وقطع طرق الإمدادات عنهم من جهة البحر.[3]

د- حصار 1704-1708م: استطاع الباي مصطفى بوشلاغم فرض حصار طويل دام حوالي أربع سنوات أدى إلى إنهاك القوات الإسبانية المتواجدة بالمرسى الكبير ووهران، فمنع عنها الإمدادات عن طريق البر، ووضع المناطق الجنوبية تحت مراقبته الدائمة حتى يحكم الحصار على المدينتين تمهيدا لمهاجمتهما وتحريرهما نهائيا.[4]

1 - عبد الرحمن الجامعي: المصدر السابق، ص44.

2 - محمد السعيد بوبكر: المرجع السابق، ص80.

3 - عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 458.

4 - نفسه.

ومن أهم الأعمال التي قام بها الباي مصطفى بوشلاغم لإحكام الحصار نقل عاصمة البايلك من مازونة إلى قلعة بني راشد ثم مدينة معسكر التي تقع في موقع استراتيجي هام يتوسط مدينة تلمسان ومازونة بالإضافة إلى قربها من وهران[1]، مما ساعده على إغلاق جميع المنافذ من جهة البر، وبذلك أصبحت الحامية الإسبانية محاصرة كليا، و لم يتبق لها إلا المنفذ البحري الذي لم يكن يقوم بدوره في إمداد الحامية بكل ما يلزمها نظرا للأوضاع السائدة والتي ذكرناها آنفا.

3- سير عملية الفتح

أ- الاستعدادات الجزائرية لعملية الفتح

اهتم الداي محمد بكداش بتجهيز جيش الفتح تجهيزا جيدا حتى يكون على أتم الاستعداد للقيام بالهجوم على الإسبان المتحصنين بوهران والمرسى الكبير، وقدر عدد هذا الجيش ما بين 8 آلاف و 9 آلاف جندي مزودين بالكثير من المدافع الضخمة وكميات هائلة من البارود قدرت آنذاك بنحو 3300 قنطار[2]* لصناعة الألغام حتى يتم تفجير الأبراج الموجودة بوهران، وفي طريقه إلى الجهة الغربية لإحكام الحصار على المدينتين، انضم إلى الجيش النظامي جماعات الفرسان غير النظامية من البربر.[3]**

وقد أمّر الداي على القوات التي كانت في طريقها إلى وهران أوزان حسن الذي برهن على قدرات هائلة في إدارته العسكرية، فقام بتقسيم الجيش إلى قسمين: قسم بحري قام بنقل المدافع والألغام من أجل إحداث أضرار بالحصون ليسهل اقتحامها، وقسم آخر يضم الجنود حيث اتخذ طريق البر وكلما مر بمنطقة من المناطق انضم إليه الكثير من المتطوعين الراغبين في الجهاد، والذين قدر عددهم حسب بعض الروايات بـ17 ألف متطوع[4]، بالإضافة إلى قوات مصطفى بوشلاغم المقدرة بحوالي 2500 جندي تركي***، والتي كانت

---

1 - يحي بوعزيز: مدينة وهران...، المرجع السابق، ص 54.

2 - عبد الرحمن الجامعي: المصدر السابق، ص ص 77، 78.

* - يبدوا الرغم مبالغ فيه كثيرا.

3 - جون وولف: المرجع السابق، ص376.

** - يشير جون وولف أن الهدف الأساسي من الانضمام إلى الجيش النظامي هو إحساس هؤلاء المتطوعين من البربر كما سماهم أنه بإمكانهم النهب والحصول على الأموال، لكن لا ندري من أين له هذا الاستنتاج، خاصة وأن الناس في ذلك الوقت كانت تنظر إلى هذا الأمر على أساس أنه جهاد مقدس يجب القيام به، يدفعهم في ذلك حب الاستشهاد نتيجة للدور الذي قام به العلماء والفقهاء في توضيح مراتب الشهداء في الآخرة وأهمية الجهاد في سبيل الله، لكن هذا هو ديدن الأوروبيين يربطون دائما هذه الأمور بالأمور المادية التي تستهوي الناس في بلاد المغرب

4 - عبد الرحمن الجامعي: المصدر السابق، ص91.

*** - ذكر الجامعي أن عدد الفسطاط بلغ 300 فسطاط في كل فسطاط 25 رجلا، فإذا ضرب إحداهما في الآخر تحصلنا 7500 رجلا وهذا عدد العسكر الراتب القادم من الجزائر، فيما ذكر المشرفي عبد القادر الجزائري أن مصطفى بوشلاغم حاصر المدينتين بـ 100 فسطاط في كل فسطاط 25 رجلا، و لم يذكر لنا بكم أمده محمد بكداش من الجيش، ومع ذلك لا تناقض بين الروايتين لأن أحمد توفيق المدني وضح هذا=

تحاصر المدينتين في عهد حسن باشا الذي لم يدعم القوات المحاصرة[1]، وإذا استندنا إلى هذه الروايات فإن عدد الجيش الذي قام بتحرير وهران والمرسى الكبير بلغ حوالي 27 ألف مقاتل، منهم 10 آلاف جنـــدي نظـــامي و17 ألف متطوع، يتقدمهم طلبة العلم وحفظة القرآن الكريم الذين كانوا أشد الناس مسارعة لإجابـــة نـــداء السلطان للجهاد، وكانت شوكتهم على الكفار أقطع من الرماح، وبلغ عددهم ما بين 700 و 1000 مقاتل.[2]

وبعد الإعداد الجيد لكل ما يلزم الجيش انطلـــق باتجـــاه الغـــرب الجزائـــري، في أول صـــفر عـــام 1119هـ/1707م بغرض تدعيم الحصار الذي فرضه مصطفى بوشلاغم منذ سنة 1116هـــ/ 1704م ومهاجمـــة المدينتين وتحريرهما، وقطع الطريق على القبائل المتحالفة مع الإسبان، والتي أفتى بعض العلماء في أخـــذ أموالهـــا وقتل رجالها لخيانتهم وتعاونهم مع العدو[3]، فيما ركب حسن أوزان البحر وأخذ معه المدفعية، وانطلـــق مـــن مدينة الجزائر في محرم 1119هـ[4]، وكان نزول جيشه بمرسى أرزيو ثم يتوجه بعدها إلى وهران من البر لأنـــه لا يمكن حصارها من جهة البحر لإحالة الجنود الإسبان بينهم وبينها.[5]

وبوصول الدعم من مدينة الجزائر بقيادة حسن أوزان التأم شمل كل القوات الجزائرية وتم ذلك يوم 14 جوان 1707م وبدأت مباشرة في إحكام الحصار على القوات الإسبانية، وأسندت القيادة العامة للجيش لحســـن أوزان وإدارة العلميات العسكرية على الأرض لمصطفى بوشلاغم الذي كان يعرف كل كبيرة وصغيرة عـــن المنطقة وكيفية تحرك القوات الإسبانية وأتباعها، خاصة وأنه كان البادئ في ضرب الحصار عليهم، بدعم مباشر من باشا الجزائر محمد بكداش[6] الذي لم يكن مشاركا في عملية الفتح بطريقة مباشرة.*

=الإشكال حيث قال: أن الباشا محمد بكداش أرسل جيشا جزائريا مؤلفا من 7500 رجل، وبعملية حسابية يكون عدد الجيش النظامي قد بلغ حوالي 10آلاف بالإضافة إلى آلاف المتطوعين...،للمزيد ينظر: عبد الرحمن الجامعي: المصدر السابق، ص90؛ المشرفي عبد القادر الجزائري: المصدر السابق، ص39؛ أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص436.

1 – المشرفي: المصدر السابق، ص39.

2 – عبد الرحمن الجامعي: المصدر السابق، ص ص 87، 89.

3 – المشرفي عبد القادر الجزائري: المصدر السابق، ص 36.

4 – محمد السعيد بوبكر: المرجع السابق، ص89.

5 –أحمد بن عبد الرحمن الشقراني الراشدي: المصدر السابق، ص68.

6 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص426.

* – السؤال الذي يطرح نفسه هو لماذا تغيب الداي عن قيادة عملية الفتح؟ لكن الملاحظ أن الجزائر كانت في هذه الفترة تمر بمرحلة مضطربة خاصة نظام الحكم بها، وازدياد المؤامرات والدسائس من طرف الإنكشارية، ولذلك يذهب جون وولف أن الداي أراد أن يشغلهم بعملية الفتح حتى لا يثوروا ضده مثل سابقيه، وهذا ما ذهب إليه ابن ميمون، وإلا ما كان له ليتأخر ويترك فرصة المشاركة والفوز بمجد هذا النصر وتخليد اسمه في عملية الفتح...، للمزيد ينظر: جون وولف: المرجع السابق، ص 370؛ ابن ميمون محمد الجزائري: التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص219.

4- مراحل عملية الفتح

أ-المرحلة الأولى: فرض الحصار

ابتدأ حصار المدينتين منذ سنة 1704م بقيادة مصطفى بوشلاغم الذي كان شغله الشاغل تحرير المدينتين، لذلك أحكم الحصار على القوات الإسبانية، على الرغم من أنه لم يكن ذا فاعلية كبيرة، إلا أنه استطاع أن يقلل من نشاط القبائل المتعاونة مع الإسبان، ويضطرهم لتقليل تحركاتهم والانغلاق على أنفسهم ومنعهم من التزود بالمؤن الضرورية التي كانت تذهب في مجملها للقوات الإسبانية، التي اضطرت لطلب المدد من إسبانيا عن طريق البحر بدل الاعتماد على هذه القبائل التي أصبحت في وضع حرج نتيجة هذا الحصار.

ومع وصول المدد من الجزائر في شهر ربيع الأول 1119هـ /14 جوان 1707م[1] زاد إحكام الحصار على وهران من كل الاتجاهات ما عدا جهة البحر، حيث قامت العساكر الجزائرية بحفر الخنادق حول المدينة وخاصة جهة الأبراج[2]، حتى يسهل مراقبتها وقذفها بالمدافع من أجل إحداث أضرار جسيمة بها لتسهيل عملية الهجوم فيما بعد، وهكذا أصبحت القوات الإسبانية في مأزق حقيقي ولم يبق لها إلا المنفذ البحري كملجأ أخير للتزود بالسلاح والمؤن.

لذلك يعتبر هذا الحصار أداة فعالة في إنهاك القوات الإسبانية والقبائل المتحالفة معها، التي اضطرت للامتناع عن دفع الضرائب للإسبان وتزويدهم بالمؤن نتيجة تضررها من الحصار، خاصة وأن مدته زادت عن أربع سنوات متتالية، مما كان له الأثر السلبي على القوات الإسبانية المتحصنة داخل المدينة.

ب- المرحلة الثانية: تحرير الأبراج

تعتبر الأبراج من أهم الوسائل لحماية أية مدينة تم احتلالها من طرف الإسبان، حيث شكلت دورا فعالا في إطالة أمد الاحتلال الإسباني لوهران والمرسى الكبير، وعجزت القوات الجزائرية طلية قرنين من الزمن في اختراقها وتدميرها، نتيجة لاهتمام الإسبان بها وتجديدها في كل مرة، إلا في بداية القرن الثامن عشر نتيجة للاضطرابات الداخلية التي كانت تعيشها إسبانيا مما أثر على قواتها بوهران، خاصة تجديد الحصون والاهتمام بها، وقد عُرفت وهران بوجود عدة حصون كبرى منها: برج العيون، "بني زروال"، برج المونة أو برج اليهودي، برج تيريز، برج الأمحال أو "القصر الأحمر"، برج الصبايحية أو "البرج الجديد"، برج القديس ميقيل أو "برج الفرانسيس"، برج الجبل أو "برج مرجاجو"، برج حسن بن زهوة أو "برج سانتا باربرا".[3]

---

1 - محمد بن ميمون الجزائري: المصدر السابق، ص212.

2 - عبد الرحمن الجامعي: المصدر السابق، ص39.

3 - يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص ص 87، 92.

ب-1-تحرير حصن العيون*

يعتبر هذا الحصن من أهم الحصون الموجودة بوهران لوجود عيون الماء به، والتي تزود مدينة وهـــران بالماء، لذلك كان الهدف الأول للقوات الجزائرية المهاجمة بقيادة حسن أوزان، الذي أمر قواته بضرب حصـــار شديد عليه بتاريخ 15 ربيع الأول 1119هـــ الموافق لــ 14 جوان 1707م، وقاموا بهدم مجاز الماء الذي يأتي إلى وهران من خارج المدينة إلى وسطها[1]، لتسهيل عملية الحصار ومنع الإسبان من التزود بالماء، لتنطلق المعركـــة الفاصلة بين الطرفين، حيث بدأت القوات الجزائرية بقصف الحصن بالمدافع والقنابل وأحـــدثوا فيـــه أضـــرارا جسيمة مما سهل عليهم اقتحامه.[2]

دارت معركة كبيرة بين الطرفين داخل الحصن أبلى فيها الطرفان بلاء حسنا، إلا أن الغلبة في الأخـــير كانت للجزائريين الذين كبدوا الإسبان خسائر بشرية كبيرة، الذين نال منهم التعب ونقص المؤونة نتيجة طول الحصار، فما كان منهم إلا الاستسلام وإعلان الطاعة، وطلبوا الأمان من الأمير، وقدر عـــددهم بحـــوالي 107 مقاتل وبعض النسوة[3]، وكان هذا الفتح عشية 10 جمادى الثانية 1119هــ الموافق لــ 08ســـبتمبر 1707م[4] وفي ذلك يقول الجامعي:

فَكَانَ بَاكُورَةَ ذَلِكَ الفَتْـــــحِ بُرْجَ العُيَونِ فَامِنًا لِلنَّجْـــحِ
عَاشِرَ يَوْمٍ مِنْ جُمَادَى الأُخْرَى يَوْمَ الثُلاَثَاءْ مَسَاءَ فَسَـــرَا.[5]

وككل معركة تكبد الطرفان الكثير من الخسائر المادية والبشرية، فمن الجانب الإسباني كـــان عـــدد الأسرى ما بين 320 و 540، أما عدد الجرحى فكان 27 جريحا منّ عليهم حســـن أوزان وأطلـــق ســـراحهم وبعثهم إلى أهلهم تفضلا منه، أما عدد القتلى فكان حوالي 40، فيما فقد الجيش الجزائري حوالي 200 شهيد[6]

* - أسسه الحاكم الإسباني الماركيز دقوماريس "Le Marquise de gomarés" سنة 1509م في الجنوب الشرقي للمدينة بأعلى وادي الرحى على الضفة الشرقية وسماه الإسبان برج القديس "Château des saints" ثم فيما بعد برج القديس فليب " le fort saint Philip" وقد بني على ربوة عالية تشرف على المدينة من الجنوب الشرقي، وتشرف على ما ورائها من المناطق الأخرى في الجهة الشرقية، وكان هدفا رئيسا لهجومات القوات الجزائرية منذ تأسيسه، فقد هاجمه حسن قورصو وهدم جزء منه سنة 1556م، ثم هاجمه حسن بن خير الدين عام 1563م وهدمه تماما...، يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص89.

1 - أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص424.

2 - محمد ابن ميمون الجزائري: المصدر السابق، ص 213.

3 - عبد الرحمن الجامعي: المصدر السابق، ص 96.

4 - محمد ابن ميمون الجزائري: المصدر السابق، ص215.

5 - عبد الرحمن الجامعي: المصدر السابق، ص96.

6 - نفسه، ص ص 99، 100.

مما يدل على استبسال الإسبان في الدفاع عن الحصن وشجاعتهم وبأسهم في القتال، وبعد هذا الانتصار، الذي وصلت أخباره إلى الجزائر، أقيمت الأفراح ابتهاجا بهذا النصر الذي انتظروه كثيرا.

ب-2- تحرير حصن الجبل*

بعد السيطرة على برج العيون وتحصينه جيدا وتشديد الحراسة عليه وتطهيره من الإسبان وعملائهم، واصلت القوات الجزائرية زحفها مُحاوِلة السيطرة على أبراج جديدة، وكان الدور هذه المرة على برج الجبل (مرجاجو) فحاصروه من كل جانب وحفروا حوله خندقا، وابتدأ الهجوم الفاصل يوم 25 جمادى الأخرى 1119هـ الموافق لـ 22 سبتمبر 1707م[1]، ودارت معارك عنيفة حاول فيها كل طرف إلحاق الهزيمة بالآخر، وفي الأخير أدرك الإسبان أن المقاومة لا تجدي نفعا أمام إصرار الجزائريين على افتكاك البرج وإلحاق الهزيمة بهم.[2]

وبعد ثلاثة أيام من القتال أعلن الإسبان الإستسلام وتسليم البرج في 27 جمادى الأخرى 1119هـ الموافق لـ 28 سبتمبر 1707م[3]، وقد استطاع الجزائريون أسر 107 مقاتل و 3 نساء، ونقلوا إلى البرج أسلحتهم وأثاثهم وأطعمتهم[4]، وقد سكتت المصادر الإسلامية على ذكر خسائر الجزائريين في هذه المعركة.

ب-3- تحرير حصن ابن زهوة**

يعتبر هذا الحصن من أهم الحصون التي شيدها الإسبان بوهران لمقاومة أي محاولة للجزائريين في استعادة المدينة، وبالموازاة مع محاولة تحرير حصن مرجاجو، أمر حسن أوزان الجيش الجزائري بحصار برج بن زهوة وكان ذلك بالتاريخ 22 جمادى الأخرى 1119هـ[5]، ثم بدؤوا في مهاجمة البرج، إلا أن الإسبان قابلوهم بمقاومة ضارية وعنيفة، واستطاعوا الوقوف في وجه هجمات الجزائريين المتواصلة وخلفوا بين صفوفهم المئات

* - يسمى أيضا برج مرجاجو أسسه الإسبان على قمة جبل سيدي هيدور فوق برج حسن بن زهوة، وقد اختلف الراويات التاريخية في سنة تأسيسه فقد ذكر كيجل سنة 1557م، أما ديدي فذكر سنة 1577م، أما بيبيس فقد ذكر أنه شيد ما بين 1698م و 1708م، واستعمل الإسبان في بنائه الحميانيين الذين كانوا ينقلون المياه على ظهورهم وذلك بإيعاز من أحد شيوخهم الذي كان مواليا للإسبان، وبعد أن انتهوا من بنائه أطلقوا عليه اسم القديس كروز "Santa cruz" ، وبه 300 مدفع نظرا لموقعه المشرف على المدينة وميناءها، يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص91.

1 - ابن ميمون محمد الجزائري: المصدر السابق، ص 217.

2 - أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 228.

3 - ابن ميمون محمد الجزائري: المصدر السابق، ص207.

4 - عبد الرحمن الجامعي: المصدر السابق، ص74؛ أما ابن ميمون محمد الجزائري فقد ذكر أن عدد الأسرى كان 106 رجال و 6 نسوة، ص207.

** - بناه الإسبان عام 1589م، على ربوة صغيرة جنوب برج المونة وشمال برج الجبل على سفح جبل مرجاجو، وأطلق عليه اسم القديس قريقوري"San Gregorio"، به 301 مدفع لحراسة طريق المرسى الكبير الذي يمر بالقرب منه...، يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص90.

5 - ابن ميمون محمد الجزائري: المصدر السابق، ص221.

من الشهداء والجرحى، واستمرت المعارك لمدة 8 أيام كاملة[1]، ومع استحالة اختراق هذا البرج طلب حسن أوزان المدد من الباي مصطفى بوشلاغم الذي قدم بمحلته ونزل بالتراب الأحمر المقابل لبرج بن زهوة، ثم بدأت قواته في حفر مفارز وصناعة مصاعد من الحطب لتسلق البرج، واستطاعوا عزله وقطع المدد عنه من جهة البحر[2]، فاضطر الإسبان للخروج من وهران لمهاجمة الجزائريين من أجل فك الحصار، خاصة أنهم تكبدوا خسائر كبيرة ونال منهم التعب نتيجة للمقاومة المستميتة التي قاموا بها، لأن الهجمات الجزائرية كانت متواصلة بشكل دائم.[3]

بعد هذه المعارك الضارية تأكد الجزائريون أنهم لا يستطيعون تحرير البرج إلا بتلغيمه تحت الأرض، لذلك أمر حسن أوزان بحفره وكانت الأرض صلبة لذلك وجد الحفَّارون مشقة عظيمة في حفره، ولما أتموا ذلك زرعوا اللغم وقاموا بتفجيره لكنه لم يُحدث الضرر المطلوب، ولما قام الجزائريون بالهجوم ردهم الإسبان بكل قوة وعنف واستطاعوا أن يلحقوا بهم خسائر فادحة، لذلك اضطر الجزائريون لإعادة زرع اللغم مرة ثانية وفشلوا مرة أخرى إلى أن كانت المرة الثالثة، فانفجر البرج وهاجمه الجزائريون لكن الإسبان ظلوا يقاومون ببسالة إلى أن استطاع الجزائريون السيطرة على البرج[4] ، وقتلوا كل من كان بداخله، وكان ذلك يوم الثلاثاء 05 شعبان 1119هـ الموافق لـ 06 نوفمبر 1707م[5][*] ، وقد استشهد حوالي 200 من المقاتلين أكرمهم الله برضوانه، أما من جانب الإسبان فلقد تكبدوا الكثير من الخسائر في الأرواح زادت عن 120 قتيل، فيما فرَّ 8 واستجاروا بحَرم الباي مصطفى بوشلاغم خوفا من الموت.[6]

---

1 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص422.

2 – عبد الرحمن الجامعي: المصدر السابق، ص76.

3 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص429.

4 – ابن ميمون محمد الجزائري: المصدر السابق، ص 222؛ عبد الرحمن الجامعي: المصدر السابق، ص77.

5 – نفسه.

* – الملاحظ أن عملية الفتح دامت تقريبا شهرين من الزمن وهذا دليل على بسالة المقاومة الإسبانية وصمودها هذه المدة على الرغم من الخسائر التي تكبدتها، بالإضافة لحصانة هذا البرج، وعلى الرغم من طول مدة الحصار والخسائر الفادحة التي تلقاها الجزائريين إلا أن إصرارهم على فتح البرج كان أكبر وفي الأخير كان لهم ما أرادوا.

6 – عبد الرحمن الجامعي: المصدر السابق، ص77.

ب-4-تحرير البرج الجديد (الصبايحية)*

واصل الجيش الجزائري سياسة تحرير الحصون التي كانت تشكل العقبة الرئيسية في تحرير مدينة وهران ودامت مدة حصار هذا البرج 8 أيام، مما اضطر الإسبان الموجودين فيه للاستسلام بدون مقاومة تذكر، فيما فضل بعضهم الهروب إلى البرج الأحمر[1] فيما أخذ المهاجمون مسيرهم حتى وصلوا إلى كنيسة سانتا ماريا وقاموا بالاستيلاء عليها، وأصبح قسم كبير من مدينة وهران تحت سيطرتهم وهو القسم الموجود ما بين البرج الجديد والبرج الأحمر، وبذلك أصبحت المعارك تدور داخل أسوار وشوارع مدينة وهران[2]، وبعد السيطرة على هذا البرج أصبح من الواضح أن سقوط مدينة وهران بيد الجيش الجزائري أمرا لا مفر منه، ولا يتطلب إلا مزيدا من الصبر والعزيمة حتى يتحقق لهم ما عجزوا عن تحقيقه طيلة قرنين ونيّف من الزمن.

ب-5-فتح البرج الأحمر (الأمحال)**

بعدما استطاع الجزائريون فتح البرج الجديد فكروا مباشرة في مواصلة عملية الفتح حيث استطاعوا السيطرة على البرج الأحمر في يوم واحد، على الرغم من الصبر والمقاومة التي أبداها الإسبان في الدفاع عنه فقد قاوموا من المساء إلى الصباح، لكنهم تأكدوا من استحالة مواصلتهم المقاومة فطلبوا الأمان، وفي ذلك يقول ابن ميمون: «...ولما بصروا بفتح المدينة، تمزّقت قلوبهم بضربة مكينة وتشاوروا فيما بينهم، ورأوا أن الهلاك يفضي إليهم، لكنهم أظهروا التجلد فحاربوا يوم الفتح، من المساء إلى الصباح ثم مكثوا هنيئة من الزمان، وطلبوا الأمان من الموت وأسفا على ما يفقدونه بطول المدة، وخرج النصارى وصاروا أسرى نحو 560 وألقوا أسلحتهم....».[3]

---

* – أسسه الإسبان سنة 1693م قرب باب الجبارة بين البرج الأحمر وبرج رأس العين، على الضفة الشرقية لوادي الرحى، لمراقبة قرية إيفري العربية على الضفة اليسرى للوادي ومراقبة المناطق الشرقية أيضا، كان بها 36 مدفع ثم زاد عددها ليصل إلى 100مدفع، لأهميتها العسكرية في الدفاع عن المدينة، أطلق عليها الإسبان اسم القديس أندري "le fort saint kandre"، يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص 86.

1 – الشافعي درويش: المرجع السابق، ص93.

2 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 430.

** – يعود تشييده إلى العصر الوسيط حيث وضع نواته الأولى تجار البندقية واتخذوه كمركز تجاري يربطهم مع بلاد المغرب الإسلامي الأخرى، وقيل صممه وبناء مهندس معماري مالطي بأمر من القديس ملك بيت المقدس أثناء فترة الحروب الصليبية، وعندما سيطر أبو الحسن المريني على المنطقة ما بين 1331-1339م اعتنى حلفاؤه بهذا البرج وبرج المرسى الكبير وحصنوهما وطوروهما واتخذوهما كقاعدة للنشاط الإسلامي من أجل الدفاع عن المدينة وباقي مدن بلاد المغرب الإسلامي، وعندما احتل الإسبان المدينة اتخذوه مقرا لحكمهم سنة 1509م، وسموه روزا الكزار "Rosalacazar"...، يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص87.

3 – محمد ابن ميمون الجزائري: المصدر السابق، ص238.

ج – المرحلة الثالثة: فتح مدينة وهران

بعد السيطرة على الأبراج أصبحت مدينة وهران مكشوفة للجزائريين، خاصة بعد عجز القوات الإسبانية الدفاع عن الأبراج ومنعها من السقوط خاصة وأنها كانت تحمي المدينة، وأصبحت معارك ضارية تدور بين الطرفين داخل المدينة ذاتها وتمكن الجيش الجزائري من الوصول إلى قصبة المدينة، وبعد قطع كل الأشجار القريبة منها لتأمين الطريق من الهجمات المباغتة للإسبان[1]، كما استطاعوا أن يعطلوا كل اتصال بين المدينة والأبراج المتبقية بيد الإسبان مثل برج مرزاق وأبراج الأحبة[2]، وبذلك عزلوا المدينة ومن فيها عن الخارج حتى يسهل لهم السيطرة عليها بالكامل.

وبدا أمر الدفاع عن المدينة للإسبان هو الحل الوحيد لهم لإنقاذ أنفسهم من موت محقق وهزيمة نكراء سوف تلحق بهم من طرف الجزائريين الذين اندفعوا حتى يحرزوا النصر الذي انتظروه كثيرا أمام دهشة الإسبان الذين استسلموا أخيرا، أما الحاكم العام لوهران الدون ملشوردي أفيلاندا «Don Melchior de Avelaneda» الذي استطاع الفرار من قبضة الجزائريين، وركب البحر باتجاه المرسى الكبير ومنه إلى إسبانيا.[3]

ومع أن قائد الحامية آثر الفرار إلا أن بقية الجنود واصلوا المقاومة والدفاع عن أهم القلاع والأماكن المقدسة بالنسبة للإسبان، خاصة كنيسة سانتا ماريا التي استطاع الجيش الجزائري السيطرة عليها –بمساعدة الطلبة الذين شاركوا في هذه المعارك– وقتل الكثير من حراسها إلا 40 مقاتلا أعلنوا استسلامهم لحسن أوزان وبذلك زاد الجيش الجزائري إحكام قبضته على المدينة.[4]

دارت معارك طاحنة بين الطرفين استطاع خلالها الجيش الجزائري إلحاق الهزيمة النهائية بالإسبان الذين اضطروا في الأخير إلى الاستسلام نتيجة لخوفهم واضطرابهم، وتم الاستيلاء على المدينة التي دخلها حسن أوزان خليفة محمد بكداش وعسكره (المنصور بالله) في اليوم الأول من شوال سنة 1119هـ الموافق لـ 20 جانفي 1708م، واستطاع الجيش الجزائري الفاتح أسر 560 إسباني بعد أن ألقوا أسلحتهم.[5]

وبهذا الانتصار استطاعت القوات الجزائرية بقيادة حسن أوزان ومصطفى بوشلاغم فتح وهران بعد أن عجز عن ذلك أسلافهم لمدة قاربت القرنين من الزمن، و لم يبق لهم لتحرير كامل المناطق الساحلية الجزائرية إلا المرسى الكبير الذي سوف توجه له كل الجهود لتحريره.

---

1 – عبد الرحمن الجامعي: المصدر السابق، ص118.

2 – الشافعي درويش: المرجع السابق، ص92.

3 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 459؛ أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 431.

4 – عبد الرحمن الجامعي: المصدر السابق، ص119.

5 – محمد ابن ميمون الجزائري: المصدر السابق، ص228.

د – المرحلة الرابعة: تحرير المرسى الكبير*

بعد أن أحكم الجيش الجزائري الفاتح قبضته على مدينة وهران، كانت وجهته القادمة المرسى الكبير وهو آخر معقل للإسبان في السواحل الجزائرية، لذلك قرر الجنود الإسبان الفارين من مدينة وهران اللجوء إليه والاستمرار في المقاومة وعدم تسليمه حتى الموت، وقدر عددهم بـ 3 آلاف جندي.[1]

وأول عمل قام به أوزان حسن إعطاء أوامره لقادة الجيش لمحاصرة المرسى الكبير من ناحية البر والبحر وتنصيب المدافع والقنابل، والبدء في قصف برج المرسى، لكنه لم يحقق نتيجة تذكر، فقرر فيما بعد حفر خندق حول المرسى الكبير حتى تسهل عليه مراقبته وقصفه وإحكام القبضة عليه، إلا أن الجزائريين قوبلوا بمقاومة شديدة من طرف الإسبان.[2]

ومع استحالة السيطرة على برج المرسى أمر حسن أوزان بوضع الألغام تحت حصن المدينة وقاموا بتفجيرها لكنها لم تأتي بالنتيجة المرجوة، فأعادوا حفر اللغم مرة ثانية وقاموا بتفجيره وكان مصيره مثل اللغم الأول، فأعادوا المحاولة مرة ثالثة ورابعة نجحوا بعدها في إحداث أضرار بالحصن وهاجموه[3] وكان ذلك يوم الجمعة 24 ذي الحجة 1120هـ الموافق لـ 10 أفريل 1708م ودارت معارك طاحنة بين الجزائريين والإسبان، انتهت باستسلام الإسبان وقتل معظم من كان في الحصن من الجنود والمدافعين عنه، وكان عددهم حوالي 3 آلاف رجل وامرأة، فيما أباح مصطفى بوشلاغم دماء المغطسين من بني عامر الذين كانوا يتعاونون مع الإسبان منذ احتلالهم لوهران والمرسى الكبير.[4]

وبطرد الإسبان من المرسى الكبير آخر معاقلهم بالسواحل الجزائرية كانت نهاية الوجود الإسباني بعد احتلال دام حوالي قرنين من الزمن، وبذلك تم توحيد التراب الجزائري لأول مرة منذ بداية التواجد العثماني الرسمي سنة 1519م، وبإعلان تحقيق هذا النصر سارت الرسل تستبشر به، وأقيمت الأفراح في كامل تراب الإيالة وفي ذلك يقول عبد الرحمن الجامعي: «... ولما أقبلت رسل البشائر وتُليت صحف فتحها على الأمير وعمَّ الخطاب بالفرح جميع المؤمنين بلسان البشير، أمر الأمير نصره الله محمد بكداش بصنع وليمة الفتح وعيده

* – سماه الإسبان باب سانتون " porte du Santon " يقع في غرب مدينة وهران من القصبة على سفح الجبل وما زال قائما حتى اليوم مع جزء من الصور الذي يعلوا القصبة، يؤدي إلى برج حسن وبرج الجبل...، محمد ابن ميمون الجزائري: المصدر السابق، ص 134.

1 – عبد الرحمن الجامعي: المصدر السابق، ص130.

2 – نفسه.

3 – محمد ابن ميمون الجزائري: المصدر السابق، ص235.

4 – للتوسع في هذا الموضوع ينظر إلى كتاب بهجة الناظر لصاحبه المشرفي عبد القادر الجزائري الذي تكلم فيه بالتفصيل عن هذه القبائل المتعاونة مع الإسبان، وأيضا أحمد بن عبد الرحمن الشقراني الراشدي: المصدر السابق، ص ص 63، 66.

وتسريح من كان في هم وعيده (السجناء)، وتزيين سوق البلد وتجديده، وتعطيل البيع والشراء، وقطع الجدال والمراء، ورفع الأحكام، وتنويع اللباس والطعام».[1]

5- نتائج تحرير وهران والمرسى الكبير

1. الجهد المبذول من طرف الدولة العلية وخلفائها من الدايات والبايات في سبيل تحرير كامل التراب الجزائري، بعد أن أصبح الصراع مركّزا في الجهة الغربية على وهران والمرسى الكبير، وبهذا الفتح تحقق الهدف الذي عمل الجزائريون عليه طيلة قرنين من الزمن، ليتم أخيرا إتمام وحدة التراب الجزائري، ويتم بذلك لأول مرة خضوع كامل السواحل الجزائرية للسلطنة العلية.
2. تأكيد الخضوع الجزائري للسلاطين العثمانيين، وقد تمثل ذلك في إرسال مفاتيح وهران إلى السلطان العثماني، الذي فرح بهذا النصر، وأعلن الأفراح بكامل السلطنة، دليلا على اعتباره أن وهران قطعة من تراب الدولة العلية.
3. نقل عاصمة بايلك الغرب الجزائري من معسكر إلى وهران، وبذلك تأكيد السيادة الجزائرية عليها ودليلا على وحدة كامل التراب الجزائري.
4. إخضاع كامل القبائل المتعاونة مع الإسبان والقضاء على سلطتهم في بعض المناطق بالغرب الجزائري.
5. تكبدت إسبانيا جراء هذه العمليات خسائر بشرية ومادية فادحة تمثلت في 1230 أسير كما ذكر الجامعي موزعين كما يلي:
   - برج العيون 540 أسير.
   - برج مرجاجو 120 أسير منهم ثلاثة نسوة.
   - برج بن زهوة 9 أو 8 أسرى.
   - البرج الجديد 400 أسير.
   - البرج الأحمر 160 أسير.[2]

أما يحي بوعزيز فذكر حوالي 461 أسير في كل من وهران والمرسى الكبير[3] ولا ندري من أين له بهذا العدد، مع أن المصادر ذكرت أكثر من ذلك بكثير، أما عزيز سامح ألتر نقل عن تاريخ رشيد المجلد الثالث أن

1 - عبد الرحمن الجامعي: المصدر السابق، ص ص 123، 124.
2 - نفسه، ص 128.
3 - يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص55.

عدد الأسرى بلغ حوالي 400 أسير من الإسبان و2200 من القبائل المرتدة[1]، أما عدد القتلى فلم تذكر المصادر العدد بالضبط، فيما ذكرت المراجع عدد 3 آلاف قتيل من الإسبان في المرسى الكبير وحده، و15 ألف قتيل من الإسبان والمتعاونين معهم، وأكثر من 1200 أسير مرتد من العرب.[2]

6. فقدت الجزائر حوالي8 آلاف شهيد.[3]
7. الاعتراف الفرنسي البريطاني بهذا النصر والتسابق في تقديم الهدايا للداي محمد بكداش، فقد قدم القنصل الفرنسي قطعة من القماش الراقي، فيما قدم القنصل الإنجليزي هدايا قيمتها على الأقل 500 يباشر[4]، وبالتالي الاعتراف بقوة الإيالة ومن ثم التسابق فيما بينهما للحصول على أكبر قدر ممكن من الامتيازات.
8. خُلدت هذه الملحمة التاريخية عند الشعراء سواء الشعر المنظم أو الملحون ومن أولئك الشعراء أحمد الفيلالي وأبو عبد الله محمد ابن عبد المؤمن الحسني الجزائري.[5]

المبحث الثاني: إعادة احتلال المرسى الكبير ووهران سنة 1732م

1– حملة الكونت دي مونتماريا واحتلال المدينتين

على الرغم من مرور أكثر من 24 سنة على مغادرة الإسبان لوهران والمرسى الكبير، إلا أنهم لم ينسوا هزيمتهم أمام الجيش الجزائري، وكانوا يعتبرون وهران والمرسى الكبير ملكية خاصة تابعة للعرش الإسباني لأنهم مكثوا بهما أكثر من 200 سنة، وتمثلان بعدا استراتيجيا وبوابة لبلاد المغرب والجهة الشرقية للمتوسط ومركزا متقدما في مواجهة الخطر العثماني الجزائري، وفخرا بقي الإسبان يتباهون به أمام أوروبا كلها، لأن العثمانيين والجزائريين عجزوا عن استردادهما، قبل نجاحهم في ذلك سنة 1708م.

لذلك قرر الإسبان إعادة احتلال وهران والمرسى الكبير من جديد، خاصة وأنه كان مطلبا مسيحيا تقف من ورائه الكنيسة الكاثوليكية بروما التي كانت تحشد لهذا العدوان الجديد، واضعة نصب عينيها نجاح الحملة، لذلك كانت الاستعدادات حثيثة ومتواصلة بجد، ولم يتركوا أدنى احتمال لفشلها لأنها كانت تعني لهم

1 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 461.
2 – يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص55.
3 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 461.
4 – جون وولف: المرجع السابق، ص 379.
5 – الجيلالي سلطاني: "قراءة في أرجوزة الحلفاوي في فتح وهران من خلال مخطوط شرح الجامعي للأرجوزة"، **المجلة الجزائرية للمخطوطات**، ع5، مجلة علمية محكمة، جامعة وهران، الجزائر، 2011م، ص ص 41،40

في حالة فشلها انهيار أوروبا وإسبانيا، ولذلك سخرت لهذه الحملة إمكانيات بشرية وعسكرية هائلة، من أجل الانتقام لشرف الإسبان المهدور سنة 1708م على يد الجيش الجزائري.

2 –الوضع العام للبلدين قبيل الحملة الإسبانية

أ–الجزائر

تعتبر سنة 1710م حدثا بارزا ومفصليا في تاريخ الجزائر الحديث،لأنه يمثل بداية الانفصال الرسمي للإيالة الجزائرية عن الدولة العلية، وبداية مرحلة جديدة من تاريخ الجزائر، وقد تداول على حكم الجزائر خلال الفترة الممتدة من 1708م إلى 1732م أربع دايات، تميزت فترة حكمهم بعدم الاستقرار والفوضى نتيجة لتدخل الإنكشارية وفرض سيطرتها ومؤامراتها على الدايات.

ومع أن هذه الفترة تميزت بالفوضى والاضطرابات، إلا أن بايلك الغرب كان يعيش استقرار تاما بفضل مجهودات الباي مصطفى بوشلاغم الذي بقي على رأسه مدة أكثر من 24 سنة اجتهد فيها على تجديد عمران المدينة وإعادة وجهها الإسلامي، وعمل قدر المستطاع على تدعيم مركزه بوهران وباقي جهات الغرب الجزائري.[1]

أما خارجيا فقد تميزت بتوتر العلاقات مع الدولة العلية نتيجة لرفض علي شاوش مبعوث السلطان لتولي حكم الإيالة بحجة أن الجزائر ليست بحاجة لرجل غريب يحضر مجلس حكومتها، وقبل السلطان العثماني على مضض هذا القرار، ووافق على تعيين علي شاوش باشا على الجزائر.[2]

أما فيما يخص العلاقات الجزائرية الأوروبية فقد كانت متوترة مع فرنسا ومستقرة نسبيا مع هولندا وإنجلترا والسويد، وأبرمت هذه الدول صلحا مع الجزائر سنة 1730م، و لم يتبق إلا فرسان مالطة بحكم ولائهم لإسبانيا[3] وبدأت موازين القوى تختل بين الجانبين الأوروبي والجزائري، و استغلت فرنسا وإنجلترا توقف حرب الوراثة الإسبانية وقامتا بتطوير قواهما البحرية واستطاعتا امتلاك سفن بحرية فائقة التطور في ذلك الوقت تحمل على متنها حوالي 100 مدفع، سماها جون وولف "قلعة عائمة"[4]، فيما كانت السفن الجزائرية لا تتعدى حمولتها 50 مدفع، وبداية من هذه الفترة ستختل الموازين بين الطرفين جذريا مما سيكون له انعكاس خطير على الإيالة الجزائرية خاصة، والإيالات المغاربية عامة.

---

1 – يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص 55.

2 – جون وولف: المرجع السابق، ص 382.

3 – يحي بوعزيز: علاقات الجزائر...، المرجع السابق، ص97.

4 – جون وولف: المرجع السابق، ص 383.

ب-إسبانيا

حكم إسبانيا في هذه الفترة فيلب الخامس (1700-1724م) حفيد الملك الفرنسي لويس الرابع عشر حيث عانت في هذه المدة من أزمة سياسية حادة تدخلت فيها الكثير من الدول الأوروبية طمعا في وراثة العرش الإسباني، وكانت هذه الأزمة أوربية بالدرجة الأولى، ومع ذلك فقد استفادت إسبانيا التي كانت تعاني من تراجع رهيب في قدراتها العسكرية، فبسبب حرب الوراثة هذه، استفاد جيشها من تلقي مساعدات مادية وعسكرية، خاصة تدريب الجيش من طرف ضباط الجيش الفرنسي مما مكن إسبانيا إحداث نوع من التوازن بينها وبين الإيالة الجزائرية في المتوسط، خاصة وأنها كانت عاجزة عن حماية جيشها الموجود بوهران سنة 1708م، ومع أن هذه المساعدات أعطت دفعا جديدا لإسبانيا في مواجهة الجزائر إلا أنها لم تكن بالقدر الكافي لكي تكون متساوية مع إنجلترا وفرنسا.[1]

ومع أن إسبانيا بدأت تسترجع عافيتها تدريجيا إلا أن البحرية الجزائرية لم تتوقف عن مهاجمة بعض الدول الأوروبية ومنها إسبانيا، فقد عرف بداية القرن الثامن عشر ميلادي زيادة عدد الأسرى الإسبان بالجزائر[2] لذلك اضطرت إسبانيا لزيادة عدد التحصينات والقلاع على سواحلها الشرقية[3]، وكانت قضية إعادة احتلال وهران تمثل همّا سياسيا يؤرق الملك فليب الخامس، وبمجرد ما بدأت إسبانيا تعرف نوعا من الاستقرار بدأ التفكير في إعادة احتلال وهران والمرسى الكبير، لعلها تسترجع بعض هيبتها المفقودة داخليا وخارجيا، لأنها كانت تمر بمرحلة ضعف و لم يكن باستطاعتها مواجهة فرنسا أو إنجلترا وحتى هولندا، فكانت الوجهة السواحل الجزائرية الغربية.[4]

وما يمكن ملاحظته من خلال ما سبق أن الأوضاع العامة في الجزائر وإسبانيا، ساعدت هذه الأخيرة على التفكير في إعادة احتلال وهران والمرسى الكبير.

3- أسباب الحملة:

- **رغبة الملك فليب الخامس في تخليد اسمه**: بمجرد ما تولى فليب الخامس زمام أمور المملكة الإسبانية كان لا بد له من عمل يخلد اسمه ويجلب إليه الأنظار داخليا وخارجيا، فأراد أن يعيد بناء قوة إسبانيا ومجدها المتهالك ويمحي آثار الحروب الأوروبية، وإعادة بناء الجيش ليتمكن من توحيد كامل أجزاء

1 - جون وولف: المرجع السابق، ص 400.
2 - حنيفي هلايلي: أوراق في تاريخ الجزائر ... المرجع السابق، ص ص 67، 79.
3 - الشافعي درويش: المرجع السابق، ص 103.
4 - حنيفي هلايلي: المرجع السابق، ص ص 399، 400.

المملكة الإسبانية، وتم له ذلك بفضل المساعدات الفرنسية المقدمة له في المجالين الإداري والعسكري، وبفضل الانضباط الفرنسي أصبح الجيش الإسباني أكثر صلابة وفعالية من ذي قبل[1]، لذلك أراد أن يجرب هذا الجيش في مغامرة جديدة لاحتلال وهران والمرسى الكبير.[2]

- **الحد من الهجمات الجزائرية على السواحل الإسبانية:** شكل تحرير وهران والمرسى الكبير، تهديدا حقيقيا لإسبانيا، فقد كان لقرب المسافة بين الجانبين دورا هاما في ازدياد الهجمات الجزائرية على السواحل الإسبانية، فكانت المدينتان المركز الأساسي لانطلاق الهجمات وسرعة العودة بكثير من السلامة والعديد من الغنائم، فقررت السلطات الإسبانية وضع حد لهذا التهديد المباشر وحماية السكان في سواحلها من الغزو والاسترقاق.[3]
- **الرغبة في استعادة المدينتين** : تلقى الإسبان نبأ تحرير وهران و المرسى الكبير بحزن شديد, وعلى الرغم من الأزمات التي كانوا يعيشونها و مرور 24سنة على تحريرها، إلا أنهم لم ينسوا أبدا التفكير في إعادة احتلالهما بمجرد ما تتاح لهم الفرصة لإدراكهم الأهمية الاستراتيجية للمدينتين، ولقربهما من السواحل الإسبانية مما كان يسمح لهم التحكم في الطريق التجاري الرابط بين إسبانيا والدويلات الإيطالية، لأن وهران كانت تمثل مركزا متقدما لمراقبة هذا الطريق التجاري في حوض المتوسط، خاصة بعد فقدانها لمضيق جبل طارق وجزيرة ميورقة لصالح الإنجليز سنة 1704م، الأمر الذي جعل المنافسة تشتد بين الطرفين خاصة في شقها التجاري، وبفقدان وهران والمرسى الكبير أصبح من المؤكد فقدان إسبانيا لمصالحها العسكرية والاقتصادية لصالح إنجلترا، ولذلك كان مطلب استعادة وهران والمرسى الكبير للإسبان مطلبا سياسيا بامتياز يتلاءم وطبيعة التفكير القومي السائد في القرن الثامن عشر ميلادي.[4]

4- استعدادات الطرفين

أ- إسبانيا

بعد أن قررت السلطات الإسبانية توجيه حملة عسكرية لوهران، أصدر الملك الإسباني فليب الخامس بيانا ملكيا يطلب فيه مساعدة بلاده في هذه الحملة، وكان يهدف من وراء هذا البيان حشد الدعم الداخلي والأوروبي عموما، ومما جاء في هذا البيان «... لقد رأيت أن التخلي عن وهران تحت سلطان المتوحشين

1 - بوحفص تجاجنة: الحملات العسكرية لدول غرب أوروبا المتوسطية على الجزائر 1145-1246هـ/1732-1830م، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية، المركز الجامعي، غرداية، 1432-1433هـ/2010-2011 م، ص52.

2 - جون وولف: المرجع السابق، ص 400.

3 - أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 444.

4 - جون وولف: المرجع السابق، ص 400.

الأفارقة إنما هو عائق يحول بيننا وبين نشر الديانة المسيحية المقدسة*... ومن أجل الوصول إلى هـذا الهـدف العظيم أمرت أن يجتمع الجيش بأليكانت مع كل ما يلزم من الأسلحة والمؤن والمعدات اللازمـة لمثـل هـذه المعركة». [1]

تنفيذا لهذا البيان الملكي بدأت الاستعدادات الإسبانية في تجهيز أرمادة ضخمة لتوجيه حملة عسـكرية لإعادة احتلال وهران، فبدأت الجيوش الإسبانية تتجمع في أليكانت قادمة من كل أنحاء إسبانيا مثـل قـادس وبرشلونة...، وأسندت قيادة هذه القوات للكونت جوزيف كاريللو دي مونتمار «De montemar» الـذي بقي يحشد قواته طيلة الفترة الممتدة من 03 إلى 13 جوان 1732م، والإحصائيات التالية تؤكد حقيقـة هـذه الاستعدادات الضخمة:

عدد أفراد الجيش	30 ألف رجل
عدد سفن أسطول والنقل	525 سفينة
المدافع	720 مدفع
قنابل من مختلف الأحجام	16420 قنبلة
قنابل يدوية	56 ألف قنبلة
قذائف مختلفة	80693 قذيفة
البارود المعد لهذه الحملة	12427 قنطار
صناديق رصاص البنادق	8000 صندوق
البنادق	12 ألف بندقية
الرصاص	1522 قنطار
مؤن الجيش	2 مليون وجبة[2]

* - على الرغم من استعمال حجة نشر المسيحية إلا أننا نؤكد أن هذه الحجة في الحقيقة لم تكن أبدا سببا مباشرا في هذه الحملة، بل فقط لاستعطاف رجال الكنيسة من أجل حشد الدعم لها، على اعتبار أنه لا أحد في أوروبا كان يصدق مثل هذه الأمور في القرن الثامن عشر ميلادي، خاصة بعد ظهور الحركات الداعية لإصلاح الكنيسة التي كانت تمارس الهرطقة والشعوذة.

1 - *Berbrugger (A), Reprise D'oran par Les Espagnols en 1732, R.Af, N°8, Alger 1864, p20.*

2 - *Ibid, pp 21-22.*

واتفق معه المدني في هذه المعلومات، أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 443، فيما خالفه جون وولف في بعض الجزئيات مثل ذكره لعدد السفن 505 سفينة و 200 مدفع حصار لضرب استحكامات المدينة، جون وولف: المرجع السابق، ص ص 400-401؛ وكلها إحصائيات تدل على ضخامة الأرمادة الإسبانية، فيما أكد بوعزيز هذه الإحصائيات، يحي بوعزيز: مدينة وهران...، المرجع السابق، ص55.

الملاحظ إذن أن إسبانيا أعدت حملة عسكرية ضخمة لإعادة احتلال وهران والمرسى الكبير، وكانت مصممة على نجاح هذه الحملة و لم تترك أي مجال للصدفة أو إعطاء أي فرصة للجزائريين للدفاع عن مدينتهم.

ب-الجزائر

كان على رأس بايلك الغرب الباي مصطفى بوشلاغم الذي اتخذ وهران عاصمة لبايلكه بعد تحريرها من الاحتلال الإسباني سنة 1708م، وما إن علم باستعدادات الإسبان تجهيز حملة عسكرية من أجل احتلال وهران، حتى بدأ في تجهيز القوات المتوفرة لديه، محاولة منه للدفاع على المدينة، فقد استطاع تجميع ما يزيد عن 20 ألف من المقاتلين يدعمهم نحو 2500 جندي، أما المدينة فكانت مجهزة بما يزيد عن 138 مدفع منها 87 مدفع من البرونز.[1][*]

ونتيجة للأوضاع غير المستقرة التي كانت تعيشها عاصمة الإيالة الجزائرية ومقر حكمها، والذي كان على رأس السلطة فيها عبدي باشا(1724- 1732 م) الذي تجاوز 88 من عمره ومريضا في أخر أيامه، ولذلك كان عاجزا عن اتخاذ أي قرار بإرسال قوات عسكرية للدفاع على مدينة وهران ومساعدة قوات الباي مصطفى بوشلاغم الذي لم يصله أي دعم من السلطة المركزية بالعاصمة في مواجهة الخطر الإسباني[2]، لذلك نستطيع القول أن بايلك الغرب بقيادة مصطفى بوشلاغم هو الذي كان في مواجهة الأرمادة الإسبانية وليس الإيالة الجزائرية.

5- سير الحملة

أ-إنزال الأسطول الإسباني على البر

انطلقت الأرمادة الإسبانية من ميناء أليكانت يوم 15 جوان 1732م تحت قيادة الكونت دي مونتيماريا متوجها نحو وهران التي وصل سواحلها يوم 25 جوان 1732م ، لكن هبوب رياح عاصفة أعاقت الأسطول في الرسو بالساحل فبقي يحاول الوصول إليه وفي نفس الوقت يناور القوات الجزائرية إلى غاية يوم 29 جوان، مع العلم أن القوات الجزائرية لم تكن تعرف بالضبط المكان الذي سوف تنزل به القوات الإسبانية، فتم حشد القوات الجزائرية وتوزيعها بين وهران والمرسى الكبير[3]، لكن الإسبان اختاروا ساحة عيون الترك للإنزال

1 - أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 445.

* - يقول عزيز سامح ألتر أن مصطفى بوشلاغم كان عدد قواته ما بين 3 ألاف إلى 4 آلاف كرغلي و 30 ألف مقاتل من الأهالي والفاسيين (المغاربة) يقودهم جنرال هولندي اسمه ريباردا والمهدي سرسري الشريف، ويوجد في المدينة حوالي 138 مدفع منها 78 مدفع من البرونز و7 مدافع هاون...، عززيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 482.

2 - جون وولف: المرجع السابق، ص 401.

3 - أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 445.

مباغتين بذلك الجزائريين الذين انطلت عليهم حيلة الإسبان الذين قاموا بعملية تمويه لتضليل قيادة الجيش الجزائري حين أرسلوا عددا من السفن إلى خليج أرزيو للإيحاء أنهم يترلون قواتهم هناك، لذلك أرسل مصطفى بوشلاغم جزءا من جيشه لمواجهة الجيش الإسباني هناك.[1]

وبمجرد ما أنزلت القوات الإسبانية، واجهتها القوات الجزائرية بمقاومة شديدة على الرغم من قلة عددها، فيما استغلت بقية القوات الإسبانية الفرصة وبدأت في إنزال الجيش والعتاد الحربي والمؤن من السفن إلى الأرض، على الرغم من مواصلة القوات الجزائرية الدفاع خاصة بعد وصول المدد من وهران وبدأت في قذف القوات الإسبانية بالمدافع وألحقت بهم عدة خسائر.[2]

أرسل الإسبان فرقة عسكرية من أجل مواجهة القوات الجزائرية، فوقعت بينهما معارك طاحنة، إلا ان الفرقة الإسبانية بدأت تتقدم شيئا فشيئا حتى استطاعت الاقتراب من المركز الذي تتجمع فيه القوات الجزائرية قليلة العدد والمنتشرة على طول الجبل المشرف على ميدان المعركة.[3]

استطاعت مجموعة من الجيش الجزائري مكونة من 2000 جندي مهاجمة ميمنة الجيش الإسباني والسيطرة على مرتفع تقع بأسفله عين للشرب كان يستعملها الجيش الإسباني للتزود بالماء وبهذه الخطوة الإستراتيجية منع الماء عن القوات الإسبانية.[4]

كان رد القوات الإسبانية سريعا فأصدر القائد الإسباني على الساعة الرابعة مساءا إلى فرقة كبيرة من المشاة يدعمها حوالي 400 فارس أمرا بالتصدي للقوات الجزائرية والالتفاف حول مؤخرتها لقطع خط الرجعة عليها، لكن فطنة قائد القوات الجزائرية حالت دون الوقوع في هذا الكمين وانسحب بقواته إلى المرتفعات التي كانت مركزا لتجمع القوات الجزائرية.[5]

ب- المعركة الفاصلة واستسلام المدينتين

مع حلول يوم 07 محرم 1145هـ الموافق لـ 30 جوان 1732م دارت معركة طاحنة بين الجيشين، استطاع من خلالها الجيش الجزائري الالتفاف على ميسرة الجيش الإسباني و تكبيده خسائر فادحة وقتل قائده،

1 - يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص 55.
2 - جمال قنان: المرجع السابق، ص 87.
3 - أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 446.
4 - بوحفص تحاجنة: المرجع السابق، ص55.
5 - أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 446.

وتمكن من خلالها البارون ريباردا اختراق الجيش الإسباني وشقه إلى نصفين، وبذلك أصبح الجيش الإسباني في وضعية كارثية كانت تنذر بقرب هزيمتهم.[1]

وفي مثل هذه المواقف الصعبة تظهر عبقرية رجال الحرب والقادة العسكريين، ومع اشـــتداد المعـــارك رأت القيادة الإسبانية أن ضغط القوات الجزائرية اشتد ضد ميسرة جيشها، لذلك أمرت كامل الجيش بالتحرك ضد الجيش الجزائري[2]، واستطاع قائد إسباني أن يتسلق التل الواقع من الجهة اليسرى للمعركة، وعنـــدما رأى زميله ماركي وقواته في خطر أمر بشن هجوم على الجزائريين فشتت شملهم وبدأ انسحاب الأهـــالي والجنـــد النظامي من ساحة المعركة، ليتواصل تقدم الإسبان وسيطرتهم على المدينة التي سقطت نهائيا مع المرسى الكـــبير يوم 01 جويلية 1732م.[3]

بعد هذا الانهزام المريع للقوات الجزائرية، وصلت الأخبار السيئة إلى السلطة المركزية بالجزائر، فقـــرر الداي عبدي باشا إرسال مدد مكون من 2000 جندي في شهر سبتمبر لكن الوقت كان قد تأخر والمـــدينتين أعلنتا استسلامهما النهائي، وانتشرت موجة من الحزن والغم كامل تراب الإيالة[4]، فيما التزم الداي عبدي باشا بيته ومات حزنا على هذه الكارثة التي حلت بالجزائر بتاريخ 03 سبتمبر 1732م[5]، أما مصطفى بوشلاغم فقـــد حاول الاستنجاد بقبائل بني عامر لكنها خذلته وأعلنت طاعتها للإسبان، لينتقل فيما بعد إلى مستغانم ويتخذها مركزا لحكمه إلى أن مات هناك وقبره موجود بمنطقة المطمر.[6]

وبذلك عاد الإسبان إلى وهران بعد 24 سنة من تحريرها لتعم الأفراح إسبانيا خاصة وأوروبـــا عامـــة وتقرع طبول الفرح في كامل أوروبا ابتهاجا بهذا النصر الذي أعاد إلى إسبانيا هيبتها ومجدها، وبذلك انتقمت لهزيمتها على يد الجزائريين سنة 1708م، أما في الجزائر فقد عم الحزن على فقدان هذه المدينة التي مثلـــت لهـــم فخرا واعتزازا لأنهم في بداية القرن الثامن عشر ميلادي أرجعوها لحاضرة الإسلام والدولة العلية، وخســـرت بذلك الجزائر مدينة استراتيجية مثلت مركزا هاما لتوتر العلاقات بين الطرفين.

1 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 482.
2 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 446.
3 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 482.
4 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص ص 447، 448.
5 - *Grammont, (H.de) ,Histoire…, op.cit, p 236.*
6 – الآغا بن عودة المزاري: المصدر السابق، ص 256؛أحمد بن عبد الرحمان الشقراني الراشدي: المصدر السابق، ص69.

6- النتائج

1. أدت الحملة الإسبانية على وهران والمرسى الكبير إلى توتر حاد في العلاقات الجزائرية الفرنسية، وذلك راجع إلى الاتهامات التي وجهتها الجزائر إلى فرنسا بمساعدة الجيش الإسباني* المحاصر بوهران حيث تأكدت الاتهامات الجزائرية من خلال اعتراف بعض الأسرى الفرنسيين الذين وقعوا بيد الجزائريين أثناء حصار وهران زيادة على ضبط بعض السفن الفرنسية وهي تحمل المؤن للجيش الإسباني.[1]

ولذلك بعث الداي إبراهيم باشا (1651 – 1659 م) برسالة شديدة اللهجة فيها الكثير من اللوم والتأنيب للكونت دي موريبا على مساعدة إسبانيا وخذلان الجزائر التي كانت تقدم المساعدات لفرنسا في كل مرة، فيما تقابلها فرنسا بالغدر والركون لبني جلدتها رغم خلافاتهما، ومما خاطبه به الداي إبراهيم:«... إنه واضح مثل النهار أن الانتصار الذي حققه الإسبان في وهران التي فاجؤوها، لم يحققوه سوى بفضلكم عن طريق القوات والذخائر التي زودتموهم بها، إن صداقة معلنة، مقرونة بعداء مضمر لا يبشر بخير... فعندما فاجأ الإسبان وهران كنتم قد ساعدتموهم بـ 4 أو 5 آلاف رجل مسلح تسليحا جيدا، لقد أخذنا عددا من الأسرى في وهران وثبت أنهم فرنسيون، وإذا أنكرتم هذا فإننا نرد عليكم بكونه من المستحيل وجود عدد كبير من الجنود مسلحين تسليحا جيدا في خدمة دولة أجنبية بدون موافقة أميرهم أو على الأقل وزيرهم...».[2]

لما تأكدت الجزائر من خيانة فرنسا لها، خاصة أن هذه الأخيرة كانت لديها امتيازات بالجزائر لا يمكن التفريط فيها لصالح أي دولة أخرى، ولذلك استغل الداي إبراهيم الذي عرف عنه الذكاء والمكر هذه الفرصة وأخذ يمنح القنصل الإنجليزي امتيازات واسعة بقصد التأثير على الفرنسيين الذين كانوا يدركون مساعي الإنجليز الرامية لأخذ مكانتهم والحصول على الامتيازات التي كانت فرنسا تستأثر بها في الجزائر[3]، وبذلك حدث تقارب جزائري إنجليزي بعد هذه الحملة.

2. تكبدت القوات الإسبانية خسائر مادية وبشرية هائلة منها: حوالي 1500 قتيل و2200 أسير.

* – لم تكن هذه المرة الأولى التي تقوم فيها فرنسا بالتآمر على الإيالة الجزائرية، بل بدأت هذه المؤامرات منذ القرن السادس عشر على الرغم من إمضائها معاهدة الامتيازات مع الدولة العلية بين فرانسوا الأول وسليمان القانوني سنة 1536م، إلا أن فرنسا دائما ما تحيك المؤامرات ضد الجزائر على الرغم من عدائها المستمر مع إسبانيا.

1 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 484.

2 – جمال قنان: المرجع السابق، ص217.

3 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص484.

3. إعادة احتلال مدينتي وهران والمرسى الكبير من طرف الإسبان بعد تحريرهما لمدة 24 سنة، وقد اتخذ الإسبان منهما قاعدة لانطلاق حملاتهم العسكرية في حوض المتوسط أو في دواخل البلاد في الجهة الغربية للإيالة الجزائرية.

4. أدت ممارسات الإسبان الجائرة بالكثير من سكان المدينتين للفرار، أما في البوادي فإن كثرة الغارات جعلتهم يغادرون مضاربهم والانتقال إلى مناطق أكثر أمنا.

5. خلفت القوات الجزائرية المنسحبة من المدينتين الحصون سالمة، والمدافع والاستحكامات، استغلها الإسبان في معاركهم ضد الجزائريين الذي ارتكبوا خطأ فادحا بعدم تحطيمها.

6. انتقال عاصمة البايلك إلى مدينة مستغانم المجاورة، لتكون قاعدة حكم مصطفى بوشلاغم ومركزا لهجماته القادمة ضد الإسبان .

7. عودة القبائل العميلة للإسبان إلى طبيعتها القديمة والدخول في خدمتهم ضد بني جلدتهم من الجزائريين، وإقامة علاقات تجارية وودية معهم، وأبرز هذه القبائل: قبيلة بني عامر.[1]

8. سادت موجة من الحزن في كامل أنحاء الإيالة الجزائرية على فقدان وهران والمرسى الكبير، وقد كان أكثر المتأثرين الداي عبدي باشا الذي كان يعتبر نفسه السبب المباشر في هذه النكسة التي حلت بالجزائر لأنه تأخر في إرسال الدعم لمصطفى بوشلاغم، لذلك اعتزل حتى وفاته.

9. ابتهجت كامل أوروبا بهذا الانتصار الذي أعادها جزءا من هيبتها التي فقدها على يد القوات الجزائرية سنة 1708م بقيادة حسن أوزان ومصطفى بوشلاغم، وأقيمت الأفراح بهذه المناسبة واستقبل الكونت مونتيمار استقبال الأبطال، ونُقش اسمه على ميدالية برونزية رفيعة سنة 1735م.[2]

7-أسباب ضياع مدينتي وهران والمرسى الكبير

- مواجهة الباي مصطفى بوشلاغم العدوان الإسباني بقواته والمتطوعين من أهل المنطقة فقط، بدون تدخل السلطة المركزية بالجزائر التي كانت تعيش دوامة من الصراعات على الحكم وامتيازاته، أبطالها الجيش الإنكشاري، فكان من الصعوبة مواجهة هذه الأرمادة الإسبانية بهذه القوة البسيطة.
- الفارق الكبير بين القوتين عدة وعتادا، فقد استفادت القوات الإسبانية من التطور الحاصل في أوروبا خاصة من خبراء الجيش الفرنسي في الميدان الحربي، فكانت هذه الحملة تعبيرا عما وصلت إليه أوروبا

1 - عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 482.

2 -*Berbrugger (A), op.cit, p27.*

من تطور مذهل في ذلك الوقت في مجال الصناعة الحربية، فيما كانت القوات الجزائرية تراوح مكانها ولم تحاول تطوير نفسها.

- الخطأ العسكري الفادح الذي ارتكبه الباي مصطفى بوشلاغم، وعدم تخريبه لحصون المدينة فعندما دخل الإسبان وجدوها جاهزة واستعملوها في تحصين مواقعهم وتدعيمها، بالإضافة إلى تركه المدافع التي استعملت ضدهم في المعارك.[1]
- خيانة قبائل بني عامر للباي مصطفى بوشلاغم وقواته المدافعة عن المدينتين، ولعلهم تذكروا ما فعله بهم في حصاره لوهران سنة 1704-1708م فحاولوا الانتقام منه والتعاون مع الإسبان نكاية فيه.
- قوة الإسبان وتحضيرهم الجيد لهذه الحملة، آخذين في الاعتبار الخطأ المرتكب سنة 1708م، لأن مشاكلهم الداخلية حالت دون مساعدة الحامية الإسبانية بوهران والمرسى الكبير، فإسبانيا لم تكن لها هذه المرة مشاكل تعيق إنجاح الحملة.[2]

8- محاولة مصطفى بوشلاغم استعادة وهران

على الرغم من استسلام المدينتين، إلا أن المصادر التاريخية لم تذكر لنا أي معاهدة أمضاها مصطفى بوشلاغم يتم بموجبها التنازل عن وهران و المرسى الكبير، أو فرض شروط معينة، مثلما يحدث دائما في مثل هذه المعارك التي تنتهي بإمضاء معاهدة استسلام، وهو في الحقيقة موقف يحسب للباي، ولذلك يعتبر أن انسحابه أملته عليه الظروف الخاصة التي كان يمر بها، وعدم قدرته على مواجهة المد الإسباني بقوات قليلة العدة والعدد في غياب كلي للمساعدات، سواء من طرف السلطة المركزية بالجزائر، أو من طرف الدولة العلية حامية الإسلام والمسلمين.

حاول مصطفى بوشلاغم الانسحاب إلى الجبال القريبة من المدينتين، مفضلا عدم المغامرة ببقية قواته التي فقد منها الكثير[3]، متبعا إستراتيجية الإنهاك التدريجي لقوات الخصم، بفرض الحصار وقطع طرق التموين وخوض المعارك الخاطفة والمفاجئة في نفس الوقت لإلحاق أكبر قدر ممكن من الخسائر في صفوف العدو وإدراكا من إسبانيا لخطورة هذه الإستراتيجية، جاءت أوامر ملكية لحاكم وهران الجديد فيلادارياس تأمره بالبقاء داخل أسوار المدينتين وعدم المغامرة بالجيش والاشتباك مع القوات الجزائرية.[4]

1 - يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص55.
2 - جون وولف: المرجع السابق، ص401.
3 - أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 448.
4 - بوحفص تجاجنة: المرجع السابق، ص 58.

اتبع الباي مصطفى بوشلاغم هذه الإستراتيجية مدة سنة تقريبا استطاع من خلالها إنهاك القوات الإسبانية، وكبدها الكثير من الخسائر المادية والبشرية، ففي 4 أكتوبر 1732م حاول الإسبان إدخال المؤن إلى حصن سانتاكروز إلا أن القوات الجزائرية قامت بهجوم مباغت وسريع على القوات الإسبانية التي لم تستطع تموين الحصن إلا بعدما أنهكتها المعارك ضد الجزائريين وتكبدوا خسائر فادحة.[1]

ومواصلة لنفس السياسة المتبعة عاود الجزائريون بعد شهرين هجومهم على وهران ووصلوا إلى أبوابها يتقدم الباي مصطفى بوشلاغم رفقة ابنه، وخاضوا معارك ضارية أسفرت عن استشهاد ابن الباي* بالإضافة إلى بعض الخسائر في صفوف الجزائريين[2]، وفي 12 نوفمبر اندلعت معارك أكثر ضراوة من سابقاتها استطاع فيها الباي مصطفى بوشلاغم الانتقام لاستشهاد ابنه وكبد الإسبان خسائر بشرية فادحة، يأتي على رأسها مقتل الماركيز دي ميرو سنيل رفقة خيرة ضباطه المتعاونين معه وجمع كبير من الجيش الإسباني[3]، ليواصل الإسبان محاولات فك الحصار، ففي يوم 21 نوفمبر حاولت القوات الإسبانية الخروج من وهران بقوة يقارب عددها 6800 جندي، إلا أنها جوبهت بمقاومة شديدة من طرف القوات الجزائرية تكبد فيها ا الإسبان خسائر فادحة تمثلت في 565 قتيل من مختلف الرتب العسكرية السامية في الجيش بالإضافة إلى 1523 جريح[4]، وهي خسائر لم يكن يتوقعها الإسبان تماما إلا أن الهجمات الخاطفة والتخطيط الجيد هو الذي فاجأ الإسبان وكبدهم هذه الخسائر.

وبتاريخ 10 جوان 1733م شنت القوات الجزائرية هجوما مباغتا على مدينة وهران قتل فيه قائد الحامية ليواصل مصطفى بوشلاغم الانتقام من الإسبان، فقاد هجوما بنفسه في نفس السنة محاولا استرجاع مركز العيون الموجود بالقرب من وهران، ووصل إلى أبواب المدينة و لم يستطع تحريرها[5]، وهكذا بقي مصطفى

1 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 483.

*– إن خوض ابن الباي المعارك رفقة أبيه إنما يدل على أن هؤلاء العثمانيون كان هدفهم هو حماية أراضي الإسلام والدفاع عنها بكل ما أوتي من قوة رفقة السكان المحليين الذين كانوا يتساوون معهم في هذه المهمة، و لم يكن دائما هدفهم المناصب والاستئثار بها رفقة عائلاتهم وأتباعهم كما يروج ذلك أتباع المدرسة الكولونيالية والمدرسة المشرقية التي تنتقد كل ما هو عثماني وتصفهم بالمحتلين، فقد ضرب هؤلاء أروع الأمثلة في الشجاعة والإقدام على أرض الجزائر وليس غريبا على هؤلاء هذه الصفات لأن أجدادهم عروج وإسحاق وخير الدين والباي شعبان... كانوا مثالا وقدوة لهم في الدفاع عن الإسلام وأرض الجزائر.

2 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 448.

3 – يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص 56.

4 – جمال قنان: المرجع السابق، ص169.

5 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 448.

بوشلاغم يقاوم الإسبان ويحاول طردهم من وهران والمرسى الكبير، وكأنه كان يلوم نفسه علـــى ضـــياعهما لذلك بقي مصمما على استرجاعهما، لكنه لم يحقق أمنيته في حياته لأنه توفي سنة 1733م بمستغانم.

9-الحصار بعد وفاة الباي

على الرغم من وفاة مصطفى بوشلاغم إلا أن القوات الجزائرية ظلت تطبق نفس السياسة التي اتبعهـــا وإبقاء المرسى الكبير ووهران تحت حصار خانق ومواصلة المعارك بدون انقطاع، بهدف إرباك وإنهاك القـــوات الإسبانية التي وجدت نفسها في حرب استنزاف دائمة، وكانت تقف وراء هذه الحرب القيادة المركزية بالجزائر متمثلة في الداي إبراهيم باشا الذي كان يرسل المدد تلوى الآخر.[1]

ونتيجة لهذا الحصار الدائم والحرب المستمرة، تميزت العلاقات الجزائرية الإســـبانية بالعـــداء والتـــوتر المستمر خاصة بعد ازدياد نشاط الجهاد البحري في هذه الفترة التي تميزت بالهجمات المستمرة علـــى الســـفن الأوروبية والإسبانية خاصة، انتقاما منها على إعادة احتلال وهران والمرسى الكبير، يقود هذه الهجمات رياس مشهورين وعلى رأسهم الحاج عثمان والحاج موسى والحاج مبارك، وكان من أكـــبر المســـتهدفين الســـفن الإسبانية القادمة لوهران من أجل نقل المؤن والجنود والعتاد الحربي للمحاصرين[2]، فكانـــت هـــدفا مباشـــرا للأسطول الجزائري الذي كان يدعم الحصار البري الذي يفرضه الجزائريون على الإسبان.

ونتيجة لصمود القوات الإسبانية أمام الحصار الذي ضرب عليها، وازدياد الهجمات الجزائرية زيـــادة على النشاط الدائم للأسطول الجزائري في المتوسط وشنه هجمات متتالية ضد السفن الإسبانية القادمـــة مـــن إسبانيا إلى وهران،قررت السلطات الإسبانية توسيع رقعة الحرب ونقل المعارك إلى مدينة الجزائر وكان هـــدفها من وراء ذلك:

- فك الحصار على وهران والمرسى الكبير حتى تعطي متنفسا لقواتها المحاصرة منذ سنوات.
- محاولة استرجاع أمجادها الضائعة على أعتاب مدينة الجزائر، والتي كانت دائما تقهر الإسبان وتلحـــق بهم الهزائم، وأشهرها سنة 1541م.
- محاولة السيطرة على مدينة الجزائر التي تشكل القلب النابض للإيالة والمـــدعِّم الأساســـي للحصـــار المفروض على القوات الإسبانية بوهران والمرسى الكبير.
- إرباك القيادة الجزائرية والجيش وذلك بنقل الحرب إلى العاصمة نفسها.

---

1 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 484.

2 – المنور مروش: المرجع السابق، ص ص 435، 445.

ثانيا: العلاقات الجزائرية الإسبانية ما بين 1733 – 1786م

المبحث الأول: حملة الكونت أوروللي «Orelly» على مدينة الجزائر سنة 1775م

توقفت الهجمات الإسبانية على مدينة الجزائر منذ بداية القرن السابع عشر ميلادي وإلى غاية حملة 1775م التي تعد الأولى خلال القرن الثامن عشر ميلادي، بعد الحملة الأولى على وهران والمرسى الكبير سنة 1732م والتي أسفرت عن إعادة احتلال المدينتين، كما أنها تأتي بعد فشل الحملة الدانماركية على مدينة الجزائر عامي 1770 و 1772م[1]، وكأن الدول الأوروبية اتفقت فيما بينها على إنهاك الإيالة الجزائرية كل مدة بحروب متقطعة هدفها السيطرة على الإيالة وإخضاعها، وفي كل مرة كانت دولة من هذه الدول الأوربية تلعب الدور ذاته، فتارة إسبانيا ومرة فرنسا وإنجلترا وتارة أخرى الدانمارك.

وتعتبر هذه الحملة من أهم الحملات التي وجهتها إسبانيا ضد الجزائر، بل يذهب الكثير من المؤرخين لتشبيهها بحملة شارلكان التي قادها بنفسه على مدينة الجزائر محاولة منه لإخضاعها واحتلالها، إلا أنه مني بهزيمة نكراء، اعتزل على إثرها السياسة وتخلى فيما بعد على الحكم لابنه فليب الثاني سنة 1557م، لتنتهي حياته في إحدى الكنائس التي اسمها يوست "Yuste"[2]، وقبل التطرق لأسباب الحملة ووقائعها أردنا التطرق لأوضاع البلدين قبل هذه الحملة، لأنه لا يمكن فصلها عن أوضاع البلدين خلال هذه الفترة.

1– الوضع العام للبلدين قبيل الحملة

أ–إسبانيا

تولى حكم إسبانيا في هذه الفترة شخصية قوية تمثلت في كارلوس الثالث(1758–1788م) الذي كان له مشروع طموح لتطوير بلاده وجعلها من أهم دول أوروبا في ذلك الوقت، فحاول إدخال إصلاحات جديدة، مست جميع القطاعات المالية والعسكرية والصناعية وحتى الأسطول البحري، ولذلك نال بعد 10 سنوات من مباشرة هذه الإصلاحات لقب "الطاغية المستنير".[3]

1 – ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر– الفترة الحديثة والمعاصرة–، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص 156.

2 – شكيب بن حفري:" العلاقات الإسبانية الجزائرية في القرن الثامن عشر ميلادي من خلال مخطوط عثماني"، **مجلة الآداب والعلوم الإنسانية**، ع1، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، 2002، ص 125.

3 – جون وولف: المرجع السابق، ص 403.

أما على المستوى الخارجي فقد حاول أن يجعل من إسبانيا دولة قوية مثلما كان عليه الحال بداية القرن السادس عشر ميلادي، حتى تستطيع مواجهة الدول الأوروبية خاصة فرنسا وإنجلترا اللتان كانتا تهددان إسبانيا دائما، وما إن تمكن كارلوس الثالث من تأمين الجبهة الداخلية بعد نجاح الإصلاحات السياسية والاقتصادية التي قام بها، وإنهاء الحرب داخل أوروبا، حتى بدأ يوجه أنظاره نحو الجزائر التي كانت تمثل بالنسبة له العــدو الأول الذي يجب القضاء عليه، ومع حلول سنة 1774م* كان مستعدا للهجوم على مدينة الجزائر، معتمدا على خطــة تقضي بالهجوم عليها بحرا وبرا للقضاء على تهديدات "مهد القرصنة".[1]

ب-الجزائر

تولى حكم الإيالة الجزائرية في هذه الفترة محمد بن عثمان باشا خلفا للداي علي الملقب ببوصبع ســنة 1766م، وكان يحمل مشروعا حضاريا أساسه إعادة هيبة الدولة الجزائرية داخليا وخارجيا، لعلمه أنها كانــت تعيش حالة من الفوضى والتدهور، زاد الأوضاع خطورة الاحتلال الإسباني، الذي قرر محمد بن عثمان تصفيته نهائيا حتى يستطيع توحيد كامل الإيالة وإنجاح مشروعه الحضاري.[2]

فعلى الصعيد الداخلي انتهج سياسة تعتمد على الكفاءة والقدرة في اختيار الرجال، سواء المتعــاونين معه في إدارة شؤون البلاد بمدينة الجزائر، أو على مستوى البايلكات الثلاث، فكان يولي من يســحق الولايــة ويعزل من يستحق العزل.[3]

ولعلمه بما كان يحيكه الإنكشارية من مؤامرات وبلبلة داخل الإيالة، بدأ في التقليل من عددهم وعمل على تأديبهم وتنظيمهم، فمنعهم من حمل السلاح أثناء التجول بالمدينة وشدد على تنفيذ أوامره[4] لذلك كثرت تمرداتهم ومحاولات قتله ، لكنه استطاع القضاء على هذه المحاولات وقرر لأول مرة في تاريخ الحكم العثمــاني للجزائر منع دخول الأشخاص المسلحين قصر الداي وتفتيش كل من يريد الدخول إلا ضباط الحكومة وضباط

*- في هذه السنة أمضت الدولة العلية معاهدة مع روسيا...تم بموجبها اعترافها بامتلاك روسيا لشبه جزيرة القرم الواقعة شمال البحر الأسود.

1 - جون وولف: المرجع السابق، ص403.

2 - بوحفص تجاجنة: المرجع السابق، ص63.

3 - أحمد شريف الزهار: المصدر السابق، ص37.

4 - عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 523.

حراس القصر*، بالإضافة إلى قمع القبائل المتمردة مثل: قبائل فليسة بجرجرة وقبائل بجاية التي رفضت دفع اللزمة المقدرة بـــ 30 بوجو سنويا، فوجه لها الداي محمد عثمان حملة لقمعها.[1]

أما خارجيا فقد انتهج سياسة مختلفة عن سابقيه، فرفع قيمة الإتاوات على السفن التابعة للبندقية وهولندا والسويد، أما الدانمارك فقد نقض معها معاهدة السلم سنة 1767م لرفضها تقديم الهدايا والإخلال بشروط المعاهدة، وردا على قرار الداي قامت القوات الدانماركية بمهاجمة ميناء الجزائر، إلا أن البحرية الجزائرية تصدت لها، و لم يتمكن الأسطول الدانماركي الاقتراب من المدينة، واستمر على ذلك مدة 11 يوما، ليضطر في النهاية لعقد صلح مع الجزائر[2] بتدخل من الدولة العلية التي حثت حكام الجزائر على إرجاع القنصل الدانماركي بعد تدخل القنصل الدانماركي في استانبول وطلبه من الدولة العلية التدخل لإبرام صلح بين الطرفين[3]، وبموجب ذلك تدخلت الدولة العلية وطلبت إبرام هذا الصلح تماشيا والعلاقات الحسنة بينها وبين الدانمارك، وفي عام 1772م جاء الأميرال هوسلاند «Hosland» إلى الجزائر وخضع للشروط التي فرضها محمد بن عثمان باشا وتم إبرام الصلح بين الطرفين[4]** ، أما من جانب إنجلترا وفرنسا فلم يمس الداي بجوهر هذه العلاقات وترك الأمور كما كانت عليه في عهد سابقيه.

وما يمكننا قوله أن محمد بن عثمان باشا استطاع أن يحكم قبضته داخليا، بإسناد المناصب إلى رجال أكفاء لهم القدرة على تسيير البلاد بمقدرة عالية وبإخلاص تام نذكر منهم: الباي محمد بن عثمان الكبير، الباي الوزناجي، الباي صالح الإزميرلي، وآغا العرب علي، وقام بتنظيم الجيش والحد من سطوة الإنكشارية وتدخلهم في شؤون الحكم، مع مراعاة العدل بين الناس والرفق بهم حتى قال فيه الزهار: «... وكان رحمه الله مؤثرا للعدل والإنصاف عارفا بقوانين الملك ملتزما بأحكام الشريعة المطهرة، وكان يحب الجهاد...».[5]

* – نحن بدورنا نتساءل لماذا تأخر حكام الإيالة في فرض هذا النظام طوال المدة السابقة؟ على الرغم من عشرات الحالات التي تم فيها اغتيال الحكام نتيجة هذا التسيب في مقر الحكم، وراجع ربما لضعف الحكام السابقين الذين كانوا يُتحكم فيهم من طرف الإنكشارية لأنهم هم من عينوهم فيبدون ضعفاء أمامهم، بالإضافة إلى فقدان حكام الإيالة الجزائرية لبروتوكولات الحكم كما كان يحدث في سائر دول أوروبا.

1 – بلبراوات بن عتو: الداي محمد بن عثمان باشا وسياسيته...، المرجع السابق، ص ص 92، 94.

2 – أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص ص 40، 41.

3 – مجموعة رقم 3205، علبة رقم 54، وثيقة رقم 16.

4 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 524.

** – من أهم هذه الشروط دفع 50 ألف سكين، و4 مدافع من البرونز، و400 قنبلة و500 قنطار بارود و500 صارية للأشرعة، وكميات معتبرة من الأخشاب ومواد البناء، والعديد من الحبال الضخمة، ودفع جميع الهدايا المترتبة على السنوات الماضية أثناء قطع العلاقات...، بلبراوات بن عتو: المرجع السابق، ص 100، عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص526.

5 – أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص37.

أما على المستوى الخارجي فقد استطاع فرض هيبة الدولة الجزائرية، وقام بإعادة مراجعة العلاقات الخارجية وفق أسس جديدة تراعي أكبر الحقوق والامتيازات للجزائر، فيما أبقى على هدوء العلاقات بين الجزائر وإنجلترا وفرنسا ربما لقوتهما، حتى لا يثير الخصومات وتحييدهما في أي نزاع مرتقب ضد إسبانيا، خاصة وأنه وضع من أولوياته تحرير مدينتي وهران والمرسى الكبير.

2- أسباب الحملة

أ- محاولة فك الحصار على وهران والمرسى الكبير

استطاعت القوات الجزائرية فرض حصار محكم بعد انسحابها من مدينتي وهران والمرسى الكبير والذي عده الكثير انسحابا تكتيكيا أكثر منه فرارا من المعارك، لأن القوات الجزائرية بدأت في إنهاك القوات الإسبانية بالهجمات الخاطفة والمفاجئة، كبدتهم من خلالها خسائر مادية وبشرية فادحة، ونتيجة لهذه الخسائر تشكلت لدى الإسبان قناعة أنهم لا يستطيعون العيش بسلام وهناء ما لم يضعوا حدا لهذا الحصار والهجمات الجزائرية المتتالية.[1]

ظل التواجد الإسباني بوهران والمرسى الكبير يشغل بال الإسبان الذين خصصوا مصاريف باهظة للاحتفاظ بالمدينتين وإبقائهما تحت سيطرتهم، فكانتا تشكلان عبئا ثقيلا عليهم، نظرا للأوضاع الصعبة التي كانت تعيشها قواتهم بالمدينتين المحاصرتين، ولذلك انقسمت الطبقة السياسية والعسكرية حيال مستقبل التواجد الإسباني بالمدينتين.

فمنهم من كان يدعوا إلى الانسحاب وعدم المجازفة بالبقاء، الذي سيكلف المزيد من الخسائر المادية والبشرية، وفريق آخر كان يفضل البقاء مهما كانت الخسائر، ومن أجل حسم هذا الخلاف قرر الملك فليب الثالث تكليف حاكم وهران الدوق جوزيف دي أرميورو بإعداد تقرير مفصل عن وهران والمرسى الكبير ومستوى العلاقات الذي يربط الإسبان بالقبائل المجاورة، وقد أنجز هذا التقرير سنة 1741م[2]، وبصدور هذا التقرير أصبحت السلطات الإسبانية مرغمة على اختيار أحد الحلول، إما الانسحاب وتجنب المزيد من الخسائر أو مواصلة المغامرة وتحمل النتائج المترتبة عن ذلك، ولا يتأتى لهم ذلك إلا بإعادة احتلال كامل السواحل الجزائرية وبداية إخضاع مدينة الجزائر التي شكلت دائما الصخرة التي تتحطم عليها آمال الإسبان، وفي النهاية كانت الغلبة لأصحاب الاختيار الثاني.

1 - عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 529.

2 - للمزيد عن هذا التقرير ينظر: أرميورو، وهران والغرب الجزائري في القرن الثامن عشر ميلادي حسب تقرير أرميورو ، تقديم وترجمة: محمد القورصو وميكال دي إيبيلزا، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1978م.

ب –الحد من الهجمات الجزائرية على السواحل الإسبانية

على الرغم من الهدف الأساسي لفرض الحصار هو تحرير وهران والمرسى الكبير، ونظرا لصعوبة هذه المهمة غيرت القوات الجزائرية استراتيجيتها في مواجهة الإسبان، وقامت بنقل المعارك إلى السواحل الإسبانية فكانت السفن الجزائرية تهاجم هذه السواحل وتعود محملة بالغنائم والأسرى من نساء ورجال وأطفال واللذين كان عددهم بمدينة الجزائر وحدها يزيد عن 18 ألف، منهم 10 آلاف إسباني[1]، وهذا ما يدل على ضخامة الهجمات الجزائرية على كامل الدول الأوروبية وخاصة إسبانيا، ونتيجة لكثرة الشكاوى من طرف سكان السواحل الإسبانية للملك، وتضررهم ماديا ومعنويا، كان لا بد له من اتخاذ قرار لتوقيف هذه الحملات المتزايدة.

ج – إسقاط الداي محمد بن عثمان باشا من الحكم

أدركت السلطات الإسبانية حقيقة مفادها أن الإيالة الجزائرية تمر بمرحلة قوة وازدهار، بقيادة الداي محمد بن عثمان باشا، الذي كان يعيش بعض المشاكل الداخلية نتيجة لإعلان بعض القبائل تمردها عن سلطته وخلافه مع الجيش الإنكشاري نتيجة الحد من نفوذه، فأرادت إسبانيا استغلال هذه الفرصة والقيام بإسقاط محمد باشا من سدة الحكم[2]، وتعطيل مشاريعه داخل البلاد وخارجها وتوقيف هذا الازدهار المتنامي.

د – السيطرة على مدينة الجزائر

على الرغم من مرور سنوات عديدة على هزيمة الإسبان أمام أسوار مدينة الجزائر إلا أنهم لم ينسوا أن أهلها استنجدوا بعروج وخير الدين اللذين استطاعا طردهم من قلعة البنيون، وأن العثمانيين استطاعوا هزيمة شارلكان على أسوارها، وهي مركز قوة الإيالة، لذلك تم القرار باحتلالها وإلحاقها بالممتلكات الإسبانية كما كان الشأن في مطلع القرن السادس عشر ميلادي وجعلها منطقة نفوذ، فالغاية إذن هي السيطرة على مركز الإيالة كلها، وهي رغبة قديمة متجذرة في نفوس الإسبان الآسفين على ضياعها، والذين فشل أسلافهم في تحقيق هذه الرغبة على الرغم من كثرة محاولاتهم التي كانت على مدار القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين لذلك أخذت إسبانيا تعد العدة للسيطرة على مدينة الجزائر واحتلالها نهائيا.[3]

1 – أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص41.

2 – بلبراوات بن عتو: المرجع السابق، ص 100.

3 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 451.

هـ- فشل مساعي الصلح بين الطرفين

عاشت إسبانيا قبيل قراراها القاضي باحتلال مدينة الجزائر مشاكل داخلية كثيرة بسبب حروبها داخل القارة الأوروبية، فعملت على تهدئة الصراع ضد الجزائر ولو لمدة معينة حتى تتفرغ لمواجهة هذا المشاكل وكان إصرارها كبيرا في عقد صلح مع الجزائر، فأرسل الملك كارلوس الثالث مبعوثا عنه للداي علي باشا طالبا منه عقد الصلح وعارضا عليه مبالغ مالية كبيرة، لكن طلبه قوبل بالرفض، غير أن الملك الإسباني لم ييأس من ذلك، وما إن تم تعيين الداي محمد بن عثمان باشا سنة 1766م حتى أرسل إليه يهنئه بمنصبه الجديد وعارضا عليه إقامة الصلح مقابل مبالغ مالية كبيرة، إلا أن الداي الجديد رفض هذا الطلب وكرر موقف سلفه علي باشا قائلا للملك الإسباني: «... إنني لا أخاف من القوات الإسبانية، وإن السلاح هو الفاصل بيننا».[1]

ولما تأكد الملك الإسباني من فشل مساعيه لجأ إلى وساطة السلطان المغربي محمد بن عبد الله الذي وافق على طلب الوساطة بين الطرفين، وقام بجهود مضنية في سبيل تحقيق رغبة الملك الإسباني، فأرسل إلى الداي محمد بن عثمان باشا كتابا راجيا منه باسمه وباسم أخوة الإسلام أن يتصالح مع الإسبان، في مقابل حصوله على أموال كثيرة، ولإنجاح هذه الوساطة اتصل السلطان المغربي بالدولة العلية لتمارس ضغوطها على الداي.[2]

مواصلة لجهوده في سبيل إقامة الصلح أرسل السلطان المغربي مبعوثه محمد الفزان إلى الجزائر للإشراف على تبادل الأسرى بين الطرفين[3]، ففي سنة 1182هـ/ 1768م تم تبادل الأسرى بين إسبانيا والجزائر على نطاق واسع على الرغم من رفض المجلس الملكي الإسباني ولمدة قاربت 250 سنة مثل هذا الأمر، بحجة أن إطلاق سراح الأسرى المسلمين يزيد في عددهم وقوتهم.[4]

ومما تجدر الإشارة إليه أن الداي محمد بن عثمان رفض الوساطة المغربية، ورد على مبعوث السلطان المغربي بقوله: «... هل طلبت مشورتي ورأيي عندما عقدت أنت معاهدة الصلح مع إسبانيا سنة 1767م»[5]

وأمام تعنت الموقف الجزائري الرافض لأي صلح مع إسبانيا ما لم تتخلى عن وهران والمرسى الكبير تأكد الملك كارلوس الثالث أنه لا حل أمامه سوى استخدام القوة العسكرية لإسقاط الداي من الحكم وإخضاع مدينة الجزائر.

1 – شكيب بن حفري: المرجع السابق، ص 124.
2 – نفسه، ص125.
3 – بوحفص تجاجنة: المرجع السابق، ص69.
4 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 227.
5 – شكيب بن حفري: المرجع السابق، ص 125.

و- إطلاق سراح الأسرى المسيحيين

يعتبر القرن السابع عشر ميلادي قرن الجهاد البحري بامتياز، مما نتج عنه تكدس هائل للأسرى الأوربيين بالجزائر، وذلك راجع للهجمات الجزائرية على السواحل الجنوبية الغربية لأوربا التي كانت هدفا مباشرا للبحرية الجزائرية انتقاما من إسبانيا، ومن أكثر السواحل عرضة للهجمات الجزائرية سواحل جنوة ونابولي، ليفورن، كورسيكا، صقلية، مالطة، ميورقة... وتعد هذه المناطق الأماكن المفضلة لنشاط القراصنة الأوروبيين الذين ينطلقون منها لمهاجمة السفن الجزائرية والقيام بحملات على مدينة الجزائر.[1]

ولذلك ما إن فكرت إسبانيا في مهاجمة مدينة الجزائر حتى كانت الكنيسة في طليعة المؤيدين لها, زيادة على بعض المدن الإيطالية مثل نابولي، ليفورن وجنوة، وذلك بحجة حماية السواحل الإسبانية من الهجمات الجزائرية المتواصلة وإطلاق سراح أسراهم الذين يقدرون بالآلاف في ذلك الوقت[2]، فكان هذا من أهم الأسباب التي تحجج بها الملك كارلوس الثالث في هجومه على مدينة الجزائر.

ي- استقرار الأوضاع في إسبانيا وأوروبا

دخلت إسبانيا خلال الفترة الممتدة من سنة 1732-1775م في سلسلة من الحروب الأوروبية إلى جانب فرنسا فقد كانت طرفا فعالا في حرب الوراثة البولونية التي امتدت من 1733- 1738م، وكانت ضمن التحالف المشكل من فرنسا، بفاريا، سردينيا، في مواجهة النمسا، روسيا وجرمانيا، لفرض مرشحهم ستانيسلاس لزينسكي «Stanislas le czinski» للوصول إلى سدة الحكم خلفا للملك أوغست الثاني «Augusts 2».[3]

وفي سنة 1738م أبرمت الدول المتصارعة معاهدة فينا تم بموجبها إنهاء حرب الوراثة البولونية، وبعد مدة قصيرة وجدت إسبانيا نفسها من جديد إلى جانب حليفتها فرنسا في حرب جديدة ضد ملكة النمسا مريا تيريزا«Marie Thérèse» ، وعرفت هذه الحرب تاريخيا بحرب الوراثة النمساوية، التي امتدت على مدار سنوات الأربعينيات من القرن الثامن عشر ميلادي، ومن أشهر الحروب وأخطرها التي خاضتها إسبانيا في هذه الفترة، حرب 7 سنوات التي جرت وقائعها في الفترة الممتدة من 1756-1763م، وكان سببها الرئيسي المنافسة

1 - يحي بوعزيز: الموجز...، المرجع السابق، ص 185.
2 - ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص 156.
3- امحمد موفقي:المرجع السابق، ص33

الاستعمارية بين دول التحالف إسبانيا، فرنسا والنمسا، ضد إنجلترا وبروسيا، والتي استطاعت خلالها إنجلترا تحقيق مكاسب هائلة في العالم الجديد على حساب فرنسا وإسبانيا.[1]

تكبدت إسبانيا خسائر فادحة في هذه الحروب، لذلك ما إن انتهت حتى بدأ التفكير في كيفية استعادة هيبتها وتعويض الخسائر التي لحقت بها، فكان لزاما عليها أن تجد طرفا أقل قوة من تلك الدول التي واجهتها في أوروبا، فهداهم تفكيرهم إلى مدينة الجزائر التي يمكن السيطرة عليها بسهولة حسب ظنهم.

3- استعدادات الطرفين

أ-إسبانيا

بعد أن توفرت العديد من الأسباب للقيام بهذه الحملة، أصدر الملك "كارلوس الثالث" أمرا إلى كافة الموانئ الرئيسية بإسبانيا، مثل قرطاجنة، قادس، برشلونة، بضرورة التحضير الجيد كتجميع الفيالق الحربية والعتاد والمؤمن والآليات الضرورية، وقد استمرت هذه التحضيرات طيلة شهر جوان 1775م.

استطاع الإسبان تجنيد حوالي 20 ألف جندي و300 فارس و600 مدفعي مع مدافعهم، في ما كانت السفن تحمل حوالي 3500 بحار[2]، و500 سفينة، توجد منها 50 باخرة حربية، 20 بارجة و20 مدمرة 7 مراكب من نوع "شباك" و 344 سفينة مزودة بـ 100 مدفع[*]، وأسندت مهمة قيادة هذه الحملة للأميرال الأيرلندي الأصل الكونت أليخندرو أورللي «Algandro O'reilly» كقائد للجيش البري، فيما أسندت قيادة الجيش البحري لبيدور كاستيخون «Don Pedro Castejon» لتنطلق الحملة يوم 23 جوان من ميناء قرطاجنة لتتصل إلى سواحل مدينة الجزائر يوم 30 جوان.[3]

ب-الجزائر

على عكس الحملة الأولى ضد وهران والمرسى الكبير سنة 1737م علم الجزائريون مبكرا بخبر هذه الحملة فعملوا على الاستعداد الجيد لها بقيادة وإشراف الداي محمد عثمان باشا الذي أصدر أوامره و أعلن

1- جمال قنان:المرجع السابق، ص26

2 – جون وولف: المرجع السابق، ص 403، فيما ذكر جيمس ولسن ستيفانس أن عدد القوات كان 25447 شخص بما فيهم المشاة، الخيالة، الفرسان، رجال المدفعية...وغيرهم،أما السفن وتجهيزاتها فكانت 6 سفن كبيرة،12 فرقاطة 9 شباك، 24 سفينة من نوع آخر، 176 قطعة مدفع و2 مدافع هاون ...جيمس ولسن ستيفانس: الأسرى الأمريكان في الجزائر، 1785 -1797 م، ترجمة، علي تابليت، منشورات تالة، الجزائر، 2008 م، ص ص58 – 59 .

* – أما المصادر المحلية والمراجع فقد تقاربت في إعطاء نفس الأرقام تقريبا 20 ألف جندي و 500 سفينة حربية، أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص 42، مجموعة 3190، علبة رقم 16، الملف الثاني، وثيقة رقم P13، ص1، محمد أبوراس الناصري:عجائب الأسفار ولطائف الأخبار،ج1،دراسة وتحقيق بوركبة محمد، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف،الجزائر، 2011م،ص 338

3-*Dalarymple(Major),Expedition D'oreilly1775,R.Af, N°5,Alger,1861,pp33.34*

النفير العام في كامل تراب الإيالة، وأمر الناس بالجهاد للدفاع عن الدين والوطن، حاثا السكان على التعاون فيما بينهم مهما كانت طبقاتهم الاجتماعية ومستوياتهم المعيشية، ومن مختلف الفئات العمرية، حتى أنه أمر بتعيين الأولاد من فوق السبعة سنين للمساعدة على تعمير القلاع والأبراج[1]. ثم وجه أوامره بضرورة تنظيم القوة العسكرية الموجودة بمدينة الجزائر وضواحيها، والتي قدر عددها بحوالي 11897 مجند منهم 9322 قادرا على المشاركة الفعلية في المعارك، كانوا موزعين على 424 فوجا، مقيمين بثماني ثكنات عسكرية داخل أسوار المدينة[2]، وبعدها أصدر أوامره إلى باي قسنطينة بالمسير إلى الجزائر بعد أن كان مرابطا ناحية حمزة (البويرة) وفي ذلك يقول محمد الطاهر بن أحمد: «...فأخذ صالح باي المخازنية والعتاد والمشايخ والدواير والصبايحية وكل من أراد الجهاد من الطلبة والمرابطين وتوجه إلى الجزائر»[3] وكذلك باي التيطري، ولخليفة باي الغرب بالتوجه إلى الجزائر، فيما يبقى الباي مشددا الحصار على وهران، مخافة من تحرك القوات الإسبانية ومفاجأة القوات الجزائرية، أو مهاجمة مستغانم وتلمسان.[4]

4- توزيع القوات الجزائرية المدافعة عن المدينة

قرر الداي محمد بن عثمان باشا توزيع وحدات الجيش الجزائري إلى خمس مجموعات، كل واحدة منها ترابط في مكان معين لتكون على أهبة الاستعداد للدفاع عن المدينة والتصدي للقوات الإسبانية، وكان توزيعها على النحو التالي:

-المجموعة الأولى: أسندت قيادتها "لحسن الخزناجي"، وكان مركز رباطها عين الربط (الحامة حاليا) ووادي الخنيس معه 40 خُباء (فصيل أو سرية)، وفي كل خُباء 30 نفرا من العسكر، أي يوجد معه حوالي 1200 جندي.

-المجموعة الثانية: أسندت قيادتها "لعلي آغا" آغا العرب ومركز رباطها واد خنيس (العناصر حاليا)، وأمر الداي أن يكون معه 40 خُباء في كل خُباء 30 نفرا من العسكر أي 1200 جندي.

-المجموعة الثالثة: أسندت قيادتها للسيد "مصطفى خوجة" خوجة الخيل ومركز رباطها باب الواد، وأمر بأن يكون معه 20 خُباء في كل خُباء 30 نفر أي يوجد معه 600 جندي.[5][*]

1 - مجموعة 3190، علبة رقم 16، الملف الثاني، وثيقة رقم P13، ص2.

2 - ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص 157.

3 - محمد الطاهر بن أحمد: ذكر طرف ولاية المرحوم السيد صالح باي أمير ببلدة قسنطينة، مخطوط المكتبة الوطنية، تونس، رقم 263، ص22.

4 - ابن رقية الجديري التلمساني: المصدر السابق، ص26.

5- نفسه، ص ص 26، 27.

* - مجموع هذه الأخبية 100 خباء ليكون عدد الجنود بها 3 آلاف جندي.

–المجموعة الرابعة:باي التيطري "مصطفى باي" ومركز رباطه تمنفوست، يؤازره بعض القبائل وفرسان سباو.

–المجموعة الخامسة :خليفة باي الغرب يؤازره الخزناجي من الجهة الغربية من رباط (عين الربط) ومعه 4 آلاف فارس من الدواير.[1]

5– توزيع المدافع على الأبراج

- برج الفنار (برج البحرية) وبه 180 مدفعا.
- برج السردين وبه بطاريتان من المدافع بها 32 مدفعا.
- برج الجديد (برج الزوينة) وقد جدد بناءه محمد بن عثمان باشا ما بين 1773–1774م فيه مجموعة من المدافع، وفي المحصلة يوجد حوالي 200 مدفع جاهز للدفاع عن المدينة[2].

أما فيما يخص العدد الكامل للقوات الجزائرية المستعدة فعليا للدفاع عن المدينة، فإننا نستعين بالتقرير الذي قدمه سان ديدي حول الحملة الإسبانية نقلا عن جمال قنان وكان توزيعها كما يلي:

- بايلك الشرق بقيادة صالح باي، عدد قواته 40 ألف رجل.
- بايلك التيطري بقياد مصطفى باي، عدد قواته 40 ألف رجل، فيما ذكر الجديري رقم 20 ألف[3].
- بايلك الغرب بقيادة الخليفة نائب الباي، عدد قواته 20 ألف جندي.
- آغا العرب بالجزائر عدد قواته 2000 من الأتراك.
- الخزناجي بالجزائر عدد قواته 6 آلاف رجل.
- وكيل الحرج عدد قواته 5 آلاف رجل من الأتراك.*

أما باي الغرب فبقي مرابطا في أرزيو يترصد تحركات الإسبان الموجودين في وهران والمرسى الكبير وكان عدد قواته يتراوح ما بين 30 و 40 ألف رجل.[4]

---

1 - مجموعة 3190، علبة رقم 16، الملف الثاني، وثيقة رقم P13، ص 01.

2 –جمال قنان:المرجع السابق، ص 256

3 –ابن رقية الجديري التلمساني: المصدر السابق، ص 27

* – ليكون بذلك عدد الجنود المدافعين عن المدينة يقدر بحوالي 113 ألف مقاتل ويبدو الرقم مبالغا فيه كثيرا ولا يعبر عن الحقيقة، خاصة وأن المصادر المحلية لم تتطرق بتاتا لهذا العدد الضخم.

4 – جمال قنان: المرجع السابق، ص ص 256 – 257.

6- سير الحملة ونتائجها

أ-سير الحملة

في 02 جمادى الثانية 1189هـ الموافق لـ30 جوان 1775م، بدأت تظهر القوات الإسبانية على سواحل مدينة الجزائر، وما إن بدأ الناس يخرجون من صلاة الجمعة حتى رست مقدمة الجيش بالحراش ونتيجة لهذا الوصول المفاجئ قام صالح باي بمناورة ذكية وأنزل قواته بمكان غير بعيد عن الحراش، وقدرت هذه القوات بحوالي 20 ألف جندي.[1]

ومع طلوع فجر يوم 01 جويلية 1775م قام القائد العام للقوات الإسبانية الكونت أوررللي بجولة استطلاعية رفقة العديد من الضباط والمستشارين على متن السفينة "سانتا كلارا" لاستطلاع الأوضاع على الساحل والتعرف على الدفاعات الجزائرية المنصوبة، لكنه تفاجأ عندما رأى المدافع والبطاريات موزعة على كامل المدينة من كل الجهات، وأكثر من ذلك اكتشافه لتحصينات قوية لا يمكن اختراقها، مما دفعه إلى اختيار حل آخر وهو النزول إلى البر ثم الزحف على مدينة الجزائر للسيطرة عليها، واختار لذلك مصب وادي الحراش لإنزال قواته.[2]

قرر الكونت أوررللي إنزال قواته على الشاطئ الشرقي للجزائر بين وادي خنيس (العناصر) والحراش وتم حشد حوالي 20 ألف جندي بكامل معداتهم الحربية ومؤنهم، وقد وصف أحد قادة القوات الإسبانية الأميرال مزاريدو «Mazarrede» عملية النزول والظروف المحيطة بها قائلا: «...بعد أن تجمعت الحملة في خليج الجزائر في أول جويلية طلب مني الكونت أوررللي على أساس أنني قائد الأسطول النزول إلى البر رفقة الأفواج الأولى للجيش ومعي 12 قطعة مدفعية من عيار4، ثم يليها مباشرة إنزال 12 مدفع من عيار8 بالإضافة إلى 8 مدافع من عيار 12، لتصادفنا ريح قويه في 03 جويلية مما صعب عملية الإنزال التي قرر لها 4 جويلية ونتيجة هذه الأوضاع كلفت بوضع خطة نهائية لنقل الجنود واختيار السفن التي ستحملهم إلى الشاطئ على أن تنزل قوة قوامها 7600 رجل، ليلتحق بهم بعد وقت قصير قوة تعدادها 7 آلاف رجل».[3]

فيما أخذت القوات الجزائرية مواقعها استعدادا لملاقاة العدو متبعة الإستراتيجية التالية لتطويق القوات الإسبانية، حيث لم يتركوا أي مجال للصدفة، متخذة الشكل التالي:

1 - أوجين فايست: تاريخ بايات قسنطينة في العهد التركي 1792 – 1873 م،ترجمة، صالح نور، تقديم، الشيخ عبد الرحمان شيبان،ط1،دار قرطبة للنشر والتوزيع، الجزائر،1432 هـ/2010 م،ص31 .

2-*Berbrugger (A), op.cit, p174.*

3- *Mazarredo (Joseph de), Expédition D'oreilly Contre Alger en 1775, R.Af, N°8, Alger, 1864, pp 255, 257.*

- الجهة الغربية المؤدية بين الجزائر ووادي خنيس وعين الربط (الحامة، ساحة أول ماي)، أسفل مرتفعات عين الأزرقة، قوات حسن الخزناجي تؤازرها قوات علي آغا العرب بالقرب من وادي خنيس.
- الجهة الشرقية من ساحة الحراش جنوبا: قوات صالح باي ومعه الكثير من راكبي الخيل والجمال.
- الجنوب الغربي: قوات مصطفى خوجة الخيل.
- باب الوادي: فرقة الصبايحية، لمراقبة تحركات العدو في حال تغيرت خططه وتنقل إلى الجهة الغربية لمدينة الجزائر.
- فرق زواوة: لحماية الجهة الغربية للمدينة.
- الجهة الغربية: قوات خليفة باي الغرب محمد بن عثمان الكبير.[1]
- سهل متيجة: قوات باي التيطري إلى غاية تامنفوست (البرج البحري حاليا)، لتأمين مؤخرة المدافعين والمكلفين بإيصال المؤن، والمبادرة بالهجوم في حالة الضرورة.[2]

الملاحظ إذن أن المدينة أصبحت مطوقة من كل الاتجاهات، فما إن تنزل القوات الإسبانية إلى ساحة المعركة حتى تجد نفسها محاصرة من كل الجهات.

أخذ كل قائد ينظم قواته ويعدها لخوض المعارك في المنطقة التي خصصت له، وقاموا بحفر الخنادق والمتاريس، ومما ساعدهم على إتمام تجهيزاتهم تأخر نزول القوات الإسبانية أسبوعا كاملا نتيجة التردد وهبوب الريح وإلى ذلك أشار ابن رقية التلمساني بقوله: «...إن مكث العدو كان خيرا لنا، لأن قبائل العرب كانوا يجيؤون من كل ناحية إلينا».[3]

بدأت القوارب التي تحمل الجنود الإسبان بالتقدم نحو الساحل، وما إن وصلت حتى بدأ الجنود بالنزول إلى الشاطئ وفي نفس الوقت تقوم السفن الحربية بالقصف بالمدافع لمعسكرات القوات الجزائرية في الجهة الشرقية مركزة قصفها على المنطقة التي توجد بها قوات حسن الخزناجي رغبة منها في تأمين عملية النزول، لكن البطاريات والمدافع الجزائرية كانت لهم بالمرصاد.[4]

---

1 - أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص465.

2 - ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص158.

3 - ابن رقية الجديري التلمساني: المصدر السابق، ص27.

4 - محمد موفقي: العلاقات السياسية والتجارية بين الجزائر وإسبانيا 1200-1245هـ/ 1786-1830م، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ، معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية،المركز الجامعي، غرداية، 1431-1432هـ/ 2010-2011م، ص 37.

نزل الجنود الإسبان إلى البر وبيد كل واحد منهم بندقية ورمح برأسين حديديين، لتستعمل كمتاريس حول معسكراتهم وفي نفس الوقت يعيقون بها تقدم الخيالة الجزائريين، كما أنزلوا معهم أكواما من الأخشاب مربوطة في شكل حزم ومهارس القنابل والمدافع ومعهم جميع ما يلزمهم، لتبدأ فرقهم العسكرية في بناء الاستحكامات باستخدام تلك الرماح، إلا أن القوات الجزائرية بتمركزها الجيد استطاعت أن تعيق تحركاتهم وتطوقهم وتحاصرهم في منطقة ضيقة بين مرتفعات حسين داي وشاطئ البحر، رغم تحصيناتهم التي بادروا منذ البداية بإقامتها.[1]

بعد أن أدرك الإسبان خطورة الموقف حاولوا فك الحصار مبكرا لذلك هرعت قواتهم نحو البساتين المجاورة والحقول الواقعة بين الحراش وخنيس، وقاموا باستخدام الأسطول في قصف تجمعات القوات الجزائرية التي أبدت مقاومة شرسة في التصدي لهم، والتي بقيت لمدة 3 أيام وهي تحارب في نفس المنطقة إلى أن استطاع أحد المدافعين واسمه عمر براقنيس إدارة مدفعين إلى ناحية الحصن، الذي يتواجد به الإسبان فأحدث ثغرا في حائطه، مما مكن الجزائريين من توجيه قذائف مباشرة إلى السفن الإسبانية وتجمعاتهم، مما نتج عنه خسائر في المتارس، وبدأت المعركة تميل لصالح الجزائريين.[2]

أسفرت هذه المعارك عن خسائر فادحة في صفوف الإسبان، فقد قتل حوالي 119 ضابط و 2088 جندي، أما من بقي من الجيش فقد أُحكم الحصار حولهم تماما وغدا الصمود لا يجدي نفعا، لأن القوات الجزائرية أحكمت سيطرتها على المنطقة.[3]

ب-اليوم الرابع من المعارك -بداية النهاية للقوات الإسبانية-

على الرغم من مرور ثلاثة أيام على بداية المعارك، إلا أنه لا أحد من الطرفين استطاع حسم المعارك لصالحه، فحاول كل طرف إيجاد طريقة ما لحسم الأمر نهائيا، ومن هنا خطر على بال صالح باي خطة حربية يفاجئ بها القوات الإسبانية ويشتت شملها ويقتحم معسكراتها المحصنة، وفي اليوم الرابع من المعارك صبيحة يوم الإثنين أشار صالح باي بتجميع كل الإبل التي قدم بها من قسنطينة، وكان عددها 500[4]، ووضع فوقها

1 - ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص 159.
2 - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص 42.
3 - عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص530.
4 - مجموعة 3190، علبة رقم 16، الملف الثاني، وثيقة رقم P13، ص2.

الصوف وقام بإشعاله فاندفعت الإبل إلى الأمام نحو خنادق الإسبان فداستها واقتحمتها[1*]، فيما كانت قواته المقدرة بحوالي 20 ألف رجل تمشي خلفها، وكان يهدف من وراء هذه الخطة إلى حماية جنوده من رصاص الجنود الإسبان[2]، زيادة على إرعابهم وبعث الخوف في نفوسهم لمشاهدتهم هذا الموقف الرهيب، وفي هذه الأثناء التحقت بقوات صالح باي قوات الخزناجي من جهة الغرب، ومن الجنوب قوات خليفة باي معسكر وقوات خوجة الخيل.

والتقى الطرفان في معركة رهيبة استطاعت فيها القوات الجزائرية دخول المتاريس وملاحقة القوات الإسبانية التي بدأت في الفرار باتجاه السفن بدون تنظيم، وما زاد الأمر تأزما بُعدهم عن البحر، حيث قدرت المسافة بنصف ميل، وقتل منهم الكثير وهرب بعضهم في الزوارق إلى سفنهم. [3]

على الساعة الثالثة صباحا من يوم 8 و9 جويلية تمكن بعض الإسبان من الذين نجوا من نيران وسيوف الجزائريين من ركوب سفنهم، وكلهم فرح وسرور بتمكنهم من النجاة من هذه المجزرة الرهيبة، تاركين خلفهم مدافعهم ومعداتهم الثقيلة التي أنزلوها لإحكام الحصار على المدينة، وظل أسطولهم إلى غاية 24 جويلية محاولا إعادة القصف والهجوم من جديد، لكن المجلس الحربي رفض خطة أوررللي، ليتحرك الأسطول باتجاه إسبانيا وسط خلافات حادة بين قادته، محملا كل واحد منهم مسؤولية الانهزام للآخر.[4]

أما من جانب الجزائريين فقد زفت البشائر للداي محمد بن عثمان باشا وأُعلنت الأفراح، فقام بتوزيع الكثير من الأموال على السكان، وفي ذلك يقول أحمد الشريف الزهار: «... وقعد عند باب دار ملكه ومعه خزنداره وعماله وهم يفرقون الأموال بإذنه على كل من يأتي برأس نصراني، والمقدر بـ100 سلطاني على كل رأس بالإضافة إلى أصحاب المدافع، حتى ضاقت الأرض برؤوس النصارى والمدافع»[5]، وهو دليل على كثرة الغنائم التي تحصل عليها الجزائريون.

---

1 - مجهول: تاريخ بايات قسنطينة، المرحلة الأخيرة، تحقيق، حساني مختار، منشورات دحلب، حسين داي، الجزائر، 1990م، ص 10؛ الآغا بن عودة المزاري: المصدر السابق، ص 250.

* - يذكرنا هذا الأمر بما فعله المرابطون في معركة الزلاقة سنة 479 هـ بقيادة يوسف بن تاشفين، عندما استنجد بهم المعتمد بن عباد ضد النصارى، فهاجموا النصارى بالإبل وكانت المعركة فاصلة أبقت الأندلس إسلامية لمدة قاربت أربعة قرون من الزمن.

2 - أوجين فايست: المصدر السابق، ص33 .

3 - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص ص42-43.

4 - حساني مختار:"شرح تنوير البصائر والأبصار في تحريض سلطان الجزائر على قتال الكفار"، **المجلة المغاربية للمخطوطات**، أعمال الملتقى الوطني للتراث المخطوط، نوفمبر 2006 م، ع4، جامعة الجزائر، الجزائر،2013 م، ص228 .

5 - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص43.

انتهت المعركة بانتصار الجزائريين على الإسبان الذين رجعوا خائبين مرة أخرى، وتحطمت آمالهم على عتبات مدينة الجزائر، التي بقيت صامدة بفضل عبقرية الداي محمد بن عثمان باشا ومعاونيه من أمثال صالح باي وأغا العرب وحسن الخزناجي وخليفة باي الغرب، زيادة على شجاعة الجنود الجزائريين سواء النظاميين أو المتطوعين من أبناء القبائل والعرب والسكان المحليين، وقد أسفرت هذه الحملة على عدة نتائج.

ج- نتائجها

- فشل الإسبان بقيادة الكونت أوررللي في احتلال مدينة الجزائر وخيبة آمال الملك كارلوس الثالث في تحقيق أمنية لطالما حلم بها أجداده من الملوك، وهي إخضاع المدينة لسلطة الإسبان.
- تكبد الإسبان خسائر مادية وبشرية فادحة ، فقد أجمعت المصادر المحلية على أن الإسبان تركوا وراءهم جميع عتادهم وجثث جنودهم مقطوعة الرؤوس مرمية في ساحة المعركة، وقد قدرت هذه الخسائر بـ 8 آلاف قتيل و3 آلاف جريح منهم 12 مهندسا، ومن الضباط السامين 250 ضابطا منهم كاهية الجنرال"كاتبه"[1]، فيما ذهبت رواية أخرى إلى أن عدد القتلى كان11 ألف قتيل[2]، بالإضافة إلى 100 مدفع وجميع الآلات الحربية.[3]

أما التقارير الإسبانية فإنها حاولت التخفيف من هول الصدمة التي أصابتهم، والتقليل من الخسائر التي لحقت بهم، فالأمير جوزيف دي مازاريدو المسؤول عن عمليات الإنزال على الشاطئ حاول في تقريره التخفيف من الخسائر الإسبانية قائلا: «... وما تركناه وراءنا على الساحل أربعة مدافع مشاة، وبعض قطع مدفعية عيار 18، بالإضافة إلى 19 رطلا من رصاص البنادق، ورامي القذائف، وبعض الأدوات، وهذه الخسائر لا تعبر عن شيء لعدد الرجال الذين كنا سنتركهم قتلى لو انتظرنا إلى الصباح».[4]

وهذا التقرير في الحقيقة يعبر عن نظرة عسكري وجب عليه التحفظ في شأن إعطاء الخسائر الحقيقية والتدليل على عبقريته العسكرية، مفضلا الانسحاب على تكبد خسائر في أرواح جنوده، مع التقليل من الخسائر وعدم إظهار ذلك للعدو (الجزائريين)، وهذا في الحقيقة يعبر عن ذكاء هذا الضابط في ذلك الوقت أو

1 - ابن رقية الجديري التلمساني: المصدر السابق، ص31.
2 - مجموعة 3190، علبة رقم 16، الملف الثاني، وثيقة رقم P13، ص 02.
3 - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص43.
4 - *Mazarredo(J. de), op.cit, p265.*

لنقل هي حرب كلامية مرتبطة عضويا بالحرب العسكرية، مع أن كل القرائن تكذب قوله، فهل يعقل أنه لم يتكبد خسائر في كل المدة التي قضاها في المعارك وأدرك هذه الحقيقة في يوم واحد فقط؟

أما بالنسبة للخسائر البشرية حسب الروايات الأجنبية فإنها جاءت مغايرة تماما لما أوردته المصادر المحلية و لم تتجاوز حسبهم 191 قتيل و 27 جريحا من الضباط، و 2088 جندي قتيل و 501 جريح في صفوف الجنود.[1*]

- أما خسائر الجزائريين فقد كانت ضئيلة مقارنة بحجم الخسائر التي مني بها الإسبان والمعارك التي جرت فلم تتجاوز عند بعض المؤرخين 200 شهيد[2]، أما عند البعض الآخر فقد بلغت 300 شهيد[3] فيما ذهب البعض الآخر إلى 400 شهيد، جمعوا وجعلت لهم مقبرة بالرملية إزاء عين الربط[4](عرفت لدى العامة بحصن المجاهدين"ساحة أول ماي حاليا")
- زاد هذا الانتصار المحقق الإحساس بالفخر والاعتزاز لدى الجزائريين، والالتفاف حول قيادتهم التي قادتهم إلى الانتصار، فعمت الأفراح والاحتفالات كامل تراب الإيالة، وزف الخير السعيد للسلطان عبد الحميد الأول[**] مع بعض الهدايا وقدم له حفيد الداي محمد بك ووكيل خراج القصر تفاصيل هذا الانتصار الذي حققه الجزائريون، فيما توافدت جموع غفيرة للوفد الجزائري مهنئة ومباركة له هذا الانتصار.[5]
- تركت هذه الهزيمة أثرا بالغا عند الإسبان، فقد ذكرتهم بحملاتهم السابقة الفاشلة، خاصة حملة شارلكان سنة 1541م، لتضاف هذه الهزيمة إلى انتكاساتهم السابقة على عتبات مدينة الجزائر، التي بقيت صامدة دائما أمامهم [6].

1-*Berbrugger(A), op.cit, p184.*

* – يقول جون وولف أن عدد القتلى بلغ 27 ضابطا و 500 جندي و جرح 191 ضابطا وأكثر من 1000 جندي، جون وولف، المرجع السابق، ص 406؛ وهكذا هي عادة الأوروبيين يقللون من خسائرهم حتى ينقصوا من انتصارات الجزائريين ولا يعطونها حقها من القيمة والاهتمام، عكس انتصاراتهم ولو كانت في معركة بسيطة.

2 – مجموعة 3190، علبة رقم 16، الملف الثاني، وثيقة رقم P13، ص 2.

3 – ابن رقية الجديري التلمساني: المصدر السابق، ص 31.

4 –محمد أبو راس الناصري: المصدر السابق، ص338.

** – ولد سنة1138 هـ/1726م، جلس على العرش سنة 1187هـ/1773م، ومدة حكمه 16 سنة، في عهده عرفت الدولة العلية عدة إصلاحات ابتداءً من سنة 1189هـ/1775م، مثل محاربة الفساد وبعض الإصلاحات الإدارية، وعرف عهده الكثير من الحروب ضد الدولة الصفوية وروسيا، توفي سنة 1203هـ/1789م، عن عمر يناهز 66 سنة...، محمد فريد بك المحامي: المصدر السابق، ص ص 184، 186.

5 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 532.

6 – أمحمد موفقي: المرجع السابق، ص39.

- سطوع نجم الداي محمد بن عثمان باشا في كامل العالم الإسلامي، وبخاصة في منطقة المغرب الإسلامي، وأصبح مشهورا ومحبوبا في قلوب الناس، لأنه استطاع بدهائه وعبقريته العسكرية أن لا يترك شيئا للصدفة، ولذلك كافأه السلطان عبد الحميد الأول ببردة وسيف وطرة مرصعة بالجوهر والكثير من السفن ولوازمها والأشرعة تكريما أو تعظيما له.[1]
- خلّدا هذا النصر لدى الجزائريين وأطلق الشعراء العنان لقرائحهم، فنظموا العشرات من القصائد الشعرية والكتابات التي تخلد هذا النصر التاريخي، ومن هذه الأبيات ما قاله الشاعر الجزائري أحمد بن الشيخ سيدي السعيد قدورة وهو يُجيب فيها الشيخ محمد بن سعيد بن قريش التطواني عن أخبار هذه المعركة:

هِيَ الأَقْلاَمُ تَنْطِقُهُا المَحَابِرُ   لِتُسْمِعَكَ اليَقَينَ عَنِ الجَزَائِرِ
وَبَاؤُوا مِثْلَمَا جَاؤُوا خَزَايَا   وَأَعْطَوْا مَا أَكَنَّ فِي الضَّمَائِرِ
وَكَمْ رَمَتْ الحُصُونُ عَلَيْهِمُ   مِنْ صَوَاعِقٍ لاِ تَعْدُ خِلاَلَ زَاخَرَ
وَلاَ تَحْزَنْ فَإِنَّ اللهَ مَعَنَا   إِذَا الْتَقَتِ العَسَاكِرُ بِالْعَسَاكَرِ.[2]

- استمرار حالة العداء بين الطرفين الجزائري والإسباني، فزادت الغارات من الجانبين وأصبح كل واحد منهما يترصد سفن الآخر، وقد اتبع محمد عثمان باشا سياسة تكثيف الغارات على سفن الإسبان والقيام بتشجيع العاملين في البحرية بزيادة المكافآت للرّياس والبحارة، ودفع الأجور لهم زيادة على نصيبهم من الغنائم، وشجع صناعة السفن، ولذلك اعتبرت السنوات الممتدة من 1778– 1782م أعظم نتائج القرصنة، لأن المداخيل زادت فيها وقاربت المليوني فرنك سنويا.[3]
- انتعاش الحركة التجارية بمدينة الجزائر نتيجة لكثرة الغنائم والأسرى ،وفي ذلك يقول الزهار: «فوقع للتجار ربح عظيم، وكان السماسرة ينادون على الأسارى وقيمة كل أسير 200 دورو، فإذا جاء الغداء يفتدونهم بألف دور لكل رأس»[4]، وهذا دليل على انتشار الحركة التجارية وكثرة الغنائم والأسرى بمدينة الجزائر في ذلك الوقت.

---

1 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 532.
2 – عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام...، ج3، المرجع السابق، ص ص 245، 246.
3 – المنور مروش: المرجع السابق، ص 468.
4 – أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص 144.

7-العوامل المساعدة على انتصار الجزائريين

اختلف المؤرخون في تفسير العوامل والأسباب التي أدت إلى انتصار الجزائريين وهزيمة الإسبان، وكل واحد فيهم يحاول تفسير هذا الأمر من وجهة نظره، فهناك من أرجعها إلى الأخطاء الحربية التي وقع فيها الإسبان، وثان أرجعها إلى دهاء وعبقرية القادة الجزائريين بقيادة محمد بن عثمان باشا ومساعديه مثل علي خوجة وصالح باي...وغيرهم، وآخر أرجعها إلى تأييد الله بالملائكة وكراماته التي أنزلها على الجيش الجزائري نتيجة لإيمانه وصبره، ولذلك نلخص مجمل هذه الأقوال فيما يلي:

- التردد الذي طبع قرارات قادة الجيش الإسباني وعلى رأسهم الكونت أوررللي والدون بيدرو كاستيخون في اختيار موقع الإنزال، فقد استغرق ذلك 7 أيام كاملة، وهذا فيه إنهاك لقوى الجيش الذي أصابه العياء من قلة النوم والجهد المبذول خلال هذه المدة، وكان من المفروض أن يختار نقطة الإنزال مسبقا قبل وصول الحملة إلى الجزائر، حتى يتم الإنزال بأقصى سرعة ممكنة.[1]
- استهزاء الإسبان بقدرات الجزائريين على رد الحملة وعدم تقديرهم الجيد لمعطيات المعركة، سواء ما تعلق بقدرات الجزائريين العسكرية أو أرض المعركة نفسها، فقد دخلوا المعركة دون أن يقع اختيارهم على شاطئ حصين، كما أنهم فشلوا في معرفة أماكن تواجد المدافع الجزائرية التي وضعت على المرتفعات المطلة على مكان نزولهم، لذلك كانت تقديراتهم سيئة، زد على ذلك أن تخطيطهم لهذه المعركة كان أسوأ.[2]
- قوة وفعالية المدفعية الجزائرية التي كانت متمركزة جيدا على المرتفعات وبين الأشجار والبساتين المحيطة بأرض المعركة، وتآزر وتدخل القوات الجزائرية في آن واحد ضد العدو، أدى إلى حسم المعركة لصالحهم.
- مهارة وكفاءة القادة الجزائريين وعلى رأسهم محمد بن عثمان باشا ومساعديه مثل صالح باي ومصطفى خوجة وخليفة باي الغرب... الذين عرفوا كيف يخططون لهذه المعركة.[3]
- لعبت المكافآت المالية التي وعد بها الداي محمد بن عثمان باشا جنوده -لكل من يأتي برأس جندي إسباني- دورا مهما، وكانت دافعا لمزيد من الحماس والشجاعة لدى الجزائريين من أجل الحصول على

---

1 - عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص531.
2 - جون وولف: المرجع السابق، ص 406.
3 - ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص 161.

10 دنانير مقابل كل قتيل مسيحي[1]، ونلاحظ أن جون وولف يفسر هذا الأمر على أنه جشع مادي بحت لهؤلاء المقاتلين الذين يريدون الربح المادي فقط، وهذا هو ديدنه فيما يخص كل المعارك التي خاضها الجزائريون خاصة المتطوعون منهم، غير مبال تماما بعقيدتهم التي تدعوا إلى الجهاد والفوز بالجنة زيادة إلى حماسهم في الدفاع عن وطنهم وأرضهم التي يريد الإسبان الاستيلاء عليها، وهم غير متناسين مأساة إخوانهم من الأندلسيين الموريسكيين الذين فعلوا الإسبان بهم الأفاعيل وطردوهم من أرضهم، زيادة على الانتقام من الإسبان الذين يحتلون وهران والمرسى الكبير.

- الشجاعة والإقدام اللذان تميزت بهما القوات الجزائرية المدافعة عن المدينة وذكائها الحربي وسرعة تحركاتها داخل أرض تعرف خباياها بالتفصيل.[2]
- الخطة العسكرية المحكمة التي نفذها صالح باي هي التي رجحت الكفة لصالح الجزائريين وأثبتت ذكاءه وخبرته العسكرية، وكانت سببا في تحقيق هذا النصر.[3]
- الكرامات التي حدثت للمجاهدين الجزائريين أثناء القتال، وقتال الملائكة معهم، حتى قيل أن النار كانت تشتعل في جنود النصارى بعون الله سبحانه وتعالى.[4*]

وعموما فإن هذه العناصر مجتمعة هي التي قادت الجزائريين للانتصار ودحر الحملة الإسبانية، على الرغم من اختلاف التفاسير لهذه الأسباب، فهناك المتعاطف مع الإسبان خاصة الأوروبيين، و آخر متعاطف مع الجزائريين، ومع ذلك مهما كانت التفسيرات فإنها لا تنقص من هذا الانتصار، بل يبقى من أعظم الانتصارات التي حققتها الدولة الجزائرية الحديثة .

ثالثا: حملتا الدون أنطونيو بارسللو على مدينة الجزائر 1783–1784م

المبحث الأول: حملة الدون أنطونيو بارسللو«Don Antonio Barcelo» الأولى على مدينة الجزائر 1783م

على عكس المرات السابقة التي كان الإسبان ينتظرون مدة طويلة للتفكير في إعادة حملاتهم على الجزائر، لم ينتظروا كثيرا هذه المرة فقرروا إعادة المحاولة مرة ثانية في مدة لم تتجاوز الثماني سنوات، لأنه لم يكن

1 – جون وولف: المرجع السابق، ص 404.
2 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 469.
3 – مجهول: المصدر السابق، ص10.
4 – مجموعة 3190، علبة رقم 16، الملف الثاني، وثيقة رقم P13، ص 2.
* – لا يمكننا نفي أو تصديق هذا الأمر، لكن نقول أنه ثبت عبر التاريخ الإسلامي منذ غزوة بدر الكبرى مثل هذه الكرامات للمجاهدين المخلصين، لأن الله سبحانه وتعالى يمد عباده بالملائكة للقتال معهم نصرة لدينه وعباده المظلومين، ويمكن أن يكون حدث هذا الأمر في هذه المعركة.

من السهل عليهم نسيان تلك الهزيمة المدوية التي كبدهم خسائر مادية وبشرية فادحة سنة 1775م، ونتيجة لكثرة الضغوط التي كانت تمارس على الملك وقادته العسكريين، لم يطق الملك صبرا أمام هذه الضغوطات وقرر توجيه حملة عسكرية إلى مدينة الجزائر يمحو بها آثار الحملة السابقة، وينتقم لهيبة إسبانيا التي ضاعت على عتبات هذه المدينة، ولهذا الغرض شكل أرمادة عسكرية وأسند قيادها للدون أنطونيو بارسللو تدفعه في ذلك عدة أسباب:

1- أسبابها

أ-رفض الداي محمد بن عثمان باشا إقامة الصلح مع إسبانيا

بعد صراع طويل ومرير بين الجزائر وإسبانيا ارتأت هذه الأخيرة بعد تردد طويل إقامة صلح يكون مفيدا للطرفين، فحاولت أن تستغل حادثا عابرا لصالحها- فبينما كان وكيل الحرج حسين عائدا إلى الجزائر بعد أن ذهب إلى استانبول لزف التهاني للسلطان العثماني وإخباره بالنصر المحقق على الإسبان بقيادة أوريلي وأثناء عودته وقع في قبضة الإسبان واقتيد إلى قرطاجنة- من أجل الضغط على الداي محمد بن عثمان باشا لإقامة الصلح، ، لكن الداي لم يبال بهذا الأمر كثيرا، فما كان على الإسبان إلا أن أطلقوا سراح وكيل الحرج مزودا بالهدايا، آملين منه التعاون معهم في تحقيق أمنيتهم، لكن على ما يبدو أن الداي عندما فاتحه وكيل الحرج كان رده الرفض وقال:" لا أصالحهم ما دمت حيا".[1]

فما كان على الإسبان إلا التوجه للباب العالي، الذي وقعوا معه اتفاق صلح سنة 1197هـ/1782م مستغلين فرصة محاولة الدولة العلية إشراك الجزائر في هذا الصلح، وأرسل السلطان كبير البوابين لإخبار الجزائريين بهذا الصلح مع إسبانيا، وعلى الرغم من الفرمان الذي أرسله السلطان إلا أن محمد بن عثمان باشا رفض الاعتراف بهذا الصلح ورد قائلا: «... إنني أعلم أن ملك إسبانيا كارلوس الثالث يقوم بتجهيز أسطوله وتجنبا من أن يعتقد أنني خفت منه لذلك هرعت إلى عقد الصلح، ولهذا فلا أريد التحدث في هذا الموضوع»[2] ونتيجة لهذا الموقف المتعنت للداي قررت إسبانيا الرجوع إلى أسلوب القوة لإجبار الداي على الرضوخ لشروطها.

---

1 - يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص 23.

2 - عزيز سامح ألتر:المرجع السابق، ص 539.

ب – رغبة الإسبان الانتقام لحملة أوررلي

لم تنسى إسبانيا هزيمة جيشها القاسية بقيادة أوررلي أمام الجيش الجزائري ، و لم يكن بمقدورهم الصبر على ذلك أكثر من 8 سنوات، وهم لا يزالون يرون آثار هذه الهزيمة ماثلة أمامهم، ولذلك وبمجرد ما حلت سنة 1783م حتى رأت القيادة الإسبانية أن الوقت أصبح مناسبا للانتقام واحتلال مدينة الجزائر، مستغلة في ذلك العلاقات المتوترة بين الجزائر وأوروبا ما بين سنتي 1783–1784م[1]، فقد رفض الداي محمد بن عثمان مرارا إقامة الصلح مع روسيا ما دامت في حالة عداء مع الدولة العلية ،كما رفض استقبال القنصل الإنجليزي بل أكثر من ذلك قام بطرده مع مستهل سنة 1783م، وكانت الجزائر في حالة حرب مع العديد من الدول الأوروبية، بالإضافة إلى استنجاد الدولة العلية بالداي في حروبها ضد روسيا ،فكان يستجيب لرغبة الباب العالي ويرسل بعض قطع الأسطول لمساعدة الأسطول العثماني[2]، فأرادت إسبانيا استغلال هذه الفرصة وتشتيت جهود الجزائريين في المتوسط وغيره، وفي نفس الوقت الانتقام لحملة أوررلي.

ج – محاولة فك الحصار على مدينتي وهران والمرسى الكبير

كان محمد بن عثمان باشا مركزا جهوده على إعادة فتح وهران والمرسى الكبير، وقد رفض إقامة صلح مع الإسبان ما لم ينسحبوا منهما[3]، لذلك عمل على إخضاع القبائل المتعاونة معهم وفرض عليها الإتاوات، وعمل فيما بعد على فرض حصار جديد على وهران، لكن الإسبان كانوا متحصنين جيدا و لم يستطع الجيش الجزائري اختراق هذه الحصون، إلا أنه جعل الإسبان أسرى حصونهم، وبحلول سنة 1780م استطاع الباي محمد الكبير أن يحكم قبضته على المدينة من جهة البر، لكن المنفذ البحري قلل على الإسبان مخاطر الحصار المفروض عليهم[4]، ومع ذلك تأثرت الحامية الإسبانية به، فما كان من الإسبان المقيمين بوهران إلا الاستنجاد بالملك الإسباني، الذي حاول جاهدا فك الحصار، وكان يدرك أنه لا يتأتى له ذلك إلا بتوجيه أنظار الجزائريين وإشغالهم بحرب أخرى تكون مدينة الجزائر مسرحا لها.

1 – بوحفص تجاجنة: المرجع السابق، ص21.
2 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص539.
3 – ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص 162.
4 – جون وولف: المرجع السابق، ص407.

د- امتلاك الإسبان لسفن متطورة ومحاولة تجريبها

استطاعت إسبانيا قبيل تنفيذ حملتها على الجزائر سنة 1783م امتلاك نوع من السفن الحربية المتطورة جدا في ذلك الوقت تسمى "اللّنجور" أو"اللّنجون"[1]، وعرفت لدى الإسبان بـ "La Lancha"، وكانت من اختراع الضابط أونطونيو بارسللو -الذي كوفئ على هذا الاختراع بأن أعطي له شرف قيادة الحملة الأولى سنة 1783م والحملة الثانية سنة 1784م- وهي عبارة عن سفن خفيفة وسريعة الحركة تحمل على متنها مدافع صغيرة، لذلك أرادت إسبانيا تجريب هذه السفن على مدينة الجزائر ومدى فاعليتها، وقد استعملت في الحرب ضد إنجلترا.[2]

هـ- إنتهاء الحرب الإنجليزية الإسبانية

تميز القرن الثامن عشر ميلادي بكثرة الحروب الأوربية فيما بينها، خاصة وأنه تميز ببداية ظهور الحركة الاستعمارية الحديثة وما نتج عنها من الصراع الأوربي أوربي على المستعمرات، فيما كانت إسبانيا تواجه عدة تحديات، منها المحافظة على مستعمراتها في العالم الجديد، وظهور إنجلترا كمنافس قوي لها، خاصة بعد سيطرتها على مضيق جبل طارق وجزيرة مينورقة التي حاولت إسبانيا جاهدة استعادتها[3]، وما إن انتهت من تسوية مشاكلها مع إنجلترا حتى وجهت أنظارها نحو الجزائر لعلها تعوض ما فقدته في حربها ضد إنجلترا.

2- استعدادات الطرفين

أ- الجزائر

كان في حكم المؤكد لدى الجزائريين أن الإسبان لم ينسوا هزيمتهم سنة 1775م وسوف يعاودون الحملة على مدينة الجزائر من أجل الأخذ بالثأر، ولم يكن الداي محمد بن عثمان باشا غافلا عما كان يقوم به الإسبان من استعدادات على الرغم من مشاكلهم المستمرة مع الدول الأوروبية الأخرى، وفي شهر ماي 1783م تلقى الداي إشعارا من السلطان المغربي محمد بن عبد الله ينبهه فيه إلى أن الإسبان يعدون لحملة على مدينة

---

1 - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص 51.

2 - شكيب بن حفري: المرجع السابق ص ص 187، 188.

3 - بوحفص تجاجنة: المرجع السابق، ص 80.

الجزائر، وأنهم على وشك الانطلاق لتنفيذها[1]، لذلك لم يتأخر الداي في أخذ جميع التدابير اللازمة لمواجهة الحملة ومنها:

- استدعاء الفرق العسكرية من البايلكات الثلاث فجاء من بايلك قسنطينة حوالي 25 ألف جندي، ومن بايلك الغرب حوالي 20 ألف جندي، ومن بايلك التيطري 5 آلاف جندي.[2]
- إجلاء السكان المدنيين من البيوت مع أمتعتهم وأموالهم إلى الحدائق والبساتين لتجنيبهم تبعات القصف والتدمير الذي سيلحق بالمدينة.[3]
- إخراج الأسرى المسيحيين الموجودين بالمدينة والبالغ عددهم حوالي 1548 أسير وإرسالهم إلى المدية مخافة محاولة تمردهم، خاصة وأنهم قاموا بمحاولة مماثلة فيما سبق.[4]
- الشروع بسرعة فائقة في بناء سفينتين مدفعيتين لتعزيز القوة البحرية الجزائرية.[5*]

ب- إسبانيا

على العكس من الحملة السابقة التي قادها الأميرال أورللي لم تكن هذه الحملة بمثل ضخامة الحملة الأولى، فقد اكتفت إسبانيا بإرسال حوالي 75 مركبا مشكلا من عدة أنواع من السفن بعضها يحتوي على مدافع[6]، منها 10 فرقاطات و25 شبيكة و40 شلوب "Chaloupes"، يقود هذا الأسطول انطونيو بارسللو.[7]

3- سير الحملة ونتائجها

أ- سير الحملة

بعد تجمع قطع الأسطول الإسباني بميناء قرطاجنة واتخاذ جميع الإجراءات والتدابير اللازمة لإنجاح الحملة، غادر ميناء المدينة متوجها إلى مدينة الجزائر بتاريخ 17 جويلية 1783م، ولسوء الأحوال الجوية التي

---

1 - يحي بوعزيز: المراسلات الجزائرية الإسبانية...، المرجع السابق، ص24.

2 - *Charles (F), Les trois Attaques Des Espagnols Contre Alger au XVIII Siècle, R.Af*, N20, *Alger, 1876, p303.*

3 - أحمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة...، المرجع السابق، ص475.

4- *Grammont(H. De), Histoire…, op.cit, p267.*

5 - *Charles (F), op.cit, p303.*

*- هو في الأصل تقرير بالإيطالية لشاهد عيان كان حاضرا بالمدينة ويراقب الأحداث عن قرب وبالضبط من دار قنصلية هولندا، ليقوم شارل فيرو بترجمة هذا التقرير إلى الفرنسية ونشره في المجلة الإفريقية بالتاريخ المذكور أعلاه.

6 - عبد القادر فكاير: "حملتا الدون أونطونيو بارثيللو على الجزائر في أواخر القرن الثامن عشر من خلال مخطوط تاريخ مجيء اسبانيول"، **مجلة العصور الجديدة**، ع1، معهد التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، 2011، ص 79.

7 - جون وولف: المرجع السابق، ص 407.

أعاقت سيره لم يصل إلى غاية 29 جويلية، وبعد ثلاثة أيام من وصوله بدأ بالهجوم في 02 رمضان 1198هـ الموافق لـ 01 أوت 1783م، مباشرة بعد صلاة الظهر من يوم الجمعة، وبدأت السفن الإسبانية "اللّنجور" بقصف المدينة، وقد أطلقت حوالي 500 قذيفة أغلبها لم يصب أهدافه، وسقط في البحر، لأن السفن الجزائرية ردت بقوة و لم تترك الأسطول الإسباني يتقدم إلى المدينة، لتضطره إلى الانسحاب من ساحة المعركة، فيما بقي الأسطول الجزائري في ميدان المعركة حتى الساعة الثانية عشرة ليلا.[1]

شهد اليوم الثاني معارك عنيفة بين الطرفين استطاع من خلالها الإسبان إطلاق حوالي 500 قذيفة على مدينة الجزائر، ألحقت أضرارا جسيمة بها وهدّمت الكثير من المباني من أهمها تهديم جامع السيدة[2*] ومسجد سيدي والي دادة وتضرر المرسى وبرج الفنار، واستشهد حوالي ثمانية جزائريين من بينهم خوجة الخيل لتتوقف المعارك ليوم واحد، وتستأنف يوم الإثنين 05 رمضان الموافق لـ 4 أوت، أين حاول الإسبان إنهاء المعركة وهاجموا مدينة الجزائر بكثافة، إلا أنهم جوبهوا بمقاومة شديدة من قبل السفن الجزائرية التي اضطرتهم للانسحاب، وأسفرت هذه المعركة على مقتل ثلاثة أشخاص وجرح 10 من الجزائريين.[3]

تواصلت المعارك يوم 07 رمضان الموافق لـ 06 أوت وسط تبادل كثيف لإطلاق القذائف في محاولة من كل طرف حسم المعارك لصالحه، لتستمر المعارك إلى غاية 09 أوت دون أن يستطيع أي طرف حسم المعركة الأخيرة لصالحه، وقد خلفت هذه المعارك مقتل 13 جزائري وجرح 252.[4]

ب- نتائجها

- على الرغم من أن الحملة الإسبانية ألحقت أضرارا كبيرة بمدينة الجزائر، إلا أنها لم تحقق هدفها ,ألا وهو إخضاع المدينة والسيطرة عليها نهائيا، ولذلك نستطيع القول أن الحملة فشلت في مهمتها الأساسية التي جاءت من أجلها.
- حدوث أضرار كبيرة في المباني جراء كثافة القصف الذي تعرضت له المدينة بفعل نجاعة سفن "اللّنجور" التي أثبتت قدرتها على المناورة وإصابة أهدافها بدقة وسرعة فائقة، حتى أن أحد المعاصرين لهذه الأحداث سماها "بالبلاء والمصيبة" بسبب الخسائر التي ألحقتها بمدينة الجزائر[5] التي سقطت عليها

---

1 - *Charles (F), op.cit, p305.*

2 – أحمد الشريف الزهار: المرجع السابق، ص51

* – نسبة إلى السيدة بنت مولاي الناصر ملك بجاية... .

3 - *Charles (F), op.cit, p306.*

4 – عبد القادر فكاير: المرجع السابق، ص79.

5 – شكيب بن حفري: المرجع السابق، ص 128.

حوالي 4000 قنبلة ومثلها من قذائف الكور، إما باتجاه المدينة أو التحصينات، وتضرر منــها حــوالي 200 مترل، منها مترل القنصل السويدي وجامع السيدة وقصر الداي.[1]

- بلغ عدد القتلى الجزائريين حوالي 46 شهيدا و 52 جريحا[2]، فيما ذهبت بعض المصــادر الأجنبيــة إلى مقتل 300 مدني و100 عسكري.[3]
- لم تذكر المصادر والمراجع عدد الخسائر التي تكبدها الإسبان جراء هذه الحملة، فيما اكتفت بعضــها بذكر عدد القنابل التي أطلقتها السفن والمدافع الجزائرية التي قدرت بحوالي 10 آلاف قذيفــة مــدفع[4] والتي نستبعد أنها لم تحدث أي خسائر بالإسبان سواء مادية أو بشرية، فلماذا سكتت هذه المصادر عن ذكر الخسائر؟ وهذا يقودنا إلى طرح الأسئلة التالية:
  - فهل سفن اللّنجور هي التي أحدثت الفارق وجنبت الإسبان خسائر في الأرواح والعتاد؟
  - أم عدم نزول الإسبان إلى البر سهّل من مهمة إخفاء خسائرهم؟
  - أم أن الدفاعات الجزائرية في البر تكون أكثر فاعلية ودقة في إصابة الهدف منها في البحر؟
  - أم أن تغيير الإسبان لإستراتيجيتهم الحربية وحذرهم الشديد هو الذي جنبهم أي خسارة تذكر.

  وربما أن هذه العوامل مجتمعة سهلت من مهمة إخفاء الإسبان لخسائرهم.
- خرج الجزائريون من هذه المعركة قيادة وسكانا أكثر كرها للإسبان، وتأكدوا أنهم يريدون احــتلال مدينتهم بأية طريقة، لذلك أصبحوا أكثر إصرار وعزما على تحدي العدو، وأكثر استعدادا للمواجهات القادمة، مع علمهم أن مدينتي وهران والمرسى الكبير مازالتا تحت الاحتلال، لذلك شرعوا في تــرميم الحصون وبناء السفن والتزود بالسلاح والبارود خاصة من هولندا واستانبول.[5]

على غير عادتها في المرات السابقة لم تقم إسبانيا بإنزال بري في هذه الحملة، بالمقارنة مــع حملاتهــا السابقة خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، فكانت دائما تعتمد على الهجوم البري والبحري الذي كبدها خسائر فادحة مادية وبشرية، زيادة على خيباتها المتتالية في احتلال مدينة الجزائر، إلا أن هذه المرة اكتفت بالهجوم البحري الذي استعملت فيه سفن جديدة "اللّنجور" ذات فعالية كبيرة، وكان لها الدور الكبير

1 - محمد أبو راس الناصري: المصدر السابق، ص338.
2 - عبد القادر فكاير: المرجع السابق، ص 80.
3- *Charles (F), op.cit, p310.*
4 - أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص478.
5 - مولاي بلحميسي: المرجع السابق، ص11.

في ترجيح كفة الإسبان في هذه المعركة، على الرغم من فشلهم في هدفهم الذي جاؤوا من أجله وهو احتلال مدينة الجزائر.

فكيف خطر على بال قادة الإسبان الاكتفاء بالهجوم البحري هذه المرة على عكس المرات السابقة؟

فهل هو الخوف من تكبد خسائر مماثلة لما كانوا يتكبدونه سابقا؟ أم أن هناك مجموعة من القادة داخل البلاط الملكي الحاكم أصبحوا معارضين للهجوم على مدينة الجزائر نتيجة للخيبات السابقة؟ أم قلة الجيش البري ونقص التجنيد فيه هو الذي فرض هذا التوجه؟ أم قوة الجيش البري الجزائري بكل مكوناته سواء النظامي أو المتطوعين والذي بلغ حسب بعض المصادر في آخر معركة سنة 1775م حوالي 150 ألف جندي -وهو عدد ضخم جدا ذلك الوقت-، هو الذي فرض منطقه الحربي على الإسبان وجعلهم متأكدين من استحالة مواجهته في البر؟ الأكيد أن الكثير من هذه العناصر مجتمعة هي التي جعلت إسبانيا تغير استراتيجيتها الحربية ضد الجزائر ابتداءً من هذه المعركة.

المبحث الثاني: حملة الدون أنطونيو بارسيللو الثانية على مدينة الجزائر 1784م

1- أسباب الحملة

على الرغم من فشل الحملة الأولى لأنطونيو بارسللو على مدينة الجزائر سنة 1783م وفشله في احتلالها إلا أنه بقي مصرا على إعادة الكرة و لم يتعظ بما حدث له في الحملة الأولى وبقي مصمما على الخيار العسكري، لعله ينجح في مهمته هذه المرة، فقام بتجهيز أسطول ضخم بمباركة واشتراك العديد من الدول والإمارات المسيحية مثل نابولي، مالطة والبرتغال، تؤازرهم الكنيسة في روما بقيادة "بيوس السادس" الذي بارك هذه الحملة في منشور أصدره بتاريخ 14 جوان 1784م[1]، وقد ارتبطت هذه الحملة بعدة أسباب نذكر منها:

- الرغبة الإسبانية في الانتقام من الجزائر والأخذ بالثأر منها نتيجة وقوفها سدا منيعا أمام توسعاتها في بلاد المغرب الإسلامي، والانتقام من هزيمتيها السابقتين سنتي 1775، 1783م.
- استغلال الدعم الكبير الذي تلقته إسبانيا من الدول الأوروبية وعلى رأسهم الكنيسة الكاثوليكية، التي كانت تدعمها في جميع حروبها ضد الجزائر.
- رفض الجزائر إقامة الصلح مع إسبانيا أو حدوث أي تقارب بينهما ما لم يتم الانسحاب من وهران والمرسى الكبير[2].

1 – محمد السعيد بوبكر:المرجع السابق,ص 43 .
2 – محمد أبو راس الناصري:المصدر السابق، ص 338.

- إحساس إسبانيا بتفوقها في البحر نتيجة امتلاكها لسفن متطورة "اللّنجور" ولذلك حاولت إنهاك الجزائر بالحملات البحرية المتتالية لعلها تحصل على مبتغاها إما احتلال مدينة الجزائر أو إقامة صلح وفق شروطها.

2- استعدادات الطرفين

أ- الجزائر

مباشرة بعد انسحاب الأرمادا الإسبانية سنة 1783م بدأ الداي محمد بن عثمان باشا في إصلاح وتجديد ما تخرب وتهدم من حصون[1]، وقام بإصلاح السفن التي تضررت جزئيا، لكن أهم خطوة قام بها الداي صناعة 50 سفينة من نوع "اللّنجور"[2*]، من أجل الوقوف في وجه السفن الإسبانية المتطورة في ذلك الوقت، وقد اكتملت هذه الاستعدادات في ظرف قياسي مدته سنة واحدة فقط –حتى أن القائد الإسباني أنطونيو بارسللو تفاجأ عندما لم يشاهد آثار الحملة السابقة-[3]واستطاع صنع 50 سفينة[**] من نوع "اللّنجور" وضم إليها سفنا كبرى وأصبح مجموع السفن 60، منها 42 مجهزة بالمدافع والباقي بالمهارس.[4]

ب- إسبانيا

بدأ الدون أنطونيو بارسللو استعداداته لتنفيذ حملته ضد الجزائر بمحاولة جمع أكبر عدد ممكن من قواته ومراكبه التي باستطاعتها إنجاح مهمته، واستطاع جمع أسطول بحري يحتوي على أكثر من 130 سفينة منها 80 من نوع "اللنجور" والباقي ما بين سفن صغيرة وكبيرة[5] منها: 11 سفينة من نابولي، 8 من مالطة، وكان الأسطول يضم 26 سفينة حربية و30 سفينة تفجير، أما السفن الباقية فهي مخصصة للنقل، وقبل انطلاق

1- *Belhamissi (M), Alger La Ville aux Mille Canons E.N.A.L, Alger, 1990, p30.*

2 – أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص ص 51، 52.

* – ذكر الزهار أن عدد سفن اللّنجور 500سفينة، ويبدو الرقم مبالغا فيه كثيرا مع أننا لم نستطع التأكد من ذلك، لأن المصادر سواء المحلية أو الأجنبية التي اطلعنا عليها لم تشر إلى هذا العدد، ولذلك نرجح احتمالين: إما أن هناك خطأ مطبعيا والعدد هو 50، أو أن أحمد الشريف الزهار يبالغ في هذا العدد، مع العلم أن إسبانيا كانت تملك 80 سفينة من هذا النوع فقط، فكيف للجزائر أن تملك هذا العدد الضخم في مدة سنة !؟

3-*Grammont (H. de), op.cit, p267.*

** – عند انسحاب الإسبان بعد فشلهم في إخضاع مدينة الجزائر، تركوا وراءهم سفينة من نوع اللّنجور محطمة في المكان المسمى عين الربط (العناصر حاليا)، فعثر عليها بعض المقاتلين هناك، وعندما سمع بها أحد القادة العسكريين "قبطان الحاج أحمد"، أرسل أحد المهندسين لمعاينتها، ثم نقل هذا الانشغال إلى الداي محمد بن عثمان باشا واتفق معه على صنع نفس النوع لمواجهة الإسبان به في المرة القادمة، وقد طلب منهم الداي صناعة 50 سفينة قبل نهاية السنة، لذلك أمر كبير الطرسنة –وكيل الحرج- أن يباشر صنع ذلك، وقد رفع العمال التحدي وأتموا بناء هذه السفن في الوقت المحدد. أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق ص ص 51، 52.

4- عبد القادر فكاير: المرجع السابق، ص 80.

5 –نفسه.

الأسطول أقام البابا قداسا لكي تغفر جميع ذنوب المشاركين في الحملة، أما عدد الجنود فكان يجهل عددهم لسكوت المصادر عن ذكر ذلك لينطلق الأسطول من قرطاجنة في 28 جوان 1784م.[1]

3- سير الحملة ونتائجها

أ-سير الحملة

بتاريخ 09 جويلية 1784م وصلت الأرمادا الإسبانية على مشارف مدينة الجزائر، إلا أنها لم تبدأ القتال إلى غاية يوم 12 جويلية[*]، أين ظهرت 70 سفينة من نوع "شالوب" خالية من السواري متخذة وضعية القتال معلنة بذلك بداية المعارك، إلا أن السفن الجزائرية اعترضت طريقها و لم تتركها تتقدم باتجاه المدينة منتظرة حلول الليل ليسهل عليها مناورة الأسطول الإسباني، وفي الليل أعطيت الإشارة من الحصون لقنبلة السفن الإسبانية، التي ردت بقوة وعنف، إلا أنها لم تحدث أضرارا كبيرة سواء بالمدينة أو بالسفن الجزائرية.[2]

وبعد توقف القتال لمدة يومين استؤنف مرة أخرى، ودارت معارك طاحنة استعملت فيها الحراقات لقصف مدينة الجزائر، ورغم ذلك لم يستطع الأسطول الإسباني الاقتراب من المدينة[3]، وبقيت السفن الجزائرية في وضعية دفاع محافظة على مراكزها، لتتواصل المعارك بين الطرفين إلى غاية 19 جويلية أين أحدث الرياس بعض المشاكل، وطلبوا من الداي زيادة مرتباتهم، وأعلنوا رفضهم خوض المعارك بالمدافع الحديدية مخافة انفجارها، وطالبوا بمدافع نحاسية لتحسين أدائهم القتالي[**]، مما أثر على سير المعركة، وترجيح كفتها لصالح الإسبان بسبب فرار بعض المقاتلين من ميدان المعركة، إلا أن ثبات فئة من المقاتلين منع الإسبان من دخول المدينة وفوت عليهم فرصة لا تعوض للسيطرة عليها.

تواصلت المعارك أيام 17 و 18 و 19 جويلية لتضطر بعهدها السفن الإسبانية للانسحاب إلى مركز قيادة الأسطول، لتفاجئها السفن الجزائرية بهجوم مباغت كبدها خسائر كبيرة، وبتاريخ 21 جويلية 1784م

---

1 - عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص543.

* -لم تبدأ القتال لسببين اثنين: إعطاء فرصة للجنود الإسبان لأخذ قسط من الراحة حتى لا تتكرر الأخطاء السابقة التي كان فيها الجنود الإسبان يقاتلون وهم منهكون جراء قلة النوم والتعب، أما السبب الثاني: فحتى يستطيع الأسطول الإسباني التموقع جيدا.

2 - *Charles (F), op.cit, p315.*

3 - *Grammont (H. de), Document Relatif A La Seconde Expédition DE Don Angelo Barcelo Contre Alger, 1784, R.Af, N°26, Alger, 1882, p223.*

** - ذكر أحمد توفيق المدني: في كتابه حرب الثلاثمائة سنة أن عدد الضحايا جراء انفجار المدافع كان 12 قتيل و14 جريح، وقد بقيت مشكلة المدافع التي تنفجر قائمة، لأنها مصنوعة من الحديد ولا تحتمل الحرارة العالية جراء الاستخدام المتواصل، وهذا من بين العيوب التي رصدها القنصل الفرنسي دي كرسي، لأنه كان شاهد عيان على الحملتين الإسبانيتين سني 1783- 1784م وسجل في تقريره الذي رفعه إلى حكومته نقاط ضعف الدفاعات الجزائرية وطريقة دفاعها، وهي المعلومات التي استعانت بها وزارة الحرب الفرنسية في حملتها على الجزائر سنة 1830م... أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص351.

قررت القيادة الجزائرية اتخاذ قرار المبادرة بالهجوم وعدم الاكتفاء بالدفاع، لذلك أُعطيت الأوامر للسفن الحربية بمهاجمة الأسطول الإسباني، إلا أن رده كان عنيفا، ودارت معركة طاحنة بين الطرفين أطلق خلالها كل طرف حوالي 2000 قذيفة على الآخر، وأسفرت في نهايتها عن انهزام الإسبان وتكبدهم لخسائر فادحة.[1]

بتاريخ 22 جويلية بدأ الإسبان يفكرون جديا في الانسحاب من قبالة مدينة الجزائر، وقاموا بتجميع قطع أسطولهم واتخذوا كافة الإجراءات والتدابير من أجل الانسحاب بهدوء وبدون خسائر، وفي 23 جويلية أقلع الأسطول الإسباني عائدا إلى بلاده دون تحقيق الهدف الذي جاء من أجله.

وهكذا انتهت هذه الحملة إلى ما انتهت إليه سابقاتها بالفشل الذريع وعدم تحقيق هدفها وهو احتلال مدينة الجزائر، لأن الجزائريين اعتمدوا الأساليب الدفاعية المحضة والمناورة بعيدا عن المدينة بغرض إدارة المعارك في وسط البحر، بدل ترك السفن الإسبانية تقترب، وبهذا الأسلوب استطاعوا تجنيب المدينة الكثير من الخسائر وعدم تعرضها للاحتلال، وقد ترتب عن هذه الحملة عدة نتائج نذكر منها:

ب- نتائجها

- بلغت خسائر الإسبان300 ما بين قتيل وجريح على الرغم من صعوبة تحديد هذا الرقم بدقة لأن المصادر المحلية والأجنبية سكتت عن إعطاء الرقم الحقيقي.[2]
- فشل الإسبان في احتلال مدينة الجزائر وانكسار حملتهم على مشارفها ليتأكدوا للمرة الأخيرة أنهم لن يستطيعوا إخضاعها أو احتلالها، لذلك يجب عليهم إيجاد طرق أخرى غير الطرق العسكرية في تعاملهم مع الجزائر.
- تأكد الإسبان نهائيا أن الطريق السلمي هو الطريق الوحيد لتحسين علاقاتهم مع الجزائر، ولا يكون ذلك إلا بتقديم تنازلات لصالح الجزائر، من أجل إنهاء هذا الصراع الذي دام أكثر من قرنين ونصف من الزمن.
- سمحت هذه الحملة لإسبانيا باختيار طريق السلم و الدخول في مفاوضات جدية سوف تتوج فيما بعد بتوقيع اتفاق صلح سنة 1786م.
- البحث عن الصلح من طرف إسبانيا جعل الجزائر بعد هذه الانتصارات تفاوض من موقع قوة، هذا ما جعل الداي محمد بن عثمان باشا يشترط مقابل أي صلح الانسحاب من وهران والمرسى الكبير[3]

1 - عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص544.

2 - *Grammont (H. de), op.cit, p225.*

3 - عبد القادر فكاير: المرجع السابق، ص 62.

فكانت العديد من الدول الأوروبية ترى هذه الشروط مذلة لإسبانيا وإهانة لها، وفي ذلك يقول ويليام شالر في مذكراته: «... عندما امتلأت نفوسهم بالاحتقار لهذه الدولة (إسبانيا) راح الجزائريون يكيلون لها الشتائم والإهانات... ويضطرونها إلى دفع الأموال لأتفه الأسباب».[1]

- خسر الجزائريون خلال هذه الحملة 50 قتيلا و134 جريحا وتحطُم الكثير من المباني ودور العبادة.[2]
- خسر الإسبان من معداتهم في هذه الحملة 3339 قذيفة و145 طلقة مدفع و401 علبة رصاص.[3]

4-أسباب هزيمة الإسبان

- التعزيزات العسكرية التي قامت بها الجزائر لحماية المدينة من الهجمات الإسبانية، منها بناء وتجديد الحصون، بالإضافة إلى اقتناء بعض المدافع الجديدة من السويد وهولندا وإنجلترا، وكانت هذه المدافع سببا في عدم اقتراب الإسبان من المدينة.[4]
- اختيار الإسبان أسلوب القتال في البحر، والقصف بالقنابل والقذائف كان سببا واضحا في عدم السيطرة على مدينة الجزائر.
- استتباب الأمن الداخلي، وعدم حدوث تمرُّدات تزعزع الاستقرار، لأن الداي محمد بن عثمان باشا اتخذ الإجراءات اللازمة لتجنب أي انزلاق، ومنها إرسال الأسرى إلى المدية حتى لا يثوروا أو يحدثوا إخلالا بالنظام، وهي في الحقيقة خطة كان لها الأثر الإيجابي في استقرار الأوضاع أثناء المعارك.[5]
- اكتساب الجزائريين للتكنولوجيا البحرية المتطورة، واستغلال تعطل نوع واحد من سفن اللّنجور وتصنيع عدد كبير منها بلغ 50 سفينة، وشكل مفاجأة غير سارة للإسبان بهذا الاختراع، الذي كان له الدور الرئيس في ترجيح كفة الحرب لصالح الجزائر، وربما هو خطأ فادح من طرف الإسبان الذين تركوا أهم وسيلة بيد أعدائهم، الذين حاربوهم بنفس سلاحهم الذي كان له دور مهم في تقليل خسائرهم خلال الحملة السابقة سنة 1783م.
- لعبت شخصية الداي محمد بن عثمان باشا دورا كبيرا في هذا الانتصار، زيادة على التفاف السكان والقادة العسكريين والقوات الإنكشارية والرياس حوله، والخبرة العسكرية التي اكتسبها الجيش

1 – ويليام شالر: مذكرات ويليام شالر 1816-1824م، تعريب وتعليق وتقديم: إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م، ص 133.

2 – عبد القادر فكاير: المرجع السابق، ص 82.

3 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص544.

4 – جون وولف: المرجع السابق، ص408.

5 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص544.

الجزائري من خلال الحروب الطويلة التي خاضها ضد الأوروبيين عامة والإسبان خاصة، مما أهله للتّكيف مع مثل هذه الأوضاع العسكرية.

- التآزر والتكاتف الذي أظهرته القيادة العسكرية فيما بينها واستجابتها في كل مرة لنداء الداي محمد بن عثمان باشا الذي كان ما إن يستدعيها إلى الجزائر إلا ولبت النداء، إيمانا منها بالدفاع عن الوطن والحفاظ عليه من الأخطار الأجنبية.

رابعا: العلاقات الجزائرية الإسبانية 1786–1800م

المبحث الأول: اتفاق الصلح بين الجزائر وإسبانيا 1786م

1– بداية النهاية للصراع العسكري بين الطرفين

ظلت العلاقات الجزائرية الإسبانية متوترة، ميزتها الرئيسية الصراع والنزاع بين الطرفين منذ تأسيس الإيالة الجزائرية، التي حملت على عاتقها الدفاع عن بلاد المغرب الإسلامي من الخطر المسيحي الذي مثلته إسبانيا الحديثة خاصة بعد قيام هذه الأخيرة باحتلال السواحل المغاربية الواحدة تلوى الأخرى.

استطاعت الجزائر تحرير معظم السواحل المغاربية من تلمسان غربا إلى طرابلس الغرب شرقا، ما عدا وهران والمرسى الكبير اللذان شكلا مركز الصراع بين الطرفين، و بقي الجانب الجزائري مصمما على تحريرهما، ونجح في ذلك سنة 1708م وإلى غاية 1732م، أين عاود الإسبان احتلالهما، ليزداد الصراع ضراوة بين الطرفين، رغبة من الجزائر في استرجاع المدينتين، ومحاولة من الإسبان استرجاع أمجاد الماضي وإخضاع السواحل المغاربية من جديد، ونقل الصراع إلى مدينة الجزائر وإخضاعها نهائيا، ،كما حدث في بداية القرن السادس عشر ميلادي.

لكن الإيالة الجزائرية الحديثة ليست هي نفسها المغرب الأوسط الذي كان يعيش التفكك والفوضى والانهيار، فقد استطاعت الوقوف في وجه كل المحاولات الإسبانية الرامية لإخضاع مدينة الجزائر والسيطرة عليها، لتنتهي هذه المحاولات بالفشل الذريع ابتداء من 1519م إلى 1784م، لتهتدي إسبانيا أخيرا إلى أسلوب جديد غير الذي كانت تستعمله من قبل، وحاولت اختيار طريق السلم، بعد أن جربت طريق الحرب و لم تجني منه إلا الخسائر والفشل، واختارت طريق الدبلوماسية، الذي ربما يحفظ لها ماء وجهها، وتنهي حالة التوتر والصراع، وتعبيد الطريق لفتح صفحة جديدة في العلاقات بين الطرفين.

الملاحظ أن إسبانيا هي التي اختارت الطريق العسكري، وهي أيضا التي اختارت الطريق السياسي الدبلوماسي، وسعت جاهدة في محاولة منها لإقناع القادة الجزائريين بضرورة التوصل لمعاهدة تنهي حالة الحرب

ولكنها كانت تعلم علم اليقين أن الداي لن يقبل هذا الخيار ووهران والمرسى الكبير مازالتا تحت الاحتلال خاصة وأن الملك كارلوس الثالث جرب ذلك سنة 1782م و لم ينجح في إقناع الداي محمد بن عثمان باشا لذلك كان لا بد من وسيط يحاول تقريب وجهات النظر بين الطرفين.

وقع اختيار إسبانيا على الدبلوماسية الفرنسية التي كانت لها علاقات حسنة مع الجزائر لإقناع الداي بتوقيع معاهدة سلام، إلا أن المحاولة واجهتها صعوبات وعقبات كبيرة، نتيجة للموقف المتصلب للداي تجاه فرنسا وقضية احتلال وهران والمرسى الكبير، ومع ذلك وبفضل المساعي المتواصلة للقنصل دوكرسي «Kercy» تمكن الطرفان في الأخير من التوصل إلى إبرام معاهدة صلح في جوان 1786م، التي فتحت الباب على مصراعيه للسلام والحوار لحل كل المشاكل العالقة، وأسهمت بشكل فعال في فتح قنوات اتصال مباشرة بين القيادة السياسية في البلدين، بدل اختيار الحل العسكري.

2- أسباب توقيع الاتفاق

- وصول القادة الإسبان سياسيين وعسكريين إلى قناعة مفادها أن مواصلة الصراع العسكري ضد الجزائر لن يفيدهم في شيء، خاصة وأنهم جربوا هذا المسعى منذ بداية القرن السادس عشر ميلادي و لم يجنوا منه إلا الهزائم المتوالية والخسائر الفادحة البشرية منها والمادية، ومما زاد من هذه القناعة هزائمهم المتتالية سنوات 1775، 1783، 1784م، والتي أكدت للمرة الأخيرة أن الجزائر لن تخضع لإسبانيا عسكريا مهما حاولت هذه الأخيرة، التي وصلت في الأخير إلى أنه لابد من فتح صفحة جديدة مع الجزائر ربما بفضلها تتحصل على مكاسب لم تحققها بالقوة العسكرية.
- عرفت إسبانيا في بداية القرن الثامن عشر ميلادي عدة هزائم عسكرية ومشاكل داخلية وخارجية ابتداء من حرب وراثة العرش الإسباني إلى صراعها المتواصل ضد إنجلترا حول جبل طارق، الذي فشلت في استرجاعه أو حتى في العالم الجديد الذي فقدت فيه الكثير من المواقع، زد على ذلك الهزائم المتتالية على يد الجزائريين، مما كبدها خسائر فادحة، فأثر فيها هذا وقررت التخلي عن وهران، و لم يعد لديها رغبة في الاحتفاظ بها، فاقترحت على إنجلترا استبدالهما بجبل طارق سنة 1780م إلا أن إنجلترا رفضت هذا الاقتراح.[1]
- عرفت إسبانيا خلال هذه الفترة نموا اقتصاديا هائلا، فكان لا بد لها من تأمين تجارتها الخارجية من اعتداءات الرياس، الذين كانوا ينتقمون من الإسبان لاحتلالهم وهران والمرسى الكبير، فأرادت بذلك

1 - يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص23.

أن تعمل شيئا ما لتحسين علاقاتها مع الجزائر[1]، فيما يرى ماتيوس أندرسن أن إسبانيا في هذه المرحلة صحيح عرفت نموا وازدهارا اقتصاديا، لكنه كان من العائدات التي جنتها من مستعمراتها داخل القارة الأمريكية -العالم الجديد- ولذلك مصالحها وحجم مبادلاتها كان أكثر أهمية وأكبر نشاطا من أي جزء في العالم خارج أوروبا[2]، بمعنى أن مصالحها الاقتصادية في المتوسط والعالم الجديد حتم عليها تأمين الطرق التجارية لمواصلة تطورها الاقتصادي الذي لا يتم إلا بتوفير الأمن لهذه التجارة، ومن أهم وسائل الأمن إقامة الصلح مع الجزائر لتأمين جزء من طرقها التجارية.

- لعبت فرنسا دورا بارزا في محاولة إقامة صلح بين الجزائر وإسبانيا يحركها في ذلك سببين رئيسيين:

- التقارب الحاصل بين أسرتي الحكم اللتين تسميان أسرة البربون الحاكمة في فرنسا وإسبانيا وقد شكلتا تحالفا مهما داخل أوروبا.

- محاولة فرنسا التقرب أكثر من الجزائر حفاظا على مصالحها الاقتصادية، مخافة من التقارب الحاصل بين الجزائر وإنجلترا التي كانت تحاول أن تحل محل فرنسا للحصول على امتيازات في الجزائر، ولذلك حاولت تقريب وجهات النظر بين الطرفين، فقد أقنعت إسبانيا بتغيير سياستها المتسمة بالعداء المستمر ضد الجزائر، خاصة وأنها استطاعت إمضاء معاهدة مع الدولة العلية سنة 1782م بمساعدة فرنسا، فيما حاول القنصل الفرنسي دوكرسي إقناع السلطات الجزائرية بأهمية هذا الصلح وفوائده عليها.

- على الرغم من الموقف الحازم الذي تبناه الداي محمد بن عثمان باشا تجاه الإسبان وعدم قبوله لأي صلح ما لم يتم الانسحاب من مدينتي وهران والمرسى الكبير، إلا أن بعض الشخصيات البارزة التي كانت تساعد الداي في تسيير شؤون الإيالة، كان لها رأي آخر محاوِلة إقامة صلح مع إسبانيا يعود بفائدة على الجزائر، التي تكبدت خسائر فادحة طيلة قرنين ونصف من الزمن، ومثّل هذا الرأي وبشكل واضح وكيل الحرج حسن ابن أخت محمد بن عثمان باشا والذي خلفه فيما بعد.

وظل وكيل الحرج يرتبط بعلاقات حسنة مع الإسبان منذ أن تم أسره من طرفهم، وقدموا له هدايا معتبرة من أجل التوسط لإقامة صلح مع الجزائر، ولذلك اتهم بالرشوة[3]، وفي هذا الشأن يقول الزهار: «...إنهم أهدوا إليه صورة شاة صوفها كله جوهر، ورأسها وقوائمها كلها حجارة كريمة، وتكلم الناس كثيرا في هذا

1 - جون وولف: المرجع السابق، ص108.
2 - ماتيوس أندرسن: تاريخ القرن الثامن عشر في أوروبا، تعريب: نور الدين حاطوم، ط1، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1988م، ص 271.
3 - يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص 30.

المعنى... فلما رجع حسن وكيل الحرج من استانبول، خاطب مولانا الباشا في الصلح فكان يقول: لا أصالحهم ما دمت حيا».[1]

لكن السؤال المطروح لماذا رفض الداي الصلح سنة 1783م وقبله سنة 1786م؟ وهل فعلا حسن وكيل الحرج تلقى رشوة من الإسبان؟

إن القناعات تتغير من يوم لآخر فعلى الرغم من رفض الداي الدائم لعقد صلح مع إسبانيا إلا أنه قبل فيما بعد، وهذا ربما راجع لعدة ضغوط كان يلقاها من محيطه القريب والبعيد، وربما تأنيب الضمير والخسائر في الأرواح وهو الذي كان يشاهد حالة الهلع والخوف الذي أحدثه الإسبان سنوات 1775، 1783، 1784م فكان يريد أخذ استراحة لشعبه، خاصة وأنه عرف عنه تقواه وخوفه من الله وحبه للخير وربما للضغوطات التي حدثت له من طرف سلاطين الدولة العلية نفسها، التي أبرمت صلحا مع إسبانيا سنة 1782م، ولذلك كثرت الضغوط لإبرام اتفاق بالموازاة مع الجزائر، بالإضافة إلى أن المغرب الأقصى أمضى معاهدة صلح مع إسبانيا في ماي 1780م تحت إشراف السلطان المغربي مولاي محمد بن عبد الله، وتضمنت المعاهدة ما يشير إلى ضرورة وضع علامة عل السفن المغربية حتى يتم تمييزها عن غيرها خاصة في الليل، كما تمكنت طرابلس الغرب من عقد صلح مع إسبانيا سنة 1783م.[2]

وبهذه المعاهدات استطاعت إسبانيا عزل الجزائر عن محيطها الإسلامي، ووضعت الداي في موقف حرج أمام الدولة العلية، فارضة بذلك سياسة الأمر الواقع، لتؤكد للسلطان العثماني أن الداي محمد بن عثمان هو الرافض للصلح، خاصة وأن إسبانيا حاولت سنة 1768م إجراء محادثات إلا أن الديوان رفض ذلك ما دامت وهران والمرسى الكبير تحت سيطرتها، مع العلم أنه تم تبادل الأسرى بين الطرفين، وأطلقت إسبانيا سراح 1200 أسير مسلم فيما أطلقت الجزائر حوالي 712 أسير، لتعاد نفس الاتفاقية سنة 1783م، حيث أطلقت إسبانيا 1106 أسير مقابل إطلاق الجزائر سراح 570 أسير إسباني.[3]

- ربما تغيرت قناعات الداي بعد أن شاهد إسبانيا تبرم كل هذه الاتفاقيات وتحاول التقرب من الجزائر لفتح مذكرات سياسية رغبة منها في عقد الصلح.

1 - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص54.

2 - مولاي بلحميسي: صفحات من تاريخ مدينة الجزائر...، المرجع السابق، ص16.

3 - أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 472.

- ربما ضغط الديوان على الداي لقبول الصلح بدل الحرب التي طال أمدها، خاصة وأن الداي بدأ يفقد الكثير من مؤهلاته الجسدية والعقلية نتيجة تقدمه في السن.
- وفي كل هذا ربما حاول تجريب الطرق السلمية لاسترجاع وهران والمرسى الكبير بدل الحرب، خاصة وأننا سنلاحظ أنه من بين شروط الصلح استرجاع المدينتين.
- الضغط الذي مارسه وكيل الحرج على الداي خاصة أنه ابن أخته ومن المقربين إليه. على الرغم من أن الكثير من الباحثين يُحمل الجزائر المسؤولية لأنها لم تكن راغبة في الصلح نتيجة الصراع الطويل ضد إسبانيا، إلا أن الواقع يثبت أن الجزائر لم تكن أبدا البادئة بالحرب ضد إسبانيا، بل العكس هو الذي حدث، وإلى غاية هذه المحاولات في إقامة الصلح لا زالت إسبانيا تحتل وهران والمرسى الكبير فكان طلب الجزائر الأساسي هو خروج الإسبان من المدينتين وهو حق مشروع لذلك لا يمكننا القول أن الجزائر لم تكن راغبة في الصلح أو أن الصراع الطويل هو الذي حتم عليها الصلح، بل قبول إسبانيا الجلاء عن وهران والمرسى الكبير هو الذي جعل الجزائر تقبل الصلح.

3- مفاوضات الصلح

أ- الإرهاصات الأولى للعلاقات السلمية بين الطرفين

قبل التطرق إلى المفاوضات بين الطرفين ارتأينا أن نتطرق إلى بداية الاتصالات الأولى، والتي يرجعها بعض المؤرخين إلى سنة 1707م لأنه كانت هناك محاولة بين الحاكم الإسباني لوهران الدون خوان فرانكو والباي مصطفى بوشلاغم سنة 1707م على الرغم من الطابع الجهوي، لهذا المشروع إلا أنه يعتبر أول محاولة لإمضاء معاهدة بين الطرفين منذ بداية الاحتلال الإسباني للسواحل الجزائرية، وحرر مشروع المعاهدة بتاريخ 10 جوان 1704م واحتوى على عدة بنود منها:

- التأكيد على حسن العلاقات بين الطرفين الجزائري والإسباني.
- تتمتع كل المناطق الغربية التي هي تحت حكم الجزائريين بالسلم والأمان.
- إلزام باي الغرب بجمع الضرائب من السكان الذين يدخلون الأماكن القريبة من الإسبان في مقابل السماح لهم بارتيادها.
- كل الأسرى (الأتراك أو السكان المحليين) لهم الحق في اعتناق الدين الإسلامي، ومن يرفض ذلك يُباع لحكومة الجزائر.
- كل الأسرى المسيحيين لدى الجزائر لهم الحق في الافتداء إذا رفضوا اعتناق الدين المسيحي.

- كل السكان الذين يفرّون من سلطة الإسبان هروبا من دفع الضرائب يجب على الحكومة الجزائرية دفع الضرائب بدلا عنهم.[1]

إضافة إلى بعض البنود الأخرى، ومع أن هذه الوثيقة منشورة إلا أنه لدينا بعض الملاحظات حولها:

- إن هذه المعاهدة هي مجرد مشروع وضعه الحاكم الإسباني لوهران، ربما لتقديمه لباي الغرب مصطفى بوشلاغم.
- لا يوجد أي دليل على أن الباي اطلع على هذه المعاهدة أو وافق عليها فكيف بتوقيعها؟
- هل فعلا الداي أعطى تفويضا للباي من أجل الدخول في مفاوضات مع الإسبان وإمضاء المعاهدة؟ ونحن نعلم أن الداي اتخذ قرارا بتحرير وهران نهائيا.
- أيعقل أن يفوض الداي محمد بكداش للباي مصطفى بوشلاغم إمضاء اتفاق في جوان وينادي للجهاد ويحاصر وهران في 17 سبتمبر 1707م.
- هل يوافق الباي على هذا الاتفاق؟ وهو المعروف عنه كرهه للإسبان وسعيه الحثيث لتحرير المدينتين.

ولذلك على الرغم من وجود مشروع المعاهدة إلا أنه يمكننا تصور احتمالين اثنين:

- إما أنه مجرد مشروع من طرف الإسبان لتثبيط عزيمة الجزائريين وكسر الحصار المفروض على المدينتين وربح مزيد من الوقت.
- وإما أن المشروع في أصله مزور، وهو موجه للرأي العام الداخلي الإسباني لإثبات سيادتهم على المدينتين.*

ب – مفاوضات الصلح سنة 1786م

على الرغم من حالة العداء المستمر التي طبعت العلاقات الجزائرية الإسبانية طيلة ثلاثة قرون من الزمن إلا أننا نستطيع القول أن إسبانيا كانت السباقة في محاولة إبرام صلح مع الجزائر خدمة لمصالحها، وأرسلت مبعوثا عنها إلى الجزائر لمفاوضة الداي علي باشا بوصبع (1748–1766م) من أجل عقد الصلح، ولكن طلبها قوبل بالرفض من طرف الداي، لتتكرر المحاولات في عهد خليفته محمد بن عثمان باشا الذي كان يكن عداء شديدا لإسبانيا لذلك رفض أي تقارب معها مادامت وهران والمرسى الكبير تحت سيطرتها.

1 – جمال قنان: المرجع السابق، ص ص 201، 202.

* – للاطلاع على نص المعاهدة المفترضة، ينظر الملحق رقم (5).

وبعد فشل المفاوضات المباشرة حاولت إسبانيا اتباع أسلوب المفاوضات غير المباشرة، والتأثير على السلطات الجزائرية عن طريق السلطان المغربي محمد بن عبد الله طالبة منه التوسط لها من أجل عقد صلح مع الجزائر، فأرسل السلطان المغربي مبعوثا عنه إلى الداي محمد بن عثمان راجيا منه باسم الدين والعروبة قبول الصلح مع إسبانيا إلا أن الداي كان رده قاسيا قائلا: «هل طلبت مشورتي عندما عقدت صلحا مع الإسبان»[1] ونتيجة لهذا الرد اتجه السلطان المغربي إلى السلطان العثماني للضغط على الداي[2]، هذا الأخير الذي كرر رفضه القاطع لأي تقارب مع الإسبان، ولذلك لم تجد محاولات السلطان المغربي نفعا ولا ضغوطات السلطان العثماني.

وأمام تعنت الداي اتجهت إسبانيا إلى الدول الأوروبية عارضة عليهم امتيازات عديدة، من أجل التوسط لها لدى الداي وإقناعه بإقامة صلح معها، إلا أن كل المحاولات باءت بالفشل أمام تعنت الداي في موقفه اتجاه إسبانيا.

استطاعت إسبانيا عقد صلح مع الدولة العلية عام 1196هـ/ 1782م وقد أشار مصطفى بن عثمان خوجة إلى هذه المعاهدة وتساءل عن السهولة التي استطاع بها ملك إسبانيا إقناع السلطان العثماني في إبرام هذه المعاهدة قائلا: «إننا لا ندري بأي حيلة استطاع الكافر عقد صلح مع الباب العالي، والشكوى ضد إيالة الجزائر التي ألقحت خسائر كبيرة بسواحله وسفنه التجارية في البحر المتوسط»[3]، وتحصلت إسبانيا بموجب هذه المعاهدة على عدة امتيازات في كامل الإيالات العثمانية بما في ذلك الإيالات المغاربية الثلاث (الجزائر، طرابلس الغرب، تونس) التي تلقت فرمانات تطلب منها إقامة معاهدة سلم مع إسبانيا، ووصل مبعوث الدولة العلية إلى الجزائر لإخبارها بتلك المعاهدة، طالبا الاستجابة لأوامر الباب العالي بضرورة إقامة صلح مع إسبانيا، لكن الداي محمد بن عثمان رفض الاستجابة لأوامر السلطان مفضلا إبقاء حالة الحرب مع إسبانيا قائلا:«...إنني أعلم أن ملك إسبانيا شارل الثالث يقوم بتجهيز أسطوله، وتجبنا من أن يعتقد أنني خفت منه لذلك هرعت إلى عقد صلح ولهذا فلا أريد التحدث بهذا الموضوع».[4*]

1 - شكيب بن حفري: المرجع السابق، ص 125.
2 - امحمد موفقي: المرجع السابق، ص60.
3 - شكيب بن حفري: المرجع السابق، ص 129.
4 - عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص539.
* - لا يمكننا التصديق بمثل هذه الرواية التي تبدو ساذجة لأبعد الحدود، فلا يعقل أن الداي رفض عقد صلح بمجرد أن يتهم بالخوف والجبن، لكن الواقع أن استراتيجية الداي هي التي كانت وراء هذا الرفض، فكيف يعقل أن يعقد صلحا مع إسبانيا وهي مازالت تحتل المرسى الكبير ووهران،=

وقد استطاع الأستاذ يحي بوعزيز -رحمه الله- دراسة حوالي 109 رسالة تبادلها الطرفـــان الجزائـــري والإسباني خلال السنوات الممتدة من 1780-1798م وأفرد لها كتابا عرض فيه المراسلات الجزائرية الإســـبانية حسب السنوات والأشخاص واللغة التي كتبت بها والمواضيع التي تطرقت إليها.

ومن خلال هذا الكتاب نلاحظ أن المفاوضات كانت طويلة وشاقة، علما أن العلاقات بين الطـــرفين كانت متوترة بسبب الاحتلال الإسباني لمدينتي وهران والمرسى الكبير، لذلك عملت إسبانيا جاهدة تحييد قضية المدينتين من أجل إقامة الصلح، فيما رفضت الجزائر هذا المسعى، فحاولت إسبانيا استغلال علاقاتها الحسنة مع حسن وكيل الحرج لإقناع الداي بعقد صلح معها.

ومما يؤكد هذا المسعى أن حسن وكيل الحرج وجه في الفترة الممتدة مابين 1780-1798م 38 رســـالة[1] منها 16 رسالة عندما كان وكيلا للحرج، و22 رسالة عندما أصبح دايا للجزائر، فأظهر أثناء حكمـــه ميـــولا وتسامحا مع الإسبان وهذا ما يؤكده بول ماسو «Paul Masson» بقوله: «أن الداي حسن مـــنح إســـبانيا امتيازات معتبرة، لأنه على عكس سلفه فقد عرف بكرهه للفرنسيين وحبه للإسبان».[2]

الملاحظ أن المفاوضات الجزائرية الإسبانية بدأت منذ سنة 1777م، أي بعد حملة أوريلي الفاشـــلة، أو ربما قبلها كما تؤكده الرسائل المتبادلة بين حسن وكيل الحرج والوزير الأول الإسباني الكوندي دو فلوريـــدا بلانكا «El Conde de Florida Blanca» بتاريخ 04 جانفي 1780م ردا على رسالة الوزير الإسباني المؤرخة بتاريخ 13 أفريل 1779م، أخبره أن الجزائر قبلت شروط الصلح المقترحة بين الطرفين وتنتظر فقـــط موافقـــة الدولة العلية، مبلغا إياه أنه اتصل بالماركيز قونزاليز، وتلقى منه رسالة بتاريخ 23 جانفي 1778م، مما يؤكـــد أن مفاوضات الصلح بدأت في وقت مبكر بين الطرفين[3*]، وبعد فشل هـــذه المفاوضـــات المباشـــرة تـــدخلت

=فيما كانت القوات الجزائرية تحاصر الإسبان بالمدينتين لمدة كبيرة جدا من الزمن، في محاولة لتحريرهما، خاصة وأن إسبانيا كانت ترفض رفضا قاطعا التطرق لهذه المسألة.

1 - للإطلاع على هذه المراسلات ينظر: يحي بوعزيز: المراسلات الجزائرية الإسبانية...، المرجع السابق، ص ص 22- 55.

2 - *Masson(Paul), Histoire des Etablissent de Commerce Français dans L'Afrique Barbaresque, 1560-1793,Hachette, paris, 1930, p 102.*

3 - يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص 31.

* - لم نعثر في المصادر -العربية المحلية أو العثمانية المعربة- ما يؤكد أن المفاوضات بين الطرفين لم تسبق المفاوضات الإسبانية العثمانية أو حتى مراسلات جزائرية عثمانية تتكلم حول هذا الموضوع، فمن خلال هذه الدراسة يمكن القول أن المفاوضات الجزائرية الإسبانية انطلقت بسنوات طويلة قبل توقيع المعاهدة العثمانية الإسبانية سنة 1782م.

الدبلوماسية الفرنسية في محاولة منها تقريب وجهات النظر بين الطرفين بقيادة القنصل فاليـــار «M. Valliére» الذي كان يفاوض باسم الإسبان إلا أن هذه المفاوضات لم تصل إلى نتيجة.[1]

ومباشرة بعد فشل حملتي الكونت أنطونيو بارسللو (1783-1784م) بدأت مفاوضات رسميـــة بـــين الطرفين في جوان 1785م بهدف التوصل إلى اتفاق، وقاد هذه المفاوضات الأميرال مازاريدو والكونت دكسي «Dexilly» وبمساعدة القنصل الفرنسي بالجزائر دوكرسي الذي كان يعمل على تقريب وجهات النظر بـــين الطرفين، خدمة لمصالح إسبانيا المتحالفة مع فرنسا في ذلك الوقت.

وكمبادرة حسن نية تجاه إسبانيا كتب الداي محمد بن عثمان باشا رسالة إلى الملك كارلوس الثالـــث بتاريخ 20 ذو الحجة 1199هـ الموافق لـــ 24 أكتوبر 1785م يبلغه أن الجزائر قررت منع بحارتها من ممارسة أي نشاط في البحر ابتداء من 09 محرم إلى 10 ربيع الثاني 1200هـ الموافق لـــ 12 نوفمبر 1785م إلى 10 فيفـــري 1786م[2][*]، وهي بمثابة إعلان هدنة مؤقتة من جانب واحد كدليل على حسن نية الجزائر تجاه إسبانيا.

نلاحظ أن هناك تناقضا واضحا بين مواقف الداي المتصلبة والرافضة لأي تقارب مع إسبانيا، وفي نفس الوقت يعقد هدنة أحادية الجانب معها، فكيف نستطيع تفسير هذا الموقف؟ مع العلم أن هذه الرواية ســـكتت عنها جميع المصادر المحلية المعاصرة، وانفردت بها المصادر الإسبانية، والتي نقلها لنا الأستاذ يحي بوعزيز، فهـــل تأثر الداي بمواقف وكيل الحرج حسن؟ أم أنه كان يريد فعلا عقد هدنة مع إسبانيا لأن الحرب أنهكت قواته؟ أم أن جهات خفية لعبت دورا في هذا الموقف ولا نعلم عنها شيئا؟ أم أن فرنسا بقيادة قنصلها كان لهـــا أثـــر مباشر في هذا الموقف؟ أم أن الداي اقتنع بوجوب إقامة صلح مع إسبانيا التي كانت تسعى جاهـــدة في ســـبيل ذلك واستعملت كل الطرق والأساليب لتحقيق ذلك ؟

تواصلت المفاوضات بين الطرفين عاما تقريبا قبل أن يتم التوصل إلى اتفاق بشروط اتفق عليها الطرفان وقد أظهرت إسبانيا خلال هذه المفاوضات عزيمة كبيرة من أجل التوصل إلى سلام مع الجزائـــر، وقـــد وقـــع الطرفان على اتفاقية صلح بين البلدين بتاريخ 17 شعبان 1200هـ الموافق لـــ 14 جوان 1786م.[3]

1 - امحمد موفقي: المرجع السابق، ص61.

2 - يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص 33.

*- بالرجوع إلى قراءة الرسالة في نفس الكتاب ليحي بوعزيز وفي ترجمته للرسالة من التركية إلى العربية وجدنا أن الداي محمد بن عثمان باشا أعلم الملك كارلوس أن المراكب لا تخرج للحرب والجهاد إلى غاية أواخر شهر مارس ولذلك فإن المدة 4 أشهر وليست 3 أشهر.

3 - يحي بوعزيز: الموجز...، المرجع السابق، ص 331.

4-مضمون الاتفاق*"الصلح"

أصبح هذا الاتفاق ساري المفعول بعد أن وقعه عن الجانب الجزائري الداي محمد بن عثمان باشا وعن الجانب الإسباني الكونت دكسي والأميرال مازاريدو وقائد العمارة البحرية نيابة عن الملك كارلوس الثالث وتضمن هذا الاتفاق 25 بندا شملت العديد من الجوانب الخاصة بالعلاقات بين الطرفين، خصوصا الحقوق الجمركية والامتيازات التجارية والتمثيل الدبلوماسي والإجراءات الخاصة بحالة السلم التي أقرها الطرفان والأسرى... ويمكننا تصنيف بنود الاتفاق حسب محتوياته إلى عدة بنود منها:[1]

أ-بنود تخص السلم والحرب (01- 04- 8- 20- 21- 23- 25)

- إقرار السلم بين الطرفين الجزائري والإسباني حكومة وشعبا بدون استثناء.
- عدم مهاجمة مدينة وهران والمرسى من طرف الجزائر، وتكليف الباي بمنع أي هجوم على القوات الإسبانية الموجودة بالمدينتين، حتى وإن قام الأهالي بمهاجمة الإسبان هذا لا يمنع من بقاء حالة السلم بين البلدين.[2]**
- لا ترسو المراكب الإسبانية في السواحل الجزائرية بدون علم السلطات المحلية، حتى لا يُعتبر عملا عدوانيا موجها ضدها (الجزائر).
- إن حدث وقُطعت العلاقات بين الطرفين، يكون لرعايا البلدين مدة ثلاثة أشهر لمغادرة وحمل أمتعتهم وعدم اعتراض سبيلهم قبل سفرهم أو أثنائه.
- احترام رعايا الملك الإسباني ليس فقط على السواحل الإسبانية بل يمتد ذلك إلى السواحل البابوية، وعدم التعرض للشخصيات التي أسبغ عليها ملك إسبانيا حمايته، في مقابل احترام الملك الإسباني لجميع رعايا الدولة الجزائرية.
- للجزائر الحق في مفاوضة الدول التابعة لإسبانيا لتكون لها علاقات حسنة مع الدولة العلية.

---

* - يعتبر الكثير من المؤرخين أن الجزائر وقعت معاهدة مع إسبانيا، وهذا خطأ لأن المعاهدة تكون وفق شروط واضحة وتكون طويلة الأمد، أما الاتفاق فيكون مؤقتا على قضايا واضحة، والجزائر هنا مازلت خاضعة للاحتلال الإسباني (وهران والمرسى الكبير)، وبالتالي لم توقع معاهدة بل اتفاقا مؤقتا ريثما يتم التفاهم على كل القضايا... ناصر الدين سعيدوني:"**المعاهدة الجزائرية الإسبانية 1791**، ع7، مجلة الدراسات التاريخية، جامعة الجزائر، 1414هـ/1993 م، ص75.

1 - وفق بنود الاتفاق الذي أورده يحي بوعزيز في كتابه المراسلات الجزائرية الإسبانية...، ص-ص 41-47.

2 - مولاي بلحميسي: المرجع السابق، ص 17.

** - نتساءل كيف وافق الداي على هذا الاتفاق وخصوصا هذا الشرط، الذي أبقى المدينتين تحت حكم الاحتلال الإسباني، مع أننا نعلم أنه كان رافضا لأي تقارب مع الإسبان ما دامت المدينتين تحت الاحتلال، مما يؤكد لنا أن هناك نقاط خفية في هذا الاتفاق مازالت غامضة، وأن الداي وقع تحت الضغط لقبول هذا الإتفاق.

- حماية مراكب الطرفين من أي هجوم على سواحل الجانبين وتقديم المساعدة اللازمة حتى خروجها آمنة.
- تعهد الطرفان بعدم تقديم المساعدة لأي دولة تعلن الحرب على إحداهما.

ب-بنود تخص حرية التجارة والرسوم الجمركية (7- 9- 18- 22)

- للتجار في البلدين الحق في التجارة بحرية مطلقة شريطة الخضوع لقوانين أسواق البلدين.
- تحديد قيمة الرسوم الجمركية على تجار البلدين بنفس القيمة التي يدفعها التجار الفرنسيون في البلدين.
- للإسبان الحرية في شحن وإفراغ البضائع دون إكراه من الطرف الجزائري أو تحديد الوجهة إلى مكان معين.
- في حالة التوقف الاضطراري للسفن الإسبانية على السواحل الجزائرية، بدون إفراغ أو شحن البضائع لا يمكن أخذ الرسوم الجمركية عنها.

ج-حماية مراكب الطرفين (2- 3- 6- 17)

- تقديم المساعدة للسفن الإسبانية المارة على السواحل الخاضعة للجزائر.
- في حالة تفتيش السفن الإسبانية لا يمكن إرسال أكثر من شخصين لهذا الغرض.
- حرية تنقل السفن الإسبانية والجزائرية، في كامل السواحل الخاضعة للطرفين.
- حرية رسو سفن الطرفين على مرافئ الجانبين إذا اقتضت الضرورة.
- تعويض الخسائر الناتجة على تعرض أحد الطرفين لمركب الآخر، ومعاقبة من قام بهذا الفعل.

د-قضايا الأسر (5-24)

- التعهد بعدم أسر أي أحد من الأعداء الموجودين على متن مراكب الطرفين.
- عدم أسر رعايا البلدين على مراكب معادية، بعد إظهار جوازات السفر التي تثبت انتماءهم للبلدين.
- عدم قبول فرار العبيد والأسرى إلى سفن بلادهم سواء إسبانيا أو الجزائر عندما تمر هذه السفن على موانئ البلدين.[1]

هـ-الحقوق القنصلية والدبلوماسية (10-12-14-15-19)

- يتمتع القنصل الإسباني بنفس الحقوق التي يتمتع بها القنصل الفرنسي.
- للقنصل الحق في محاكمة رعاياه وفق الأحكام القضائية الإسبانية.

1 - ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص76.

- للقنصل الإسباني الحق في اختيار ترجمانه ومعاونيه، وزيارة سفن بلاده ورفع علم بلاده فوق زورقه أو مترله.
- لا يتحمل القنصل المسوؤلية على ديون التجار الإسبان أو الأشخاص إلا إذا تعهد كتابيا بذلك.
- توضع أملاك الإسبان المتوفين بالجزائر تحت تصرف القنصل الإسباني.
- يعفى القنصل الإسباني من جميع الرسومات المتعلقة بمؤونته وأثاث مترله.
- للداي الحق في تعيين ممثل للدولة الجزائرية بإسبانيا متى شاء.

و-حقوق الرعايا الإسبان بالجزائر (11-13-16)

- حرية ممارسة شعائر الدين المسيحي لجميع الرعايا الإسبان الموجودين بالجزائر.
- للإسبان المقيمين بالجزائر حق التقاضي أمام مجلس الباشا والداي والديوان والإنكشارية بحضور القنصل الإسباني أو من ينوب عنه.
- في حالة اعتداء إسباني على جزائري أو تركي لا يعاقب في غياب القنصل، الذي لا يتحمل المسؤولية في حالة فرار المتهم.

ما يمكننا ملاحظته على هذه الاتفاقية أنها أبقت وضع مدينتي وهران والمرسى الكبير تحت سلطة الاحتلال الإسباني، وعدم الإشارة صراحة إلى التمثيل الدبلوماسي للجزائر بإسبانيا إضافة إلى السكوت نهائيا عن الحقوق القنصلية للجزائر، وحقوق الرعايا الجزائريين بإسبانيا في حالة وجودهم هناك، وأيضا تلك الحقوق التي أعطيت للرعايا الإسبان فوق الرعايا الجزائريين، خاصة حق التقاضي، حيث يكون تقاضيهم مباشرة لدى الداي وليس أمام قاض عاد يتحاكم عنده كل رعايا الدولة، خاصة بالنسبة للحقوق الدينية للإسبان لدى الجزائر وعدم ذكر ذلك فيما يخص المسلمين بإسبانيا وحقهم في ممارسة الشعائر الإسلامية، علما أنها منعت كل مظاهر الدين الإسلامي على أراضيها.

فهل تم التلاعب بالألفاظ من طرف المفاوضين خاصة دكسي؟ أم أن بنود المعاهدة تختلف بين تحريرها باللغة العربية واللغة الإسبانية؟ أم أن السلطات الإسبانية تعمدت نشر هذه الاتفاقية الإسبانية حتى تثبت تفوقها على الجزائر؟

5-خلافات الطرفين بعد إمضاء اتفاق الصلح

الملاحظ على هذا الاتفاق المبرم بين الطرفين هو الاختلاف الواضح في وجهات النظر حول القضية الجوهرية في توتر العلاقات لمدة قاربت ثلاثة قرون من الزمن، وهي تحقيق مطلب استرجاع مدينتي وهران

والمرسى الكبير، اللذان لم يتطرق إليهما الاتفاق تماما على الأقل في نسخته الإسبانية، فحتى في البند العشرون من الاتفاق الذي أشار إلى وهران، لم يشر إلا إلى عدم مهاجمة المدينة من طرف قوات باي الغرب الذي يجب عليه الموافقة على قرارات الداي، الذي تعهد بعدم مواجهة المدينة، مع إعفاء الداي من المسؤولية لأي هجـــوم من طرف الأهالي أو العصاة المتطرفين.

وهذا ما يجعلنا نشكك في صحة هذا الاتفاق, وإمكانية تعرض النسخة الإسبانية للتحريف والتزويـــر لا سيما وأن بعض المؤرخين مثل مرسي «Mercier» ودوغرامو «Grammont» الذي يشير إلى وجود بند في اتفاق سنة 1786م يلزم الإسبان بالانسحاب من وهران والمرسى الكبير[1]، مقابل الضمانات والتعهـــدات الـــتي أعطيت لهم، وهذا إثبات أن النسخة الإسبانية من المعاهدة التي كانت موجهة للرأي العام الإسباني وقع فيهـــا تزوير على عكس النسخة التي كتبت باللغة التركية، لأن الرأي العام الإسباني كان يرى التخلي عن وهـــران والمرسى الكبير عملا غير مشرف للعرش الإسباني، خاصة وأن التضحيات التي قـــدمها الجـــيش الإســـباني في استرجاع المدينتين سنة 1732م كانت كبيرة جدا، وتأكيد الملك الإسباني لجنوده أن هذا النصر هو بمثابة نصـــر لكامل المسيحيين[2]، لأنها تمثل البوابة الرئيسية في نشر الدين المسيحي في بلاد المغرب.

أو أن النص الذي كُتب باللغة الإسبانية تم مراجعته وتنقيحه فيما بعد، حتى لا تُطرح قضية الانسحاب من وهران والمرسى الكبير، لأن الحكام الإسبان كانوا يأملون أن الأموال الضخمة التي سوف يدفعونها للجزائر كفيلة بأن تنسيهم مطلبهم الأساسي المتمثل في استرجاع المدينتين.

لكن بالرجوع إلى الرسائل المتبادلة بين الطرفين يمكننا القول أن الداي محمد بن عثمان باشا اكتشـــف أن هناك تلاعب من طرف الإسبان بنص الاتفاق، ففي رسالة[3] بعث بها الداي إلى الكونت دي فلوريدا بلانكا مؤرخة بتاريخ 09 رجب 1201هـ الموافق لـــ 24 أفريل 1787م ذكر فيها خيانة الكونت دكسي الـــذي قـــام بتغيير ثلاثة بنود من الاتفاق وهي: البند الرابع المتعلق بالتجارة، البند العشرون الخاص بوهران والمرسى الكـــبير والبند الخامس والعشرون الذي يخص تحديد شواطئ الدولة البابوية بإيطاليا، ولذلك أعرب الداي عن رأيه في المراسلة صراحة واتهم الكونت دكسي بالخيانة وعدم الأمانة في نقل بنود الاتفاق المبرم[4]، ولذلك يتأكد لنـــا أن

1 – مولود قاسم نايت بلقاسم: شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830م، ج1، ط2، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007م، ص 175؛ *Grammont (H. De), Histoire…, op.cit, pp 337-338*.
2 – ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق،ص 77.
3 – ينظر نص الرسالة مترجمة إلى العربية عند يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص ص110-112.
4 – نفسه، ص 111.

النسخة الإسبانية حدث بها تزوير خدمة لمصالح إسبانيا الداخلية، على عكس النسخة التركية التي تؤكد انسحاب الإسبان من وهران والمرسى الكبير، كما أثبتتها هذه الرسالة، بالإضافة إلى رفض الداي لأي تغيير أو مناورة فيما يخص البند الخامس والعشرين، لأن حرمة المراكب الإسبانية محددة حسب نص الاتفاق بمسافة رمي مدفع من الشواطئ الجزائرية، أما من غير الشواطئ فلا أمان للإسبان ولا يوجد نص أو عقد صالح بين الطرفين يبين ذلك.

وتذكر المصادر التاريخية أن الجزائر أمضت اتفاق مع إسبانيا مدته ثلاث سنوات و لم يكن صلحا دائما لأنها كان لاتزال تحتل وهران والمرسى الكبير، وحتى هذه الهدنة كانت تحت تأثير وضغط الأحداث الجارية آنذاك منها الضغوط الداخلية، والتي تمثلت في ضغط حسن وكيل الحرج، أما الضغوط الخارجية فتمثلت في إمضاء الدولة العلية لمعاهدة مع إسبانيا، إضافة إلى المغرب الأقصى الذي وقع معاهدة مع إسبانيا، وقد أشار إلى ذلك مصطفى بن حسن خوجة على لسان الداي بقوله:«لقد صرنا منذ ذلك اليوم لا نخاف ذلك الكافر الذي هزمناه في البر والبحر، شأنه في ذلك شأن أجداده، وأن عقد الصلح لا يعتبر أبدا عارا بالنسبة إلينا، لأن ذلك الصلح سنعقده معه وهو تحت سلطان سيوفنا، وعلاوة على ذلك فإنه هو الذي طلب الصلح ولسنا نحن الذين طلبنا ذلك، كما أن الصلح الذي سنعقده لمدة ثلاث سنوات سيوفر للإيالة أموالا كثيرة من خزائن ذلك الكافر، مما يمكننا من تعويض الخسائر التي لحقتنا، وإلى جانب ذلك فإنه قد تم عقد الصلح مع الباب العالي أيده الله بحكمه، وكذلك مع سلطان فاس، وبقينا نحن بينهما، ولذلك فإن صلحنا نحن لمدة ثلاثة سنوات مع ذلك الكافر لن يمس بسمعتنا أمامه، لأننا سبق أن أعطيناه حقه "وانتصرنا عليه" في البر والبحر ».[1]

وعلى الرغم من إمضاء الداي لهذا الاتفاق، إلا أنه لم يكن راضيا تماما على نفسه بمهادنة الإسبان ونستشف ذلك مما نقله لنا مصطفى بن حسن خوجة بقوله: «لا تحزني يا جزائر على ما حدث، فإن الله قد فضلك على سائر البلدان بكونك دار الجهاد، وستعود الأيام التي كانت تدوي فيها المدافع من جديد... لأن صلحنا مع إسبانيا يعد غدرا كبيرا، وجهادنا ضدها هو بالنسبة إلينا مثل عيد الأضحى».[2]

ما يمكننا ملاحظته من خلال هذا النص:

- أن الداي لم يكن راضيا تماما على هذا الاتفاق.

1 - شكيب بن حفري: المرجع السابق، ص132.
2 - نفسه، ص134.

- أن الداي قد وقع تحت ضغوط رهيبة من أجل إمضاء هذا الاتفاق، وقد يكون من طرف وكيل الحرج والديوان.
- ضعف الداي أمام خصومه القابلين للعرض الإسباني.
- تلهية الداي نفسه على أمل استرجاع قوته ونفوذه حتى يقوم بالجهاد ضد الإسبان.
- ربما فعلا أن المفاوضات أبقت على الوضع القائم لوهران والمرسى الكبير، وإلا بماذا نفسر قوله أن الصلح مع إسبانيا يعتبر غدرا كبيرا، وأن الأصل هو الجهاد الذي اعتبره بمثابة عيد الأضحى، حينما تسترجع وهران والمرسى الكبير.

السؤال المطروح هو من الذي أجبر الداي على توقيع الصلح ؟ والذي اعتبره غدرا وخيانة كبيرة، ومما لا شك فيه من خلال هذه النصوص أن الداي وقع تحت ضغوط داخلية وخارجية كبيرة جعلته يوقع هذا الاتفاق، علما أنه بدأ يفقد قوته وهيبته مع تقدمه في السن.

يعتبر هذا الاتفاق بمثابة هدنة مؤقتة أرادها الجزائريون أن تكون محطة لاسترجاع الأنفاس، وتقوية الجيش البري والبحري من أجل الاستعداد للمعركة الفاصلة واسترجاع وهران والمرسى الكبير، خاصة وأن إسبانيا أرادت شراء السلم مع الجزائر بالمال، ربما على أمل بقاء الوضع كما هو! ومع ذلك يمكن القول أن هذا الاتفاق استطاع تقريب وجهات النظر بين الطرفين بعد قطيعة دامت حوالي ثلاثة قرون من الزمن، وكان مقدمة لمعاهدة سنة 1791م في عهد الداي حسن.

6-نتائج الاتفاق على الطرفين

ترتب على توقيع الاتفاق عدة نتائج، ولكن ما يمكننا قوله في هذا الخصوص أن إسبانيا هي المستفيد الأول من هذا الاتفاق اعتبارا من إبقاء سيطرتها على المرسى الكبير ووهران، بالإضافة إلى حصولها على امتيازات تجارية ودبلوماسية لم تكن لتحلم بها قبل سنة 1785م، فيما كانت خيبة الجزائر كبيرة جدا جراء توقيع هذا الاتفاق، لأنها لم تحقق أي إنجاز يذكر إذا ما استثنينا إقرار السلم مع إسبانيا وحصولها على بعض الأموال جراء إمضاء الاتفاق.

أ-على إسبانيا

- إقرار حالة السلم بين الجزائر وإسبانيا لأول مرة بعد صراع طويل ومرير، وبذلك تحقق مشروع الملك كارلوس الثالث الذي كان يطمح لتحقيقه والقاضي بعقد معاهدة سلام مع الدولة العلية وإيالاتها

المغاربية (الجزائر، طرابلس الغرب)، و لم تتبق له إلا تونس، والذي سوف يحاول الضغط عليها بواسطة الجزائر ليتم إمضاء معاهدة معها سنة 1791م.

- استطاعت إسبانيا الحصول على حق التمثيل الدبلوماسي وتعيين قنصل لها بالجزائر له نفس الحقوق والامتيازات التي يتمتع بها القنصل الفرنسي.
- استطاعت إسبانيا الحصول لرعاياها على امتيازات ضخمة -دينية وقضائية- حيث يتمتعون بحرية ممارسة الشعائر الدينية المسيحية والتحاكم إلى محاكم خاصة يرأسها كبار موظفي الدولة الجزائرية.
- حققت إسبانيا بهذا الاتفاق الأمن لسواحلها الشرقية التي عانت كثيرا من هجمات البحارة الجزائريين الذين أجبروا الكثير من سكانها على الفرار، وبعد هذا الاتفاق بدأ السكان في العودة إلى مواطنهم على السواحل.
- تأمين طريق سير السفن التجارية الإسبانية خاصة مابين الدويلات الإيطالية وإسبانيا، مما كان له انعكاسات إيجابية فيما بعد على الحركة التجارية داخل الأراضي الإسبانية.
- حصول إسبانيا على امتيازات تجارية تعادل نفس الامتيازات الفرنسية خاصة في الجهة الغربية من الجزائر في مقابل الامتيازات الفرنسية في الجهة الشرقية.
- على الرغم من الحصول على الكثير من الامتيازات إلا أن إسبانيا تكبدت خسائر مادية كبيرة جدا جراء المبالغ المالية المدفوعة للجزائر في مقابل إقرار حالة السلم بين الطرفين.[1]

ب-على الجزائر

- تحصل الجزائر جراء توقيع هذا الاتفاق على مبالغة كبيرة جدا تُدفع لخزينة الدولة في مقابل الأضرار التي لحقت بمدينة الجزائر جراء قصف المدينة سنوات 1783-1784م، ومقدار هذا المبلغ مليون و 200 ألف ريال كتعويض للجزائر وشرط من شروط الصلح.[2]
- استفادت الجزائر الكثير من الهدايا والمجوهرات والأمتعة وفي ذلك يقول ألتر: «وبعد الصلح أرسل الملك الإسباني 500 كيس من المجوهرات والأمتعة والهدايا لحاكم الجزائر، كما تعهد بإرسال 6 سفن محملة بالمعدات والذخيرة ولوازم السفن عملا بنصوص المعاهدة المعقودة».[3]

---

1 - محمد السعيد بوبكر: المرجع السابق، ص 167.

2 - يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص 102.

3 - عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص545.

- حصول الجزائر على مبالغ مالية كبيرة مقابل إطلاق سراح الأسرى الإسبان، الذين بلغ عددهم 1350 أسير، وقد افتداهم ملك إسبانيا بـــ 1000 ريال للأسير الواحد، إضافة إلى أن الجزائر أصبحت تفرض أموالا على إسبانيا ولو لأتفه الأسباب.[1]
- تحرير الأسرى الجزائريين لدى الإسبان وفي ذلك يقول الزهار: «فلما كانت ســـنة 1199هـــ أتـــى الإصبانيول للصلح وأتوا معهم بالأسرى الذين عندهم وأبدلوهم بالنصارى الأسارى...»[2]، فيما يذكر ألتر أن عدد الأسرى الجزائريين لم يتعد 100 أسير، وأن الداي لم يعترف بهم بل اتهمهم بالخيانة والجبن ليتدخل سلطان المغرب ودفع ثمن افتدائهم.[3]
- دخول البحرية الجزائرية لمياه المحيط الأطلسي لأول مرة بحرية تامة وبدون مضايقات إسبانية، وفي ذلك يقول كاثكارت في مذكراته: «... وقد أخبرني الرياس أنهم قراصنة جزائريون وأنهم دخلوا المحـــيط الأطلسي على إثر معاهدة سلام بين الجزائر وإسبانيا»[4]، مما دفع بعض الدول الأوربية إلى السعي لعقد معاهدة صلح مع الجزائر مثل البرتغال التي تضررت بحريتها وتجارتها من خـــروج البحريـــة الجزائريـــة للأطلسي.

وما يمكن استخلاصه مما سبق حول هذا الاتفاق:

- تضارب الروايات التاريخية حول مدة هذا الاتفاق، فقد ذكر الزهار أنه مدة مائة عام في جهة البحـــر فقط أما جهة البر من وهران فلم يقع الصلح إلى أن فتح الله على المسلمين في أول ولايـــة حســـن باشا[5]، وهي رواية متناقضة مع الرواية التي نقلها لنا مصطفى بن حسن خوجة الذي ذكر مدة ثلاث سنوات، وهي الرواية التي نرجحها لقرب صاحبها من الأحداث ومكانته داخل الـــبلاط الحـــاكم في الجزائر*، إضافة إلى تناقض الزهار في روايته، فمن جهة يقول أن الصلح تم من جهة البحر، ومن جهة

1 – وليام شالر: المصدر السابق، ص ص137-139.

2 – أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص34.

3 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص545.

4 – جيمس كاثكارت: مذكرات أسير الداي، تعريب إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982م، ص18.

5 – أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص 55.

* – مصطفى بن حسن خوجة كان يعيش بالجزائر منذ سنة 1754م، وعمل إماما بمسجد خضر باشا، وبعد مرور 18 سنة أي سنة 1772-1773م حصل على لقب علمدار (حامل الراية)، وبمناسبة مشاركته في الدفاع عن مدينة الجزائر ضد الحملات الإسبانية الثلاث (1775-1783-1784م) حصل على رتبة "تذكره خوجة سي"، مما جعله يصير مؤرخا، لأن تلك الرتبة جعلته كاتبا رسميا في حكومة الداي محمد بن عثمان باشا، مكلفا بكتابة تاريخ الأحداث التي عرفتها الجزائر خلال الحملات الإسبانية الثلاث، ومعها اتفاق الصلح الذي عقد بين الدولتين=

ثانية يقول أن جهة البر من وهران لم يتم عليها الصلح وكأن مدينتي وهران والمرسى الكبير ليستا في البحر، وهي رواية انفرد بها لوحده دون سائر المصادر والمراجع.

- تضارب الآراء وتناقضها حول القضية الجوهرية في العلاقات الجزائرية الإسبانية، وهي بقاء الاحتلال الإسباني للمدينتين، حيث أن الاتفاق لم يتطرق إلا إلى بعض الجزئيات منها: عدم مهاجمة الباي لمدينة وهران، أما الانسحاب فلم يأت ذكره بتاتا في النسخة الإسبانية من الاتفاق، أما في النسخة التركية التي لم تصلنا، فيمكن وجود بند يفرض على الإسبان الانسحاب.
- سكوت المصادر المحلية عن التطرق لبنود الاتفاق ولو تلميحا وهذا ما نستغربه!
- كانت للظروف الداخلية والخارجية لكلا الطرفين الأثر المباشر على قرارهما بتوقيع الاتفاق، وقد بدأت القوتان في التراجع والتقهقر بموازاة ظهور قوى أخرى كفرنسا وإنجلترا، اللتان ستشكلان نواة الاحتلال المعاصر.
- الاتفاق كان في صالح إسبانيا التي استفادت كثيرا في المجال التجاري والدبلوماسي، فيما لم تجن الجزائر إلا بعض المكاسب المادية.
- وجود تناقض واضح في الاتفاق بينما كان يريده الداي وما كان يريده الإسبان، ونستشف ذلك من خلال الرسالة التي بعثها الداي محمد بن عثمان باشا للكوندي دي فلوريدا بلانكا بتاريخ 24 أفريل 1787م يشتكي من خلالها خيانة دي بيسي وتغييره لبعض شروط الصلح، طالبا منه أن يراجع هو بنفسه بنود الاتفاق ليتأكد من التغيير الذي حصل، ومن ذلك نستشف أن بنود المعاهدة تم تغييرها لصالح إسبانيا حتى تبقى قضية وهران والمرسى الكبير بعيدة عن الاتفاق.
- إقرار سلم بين الطرفين بعد صراع طويل وكان هذا الاتفاق البداية الفعلية لعقد معاهدة صلح سنة 1791م تم بموجبها الانسحاب النهائي من وهران والمرسى الكبير.

المبحث الثاني: التحرير النهائي (الثاني لوهران والمرسى الكبير سنة 1792م)

يمكننا القول أن الحصار على مدينة وهران لم ينقطع منذ سنة 1732م، حيث قام الباي مصطفى بوشلاغم بحصارها حتى وفاته سنة 1733م وواصل خلفاءه الحصار إلى غاية تولي محمد بن عثمان الكبير سنة

=بعد ذلك في عام 1786م، له كتابان باللغة العثمانية (التبر المسبوك في جهاد غزاة الجزائر والملوك) -مخطوط تحصلنا عليه بالمكتبة الوطنية-، وكتاب (المضحكات العجائبات على رؤوس الإصبنيول المقهورات المهلكات...، شكيب بن حفري: المرجع السابق، ص120.

1786م الذي أعاد تجديد الحصار على الرغم من امتثاله لأوامر الداي محمد بن عثمان باشا بعدم مهاجمة وهران بعد توقيع الصلح سنة 1786م.[1]

لكن على ما يبدو أن الباي محمد بن عثمان الكبير لما اكتشف تلاعب الإسبان –أو ربما كان من الرافضين لهذا الاتفاق المبرم– ببنود الاتفاق قام بتجديد الحصار على وهران مرة أخرى، وهذا ما نستشفه من خلال الرسالة التي بعث بها الكوندي دي فلوريدا بلانكا إلى حسن وكيل الحرج بتاريخ 26 فيفري 1787م طالبا منه أن يستعمل نفوذه ويطلب من باي معسكر أن يحترم الاتفاق المبرم وعدم مهاجمة وهران، التي أصبحت عرضة لهجمات الباي باستمرار.[2]

ولذلك نستشف أن الهجمات لم تتوقف سنة 1786م على الرغم من إمضاء الاتفاق، وتاريخ الرسالة يؤكد ذلك لأنها جاءت في شهر فيفري، مما يؤكد أن أخبار الحصار والهجمات تناقلت خلال سنة 1786م وليست في سنة 1787م، لأنه علينا مراعاة ظروف نقل الأخبار في ذلك الوقت والمدة التي تستغرقها الرسائل بين الطرفين، وأغلب المصادر والمراجع أكدت أن الباي كان يقوم بحملات متكررة ضد الإسبان المحلتين لوهران دون أن يحقق نتائج تستحق الذكر، إلا أنها كانت تتكرر في كل مرة.[3]

لذلك وبمرور السنوات بدأ الموقف الإسباني يتحول تدريجيا باتجاه المطلب الجزائري القاضي بالانسحاب من المدينتين[4]، خاصة مع تشديد الحصار على المدينتين من طرف الباي محمد بن عثمان الكبير وعزمه على تحريرهما، والذي استطاع أن يجند معه طلبة العلم والصلحاء، والقوات الموجودة بكل الجهة الغربية من أجل تحقيق هذا الهدف.[5]

1–أسباب الانسحاب الإسباني من وهران والمرسى الكبير

أ– الأسباب السياسية

- الحصار المفروض على مدينة وهران منذ سنة 1732م، بعد إعادة احتلالها، وزاد إحكام الحصار عليها بعد تولي الباي محمد بن عثمان الكبير سنة 1780م، وبدأ في مهاجمتها ما بين سنوات 1780–1784م وقد استطاع السيطرة على الحصن الأحمر ورفع فوقه العلم الجزائري قبل أن يرابط بالقرب من المدينة

1 – ابن زرفة مصطفى بن عبد الله بن عبد الرحمن: المصدر السابق، ص180.
2 – يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص108.
3 – عميراوي احميدة: المرجع السابق، ص ص 72–73.
4 – شكيب بن حفري: المرجع السابق، ص133.
5 – عبد القادر فكاير: المرجع السابق، ص397.

ويفرض عليها الحصار ابتداء من 22 أكتوبر 1790م إلى غاية 31 أكتوبر 1791م، وفي أثناء ذلك كان الباي يهاجم الحصون بعدد كبير من جيشه يتقدمهم الطلبة، وهذا ما يؤكده لنا مسلم بن عبد القـادر بقوله: «... فأرسل لها جماعة من الطلبة الشجعان يرابطـون بجوارهـا ويضـايقون الإسـبان وراء الأسوار...»[1]، واستطاع أن يقطع عنها الماء ليضيق الخناق على الحامية الإسبانية بها[2] قبـل أن يقـرر الهجوم ويدخل في اشتباكات عنيفة مع الإسبان، لتبلغ ذروتها في أشهر ماي، جوان جويليـة 1791م وقد صور لنا محمد بن يوسف الزياني هذا الجهد الحربي بقوله: «ودام حصار (الباي) لها أي وهـران بالقتل الصادر منه ومن جنوده وشدة صواعقه ومدافعه وكوره وباروده إلى أن فتحها بقالته...».[3]

وقد استعمل الباي محمد محمد بن عثمان الكبير كل الوسائل من أجل إرهـاق الإسـبان والتضـييق عليهم، وهذا ما يؤكد لنا ابن سحون الراشدي بقوله: «إن الأمير أيد الله رفعته وخلّد منعته لم يزل منـذ ولي يتحيل على الظفر بالكفرة وينصب لهم المكائد والخدع الشبيهة بالإشراك التي تنصب للكثير ليقـبض، فتـارة يوجه لهم المهرة بالسباحة في البحر فيبيتون من قدروا عليه منهم في بيوتهم ويأتونه برؤوسهم، وتارة يرصد لهم الكمين قرب أسوارهم حتى يظفروا بهم، وتارة تحمل عليهم طلائع جنوده فيتخطفونهم تخطف الصقور للبغاث وتارة يتخطفونهم من مسارحهم ومحتطبهم ومزارعهم ومواضع اصطيادهم برا وبحـرا ومحارسـهم إلى غـير ذلك».[4]

- عدم تحقيق اتفاق جوان 1786م الأهداف الأساسية المرجوة منه، سواء للإسبان الذين قدموا الكـثير من التنازلات في سبيل إقرار سلام دائم مع الجزائر، أو الجزائريين الذين كانوا يطمحون لانسـحاب الإسبان من وهران والمرسى الكبير، لذلك ظلوا يعتقدون أن الإسبان قاموا بخيانتهم وتغيير بعض بنود الاتفاق[5]، فيما كان الإسبان يعتقدون أنهم باستطاعتهم شراء السلم بـالأموال وبـدون فقـدانهم المدينتين.
- استغلال الجزائر لأوضاع أوروبا المتأزمة والصراعات داخل الأسر الحاكمة خاصة ظـروف الثـورة الفرنسية التي شغلت كامل أوروبا، فاستغل الداي هذه الفرصة وذهب بنفسه إلى الدواوير والقـرى والمدن في كامل بايلك الغرب، محرضا على الجهاد وداعيا لاستعادة وهران.

---

1 – مسلم بن عبد القادر: خاتمة أنيس الغريب والمسافر، تحقيق وتقديم: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974م، ص25.
2 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص558.
3 – محمد بن يوسف الزياني: المصدر السابق، ص166؛ ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص49.
4 – أحمد بن محمد بن علي ابن سحون الراشدي: المصدر السابق، ص 197.
5 – يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص111.

- استيقنت إسبانيا من خلال تجاربها السابقة مع الجزائر أن السبب الأساسي وراء توتر العلاقات، قضية احتلال وهران والمرسى الكبير، فإذا ما تم التخلي عنهما لن يكون للجزائريين أية مصلحة في عـــداوة إسبانيا.[1]

ب-الأسباب الاقتصادية

- تزايد المصاريف والتكاليف الموجهة للإنفاق على القوات الإسبانية الموجودة بوهران والمرسى الكـــبير فعددها بالمدينتين يقدر بحوالي 4 آلاف رجل، يتطلب من أجل تلبية حاجياتهم كل سنة أكثر مـــن 4 ملايين دورو، أصبح من الضروري إخراجها من الخزينة العامة بمدريد، خاصة بعد أن امتنعت القبائـــل الحليفة لهم والمقيمة بالقرب من وهران عن دفع الغرامات المفروضة عليها (الرومية، السغورو) بعد أن تعرضت للضغط من طرف باي الغرب إثر انهزام الإسبان سنة 1775م.[2]

ج-زلزال أكتوبر 1790م

ضرب زلزال مدينة وهران يوم السبت 29 محرم 1205هـ الموافق لـــ 09 أكتوبر 1790م، واستمر لمدة خمسة أيام دمّر أغلب المباني الموجودة في المدينة وتسبب في خرابها، وذهب ضحية هذا الزلزال ما بـــين 2000 و3000 قتيل، من بينهم الحاكم العام الإسباني للمدينة نيكولا غارسيا « Nicola Garsia» فضلا علـــى تـــدمير وإتلاف العديد من السفن الراسية في ميناء وهران، زيادة على تدمير قصبة المدينة وقسمها الأعلى منها.[3]

الملاحظ أن جل الكتابات الغربية تركز على هذه القضية وتعتبرها العامـــل الأساســـي في انســـحاب الإسبان من المدينة، وهكذا هو دأب المؤرخين الغربيين عندما يتعلق الأمر بانهزاماتهم أمام الجزائر، فغالبـــا مـــا يرجعونها للأسباب الطبيعية كالعواصف والزلازل مثلما حدث لشارلكان سنة 1541م، وغيرها مـــن المعـــارك الهامة التي انتصر فيها الجزائريون، دون الأخذ بعين الاعتبار قوة البحرية الجزائرية، وعبقريـــة حكـــام الجزائـــر وشجاعة وإقدام السكان الذين كانوا يعتبرون كل عمل ضد الإسبان هو جهاد في سبيل الله وعمل يتقربون به إلى الله سبحانه وتعالى، ولذلك يمكننا القول أن الزلزال ما هو إلا عامل ثانوي لا يرقى إلى مســـتوى العوامـــل الرئيسية الأخرى التي أرغمت الإسبان على الانسحاب ومنها: الهزائم المتتالية على يد الجزائـــريين، الحصـــار المفروض على حاميتها، قوة الجيش الجزائري، إصرار السكان والجيش (البحرية والإنكشارية) على تحرير وهران والمرسى الكبير.

1- جون وولف: المرجع السابق، ص409.

2 - ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص79.

3 - نفسه.

فيما تفسر المصادر المحلية ظاهرة الزلزال بأنه جند من جند الله ينصر به عباده المسلمين، وبشارة للباي محمد بن عثمان الكبير حتى يتم فتح وهران[1]، سلطه الله على الكفار لاحتلالهم أرض الإسلام، وأن الزلزال هو سبب فتحها وهذا ما يؤكده لنا ابن سحنون الراشدي بقوله: «...ثم إن الله الذي جلت قدرته وعظم سلطانه قاهر الجبابرة ومفني الأكاسرة والقياصرة، وهازم الأحزاب المتآليين، وقامع العيدات المتكالبين أتاه وأظهر له أكبر الأسباب المنبهة لفتحها الداعية إليه، وذلك أنه زلزل بالكفار بلادهم زلزلة عظيمة أهلكتهم إلا القليل منهم بإسقاط دورهم عليهم في لحظة واحدة حتى صار بناؤهم الأنيق كله أكواما أكواما من التراب والحجر وآل أمر عمرانهم إلى الخراب، فأصبحوا وقد مات أكثرهم بالردم، وصارت بيوتهم لهم قبورا لم يخرجوا من ردمها إلى الآن، وما نجا منهم أحدا إلا من بات في البروج الحصينة فإنها لم يؤثر فيها الزلزال بالهدم بل شقت بعضها فقط».[2]

وأيضا يقول ابن زرفة: «...بينما هو ينتظر الفرج من الله وترجمان حاله يبشّر بزلزال وهران، وسطوة الحق تعالى لا يقوم لها أحد فكان ذلك اليوم على النصارى قمطريرا، وللإسلام عيدا، وطالعه عليهم وعلى الإسلام سعيدا...».[3]

2-مراحل التحرير النهائي لوهران والمرسى الكبير

أ- المرحلة الأولى 1786-1790م

استغل الباي محمد بن عثمان الكبير زلزال 1790م وبعث إلى الداي محمد بن عثمان باشا يطلب منه المساعدة ويشرح الأوضاع التي آلت إليها مدينة وهران بعد الزلزال وحالة الضعف الشديد التي أصبح عليها الإسبان، طالبا منه مد يد العون، فأذن له الداي بالحصار دون أن يمده بالمال والسلاح، تطبيقا لبنود الاتفاق الذي عقد مع إسبانيا سنة 1786م والقاضي بعدم إمداد باي الغرب بالمال والسلاح في حالة القيام بالهجوم على الإسبان[4]، ومع ذلك استطاع الباي تجهيز جيش وخرج به من مدينة معسكر قاصدا مدينتي وهران والمرسى الكبير لتحريرهما، وفي طريقه عسكر بسيق حتى يأخذ جيشه قسطا من الراحة، ثم واصل سيره إلى أن وصل وادي تليلات ومنها اتجه إلى وهران، ولما استقر به المقام بوادي هايج بدأت الوفود تصل إليه، بعدها قام بتشكيل مجلس استشاري مكون من شيوخ القبائل والأعراش، وبعد مشاورات ولقاءات عديدة استقر بهم الأمر

1 - خوجة حسان: تاريخ بايات وهران، مخطوط بالمكتبة الوطنية، الجزائر، رقم 1634، ص02.
2 - أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي: المصدر السابق،ص205.
3 - ابن زرفة مصطفى بن عبد الله بن عبد الرحمن: المصدر السابق، ص ص 179-180.
4 - ابن زرفة مصطفى بن عبد الله بن عبد الرحمن: المصدر السابق، ص180.

على تأجيل عملية الفتح إلى الخريف، حتى يستطيع الناس جمع غلاتهم وتوفير أرزاقهم وأقواتهم، فوافق الباي على ذلك ولكن بشرط استشارة العلماء والأولياء لأن رأيهم فيه الحكمة والصواب وهم أدرى بالأمور، فأرسلوا فورا في طلب الولي سيدي محمد أبي ديه الضرير الموجود بجبل تسالة، فجيء به وبعد مشاورات عديدة بينهما قال له الوالي أنك لا تفتحها في عامك هذا وإنما تفتحها في محرم السنة القابلة فَسُرّ الباي واطمأن لسماعه هذا الخبر وانشرح صدره لذلك.[1]

ومع حلول فصل الخريف بدأ الداي في تجديد الحصار على المدينة وإرسال بعض الفرق العسكرية لنصب الكمائن، وإقامة الرباطات حولها لمراقبتها ورصد تحركات الإسبان من أجل وضع خط محكمة لفتحها، وفي أثناء ذلك تعرضت المدينة لزلزال مدمر أتى على أكثر من ثلثيها وقتل أكثر من 3 آلاف شخص وسادت الفوضى وانتشرت أعمال اللصوصية والنهب وفُقِد الأمن في المدينة.[2]

عين حاكم جديد لوهران الكونت دي كومب هرموزا «Conte de Cumb er Hermoza» الذي حاول إعادة النظام إلى المدينة بعد أن لاحظ أعمال النهب واللصوصية، كما قام بإعادة بناء الحصون التي دمرت وتجهيزها مخافة من مهاجمة الباي محمد بن عثمان الكبير للمدينة، ولذلك طلب من السلطات الإسبانية إمداده بالمؤن والجيش لتقديم يد العون للسكان، وقد كان الكونت دي كومب محقا في تنبؤاته، حيث حاول الباي اقتحام المدينة مرتين مستغلا الفوضى، لكنه فشل لمتانة التحصينات الإسبانية[3]، ومع ذلك لم يرفع عنها الحصار وكانت عرضة لهجمات باي الغرب محاولة منه لاقتحامها وطرد الإسبان منها، لكنه لم يستطع لعدة أسباب منها:

- قلة عدد جيش الباي الذي كان مشكلا من جنود البايلك والمتطوعين من الطلبة والقبائل الذين كانوا يفتقدون للخبرة العسكرية، زيادة على نقص الذخيرة والأسلحة في ظل التزام الداي بما اتفق عليه مع الإسبان في سنة اتفاق سنة 1786م.
- قوة التحصينات الإسبانية.
- استماتة القوات الإسبانية في الدفاع عن المدينة على الرغم من شراسة هجمات جيش الباي.

1 -الآغا بن عودة المزاري: المصدر السابق، ص260.
2 -يحي بوعزيز: مدينة وهران...، المرجع السابق، ص 62.
3 - بلبراوات بن عتو: التحرير النهائي لوهران والمرسى الكبير عام 1206هـ/1792م، **مجلة عصور**، ع 5/4، جامعة وهران، الجزائر، ديسمبر 2003م/ جوان 2004م، ص ص 281-282.

- خيانة قبائل المغطسين التي كانت تتعامل مع الإسبان على الرغم من تحذيرات الباي.[1]
- الخطأ العسكري الجسيم الذي ارتكبه الباي، بعدم مهاجمة المدينة مباشرة بعد الزلزال، مفضلا استئذان الداي مما جعل الإسبان يحصنون أنفسهم جيدا ويطلبون المدد من بلادهم.
- الحصار كان من جهة البر فقط، فيما كانت جهة البحر غير محاصرة فاستغلها الإسبان في فك الحصار وطلب المدد.
- تأخر وصول المدافع وتشتتها في عدة مناطق مثل تلمسان، مستغانم وسيق، وعدم جاهزيتها وتآكلـــها وقدمها لعدم استعمالها مدة طويلة، وقد صور لنا ابن زرفة هذه الوضعية بدقة قائلا: «... فلم تنهض المدافع في سيرها و لم يتيسر ما عسر من أمرها...لأنها لم تُتفقد منذ زمان حتى نسجت عليها عناكب النسيان، فاشتغلوا يصلحون ما فسد ويجرون ويجددون ما نخر وكسد».[2]

ب- المرحلة الثانية: الإنتصار النهائي 1791-1792م

تعتبر هذه المرحلة من أهم المحطات التاريخية خلال العهد العثماني، لأنها عرفت لأول مرة منذ تأســيس الإيالة الجزائرية تحرير كامل التراب الجزائري من الاحتلال الإسباني، وكان الباي في هذه المرحلة أكثر عزمــا على المضي قدما في عملية تحرير وهران، بذلك عمل على تعزيز الحصار، وشراء الأسلحة، وإعــادة تجديــدها وتزويد الجيش بالمؤن والعتاد استعدادا للمعركة النهائية، ويمكننا إيجاز أهم الخطوات التي اتبعها الباي فيما يلي:

- الاهتمام بعتاد الجيش وذلك بشراء الأسلحة، ولو بأثمان باهظة، فأرسل كاتبه الخــاص ابــن هطــال التلمساني* وقاضي محلته لشراء الأسلحة من الإنجليز بجبل طارق، عارضا علــيهم امتيــازات تجاريــة ضخمة[3]، من أجل تجديد أسلحة الجيش لتأكده من استحالة مواجهة الجيش الإسباني بتلك الأســلحة القديمة.

---

1 - ابن زرفة مصطفى بن عبد الله بن عبد الرحمن: المصدر السابق، ص294.

2 - نفسه، ص265.

* - هو أبو العباس الحاج أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن هطال التلمساني، كان كاتبا ومستشارا لمحمد بن عثمان الكبير باي الغرب، ومبعوثا في المهمات الخارجية، بعثه محمد الكبير لشراء الأسلحة، وقد توجه إلى جبل طارق فاشترى قنطارين ونصف قنطار من البارود من الإنجليز، وبعد وفاة الباي محمد بن عثمان الكبير ظل يشغل نفس المنصب في عهد ابنه ثم كاتبا للباي مصطفى بن عبد الله العجمي رابع بايات وهران، مات ابن هطال في معركة وقعت بين الأتراك وابن الشريف الدرقاوي في ربيع الأول سنة 1219هـ /1804م...، ابن هطال التلمساني: رحلة محمد الكبير "باي الغرب الجزائري" إلى الجنوب، تحقيق، محمد بن عبد الكريم، عالم الكتب، القاهرة، مصر، 1976، ص ص13-19.

3 - أحمد بن محمد بن علي ابن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص 247.

- تجديد وسائل الحصار من المدافع، قنابل، بارود، مهاريس وجميع الآلات الحربية.
- إعادة تنظيم جيش البايلك تنظيما يتماشى والاستراتيجية الجديدة، القاضية بالانتقال من الحصار والهجمات الخاطفة إلى الهجوم المباشر والالتحام مع الإسبان، فقسمه على الشكل التالي:

- محلة عسكر تلمسان: رابطت غرب المدينة (وهران)، قائدها ابن الباي محمد بن عثمان الكبير، والذي كلّف بمراقبة مداخل ومخارج المدينة وتحركات العدو، وتُمثّل ميمنة الجيش.
- محلة عسكر الشرق: رابطت شرق المدينة قائدها صهره محمد بن باي إبراهيم، تمثل ميسرة الجيش.
- المحلة الثالثة: يقودها بنفسه (الباي) تمثل القلب (الوسط)[1]، وفي مقابل هذه الاستعدادات الجزائرية تلقت الحامية الإسبانية الموجودة بوهران مددا من إسبانيا قوامه حوالي 7 آلاف مقاتل[2].

استمرت المعارك بين الطرفين طوال فصلي الربيع والصيف من سنة 1791م، وكانت أكثر عنفا خلال شهري ماي وجويلية، وقد هوجمت أهم الحصون مثل سانتاكروز من طرف الجزائريين، وكان الباي وقواته يتقدمون ويحكمون قبضتهم على المدينة، على الرغم من المقاومة الشديد التي أبداها أفراد الحامية الإسبانية واستبسالهم في الدفاع عن المدينة، وأمام اشتداد الحصار وضراوة المعارك، اضطر الإسبان في شهر أفريل 1791م للطلب من الداي تنفيذ الصلح المبرم بينهما، إلا أنه رفض هذا الطلب، وبقي مصمما على رأيه حتى وافته المنية في 10 ذي القعدة 1205هـ الموافق لـ02 جويلية 1791م[3].

وموازاة مع المواجهات العسكرية كانت هناك جهود دبلوماسية يقوم بها البلاط الإسباني، يقودها الكونت دي فلوريدا بلانكا بطلب من الملك كارلوس الرابع الذي أراد جس نبض حسن داي –الذي تولى بعد محمد بن عثمان باشا في 12 جويلية 1791م–، ومحاولة إيجاد حل لقضية وهران والمرسى الكبير، مقترحا:

- أن تقوم إسبانيا بتعويض النفقات العسكرية للباي مقابل رفع الحصار عن مدينة وهران والتوقف عن مهاجمتها وترك فرصة للتفاوض، ولذلك تم الاتفاق على هدنة مدتها 15 يوما ابتداء من 20 جويلية 1791م إلى 03 أوت 1791م بقدر ما يأتي الخبر ورد الجواب من عند كارلوس الرابع.[4]

1 – ابن زرفة مصطفى بن عبد الله بن عبد الرحمن: المصدر السابق، ص267.
2 – أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 490.
3 – عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص559؛ أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص490.
4 – أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص303.

ومباشرة بعد انتهاء الهدنة بيوم واحد قرر الباي مهاجمة وهران معطيا الأوامر للطلبة بالهجوم على البرج الصغير واستطاعوا قتل8 من الجنود الإسبان الذين سارعوا إلى غلق البرج، وبقيت الهجومات المتواصلة أوائل شهر رمضان من سنة 1206هـ/1791م.

أدت المعارك والهجمات المتكررة إلى إرهاق المجلس الملكي الإسباني ماديا ومعنويا، خاصة مع تزايد الإنفاق العسكري على الحامية الموجودة بوهران والمرسى الكبير وفي تجديد الحصون وإصلاح الاستحكامات، لذلك تقرر ترك وهران[1] التي لم تصبح ذات أهمية كبيرة، سواء استراتيجيا أو اقتصاديا لإسبانيا، إضافة إلى الإصرار الذي كان لدى الطرف الجزائري على استرجاع المدينتين، لذلك قرر الملك الإسباني الموافقة على إخلاء وهران والمرسى الكبير.

ولما وصل رد الملك الإسباني كارلوس الرابع للداي، حول الخلاف الواقع بينهما على وهران والمرسى الكبير، وكان الرد مفاده أن الملك الإسباني لا يستطيع الاستجابة للطلب الذي طلب منه مقترحا تسليم المدينة للباي كما كانت عندما أعاد الإسبان احتلالها سنة 1732م، وفي ذلك يقول ابن سحنون الراشدي على لسان الملك الإسباني:«...إني لا أدفع مالي في أمر لا أتحقق دوامه لي، كيف وهو مجاور لمن لا ينام عنه غير أني أدعوكم لأمر فيه الإنصاف أسأل منكم أن تشرفوني بقبوله وهو أني أدفع لكم البلاد على الحالة التي تركها عليها المسلمون لما أخذناها منهم بمدافعها وأبراجها ولا أستثني من ذلك شيئا».[2]

كان الداي حسن مستعدا للموافقة على مطالب الإسبان، نظرا لتلك العلاقات الراسخة بين الطرفين -والتي تطرقنا إليها في حينها-، وبعد موافقته على مقترح الإسبان الذين طلبوا مهلة أربعة أشهر لإتمام عملية الانسحاب، كما أنهم اشترطوا تهديم جميع المباني التي قاموا ببنائها بعد احتلالهم لوهران سنة 1732م، ليبدأ الانسحاب من وهران، وكان أول المغادرين الأهالي المتعاونين"المغطسين" مع الإسبان وقائدهم رفق عائلته و60 رجلا، على الرغم من أن الباي أعطاهم الأمان، ثم لحق بهم 250 شخص يوم 29 ديسمبر 1791م، وتوجهوا إلى مدينة سبتة وفي الأخير غادر آخر حاكم إسباني لوهران "دون خوان

1 - عزيز سامح ألتر: المرجع السابق، ص 559.

2 - أحمد بن محمد بن علي ابن سحنون الراشدي: المرجع السابق، ص308.

كورتين" من ميناء المرسى الكبير يوم 29 فيفري 1792م على متن سفينة أميرال سانت جواشيم[1]، وبذلك ينتهي الاحتلال الإسباني لوهران والمرسى الكبير نهائيا.

3-معاهدة 1791م وأهم بنودها

بتاريخ 01 محرم 1206هـ الموافق لـ 12 سبتمبر 1791م تم عقد صلح بين الداي حسن باشا والقائم بالأعمال وممثلا للملك الإسباني بالجزائر دون ميكائيل دو لاريا، وكتبت هذه المعاهدة باللغتين العثمانية والإسبانية، ودخلت حيز التنفيذ مباشرة بعد رفع الحصار من طرف باي الغرب محمد عثمان الكبير على وهران بالتاريخ المذكور أعلاه، وتم الانسحاب النهائي من وهران والمرسى الكبير في 03 رجب 1206م الموافق لـ 29 فيفري 1792م، واحتوت على ثلاثة محاور رئيسية، سياسية، أمنية وتجارية، ويمكننا تلخيصها فيما يلي:

أ-الجانب السياسي (البند 01)

- الانسحاب الإسباني من وهران والمرسى الكبير، وعودة السيادة الجزائرية عليهما نهائيا.
- تحديد مهلة للإنسحاب تقدر بـ 4 أشهر.
- حمل مفتاحين ذهبيين وجرتين من ماء عيون وهران إلى الباب العالي كرمزية لاستردادهما.[2]

ب-الجانب الأمني (البند02)

- هدم كل الأبراج التي أقامها الإسبان أو تم بناؤها بوهران والمرسى الكبير بعد إعادة احتلالها سنة 1732م، وأخذ كل المدافع ومدافع الهاون (المهارس) التي نصّبوها للدفاع عن المدينة، باستثناء ما يقدمونه كهدية لحسن باشا، وقد برر الإسبان هذا العمل بأنه في حالة ما تركت سالمة تدعم هذه المنشآت قوى أوروبية قد تغزو وهران وتهدد أمن وسلامة إسبانيا لأن موقع المنطقتين لا تخرجان عن النطاق الأمني لمملكة إسبانيا.[3]
- لا يُسمح لأي عربي أو أجنبي دخول وهران أو المرسى الكبير أو الإقتراب منهما إلا بإذن من الإسبان.

ج-الجانب التجاري (البنود 3-4-5-6-7-8-9)

- امتلاك إسبانيا لحق احتكار التجارة في وهران والمرسى الكبير.
- يحق للإسبان تشييد المساكن والمخازن للتجار الإسبان، حتى يتمكنوا من إتمام صفقات البيع والشراء، وأيضا حق امتلاك السكن بالمدينتين.

1 - امحمد موفقي: المرجع السابق، ص 180.
2 - يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص63.
3 - بلبراوات بن عتو: المرجع السابق، ص 159.

- احتكار الإسبان بيع وشراء الحبوب، مثل القمح، الشعير، الفول، الحمص والمواشي بجميع أنواعها، وبعض المواد الأخرى مثل: الصوف والشمع مع أخذ التزام من الداي بمنع السفن من الشحن أو التفريغ في الأماكن التي يحتكرها الإسبان.
- لباي الغرب الحق في توفير 10 آلاف حمولة سنوية من القمح و 100 قنطار من العسل للسلطة المركزية بالجزائر، وله الحق في بيعها لمن يشاء بموافقة الداي والأولوية في ذلك للإسبان.
- تحديد قيمة الرسوم الجمركية للتجار الإسبان بوهران والمرسى الكبير، والحقوق المترتبة عن الامتيازات الممنوحة لهم، من تخفيضات جمركية أو إعفاء ضريبي مقابل هدايا وإتاوات، في مقابل حصولهم على 10 آلاف حمولة من القمح كل سنة.
- حق إرساء السفن الإسبانية بميناء المرسى الكبير دون غيرها مقابل رسم حدد بـ 56 ريال وحوالي 63 فرنك.
- الحرية المطلقة للسفن التجارية والحربية الإسبانية بالدخول والخروج بلا ترخيص وبدون إذن في حالة الضرورة القصوى.
- حماية التجار الإسبان المقيمين بالمرسى الكبير ووهران من أي مضايقات أو اعتداء مدة إقامتهم بالمدينتين.
- تدفع للجزائر من الخزينة الملكية الإسبانية ما قيمته سنويا 120 ألف جنيه مقابل الامتيازات والحقوق السابقة.[1]
- يسمح للتجار بصيد المرجان على الساحل الغربي للجزائر.[2]

ما يمكننا ملاحظته على هذه المعاهدة أن أغلب بنودها كانت عبارة عن امتيازات تجارية لصالح إسبانيا وهي ما كانت تهدف إليه، في جميع أ طوار المفاوضات، وبذلك تحصل الإسبان على امتيازات ضخمة في بايلك الغرب، تماما مثلما تحصلت فرنسا على امتيازات تجارية في الجهة الشرقية، فيما لم تحصل الجزائر إلا على انسحاب تام من المدينتين.

ولعلنا نستطيع القول أن المفاوضين الإسبان كانوا فعلا مفاوضين متمرسين أكثر من الجزائريين، لأن الانسحاب من وهران كان تحصيل حاصل لعدة معطيات نذكر منها:

1 - ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص82.

2 - جون وولف: المرجع السابق، ص 410.

- فقدان وهران والمرسى الكبير لأهميتهما الاستراتيجية والاقتصادية بالنسبة للإسبان خاصة مع اشتداد الحصار عليهما، وسيطرة إنجلترا على مضيق جبل طارق.
- التكاليف المالية الهائلة التي كانت تنفق من الخزينة الملكية في سبيل المحافظة على المدينتين، مما زاد من المتاعب المالية لإسبانيا مع ارتفاع هذه التكاليف من عام لآخر.
- تأكد الإسبان من استحالة تنازل الجزائر عن المدينتين.
- تأكد الإسبان وربما تقليدا لفرنسا وإنجلترا أنهم يمكنهم الحصول على امتيازات هائلة بدون العداء مع الجزائر، وذلك بتجريب الخيار الدبلوماسي، بعدما جربوا مرارا الخيار العسكري الذي لم يجلب لهم إلا الهزائم المتتالية والخسائر البشرية والمالية.

4-دخول الباي محمد عثمان الكبير المدينة في 22 فيفري 1792م

تطبيقا لبنود المعاهدة بدأ الانسحاب الإسباني من وهران بتاريخ 17 ديسمبر 1791م وتم ترحيل آخر الإسبان في فيفري 1792م وبذلك ينتهي نهائيا الصراع الجزائري الإسباني. وتبدأ صفحة جديدة من العلاقات بين الطرفين أساسها الاحترام والمنفعة المتبادلة.

أعلن رسميا على بداية هذه العلاقات الجديدة بدخول الباي محمد بن عثمان الكبير مدينة وهران بتاريخ 17 فيفري 1792م ضحى يوم الإثنين 25 رجب 1206هـ[1]، وفي ذلك يقول أبو راس الناصري في سينيته:

فِي خَامِسِ الفَرْدِ ضُحَى يَوْمَ الإِثْنَيْنِ كَانَ الدُّخُولُ بِعَوْنْ المَلِكِ القُدُّوسِ

سِتَةَ سِتٍ ثُمَّ الحَمْدُ لِخَالِقِنَا وَصَلِّي على المُنَقَّى مِنَ الدَّنَسِ.[2]

وقد وصف لنا ابن سحنون الراشدي هذا المشهد المهيب بأدق تفاصيله، لأنه كان حاضرا في موكب الأمير الذي دخل المدينة، وكان يوما مشهودا وحدثا عظيما يماثل الأحداث الكبرى والفتوحات العظيمة في الإسلام، كيف لا وقد استرجع الجزائريون أرض إسلام طال احتلالها، ولذلك نورد بعض النصوص لابن سحنون الراشدي وهو يصف لنا هذا الفتح وكيفية دخول الباي قائلا:

«فبعث الباي محمد بن عثمان الكبير بالأعلام الإسلامية فنصبت على شواهق الأبراج، وسار هو فارتفعت الأصوات بالصلاة على سيد ولد عدنان ﷺ وكثر التكبير والآذان من كل لسان، ولعبت الخيول

1 - الآغا بن عودة المزاري: المصدر السابق، ص290.

2 - خوجة حسان: المصدر السابق، ص02.

وقصفت أصوات البارود والطبول... ولما وصل الناس الأبواب ازدحموا أشد الازدحام، كاد أن يفضي بهم إلى المقاتلة والالتحام، حرصا على السبق إلى دخولها والفوز بقبلية حلولها».

«وكان أول من دخلها –بعد الذين وضعوا الأعلام وعمروا المدافع وبنوا مضرب الأمير– العلماء يقدمهم صحيح البخاري ثم تلاهم الأمير في جنده الجرار وفي يد رمح كاد أن يمزق أديم السماء طولا، ويمس الثريا، وأسرة وجهه تتهلل بلوامع البشرى، وتتصوع بطيب أعبق من المسك نشرا، فترل داخل البرج الأحمر بمضربه الفياح، الذي لا تهزه عواصف الرياح، فكان أول ما بدأ به أن صلى ركعتين شكرا لله تعالى، فضربت مدافع التهنئة طبولها، ثم دخل عليه الناس يهنونه أفواجا أفواجا».[1]

وبدأ الباي محمد بن عثمان الكبير في إعادة الوجه الإسلامي للمدينة بعد أن تغيرت ملامحها وأصبحت تشبه المدن الإسبانية، وهذا أمر طبيعي لأنها بقيت لعشرات السنين بيد الإسبان الذين غيروا طبيعة عمرانها وشكلها، حتى أصبحت مدينة إسبانية بامتياز، وحتى يعيد إليها الباي طابعها الإسلامي، أمر ببناء المساجد والمدارس، وكان أول مسجد بناه المسجد الكبير (مسجد الباشا) الذي صممه المهندس "محمد الشرشالي" وبناه الباي من ماله الخاص تقربا لله تعالى على أن منَّ عليه بهذا الفتح المبين.[2]

وبدأ الناس يتوافدون على المدينة من كل مكان من أجل إعمارها والسكن فيها، خاصة أصحاب المهن والتجار والعلماء بتشجيع من الباي، وبدأت في استقطاب جميع الطبقات الاجتماعية بما في ذلك اليهود الذين رخص لهم الباي بالبقاء والمشاركة في النهضة الحضارية للمدينة ومنح لهم عدة امتيازات مثل رخص البناء وممارسة التجارة والمهن المختلفة.[3] *

أرسل الباي محمد بن عثمان الكبير بشائر هذا الفتح إلى حسن باشا الذي أعلن الأفراح في كامل الإيالة، ابتهاجا بهذا النصر وبدأت رسائل البشائر تكتب إلى الآفاق القريبة والبعيدة وفي مقدمتهم الباب العالي، فقد زُفّت إلى السلطان سليم الثالث** بشائر النصر ومعها مفتاحان من الذهب الخاص[1] وجرّتان من ماء مدينة

---

1 – أحمد بن محمد بن علي ابن سحنون الراشدي: المرجع السابق، ص 459.

2 – يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص 64؛ أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 491.

3 – يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص64.

* – حول المشروع الحضاري للباي محمد الكبير ببايلك الغرب الجزائري، ينظر: بلبراوات بن عتو: محمد الكبير ومشروعه الحضاري، رسالة ماجستير، جامعة وهران، الجزائر، 2002م.

** – ولد سنة 1175هـ/1761م، جلس على العرش سنة 1203هـ /1789م، وكان عمره 28 سنة، وحكم لمدة 19 سنة، عُرف عنه الفطنة والذكاء، عرف في عهده تغير نظام الجيش، لأن الجيش الانكشاري أصبح لا يواكب العصر، زِدْ على ذلك انتشار الفساد والفوضى بين صفوفه، وأوكل مهمة تغيير نظام الجيش للصدر الأعظم عبد الرحمن باشا، الذي لقي مقاومة ورفضا شديدا من الانكشارية، في عهده انفصلت=

وهران دليلا على استرجاعها، ففرح السلطان بهذا الخبر وانبسط غاية البسط[2] واستبشر المسلمون خيرا بهـذا الفتح، ولما استراح الرسل سرحهم السلطان وأكرمهم، وأرسل معهم الخلعة والتقليد لحسن باشا، و لم يكفه ذلك بل أمر بـ 50 مملوك ونيشانين وسيف مرصع بالذهب لحضرة حسن باشا تبرعا وإكراما منه، وفرحا بهذا الإنجاز. [3]

5-نتائج المعاهدة على الطرفين

ترتب على هذه المعاهدة عدة نتائج.

- استطاعت الجزائر استكمال وحدتها السياسية والجغرافية لأول مرة منذ تأسيس الإيالة سنة 1519م.[4]
- استرجاع مدينتي وهران والمرسى الكبير بشكل نهائي منذ احتلالهما سنة 1505-1509م.
- فتح صفحة جديدة من العلاقات بين الطرفين أساسها الاحترام والمصلحة المشتركة.
- تأمين سواحل البلدين من الأعمال العدائية والغارات المتواصلة من الجانبين.
- البداية الفعلية للعلاقات التجارية بين الطرفين، وإنشاء مؤسسات تجارية إسبانية أخذت حظها من المعاملات التجارية مع الجزائر.
- مغادرة العائلات الإسبانية لوهران، ومع ذلك بقيت بعض العائلات -70 أو 80 أسرة- حظيت بحماية الباي إلا أنها لم تستطع الاندماج في المجتمع الإسلامي مما اضطرها إلى الرحيل لإسبانيا.
- دخول الباي محمد بن عثمان الكبير وهران واتخاذها كعاصمة لبايلك الغرب، والتي سوف تشهد في عهده نهضة حضارية ضخمة كان الباي أساس انطلاقتها.[5]
- العفو عن الخونة من القبائل التي كانت تتعاون مع إسبانيا ضد الجزائر، وأعطي لهم الأمان من طرف قاضي وهران سي عبد الله بن حوا وأئمة مساجد معسكر، مثل سيدي أحمد وسي أحمد بن سحنون الكاتب بالجامع الكبير.

=الأفلاق والبغدان عن الدولة العثمانية سنة 1214هـ/1799م وانضمتا إلى روسيا، وبذلك اندلعت الحرب بين الدولة العلية وروسيا (بالاتفاق مع إنجلترا)... توفي سنة 1809م، محمد فريد بك المحامي: المصدر السابق، ص189.

1 - مجموعة رقم 3025، علبة11، الملف الأول، وثيقة رقم 54، شوال 1206هـ.

2 - أحمد الشريف الزهار: المصدر السابق، ص 85.

3- مجموعة رقم 3025، علبة11، الملف الأول، وثيقة رقم 54، شوال 1206هـ.

4 - بلبراوات بن عتو: المرجع السابق، ص290.

5 - الآغا بن عودة المزاري: المصدر السابق، ص ص 294، 299.

- حاول كل طرف استغلال توقيع المعاهدة وتفسيرها بما يخدم مصالحه، فالجزائر صورته على أساس أنه انتصار عسكري يضاف إلى تلك الانتصارات التي تحققت بفضل قوتها العسكرية لكنها هذه المرة بدهاء وحنكة باي الغرب الذي أرغم الإسبان على قبول شروط هذه المعاهدة، بعد أن ضيق عليهم الحصار، وأنهكهم بالمعارك الخاطفة ليضطرهم للانسحاب فيما بعد، فيما حاولت إسبانيا تصويره على أنه انسحاب بمحض إرادتها بعد أن فقدت وهران قيمتها الاستراتيجية والاقتصادية، وبدون ضغط من أحد، وهذا ما أكده نائب القنصل الإسباني دي لاريا على أن ما قامت به الجزائر هو مجرد دعاية هدفها الانتقاص من هيبة إسبانيا بين الدول.
- حدوث مشاكل سياسية كبيرة داخل إسبانيا، فقد تعرض المؤيدون للانسحاب إلى هجمات شديدة من طرف المعارضين سواء من السياسيين أو العسكريين أو الفئات الشعبية البسيطة، مما اضطر الملك الإسباني إصدار مرسوم ملكي بتاريخ 04 جانفي 1792م شرح فيه الأسباب الحقيقية وراء هذا الانسحاب، حتى يجنب بلاده الكثير من المتاهات السياسية والأمنية، وإقناع المعارضين بجدوى هذا القرار الذي كان في صالح إسبانيا.[1]

6- العلاقات التجارية والسياسية بين الجزائر وإسبانيا 1792-1800م

أ- العلاقات السياسية

تميزت هذه المرحلة بالاستقرار والهدوء في العلاقات بين الطرفين، وقد حرص كل طرف على إرضاء الآخر خدمة لمصالحه، والمحافظة على تحسن العلاقات بعد إمضاء معاهدة 1791م، فعرفت هذه المرحلة تبادل الرسائل الدبلوماسية وتسوية الخلافات العالقة بالطرق السلمية، وهذا نستشفه من كتاب المراسلات الجزائرية الإسبانية لصاحبه يحي بوعزيز.

ومن أهم القضايا التي عولجت في هذه الفترة، والتي كانت محل اهتمام السلطات الجزائرية بالدرجة الأولى، هي تباطؤ إسبانيا في إرسال قنصل لها إلى الجزائر، ففي رسالة مؤرخة بتاريخ 27 جوان 1792م بعث الداي حسن رسالة إلى الملك الإسباني كارلوس الرابع يتعجب فيها من عدم إرسال قنصل معتمد بالرغم من مرور عامين كاملين على إمضاء المعاهدة، مع أن الاتفاق يشير إلى أن القنصل يكون معتمدا بعد شهرين من إمضائه، ليكون همزة وصل بين الطرفين لحل القضايا العالقة وخدمة لمصالح بلاده التي لا يمكن لممثلين أقل منه

1 - محمد موفقي: المرجع السابق، ص ص 81، 82.

درجة –حتى وإن تميزوا بالنزاهة وحسن التدبير– القيام بها، لذلك طلبت الجزائر الإسراع بتعيين قنصل عندها تأسيا ببقية الدول التي تقيم علاقات دبلوماسية معها.

ومباشرة بعد هذه الرسالة رد الملك الإسباني على الداي حسن أخبره بتعيين قنصل بالجزائر اسمه مانويل دي أسبيري« Manual de Aspere»، كما أبلغه بتكليف نائب القنصل ميقال دي لاريا «Migual de Larea» من أجل الذهاب إلى وهران لتنصيب القنصل الإسباني الجديد بها، وذلك بهدف تطبيق بنود المعاهدة الخاصة بالتجارة، وراجيا من الداي بأن يأمر باي الغرب لتسهيل مهمة القنصل الجديد وتقديم يد المساعدة له.

حدث وأن قام القنصل الإسباني بوهران بإحداث مشاكل، مما اضطر الداي لمراسلة كارلوس الرابع يشتكي من تصرفات القنصل مطالبا بعزله وتعويضه بآخر، وفي نفس الوقت مخبرا إياه بأن باي الغرب قام بتوقيف مركب إسباني، ومراعاة للمصالح المشتركة والعلاقات الطيبة بين الطرفين قام بتسريحه، ليرد عليه الملك الإسباني برسالة في مارس 1797م ردا على رسالة الداي حسن مخبرا إياه أنه قام بعزل القنصل وتعويضه بنائبه ميقيل دولاريا.[1]

وهكذا استمر تبادل الرسائل بين الطرفين طوال السنوات الممتدة من 1792م إلى غاية 1798م، حيث تمحورت هذه الرسائل حول النقاط التالية:

- التمثيل الدبلوماسي (تعيين القناصلة الإسبان بالجزائر وعزلهم).
- جوازات السفر.
- مشاكل التجار خاصة الإسبان بوهران.
- القضايا العالقة بعد معاهدة الصلح سنة 1791م
- تبادل الآراء حول مشاكل التجارة في البحر المتوسط.
- قضايا الأسر العالقة بين الطرفين.
- تبادل التهاني والتعبير عن استمرار العلاقات السلمية.[2]

من خلال هذه الرسائل نلاحظ أن الجزائر لم يحدث وأن بعثت عنها ممثلا قنصليا إلى إسبانيا لتمثيلها ولا ندري لماذا؟، وعموما أن هذه الفترة تميزت بالاستقرار والهدوء، وخلت من كل مظاهر الصدام العسكري.

1 – يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص ص 164-165.

2 – للمزيد حول هذه المواضيع ينظر: يحي بوعزيز: المراسلات الجزائرية الإسبانية...، المرجع السابق، ص ص 160-222.

ب-العلاقات التجارية

أهم ما تحصلت عليه إسبانيا في معاهدة الصلح سنة 1791م الامتيازات التجارية الهامة خاصة في الجهة الغربية من الجزائر، لذلك حاولت تمتين علاقاتها التجارية، وأخذ حصتها من المعاملات التجارية إلى جانب إنجلترا وفرنسا، وقد سمحت هذه المعاهدة بإقامة علاقات صداقة وتعامل تجاري يعود بالفائدة على الطرفين.[1]

عرفت إسبانيا في نهاية القرن الثامن عشر ميلادي أزمة اقتصادية حادة -ترجع للمضايقة التي وجدتها في البحر المتوسط والمحيط الأطلسي من طرف القراصنة الأوروبيين من الإنجليز، السويديين، الإيطاليين الأمريكيين والهولنديين-[2]، خاصة في الجانب الفلاحي حيث تراجع منتوج القمح والشعير بإسبانيا خاصة في جنوبها الذي عاش أزمة حادة جراء غياب القمح في الأسواق، لذلك أسندت مهمة استيراد القمح لشركة قويناش «Goyenech» التي استطاعت سنة 1790م الحصول على حق شراء حوالي 60 ألف كيلة من الحبوب بوساطة من القنصل الإسباني بالجزائر، وفي نفس الوقت استفاد أصحاب المراكب الإسبان بالجزائر وتمكنوا من الحصول على 63 ألف كيلة من القمح و18 ألف كيلة من الشعير.

وبعد إمضاء معاهدة الصلح، وابتداء من سنة 1792م حاولت شركتا "قويناش" و"كمبانا" الدخول في منافسة حقيقية لشراء منتجات الحبوب من بايلك الغرب، وقد استطاعت شركة "قويناش" الحصول على وعد ببيع الحبوب تقدر كمياته بـ 1000 كيلة يتم تسويقها في مدة عامين، وفي نفس الوقت قامت شركة "كامبنا" بمساعي حثيثة للحصول على حصتها من الحبوب، وقد استطاعت بالفعل الحصول على 42.239 كيلة من القمح و 4540 كيلة شعير.

وأمام التنافس الذي حدث على السوق الجزائرية بين إسبانيا وفرنسا وإنجلترا، حاولت فرنسا احتكار تجارة الحبوب، وسعت جاهدة لشراء كمية كبيرة جدا منها، وذلك بوساطة شركتي بكري وبوشناق* اللتان

1 - ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص83.

2 - يحي بوعزيز: "إسبانيا تتوسط الجزائر لإبرام صلح مع تونس"، **مجلة التاريخ**، ع25، المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر، 1986م، ص 85.

* - ينحدران من عائلتين يهوديتين من ليفورن الإيطالية، استقرت أسرة بوشناق (بوجناح) بالجزائر سنة 1723م، وكان أفرادهما يمتهنون التجارة بينما استقرت عائلة بكري سنة 1770م، وأسست شركة تجارية نجحت في مد نفوذها، اتحد أبناء بكري (يوسف، مردوش، سليمان، يعقوب، وابنه داود)، وتفاديا للمنافسة التجارية بينهم وبين بوشناق فضّلت الأسرتان توحيد مصالحهما، ورأتا في علاقة المصاهرة أحسن وسيلة لتحقيق تلك الوحدة، وبعد تمكنهما من السيطرة على الأسواق التجارية داخل الجزائر وخارجها، عرضا خدماتهما على دايات الجزائر، ونظرا لتشعب نشاطهما تفرغ بكري للتجارة وتولى بوشناق النشاط السياسي ليصبح عضوا مهما في حكومة الجزائر ويتدخل في شؤونها داخليا وخارجيا...وكان اليهود من أهم أسباب احتلال فرنسا للجزائر...، أزرقي شويتام: المرجع السابق، ص ص121-127.

احتكرتا السوق، مما انعكس سلبا على الإسبان الذين بدؤوا يفقدون حصصهم شيئا فشيئا، وبذلك قلت مشترياتهم سنة 1794م.[1]

استغلت شركة اليهوديين بكري وبوشناق بعض الظروف الداخلية والخارجية مثل الحروب النابليونية[*] بأوروبا، وقامت باحتكار السوق الجزائرية لصالح الفرنسيين، على حساب السكان المحليين والشركات الإسبانية، فحاول الإسبان استعادة مكانتهم في السوق إلا أنهم لم يستطيعوا رغم كل المحاولات المتكررة، وما كادت تحل سنة 1796م حتى اختفت الشركات الإسبانية نهائيا فاسحة المجال لشركة بكري وبوشناق ليصل الأمر بهذه الشركة سنة 1799م إلى تزويد إسبانيا بالحبوب حيث صدرت لها حوالي 10 آلاف كيلة من الحبوب.[2]

ومع بداية القرن التاسع عشر أصبحت الجزائر نفسها تعاني من أزمة حبوب حادة بسبب احتكار تجارة الحبوب من طرف شركة بكري وبوشناق لهذه المادة الحيوية، زيادة إلى الجفاف والقحط الشديد الذي ضرب البلاد[3]، إضافة إلى الصراعات الداخلية وكثرة الثورات مثل ثورة ابن الأحرش والثورة الدرقاوية.[4]

وفي الأخير يمكننا القول أن التبادل التجاري بين الطرفين لم يصل إلى المستوى المطلوب في هذه الفترة، وذلك راجع لتدخل أطراف خارجية مؤثرة مثل فرنسا وإنجلترا، اللتان حالتا دون وصول العلاقات التجارية بين الجزائر وإسبانيا إلى المستوى المطلوب، فما كادت الشركات الإسبانية تأخذ حصتها في السوق الجزائرية حتى ظهرت شركة بكري وبوشناق على خط المنافسة، واستطاعت بالمكر والخداع القضاء نهائيا على الشركات الإسبانية العاملة بالجزائر، بل أكثر من ذلك أصبحت تمثل وسيطا تجاريا فاعلا في العلاقات التجارية بين الطرفين مع نهاية القرن الثامن عشر، لتساهم نتيجة تلاعباتها التجارية بجزء كبير من المسؤولية في احتلال فرنسا للجزائر سنة 1830م.

---

1 - محمد موفقي: المرجع السابق، ص ص 102-104.

*- هي الحروب التي خاضها نابليون بونابرت داخل أوروبا ما بين (1805-1815م)، محاولة منه لبناء إمبراطورية فرنسية ضخمة...، مفيد الزيدي: المرجع السابق، ص ص 685، 686.

2 - محمد موفقي: المرجع السابق، ص ص 102-104.

3 - محمد صالح العنتري: مجاعات قسنطينة، تحقيق وتقديم: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974م، ص 13.

4 - للاستزادة والتوسع أكثر حول هاتين الثورتين ينظر: محمد ابن يوسف الزياني: المصدر السابق، ص ص 208-209.

خاتمة

خاتمة:

وما نخلص إليه من خلال هذا البحث أن العلاقات الجزائرية الإسبانية ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر الميلاديين تميزت بالصراع والندية،نتيجة للأطماع الإسبانية الهادفة للسيطرة على بلاد المغرب ونشر المسيحية به، وفي المقابل كانت الجزائر تمثل الدرع الواقي للإسلام والمسلمين في بلاد المغرب والممثل الرسمي للدولة العلية في مواجهة الحملات الأوربية في الجهة الغربية للمتوسط والمكلفة بإلهاء الإسبان ومنعهم من المشاركة في الحروب ضد الدولة العلية في الجهة الشرقية من أوربا.

وفي نهاية البحث وصلنا إلى مجموعة من النتائج يمكن تلخيصها فيما يلي:

1. بعد أن استطاعت إسبانيا إتمام وحدتها السياسية تمكنت من القضاء على التواجد العربي الإسلامي من على أراضيها، وإسقاط مملكة غرناطة آخر معاقل المسلمين بالأندلس سنة 1492م لتوجه أنظارها إلى المغرب الإسلامي عامة والمغرب الأوسط خاصة، واحتلال سواحله الواحدة تلو الأخرى، مستغلة في ذلك ضعف الدولة الزيانية وعجزها على الدفاع عن أراضيها وحماية حدودها.
2. شكلت القضية الموريسكية إحدى أهم القضايا المؤثرة في العلاقات بين الطرفين،وخاصة بعد أن حاولت إسبانيا مطاردة الأندلسيين الموريسكيين إلى بلاد المغرب الإسلامي، لمنعهم من محاولة التفكير في العودة إلى أراضيهم المسلوبة.
3. تعتبر المحنة الموريسكية من أعظم المآسي عبر التاريخ الإنساني الطويل، والتي تبقى وصمة عار في جبين حكام الدولة الإسبانية في العصر الحديث، وفي المقابل حاول حكام الإيالة الجزائرية مساعدة الأندلسيين الموريسكيين بكل الوسائل والطرق الممكنة منذ تأسيس الإيالة وإلى غاية قرار الطرد النهائي وما بعده.
4. أدى ظهور الإخوة بربروس بسواحل المغرب الأوسط إلى تغيير موازين القوى بين الطرفين،و أعاد للمنطقة توازنها، ليبدأ التعاون الوثيق بين الإخوة بربروس والسكان المحليين في التصدي للاحتلال الإسباني، وقد شارك الإخوة بشكل رئيسي وفعال في تأسيس الدولة الجزائرية الحديثة سنة 1519م.
5. إن تأسيس الإيالة الجزائرية لم يكن أمرا هينا وعفويا وبدون إستراتيجية واضحة، بل كان عن طريق تخطيط محكم ينِمُ عن عبقرية فذة تحلى بها الإخوة بربروس، وقد تجلت هذه العبقرية في التدرج والمرحلية لتحقيق الهدف الذي جاءوا من أجله إلى المغرب الأوسط، وتحقق بتأسيس الإيالة الجزائرية.

6. شكل الصراع الجزائري الإسباني امتدادا للصراع الإسلامي المسيحي ،الذي بدأ منذ ظهور الدولة الإسلامية بالمدينة المنورة.
7. منذ تأسيس الإيالة الجزائرية أوكلت إليها مهمة إلهاء الإسبان عن المشاركة في الحملات الأوربية ضد الدولة العلية في الجهة الشرقية لأوربا وتكليفها بمهمة تحرير طرابلس الغرب وتونس.
8. توالي الحملات الإسبانية ضد الجزائر، فما تكاد تنتهي حملة حتى تجهز أخرى، وقد عرفت في مجملها الفشل الذريع، وكان النصيب الأكبر من هذه الحملات لمدينة الجزائر.
9. شكل المرسى الكبير ووهران نقطة الصراع والتوتر بين الدولتين الجزائرية والإسبانية، لما يمثلانه من أهمية إستراتيجية واقتصادية للطرفين، لأن الجزائر استطاعت تحرير كامل سواحلها باستثناء هاتين المدينتين.
10. مثلما كان نمو القوتين الجزائرية والإسبانية بالتوازي، كان انحطاطهما و تراجعهما كذلك خاصة خلال القرن الثامن عشر الميلادي.
11. لعبت الدول الأوربية دورا متكاملا فيما بينها،من أجل إضعاف الدولة الجزائرية أو القضاء عليها،فتارة تهاجمها إسبانيا وتارة فرنسا وأخرى إنجلترا وهولندا وغيرهم.
12. على الرغم من تميز العلاقات بالصراع والندية إلا أنه كانت هناك بعض المحاولات الدبلوماسية التي لا يمكن إغفالها مع أنها لم تكن جدية في كثير من المرات.
13. وسّعت الدولتان رقعة الصراع إلى خارج الحوض الغربي للمتوسط، ونقلتا الصراع إلى الكثير من المناطق خارج حدودهما، وتدخلت العديد من الدول في هذا الصراع.
14. اتفقت كل المصادر المحلية على سرد نفس الأحداث تقريبا باستثناء بعض التفاصيل الصغيرة، لكن الغريب أنها لم تتطرق إلى أحداث كثيرة تناولتها المصادر الأجنبية، خاصة العلاقات السياسية والتجارية بعد التحرير النهائي لوهران سنة 1791م، وكأن الإنتاج العلمي توقف بمجرد خروج الإسبان.
15. محاولة المصادر والمراجع الأجنبية التقليل من انتصارات الجزائريين، وإرجاعها إلى عوامل طبيعية كالعواصف والزلازل محاولة منها الإنقاص من قيمة هذه الانتصارات.
16. حاولت المصادر المحلية التضخيم من حجم الخسائر الأوربية مثلما حدث في حملة شارلكان، وهذا ما لا يتطابق مع الواقع آنذاك.

17.حاولت فرنسا دائما السيطرة على الجزائر كلما سنحت لها الفرصة، وكانت أول محاولة بعد معركة الليبانت في أكتوبر 1571م، حينها طلب الملك الفرنسي من السلطان العثماني التنازل عن الجزائر مقابل دفع مبالغ مالية، لأن الجزائريين طلبوا منه ذلك، (ونحن نستغرب كيف للجزائريين أن يستنجدوا بكافر ضد مسلم ؟ وهم الذين كانوا رافضين لأي تواجد أجنبي على أراضيهم)، لتتواصل محاولات الفرنسيين، فتارة بالتعاون مع الإسبان وتارة مع الإنجليز وأخرى لوحدهم إلى أن تحقق لهم سنة 1830م ما خططوا له منذ زمن بعيد.

18.إذا أردنا التكلم عن التواجد العثماني بالجزائر بموضوعية ونزاهة فلا بد من إبعاد مدرستين مهمتين: المدرسة الاستعمارية الكولونيالية؛ التي تريد أن تجد المبررات والأسباب للاستعمار الفرنسي للجزائر وتحاول إثبات أن التواجد العثماني بالجزائر احتلال واضطهاد، وأن الاحتلال الفرنسي جاء من أجل مصلحة الجزائر وازدهارها، وهذا ما نجده في البيان الذي وزعه "ديبرمون" في حملته ضد الجزائر والكثير من الكتابات الفرنسية، أما المدرسة الثانية: فهي المدرسة المشرقية (مع أننا قد نستثني بعض المؤرخين في هذه المدرسة)، وهي مدرسة عربية خالصة؛ تنظر إلى التواجد العثماني على أنه احتلال، وتتباهى بالثورة العربية الكبرى سنة 1916م، والتي تم على إثرها طرد العثمانيين من المشرق العربي، لكن السؤال المطروح ماذا نتج عن هذه الثورة ؟ إنه الاحتلال البريطاني والفرنسي وما تبعهما من وعد بلفور وسايكس بيكو وسان ريمون...، ومازالت تبعات ذلك إلى يومنا هذا، فهل بريطانيا وفرنسا محررتين من الاحتلال العثماني ؟ والدولة العلية المشتركة معهم في الدين والعقيدة محتلة؟

ومما سبق فلا بد علينا نحن كجزائريين أن نتكلم بكل موضوعية عن التواجد العثماني بالجزائر مراعين القاسم المشترك بيننا، ألا وهو الدين الإسلامي الذي استطاع العثمانيون بفضله التعايش مع الجزائريين ومع ذلك نقول أن التواجد العثماني له إيجابياته وسلبياته (فلولا) العثمانيون لكانت الأراضي الجزائرية ربما محتلة من الإسبان إلى يومنا هذا، فهم الذين وحدوا الجزائر سياسيا وجغرافيا وحافظوا على هويتها الإسلامية عقيدة ومذهبا.

الملاحق

الملحق رقم (01): رسائل متبادلة بين حكام تنس والإسبان المتمركزين بوهران والمرسى الكبير تثبت التعاون الوثيق بين الطرفين ضد الإخوة بربروس[1]

الرسالة الأولى

الحمد لله الى مدبّر المملكة القشتيلية وكبيرها وخليفة
سلطانها فرض نال بعد سلامنا عليكم فالذي نعرفكم به ان ابن
سلطان تنس هو ابنكم ومتعلق بكم ومحسوب عليكم وكذا ابن
التومي صاحبكم في الجزاير انذبح عليكم وعلى خدمتكم وفعلتم
عليه وعلى بن السلطان وعلى جميع من عاملكم حاشاكم من هذا
فان كنتم تعاونون على همتكم اعزموا للجزيرة قبل لا تجي عمارة
التركي فيستولي على هذا البر الكل ونحن عرفناك ولو يكون
هذا الخبر عندك وايضا ابن السلطان تنس كان عنده خاله
الشيخ المنتصر ينتغر عليه ويحميه واليوم مات ما بقا له احد
الا الله وانتم اذا ما عزمتم اليه ينفسد ويفسد الحال عليكم كثيرا
في هذا البر والقايد مرتين ادرغوط عارف بكل شيء وهو يكون
عرفك بكل مقصد وكتب لكم من مدينة مستغانم

يصل الى يد الفاضل الشهير
فرض نال

الترجمة بالفرنسية

Louange à Dieu,

Au Cardinal, conseiller du royaume de Castille, qui en est le grand dignitaire et le lieutenant de son Souverain ;

Après vous avoir adressé nos salutations, sachez que ce que nous avons à vous dire est relatif au fils du Sultan de Ténès, lequel est votre enfant qui vous est attaché et est compté comme l'un des vôtres (1) ; et concerne aussi le fils de Toumi (2), votre ami d'Alger qui a été égorgé (3) à cause de vous et pour votre service ; vous l'avez abandonné lui et le fils du Sultan et de même vous avez délaissé la totalité de ceux qui ont travaillé pour vous.

Que Dieu vous garde d'agir de la sorte, et si vous voulez atteindre le but auquel aspire votre dignité, hâtez-vous d'accourir à l'Ilot (à Alger) avant que n'y arrive la flotte du Turc et qu'il ne s'empare de tout ce pays-ci.

Nous vous prévenons, de notre côté, quand bien même cette nouvelle vous serait déjà parvenue.

Nous ajouterons que le fils du Sultan de Ténès avait le cheikh El-Mountecer, son oncle maternel, qui lui prêtait son appui et le protégeait, aujourd'hui que ce dernier est mort, il ne lui reste plus personne, si ce n'est Dieu et vous (pour le défendre). Si vous ne vous pressez pas de le secourir, il sera corrompu et la situation de vos affaires en ce pays se gâtera considérablement.

Le kaïd Martin Aderghout (d'Argote) est au courant de tout ; il a dû vous informer de tout ce qui se prépare pour l'avenir.

Cette lettre vous est écrite de Mostaganim.

Note du Traducteur. — Dans une sorte de paraphe, en forme de barque garnie de rames, je lis le nom : Ali (1).

Sur l'adresse au dos de la lettre :

Cette lettre parviendra à la main de l'excellent, du célèbre Cardinal.

[1] - Feroud (Ch), Lettres…., op.cit, pp 314-321.

الرسالة الثانية:

الحمد لله وحده ولا غالب الا الله

السلطان العلي القوي المرفع الكمل الحجل الاجل المشكور الاشنع الارفع طيعنا ومولانا الشنيور السلطان النبرادور نصره الله وعل فدره وشنوعل جميع سلاطن الدنيا من خدامك المقبلين الارظ تحت افدمكم السعدة وصفنكم الشيخ محمد بن يوسف السودي وعبيد الجزاير السودي بعد السلام عل مفمك العلي مولانا نصركم الله نحنا جينا لهد البلد متع وهران لعند خدمكم الفيد بدرن دغوفوي وخدمكم الفرنجدر مرسلين من عند خوتنا الشيخ حميد

العبد وكاوبة ولاد محمد وكبة ولد بو بكر ونحنا في خيل وقوم كثر فد الافين خيل صحح ونحنا خدمكم وحندكم للغرب ولشرف ونحب بالله ان نحنا جند برسم الجزايروغيرها بالله تعل وكذالك عل خدمتك الله ينصرك المربطين اولاد سي ابو عبد الله سيدي محمد ابغول وسيدي عمار ونحنا كولنا عل خدمتك نموت ونحنا ضبقنا الناس الكول لخدمتك ونحب من الله ومنك الله ينصرك تامرعل ان نوكاواو وفت ان نحنا خدمك نوصاح كما يعرفك الفيد والفاظي متع وهران والشيخ ما ردهم ما كتب لمفامك العلي الا نحنا العرب ما عندنا من يستور وجهنا في الكتبه ولا زايد الا نرغبو لله سبحنه ان يكبل تحت طعتك وافدمك بفيه الدنيا والسلام عل مفمك العلي من وهران اول يوم من شهر العيد المبرك

الترجمة بالفرنسية

Louange à Dieu seul, Dieu seul est le plus fort,

Au sultan élevé et puissant, le sublime et l'incomparable, le zélé et l'illustre, digne d'actions de grâce, le très-célèbre et très-majestueux, notre conquérant et notre maître, le seigneur, le sultan, l'empereur, que Dieu lui accorde la victoire, et élève sa puissance et sa souveraineté au-dessus de tous les monarques de l'univers ;

De la part de vos serviteurs qui baisent la terre sous vos pieds fortunés, vos domestiques (dans le sens de nègres), le cheikh Mohammed ben Yousef es-Soudi et Abid l'Algérien es-Soudi ;

Après avoir adressé le salut à votre sublime altesse, ô notre maître, que Dieu vous accorde son appui (sachez que), nous sommes venus dans cette ville d'Oran, auprès de votre serviteur le kaïd Bedren ou Bou Derga Dr'oudouï et de votre serviteur le corrégidor, députés de la part de nos frères le cheïkh Hamida el-

Revue africaine, 17e *année*. **N° 100.** (JUILLET 1873). 20

Abed, de la totalité des Oulad Mohammed et des Oulad Bou Beker.

Nous avons avec nous des chevaux et des cavaliers en nombre considérable, s'élevant au chiffre de deux mille solides chevaux. Nous sommes vos serviteurs et votre armée (prête à marcher) soit vers l'Occident soit vers l'Orient ; par Dieu nous voulons être vos troupes sur la frontière d'Alger et autres lieux ; oui par Dieu très-haut.

Les marabouts des Oulad Si bou Abd Allah, Sidi Mohammed Afer'oul et Sidi Amar, sont également à votre service ; Dieu vous rende victorieux.

Nous tous mourrons pour vous servir. A nous mettre à votre disposition, nous avons devancé tout le monde. Mais nous désirons de Dieu et de vous (Dieu vous accorde la victoire) que vous donniez des ordres pour que nous soyons récompensés lorsque nous vous servons avec dévouement, ainsi que vous le feront connaître le kaïd et le kadi d'Oran, ainsi que le cheïkh. Ils n'ont pas écrit à Votre haute Majesté, à notre sujet ; c'est nous qui le fesons ; mais, nous Arabes, nous n'avons personne qui (sachant bien écrire) nous empêche de rougir d'une lettre (mal écrite).

Nous n'avons rien autre à ajouter, si ce n'est que nous demandons à Dieu exalté, de réduire sous votre autorité et à vos pieds le restant de l'univers.

Salut à Votre sublime Majesté.

D'Oran, le premier jour du mois de l'aïd, le béni.

الرسالة الثالثة

الحمد لله وحده

الى الفارس النجيد الحسين دون موتيني ادي الفربطي اعزه الله
بعد بلمنا عليك نعرفك جنا كتابك مع اتيميز والمجال الذي
عملوا لتجار الله يعيشك وفرحنا بيه وشرنا وعملنا العون وخمنا
نجين سغ واحمد ولدنا مرط مرط كبير وصلى حتى للموت وشفاه
الله وهذي ليام جنا خبر عليكم انك مشت لذاك البر وتوقفنا
ولا درنا اش نعملوا حتى اصحابنا العرب فلو انا انهم خرج
لسحر انظربنا لراس وكتبنا لك بلعزم تعرفنا بالخبر ان كان
انت مزلت في وهران عرفنا وان انت عزم على المشي لذلك
البر عرفنا والسلام على دون بونتشك وعرفنا كيف هو دون
الهونس اي جكشي خبر عليه وكتب عبد الله عبد الرحمن بن
رضوان لطف الله به وسلام كتب يوم الجمع سادس شهر ربيع
لول عام ٣٥

Sur le dos est l'adresse en arabe : بيد الفند عزه الله

Et ensuite en espagnol : Ben Reduan, 1535

الترجمة بالفرنسية

Louange à Dieu unique,

Au cavalier intrépide, brillant et estimé don Martini di Korbeti (pour Kortebi, de Cordoue) que Dieu le fortifie;

Après vous avoir adressé nos salutations, nous vous faisons savoir que votre lettre nous est parvenue avec *Timiz* et le délai fixé par les commerçants ; que Dieu vous fasse vivre. Nous avons été joyeux et satisfaits de cela ; nous avions déjà préparé des provisions et nous allions aussitôt venir (vers vous), quand notre enfant Ahmed a été atteint d'une grave maladie ; il s'est recommandé à Dieu jusqu'au moment du trépas et Dieu l'a guéri.

Ces jours-ci nous avons reçu de vos nouvelles annonçant que vous étiez allé dans ce pays (en Espagne?), nous avons dès lors suspendu notre voyage, ne sachant quel parti prendre ; nos amis les Arabes, nous ont même dit qu'ils (les Espagnols ?) avaient fait une course vers le Sahara. Nous nous frappions la tête (pour en faire sortir une résolution) et nous vous avons écrit immédiatement pour que vous nous donniez de vos nouvelles ; si vous êtes encore à Oran faites nous le connaître ; si vous devez partir incessamment pour ce pays (l'Espagne) informez-nous en.

Salut à Don Fountechca. Comment se porte Don El-Hounès (?); avez vous reçu de ses nouvelles ?

Ecrit par le serviteur de Dieu, Abd er-Rahman ben Redouan (que Dieu lui accorde ses faveurs), le vendredi, sixième jour du mois de rebiâ el-ouel l'an 35 (?).

Au dos : 1535 de Ben Bedouan.

الرسالة الرابعة

الحمد لله وحده   وعلى نعبد غيره

من عبد الله محمد بن طراد واحمد بن طراد لطف الله بهم ال
الفارس المكرم السيد الفند دون مرتين اعزه الله تعالى امنا بعد
سلامنا عليكم جان كتابكم وعرفن منه حبكم الله يبارك لنا
فيك ويطول عمرك واحنا خدامك وخدام السلطان ادي
قشطيل الله ينصر ونعرفوك عرفك الله خير وعافية بانحن صرنا
نقدم على داركم العلي سع واحمد بن رضوان وقع في الهرط وشفاه
الله وصلنا خبرك بانكم قطعت لذاك البر وتوقفنا نرجاو خبرك
وتعريفك نعملوا به والسلام عليكم ورحمة الله

Adresse :

بيد السيد الفند اعزه الله تعالى

الترجمة بالفرنسية

Louange à Dieu unique, je n'adore que lui.

De la part du serviteur de Dieu, Mohammed ben Trad et de Ahmed ben Trad, Dieu leur accorde ses faveurs.

Au cavalier honorable, Monsieur le comte Don Martin, que Dieu très-haut le fortifie; après vous avoir adressé nos salutations, nous vous faisons savoir que nous avons reçu votre lettre par laquelle nous sommes instruits de l'amitié que vous avez pour nous; Dieu vous en récompense et qu'il prolonge votre existence.

Quant à nous, nous sommes vos serviteurs et les serviteurs du sultan de Castille, que Dieu lui accorde la victoire.

Nous vous informons, pour le bien de Dieu et la paix, que nous nous étions déjà mis en route pour nous rendre à votre auguste résidence lorsque Ahmed fils de Redouan a été atteint de maladie. Dieu l'a guéri. Mais il nous est parvenu que vous étiez passé en ce pays (en Espagne ?). Nous nous sommes alors arrêtés, attendant d'avoir de vos nouvelles et des renseignements à votre sujet pour agir en conséquence.

Que le salut et la miséricorde divine soient sur vous.

Sur l'adresse au dos de la lettre :

A Monsieur le Comte, que Dieu très-haut le fortifie.

الملحق رقم (02): أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول 1519م[1]

نــص الوثيقــة المعربــة :

ترجمة رسالة القاضي والخطيب والفقهاء والائمة والتجار والامناء وكافة سكان مدينة الجزائر العامرة (19) .

اننا ندعو بالسعادة والنصر لمقام السلطنة العلية ، دعاء يبلغها اقصى الاماني ، فان عبيدها بالجزائر يكتبون الى مقامها العالى معبرين ومعترفين لمقامكم العالى بالاجلال والتعظيم ابدا ، وان رسالتنا هذه لا تستطيع ان تستعرض كل الاسرار . ان سعادة ايامكم هي فرحتنا ونحن لزمام اموركم وطاعتكم مستبشرون وعليكم لا محالة اعتمادنا . فظاهرنا كباطننا مخلص لكم أولا وآخرا . فقد أطعنا امركم وعبيدكم ليس لهم غير جنابكم يرفعون اليه غاية الاجلال والتقدير وليس لهم من قصد غير شريف مقامكم العالى .

لقد جرت حوادث جليلة ولها اخبار طويلة فى نصر المؤمنين وهزيمة اعداء الله . ومفادها ان طائفة الطاغية لما استولت على بلاد الاندلس ، انتقلوا منها الى قلعة وهران للاعتداء على سائر البلاد . غير انه بعد استلائهم على بجاية وطرابلس بقيت الجزائر (بين الكفار) كالنقطة فى وسط الدائرة ، وبقينا لذلك حيارى متأسفين يحفنا الكفار من كل جانب ولكن تمسكنا بحبل الله المتين واتكلنا عليه . غير ان طائفة الطاغية شددت علينا الطلب هادفة ادخالنا تحت ذمته (سلطته) . وقد نظرنا فى الامر ورأينا ان المحن والشدائد تشتد وان الضرورة تقضى بحقن دماء انفسنا وخوفا على حريمنا واموالنا واولادنا من السبى والتفريق ، تصالحنا مع أهل التثليث وانا لله وانا اليه راجعون .

وبعد هذه المضايقة والحصار دخل الكفار الى وهران وبجاية وطرابلس وكان قصدهم ان يأتوا بسفنهم ويستولون علينا ويأسروننا ويشتتون شملنا فجأة . آنذاك قدم ناصر الدين وحامي المسلمين المجاهد فى سبيل الله اوروج باى مع ثلة من الغزاة . فقابلناه بالعز والاكرام واستقبلناه ، لاننا كنا فى خوف (من عدونا) فخلصنا بفضل الله . وأوروج باى المشار اليه جاءنا من تونس لانقاذ بجاية من يد الكفار وتأهيلها بالمسلمين . فلما وصل الى القلعة وحاصرها مع المجاهد الفقيه الصالح أبو العباس احمد بن قاضى زلزلوا أركانها وهدموا بنيانها ، وشاهد الكفار عندما دخل القلعة المسلمون وهاجموهم واستولوا عنوة على برج منها ، اختلال بنيانهم وقرب حتفهم هرب بعض الكفار الموجودين بالقلعة وقتل الباقون منهم .

لقد حارب المسلمون الكفار اناء الليل واطراف النهار من طلوع الشمس الى غروبها . وعلى الرغم من ترك بعض من جماعة اوروج القتال ، بقى المشار اليه يقاتل الكفار مع جماعة قليلة ، وكان قد عزم على لقائنا غير أنه وقع شهيدا فى حرب تلمسان رحمه الله . وقد حل مكانه أخوه المجاهد فى سبيل الله أبو التقى خير الدين وكان له خير خلف ، فقد دافع عنا ولم نعرف منه الا العدل والانصاف واتباع الشرع النبوى الشريف ، وهو ينظر الى مقامكم العالى بالتعظيم والاجلال ويكرس نفسه وماله للجهاد لرضاء رب العباد واعلاء كلمة الله ومناط آماله سلطنتكم العالية مظهرا اجلالها وتعظيمها . على ان محبتنا له خالصة ونحن معه ثابتون . وكيف لا نحبه وهو المشمر عن ساعد الجد والاقدام ، ويقود الجهاد معنا فى سبيل الله بنية خالصة وقلب صادق متفق الكلمة معنا فى الشدة والرخاء لاعلاء كلمة الله . فالعقيدة الايمانية كوكب وهاج ودليل واضح المنهاج . ومفاد ما يريد عبيدكم اعلامه لمقامكم العالى هو أن خير الدين كان قد عزم قصد جنابكم العالى الا ان عرفاء البلدة المذكورة رفعت ايديها متضرعة اليه حتى لا يرتحل خوفا من الكفار اذ هدفهم هو « النيل منا » ونحن على غاية الضعف والبلاء . ولهذا ارسلنا الى بابكم العالى الفقيه العالم المدرس سى أبو العباس احمد بن على بن احمد ونحن واميرنا خدام اعتابكم العالية وأهالى اقليم بجاية والغرب والشرق خدمة مقامكم العالى وان المذكور حامل المكتوب سوف يعرض لحضرتكم ما يجرى فى هذه البلاد من الحوادث والسلام . اوائل ذى القعدة 925 (20) .

وقد أرسل ايضا المنزوى والمعتكف بالجامع الاعظم بمدينة الجزائر عبيد الله وخادم فقراء اهل السنة محمد بن منصور بن على الحلبى (21) ، رسالة يذكر فيها بضعف القوم فى ارض غربته ، انهم على وشك الهلاك عندما قدم خير الدين وقد وقعوا فى المحن المرة تلو الاخرى ايام الاضطرابات وانهم باقون على الدعاء بدوام أيام دولة السلطان .

[1] – عبد الجليل التميمي: أول رسالة لمدينة الجزائر، المرجع السابق، ص ص119، 120.

الملحق رقم (03): وثيقة تبين حجم المشاركة الأوروبية ضد الجزائر سنة 1541م[1]

Flotte
Galère du pape..4
Galère de Malte..4
Galère de Sicile..4
Galère d'Antoine Doria..............................6
Galère de Naples....................................5
Galère de Monaco....................................2
Galère du marquis de Terra-Nova..........2
Galère du vicomte de Cigala....................7
Galère de Fernand de Gonzague...............7
Galère d'Espagne....................................15
Galère d'André Doria..............................14

Total des galères.......................................65

Bâtiments à voiles carrées ou latines de transport
La frégate de Malte.......................................1
La division de Spezia..............................100
La division de Fernand de Gonzague....150
La division d'Espagne......................... 200
Total des navires de transports..............451
Total de la flotte............................516 voiles

Personnel
Pour le débarquement.
Maison de l'Empereur...........................200
Noblesse 150
Chevaliers de Malte................................150
Domestiques 400
Corps allemand..................................6000
Corps italien.......................................5000
Corps espagnol de Naples et de Sicile..6000
Hommes d'armes venus d'Espagne.....400
Soldats de Malte....................................500
Aventuriers...3000
Cavaleries italienne.............................1000
Cavaleries espagnole venue de Sicile...400
Cavalerie ginète....................................700
Effectif du département....................23900

Armement de la flotte.

Soldat des galères, à chacune 50..3250
Chiourmes des galères, à 70 hommes chacune 4500
La frégate de Malte...................................80
450 navires à voiles de toutes les grandeurs, la pluparts petites, à 10 hommes d'équipage chacun, l'un dans l'autre 4500
Total du personnel de la flotte 12330

Total général du personnel de l'expédition........................36 230 hommes

[1] - De Paradis(V), Expédition…, op.cit, pp 26-28.

الملحق رقم (04): تقرير الحملة الإسبانية على الجزائر عام 1775م[1]

[1]- مجموعة 3190، علبة 16، الملف الثاني، وثيقة 13.

الملحق رقم (05): مشروع معاهدة بين الحاكم الإسباني لوهران دون خوان فرانكو وباي الغرب مصطفى بوشلاغم[1]

73

مشروع معاهدة بين الحاكم الأسباني لمدينة وهران وباي الغرب

(10 جوان 1707)(1)

دون جوان فرانكو، الحاكم والقائد العام لساحتي وهران ومسرغين في مملكتي تلمسان وتنس

بما أن مصطفى حاكم الغرب، طلب مني الإستمرار في العلاقات الحسنة التي اتبعها مع حكومة الجزائر، وتثبيت ذلك، كتابة وبدقة مختلف الترتيبات، التي يجب أن تراعى في المستقبل من طرف قوات صاحب الجلالة الكاتوليكي. ولهذا الغرض فقد أوفدت حكومة الجزائر إلى هذه الساحة مصطفى المعنى يحمل تفويضا واسعا لعقد إبرام كل ما تم الإتفاق عليه كما تبين ذلك في الرسائل التي حملها والتعليمات التي تزود بها. وإني مقتنع بأن بنود معاهدة حسن العلاقات، بين وات صاحب الجلالة المسيحي وبين الأتراك لن تنتهك. وقد حددت على النحو التالي:

كل الأماكن الواقعة تحت سلطة الأتراك مثل الجزائر، تلمسان، مستغانم، مزغران القلعة... والأماكن الصغيرة الأخرى المجاورة لتلمسان سيتمتعون بالعلاقات الحسنة هاته فكل تجار هاته الأقاليم يستطيعون الارتياد بقوافلهم والدخول إلى هذه الساحات والخروج منها، وبيع سلعهم كما يحلو لهم بدون افضرار بهم وإيذائهم.

يجب أن يلزم (باي الغرب) كل السكان الذين يقتربون من هذه الساحات على دفع ما يستوجب دفعه من الضرائب والأتاوات للحكام أو للذين يوكل إليهم استخلاصها بدون أن يتحتم (الحاكم) إيفاد شخص خصيصا للإستخلاص هذه الأموال لأنها ستسلم إلى موظفيها دفعة واحدة.

كل الأتراك أو سكان البلاد الأصليين الذي يقطنون في الأماكن المشار إليها أعلاه والموجودين في هذه الأماكن (كأسرى) والذين لا يرغبون في التحول إلى الديانة الكاتوليكية سيباعون إلى الحكومة المعنية (الجزائر) بأمتعهم.

كل المسيحيين الذين اختطفوا من داخل هذه الساحات أو في ضواحيها سيباعون من طرف هذه الحكومة. يخيلهم ودوابهم إذا رفضوا الدخول إلى الدين الإسلامي.

سيجبر كل العرب الذين هم تحت حماية صاحب الجلالة الكاتوليكي عند ارتيادهم إلى الأماكن التي تقع تحت سلطة الأتراك، هروبا من دفع الغرائم المستحقة عليهم، على دفع هذه المبالغ كاملة من طرف الحكومة المعنية (الجزائر): كل المساكن ومضارب الخيام التي لا تتخذ الاحتياطات وتتقيد بالإجراءات المطلوبة منها لحفظ أمنها فإنها ستتعرض للمخاطرة وعلى مسؤولياتها وفي أي مكان تكون.

إذا ما تعرض هذا الاتفاق وفي أي من ترتيباته لأي انتهاك من طرف الحكومة المعنية (الجزائر) أو من طرف تحت سلطتها، فإنه سيعتبر في الحين ملغيا، وليعلم الطرف المعني أن حسن العلاقات قد انتهت وأن الحرب ستعلن لأن من جهتي فنني متأكد أنه لن يحدث أي شيء من هذا القبيل مدة ثلاث سنوات أو طوال مدة سريان مفعول الاتفاق.

حرر في القصر الملكي بوهران في 10 جوان 1707

دون جوان فرانكو

بتفويض من سعادته

دون جوان انطونيو زوازو

[1]– جمال قنان: المرجع السابق، ص ص 201، 202.

الملحق رقم (06): وثيقة تثبت إرسال مفاتيح وهران إلى الباب العالي[1]

عدد ٥٤ ترجمة الكتاب الذي ارسله قبطان البحر حسين باشا

الى حضرة صاحب الدولة والسعادة والكرامة والمروءة اخي وسلطاني الاعز الاكرم جليل الشان
من المعلوم وان مدينة وهران التي هي من ملحقات الجزاير الغرب قد تسلط عليها جنس الاسبانيول
منذ زمان والان بفضل الله ويمن طالع حضرة مولانا السلطان قد فتحها باي الوطن الذي اسمه
محمد باي بعد ان حصرها بعساكره المتوافرة وضيق على الكفار بصولة الاسلام القاهرة وسلموا
له المدينة المذكورة على التمام والكمال بادر جنابك الرفيع بارسال مفاتيح المدينة الى السدة
السنية والاعتاب الملوكية وبموجب ذلك انعم عليك حضرة الملك برتبة الوزارة تعظيما
لمقامك وسنرسل لك البراءة العالية الشان المتضمنة ذلك على يد قبطان البحر يانياك بها
احد رئيس البوابين بدار الخلافة والامر بعضي من هو من طرف وكيل الجزاير حسب الامر السلطاني
ثم الذي نفيدك به وان السفينة التي ارسلتها قبل التاريخ الى دار الخلافة حاملة العسكر الذي
فر من اوجاق تونس قد وصلت واعلمتنا بان طرف من رعية باي المشرق فر الى تونس
وبسبب هؤلاء وبسبب العسكر الفار من عندهم ربما يكون النزاع بين الطرفين فلا ينبغي
من هذا الامر فمن اول الشكي باي تونس الى دار الخلافة من اجل هذه الخصوص لانصت لكلامه
ومكاتبك الذي ارسلتها مع السيد علي خوجة قد قراناها واطلعنا على جميع ماهو مشروح فيها
ولا يخفى عليكم وان حقوق الاوجاق المعمور وسكانه العراق ذي الظفر المبرور واجب على
الدولة بحق الوجوب ولذا انعمت عليك المراحم الملوكية بالبراءة العلية المؤرخة في اواسط

[1]- مجموعة 3205، علبة 54، 1206هـ.

رجب الشريف المتضمنة رتبة الوزارة السامية ومن الآن فصاعدا لابد للدولة العلية من الاهتمام
في قضاء جميع لوازماتك على التمام من غير زيادة ملام والمدافع والمهمات التي طلبتم من الحضرة
العلية قد صدر الأمر بإعطائهم وقبل التاريخ بأيام سلمت المدافع والمهمات المذكورة إلى السيد
علي خوجة وكيل الخرج بباب الجزيرة وحملت في السفاين بأمرنا وها نحن وجهناهم إليك مع البراءة
العالية الشان والأوامر البهية وخلاف هذا الواقع نعلمك وإني لما قدمت مفاتيح مدينة
وهران لحضرة الملك انبسط غاية البسط وأنعم بما تقدم ذكره وزاد في الانعام بأن عطي
أول لي ماعنه التجارية الذي جاء بالمفاتيح كرك سمور والعين وخمسماية قرش احسان وانعم
ايضا على السيد علي خوجة المقدم ذكره الذي جاء بتحريراتكم البهية بإعطائه النيشان وقبل جميع
ما التمستموه احسن قبول ولم يكتفيه ذلك بل أمر بتجهيز مملوكا ونيشانا وسيفا مرصعا
لحضرة جنابك الرفيع بزعامته وأمرا والجميع سلمتهم على يد السيد علي خوجة المومي إليه
ليبلغهم إلى صوب وزارتك السنية فعند وصولهم إليك لابد أن تقابل النيشان الدال على الفخر
بخطوات التعظيم وتقلد السيف الملوكي المنصور وتدعوا بدوام العمر والدولة لحضرة ظل الله
في أرضه وهو مولانا السلطان ومن الآن فصاعدا تبذل جل مجهودك في الحركات السديدة
المرضية حسبما هو مامول الملك وتشتغل في تحكيم أوجاق الجزاير الغرب المنصور وفي تقويته
وجلب أسباب العمران إليه ولا يهمك الخلاف الذي يظهر من جانب أوجاق تونس لأن الدولة
العلية قد أرسلت فرمانها العالي الشان إلى باي باباك تونس تحذره من الخلاف وتامره بالاتفاق

والاتحاد والأليق بجنابك الرفيع بعد ان حرف رتبة الوزارة السامية ان تصون اوجاقاتك

حسبما انت عليه مفطور من الاخلاق الحميدة وتسعى في الاتحاد مع باقي الباباوات المومى اليه وتحافظ

رسوم جميع الأوجاقات ليحصل لك رضاء الخليفة الأعظم وفى هذه الايام وقع انعقاد الصلح

ما بين الدولة العلية ودولة الروسية وانه رجعت بعض الشروط في كتاب العهد مما هي

مخصوصة بالأوجاقات وهم الجزاير وتونس وطرابلس وعن قريب يصلكم الفرمان العالي الشان

المتضمن الشروط المذكورة فالتبادروا الى العمل بما فيه حسبما هو مطلوب السلطان وعليكم

باظهار العبودية وصدق الخدمة للدولة العلية في كل ان وزمان كما هو المامول فيكم وقد

وجهنا لكم كتابنا هذا الدال على المحبة والوداد مع دعاء الخير المرجو قبوله من رب العباد صحبة

وكيلنا رئيس البوابين صاحب العز الحاج حسين اغة وان شاء الله تعالى بعد وصوله اليكم

بالسلامة تبذلون مجهودكم فيما نبهنا به عليكم على الوجه اللايق وبعد اداء مامورية الاغة

المذكور تبادروا بارسالة لنا عن قريب وهذا ما شملته مقتضيات المحبة والسلام

حسين

في غرة شوال ١٢٠٦

الملحق رقم (07): وثيقة تبين تعاون الدولة العلية والجزائر في تبادل المعلومات عن تحركات الأعداء (الإسبان)[1]

— 1 —

دفتر مهم 55
عدد : 158
تاريخ : 3

حكم الى امير امراء جزائر الغرب

تفيد الاخبار التي وصلتنا من الرجلين الواردين الى طرفنا من جانبكم — احدهما عربي و الثاني — شاويش بان 70 سفينة من نوع القدرغة التابعة لملك اسبانيا قد خرجت الى المياه البحرية وان هذا الامر يقتضي اليقظة والانتباه لما سيقدم عليه العدو الصافر من جراء هذه العملية كما يفرض علينا ايضا الانتباه الى كل الحيل والدسائس التي يمكن ان يلجأ اليه هذا العدو الشرس لان الغفلة من ذلك لا يجوز ابدا ولذا قلت آمرا : حال وصول امري اليكم بادروا الى الاستعداد والتهيؤ لمواجهة الكفرة في كل وقت من الاوقات ولا تغفلوا لحظة واحدة عن حراسة القلاع وحماية الثغور وصيانة المملكة والبلاد من شرور تجاوز العدو وباذلين في ذلك كل ما يمكن بذله من جهد وتضحية ثم ارسلوا جواسيس الى تلك الناحية للتحقق فيما اذا كانت تلك السفن هي تابعة فعلا للاسبان ام لا وهل هي خرجت الى البحر ام لم تخرج ؟ واذا خرجت كما قيل واشهر الى اين تتوجه يا ترى ؟

ثم اخبرونا كتابيا عن كل ما يتعلق بهذه السفن من الاخبار حتى نكون على يقين منها لان ذلك يهمنا جدا.

اذ ان خروج مثل هذا العدد الضخم من الاسطول الى المياه شيء لا يمكن الاستهانة به وبتحركاته ولذا كونوا متيقظين امام هذه الاخبار المتعلقة بتلك القوة البحرية التي قيل عنهــــا بانها تابعة لاسبانيا .

صورة	صورة	صورة
الى امير امراء تونس	الى امير امراء رودوس	الى امير امراء جزائر الغرب

[1]- دفتر مهم، مجموعة 55، عدد158، تاريخ 993هـ.

نص الوثيقة باللغة العصمانلية

الملحق رقم (08): نص بنود الصلح بين الجزائر وإسبانيا سنة 1786م[1]

نص بنود الصلح

الحمد لله العلي القدير(1).

في 17 شعبان 1200 هـ انعقدت معاهدة سلم وصداقة دائمة بين أسبانيا والجزائر، وتمت الاتفاقية في إطار الانسجام الكامل والإرادة الحسنة، بين صاحب الجلالة المعظم دون كارلوس الثالث ملك أسبانيا والهند، من جهة، وصاحب السمو محمد باشا داي والديوان، والانكشارية، بمدينة الجزائر ومملكتها من جهة أخرى.

- **البند الأول:** سيكون السلم دائمًا بين صاحب القوة ملك أسبانيا، وأصحاب السمو: الداي، والديوان، والانكشارية بمدينة الجزائر ومملكتها، وكذلك بين من ينتمي إلى الدولتين، والذين يستطيعون تعاطي التجارة بناء على المعاملة بالمثل في كلتا المملكتين والتنقل بحرًا في أمن تام دون أي عائق أو إزعاج من كلا الطرفين مهما تكن الحجّة.

- **البند الثاني:** إن بحارة الأيالة، أو العاملين لحسابهم بالجزائر، إذا اعترضوا سفنًا أسبانية في البحر، عليهم أن يتركوها تسير إلى حيث تشاء، ويقدموا لها كل الإسعافات والإمدادات اللازمة إذا تعرضت لأي عائق.

وإذا أرادوا الصعود إلى متنها للمراقبة يجب عليهم ألا يرسلوا سوى رجلين ذوي ثقة إلى ظهر المركب، ونفس الأمر ينطبق على البحارة الأسبان، والمراكب الجزائرية، وكذلك البحارة الذين يعملون لحسابهم الخاص بشرط أن يتسلموا من قنصل أسبانيا بالجزائر جوازات سفر حتى لا ترتكب ضدهم أخطاء.

- **البند الثالث:** يسمح للمراكب الجزائرية بالرسو في جميع موانئ أسبانيا وفرضها إذا تعرضت لزوابع، أو أخطار واعتداء، وتقدم لها كل الخدمات اللازمة مقابل أجور عادية، أما في غير هذه الأحوال فلا يسمح لها بالاتجار، والتمون، إلا في موانئ: اليكانت، وبرشلونة، ومالقا، ولا تبقى بها إلا الوقت المطلوب لإنجاز أعمالها، وبالمثل تعامل المراكب الأسبانية نفس المعاملة في الموانئ الجزائرية.

- **البند الرابع:** إذا وجد مركب أسباني في ميناء الجزائر أو أحد موانيها الأخرى بالمملكة، وتعرض لهجوم من طرف أعداء أسبانيا، فإن كان داخل مرمى مدفعية الحصون فعليها أن تحميه، وعلى قائدها أن يجبر المغيرين على إمهال المركب الأسباني وقتًا كافيًا لا يقل عن 24 ساعة للخروج والابتعاد، وذلك بحجز سفن العدو ومنعها من ملاحقته، وتتخذ نفس الإجراءات من طرف ملك أسبانيا لفائدة مراكب الجزائر، ولا ينبغي لهذه المراكب أن تستولي على شيء لعدوها إذا وُجد على مرمى المدافع بالشواطئ الأسبانية كلها، وينتقل المركب المذكور بالأشرعة ويكون الأمر كذلك إذا كان راسيًا على مرأى السواحل لأن المركب في هذه الحالة يعتبر محتميًا بالسواحل.

- **البند الخامس:** إذا وجد معادون للجزائر على مراكب أسبانية، أو أسبان على مراكب معادية للجزائر فلا يسترقون مهما كانت الحجة، حتى ولو نشب القتال بين الطرفين ويحترم الجانب الأسباني نفس القرار بالنسبة لأعداء أسبانيا الموجودين على مراكب جزائرية أو الجزائريون الموجودون على مراكب معادية لأسبانيا وعلى المسافرين أن يبرهنوا أنهم جزائريون أو أسبان بإظهار جواز سفر يسلمه لهم قنصل بلادهم في موانئ الإقلاع، وأن يعلنوا على

[1]- يحي بوعزيز: المراسلات...، المرجع السابق ، ص ص41-47.

امتعتهم وكل ما هو تابع لهم.

- **البند السادس**: إذا أشرف مركب أسباني على الغرق قرب السواحل الجزائرية أو لاحقه الأعداء، بنفس المكان أو أجبرته رداءة الطقس على الاقتراب من الشواطئ يجب أن يتقدم ويقدم له ما يلزم لإصلاحه واسترداد حمولته، على أن يدفع مقابل الخدمات والإسعافات، ولا يطالب بدفع أي مكس أو أتاوة على السلع التي أفرغت إلا إذا بيعت أو كان القصد بيعها في مرسى المملكة المذكورة.

- **البند السابع**: يستطيع كل التجار الأسبان بالموانئ والسواحل الجزائرية أن ينزلوا بضائعهم ويتاجروا بحرية دون أن يدفعوا أكثر ما يدفعه الأهالي.

ويتمتع التجار الجزائريون بنفس الحقوق في الموانئ الخاضعة للسيادة الأسبانية، والمنصوص عليها في البند الثالث، وإذا أنزل التجار المذكورون سلعهم بقصد الإيداع فقط، يكون من حقهم شحنها دون أن يدفعوا عليها أية ضريبة، ويدفع الجزائريون بأسبانيا والأسبان بالجزائر نفس الرسوم الجمركية التي يدفعها الفرنسيون في هذين البلدين، ويمتثل الطرفان إلى ما تعامل به هذه الدولة.

- **البند الثامن**: لا يقدم الجزائريون أي مدد لمراكب دولة في حالة حرب مع أسبانيا، ولا يحمونها حتى ولو كانت لمسلمين، ولا يعينون من حصل على شهادة ضريبة المهنة من طرف الدولة المعادية، ولا يستطيعون استعمال هذه الشهادات للدخول في الغزو البحري ضد الأسبان، وتتعهد أسبانيا باتخاذ نفس الموقف إزاء الجزائريين.

- **البند التاسع**: ليس لأحد أن يكره الأسبان بأي سبب أو دعوى على شحن (بضائع) في مراكبهم بموانئ الجزائر وفرضها، إذا رفضوا ذلك، ولا أن يجبروهم على القيام بأسفار إلى نواحي لا يرغبون في الذهاب إليها.

- **البند العاشر**: سيقيم قنصل لأسبانيا بالجزائر ويكون له نفس الامتيازات التي يتمتع بها قنصل فرنسا، ويتكلف بجميع شؤون الأسبان، بنفس الكيفية التي يعالج بها قنصل فرنسا قضايا مواطنيه وستكون له سلطة قضائية في الخلافات بين الأسبان، دون أن يتدخل فيها قضاة مدينة الجزائر.

- **البند الحادي عشر**: لكل الأسبان الموجودين بمملكة الجزائر، كامل الحرية في ممارسة شعائر الدين المسيحي سواء أكانوا بالمستشفى الملكي الأسباني التي تديره منظمة (الافتدائيين الثالوثيين المتعلين) بمدينة الجزائر، أو في منازل القناصل أو دور نوابهم أو التي يستحسن في المستقبل إنشاؤها في أماكن أخرى.

- **البند الثاني عشر**: يسمح للقنصل باختيار ترجمانه ووكيله التجاري، وبزيارة السفن الأسبانية متى شاء، وله أن يرفع علمًا أسبانيًا فوق زورقه أو على منزله.

- **البند الثالث عشر**: عندما تنشب مشاجرة أو نزاع بين أسباني وتركي أو مغربي لا يكون الأمر من اختصاص قضاة المدينة العاديين، وإنما ينظر فيه مجلس الباش والداي والديوان والانكشارية، بمحضر القنصل أو قائد أحد الموانئ خارج العاصمة حيث نشب الخلاف ويحكم بالعدل، ويحاول الصلح بين الطرفين.

- **البند الرابع عشر**: لا يتحمل قنصل أسبانيا بحكم وظيفته، مسؤولية ما يرتكبه بعض التجار أو الأشخاص الأسبان من ديون، إلا إذا التزم بذلك كتابة، وتوضع أملاك الموتى الأسبان بمملكة الجزائر تحت تصرف القنصل الأسباني ليسلمها لمستحقيها من الأسبان أو غيرهم وتطبق نفس الإجراءات لفائدة

الجزائريين الذين يرغبون في الإقامة بأسبانيا.

- **البند الخامس عشر:** يعفى القنصل الأسباني بالجزائر من جميع رسوم الجمارك فيما يتعلق بمؤونته وأثاث منزله.

- **البند السادس عشر:** إذا اعتدى أسباني على تركي أو مغربي لا يعاقب في غياب قنصل بلاده الذي سيدافع عنه، وإذا فر منهم أسباني فلا يتحمل القنصل مسؤولية فراره.

- **البند السابع عشر:** إذا صادف أحد القراصنة الأسبان أو الجزائريين، في البحر، مركبًا جزائريًا أو أسبانيًا، وألحق به ضررًا يعاقب، ويقوم الذين جهزوه بدفع التعويض المطلوب عن الخسائر.

- **البند الثامن عشر:** إذا اضطر مركب أسباني بسبب حدوث طارئ، أو نفاذ الماء أو أي سبب آخر، إلى الإرساء بالموانئ الخاضعة لسيادة الجزائر ولم يشحن أو ينزل بضائع، ليس للأغوات أو أصحاب المراسي المذكورة، الحق في أخذ رسوم الإرساء من المركب الأسباني أو مطالبته بها.

- **البند التاسع عشر:** يستطيع الباشا الداي أن يعين، متى شاء، شخصًا مناسبًا ليستقر بأحد مراسي أسبانيا بصفته ممثلاً للدولة الجزائرية.

- **البند العشرون:** تبقى مدينة وهران وحصونها، وقاعدة المرسى الكبير على ما كانت عليهما من قبل دون اتصال بالضواحي، ولن يهاجمها داي الجزائر أبدًا ولا يقوم أي معسكر بأية غارة عليها إذا لم يلتق أمرًا من الداي، وبما أن هذا الباي يحكم الناحية باستبداد فإن داي الجزائر العظيم سيوافق على أي اتفاق يحصل بين أسبانيا والباي المذكور الذي تلقى أمرًا بمنع الاعتداء على القواعد والحصون الأسبانية، وإذا قام بعض العصاة والمشردين والمتغطرسين من الأهالي بأعمال سلبية، فإن ذلك لا يفسد الوئام الذي حل بين الدولتين، غير أن النصارى لا يكونون في أمن وسلامة في مكان أبعد من رمية المدفع.

- **البند الواحد والعشرون:** لا يمكن للمراكب الأسبانية أن تقصد إلى مرسى يكون من نتيجته اعتبار ذلك عملاً عدوانيًا، إلا إذا تم النفي القاطع لذلك الحق.

- **البند الثاني والعشرون:** لا يمكن للمراكب الأسبانية أن تقصد إلى مراسي جزائرية خارج العاصمة لكي تفرغ أو تشحن حمولتها، إلا برخصة من حكومة الجزائر، كما هو معمول به في جميع الدول الأخرى.

- **البند الثالث والعشرون:** إذا قطعت العلاقات لا قدر الله، بين البلدين فللقنصل وجميع الأسبان بمملكة الجزائر ولجميع الجزائريين بأسبانيا مهلة ثلاثة أشهر لمغادرة البلاد، وحمل امتعتهم ولا يعرقلهم في ذلك أحد سواء قبل السفر أو أثناء السفر.

- **البند الرابع والعشرون:** لا يمكن للبحارة الجزائريين بموانئ أسبانيا ولا للسفن الحربية الأسبانية بموانئ الجزائر، أو يأووا في مراكبهم الرقيق أو المؤدين للأشغال الشاقة من ذوي جنسهم، والذين يلتجؤون إليهم، بل يجب عليهم أن يسلموهم شريطة ألا يعاقبوا بسبب الفرار.

- **البند الخامس والعشرون:** يحترم الجزائريون إجلالا للملك الكاثوليكي ليس فقط السواحل الأسبانية، وإنما حتى السواحل البابوية، وعملاً بشعور الإجلال هذا فإن الداي يستقبل بفرح وسرور، كل شخصية تمر للجزائر تحت حماية الملك الكاثوليكي، وعلمه، كما أن جلالة الملك الكاثوليكي يستقبل من يمر بأسبانيا تحت رعاية داي الجزائر وعلمه، وعلمه، ويكون الداي مستعدًا للدخول في المفاوضات مع الدول التي يحث عليها جلالته، وتكون

في حالة سلم مع الباب العالي الذي يقتدي الداي بسياسته دائمًا.

باسم الله العلي القدير: إن المعاهدة الحالية من أجل السلم الدائم صودق عليها بين أسبانيا وإيالة الجزائر، أملاً في أن يقبله ويوافق عليه صاحب العزة الملك دون كارلوس الثالث، أبقاه الله في الأزدهار، كما قبله الداي محمد باشا العظيم، أبقاه الله في الأزدهار، بعد الموافقة الشاملة من طرف الديوان والمفتي، والقاضيين، والعلماء الأخيار، والآغا، ويجب التوقيع والبصم بالخاتم على النسخ الأصلية الثلاثة المحررة باللغتين: الأسبانية والتركية- الأولى لجلالة الملك الكاثوليكي، والثانية للداي باشا العظيم والديوان والانكشارية بالجزائر، والثالثة تبقى في حيازة القنصل الذي يقيم بهذه المدينة.

نشر هذا النص بقصرنا يوم *17* من شهر شعبان *1200* هـ/*14* جوان *1786*، خاتم وتوقيع محمد باشا.

قبلت الإقرار والموافقة على هذه الاتفاقية بالصيغة التي تمت بها، كما أنني بمقتضى هذا المكتوب أقر وأوافق عليه أحسن الموافقة وأشملها وأتعهد إيمانًا ووعدًا من ملك بتنفيذه ومراعاته، وآمر بتطبيقه واحترامه.

سان ديفانسو. يوم *26* **أوت** *1786*

خاتم وتوقيع: أنا الملك

جوزيف مونينو دي فلوريدا بلانكا

الملحق رقم (09): خسائر الإسبان في معركة 21 نوفمبر 1732م[1]

«الخسائر التي لحقت بالأسبان عندما حاولوا الخروج لفك الحصار عن وهران يوم 21 نوفمبر 1732»[(2)]

«وكان تعداد القوات الأسبانية التي قامت بهذه المحاولة ستة ألاف وثمانمائة رجل مركبة من تسعة وثلاثين سرية من رماة القنابل اليدوية وخمسمائة فارس. ولقد تحولت هذه الخرجة إلى كارثة بالنسبة للأسبان».

جدول يوضح الخسائر التي تكبدوها: في الضباط حسب الرتب

عقيد		مقدم		رائد		نا ئب را ئد		مرشد رجل الدين		قائد كتيبة		نقيب		ملازم أول		ملازم ثاني		عريف	
م 2	ج 4	م 1	ج 7	م —	ج 3	م —	ج 4	م 1	ج —	م 4	ج —	م 9	ج 52	م 8	ج 1	م 9	ج 50	م 1	ج 56
									—						6			5	

في الجنود: مجموع الخسائر، ضباط وجنود

ضاربي الطبل		الجنود		م	ج	المجموع العام
م	ج	م	ج	561	1557	موتى وجرحى
3	3	513	1328			2118

[1]- جمال قنان: المرجع السابق، ص216.

الملحق رقم (10): جدول يوضح مجموع ما سخره الباي مصطفى بوشلاغم لحصار وهران سنة 1733م[1]

السفن	عدد قطع المنفع	عدد الرجال
سفينة البايلك الجديدة	76	1100
السويدي	58	660
سفينة قديمة للبايلك	48	558
سفينة للخواص	44	436
سفينة بتيس بير	40	405
اللحية السوداء	40	382
سليمان	40	382
قارة مصطفى	38	318
غزالة ؟	36	278
سفينة أخرى	36,	268
سفينة أخرى	20	165
أربعة مراكب مجهزة للغزو سبعة مراكب من نوع قاليوط		600 420

[1]- جمال قنان: المرجع السابق، ص218.

قائمة

المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

أولا: الوثائق الأرشيفية

1- مجموعة الوثائق بالمكتبة الوطنية

- مجموعة 3190، علبة رقم 16، الملف الثاني، وثيقة رقم P13.
- مجموعة 3025، علبة رقم 11، الملف الأول، وثيقة رقم 54، شوال 1206هـ.
- مجموعة 2005، علبة رقم 54، الملف الأول، وثيقة رقم 16.

2- مهمة دفتر:

- مهمة دفتر، علبة 02، عدد 127، 977هـ.
- مهمة دفتر، علبة 05، عدد171، 992هـ.
- مهمة دفتر، علبة11، عدد 158، 993هـ.
- مهمة دفتر، علبة 05، عدد171، 993هـ.
- مهمة دفتر، علبة 06، عدد09، 994هـ.
- مهمة دفتر، علبة 11، عدد09، 994هـ.

ثانيا: المصادر

1- باللغة العربية

أ- المصادر غير المنشورة:

- **بن أحمد محمد الطاهر**: ذكر طرف ولاية المرحوم السيد صالح باي أمير ببلدة قسنطينة، مخطوط المكتبة الوطنية، تونس، رقم 263.
- **التلمساني ابن رقية الجديري**: الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، مخطوط، المكتبة الوطنية، الجزائر، رقم 1626.
- **حسان خوجة:** تاريخ بايات وهران، مخطوط بالمكتبة الوطنية، الجزائر، رقم 1634.
- **الصفاقسي محمد المنوبي الفوراتي**: تاريخ عروج وخير الدين في مدينة الجزائر، مخطوط، المكتبة الوطنية، تونس، رقم 231.
- **الناصري أبو راس محمد**: زهر الشماريخ في علم التاريخ، مخطوط، مكتبة خاصة، الجزائر، رقم 01.
- ـــــــــــــــ: الحلل السندسية في تاريخ وهران والجزيرة الأندلسية، مخطوط المكتبة الوطنية، الجزائر، رقم 3182.

ب-المصادر المنشورة

- **أبكاريوس يوحنا أفندي**: قطف الزهور في تاريخ الدهور، ط2، د.د.ن، بيروت، لبنان، 1988م.
- **ابن زرفة مصطفى بن عبد الله بن عبد الرحمن**: الرحلة القمرية، تحقيق، مختار حسان: مخبر المخطوطات، جامعة الجزائر، الجزائر، 2002م.
- **ابن مريم الشريف التلمساني أبي عبد الله محمد بن محمد بن أحمد**: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق محمد بن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1212هـ/ 1908م.
- **ابن أبي الضياف أحمد**: إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، ط2، ج3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1971.
- **أفندي خليفة**: إتحاف ملوك الزمان بتاريخ شارلكان، تعريب، خليفة محمود، مطبعة بولاق، القاهرة، مصر، 1266هـ/1849م.
- **الأندلسي محمد الفاسي**: رحلة الوزير في افتكاك الأسير (1690-1691م)، حررها وقدم لها، نوري الجراح، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2002م.
- **بربروس خير الدين**: مذكرات خير الدين بربروس، ترجمة محمد دراج، ط1، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010م.
- **بن عبد القادر مسلم**: خاتمة أنيس الغريب والمسافر، تحقيق وتقديم: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974م.
- **التلمساني ابن هطال**: رحلة محمد الكبير "باي الغرب الجزائري" إلى الجنوب، تحقيق، محمد بن عبد الكريم، عالم الكتب، القاهرة، مصر، 1976.
- **الجزائري ابن ميمون محمد**: التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.
- **الجزائري محمد بن عبد القادر**: تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، ج1، ج2، شرح وتحقيق، محمود حقي، ط1، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، سوريا، 1384هـ/1964م.

- **الجزائري المشرفي عبد القادر**: بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر، تحقيق، محمد بن عبد الكريم، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، د.س.ط.
- **الجامعي عبد الرحمن**: فتح مدينة وهران، تحقيق، مختار حساني، مخبر المخطوطات، جامعة الجزائر، الجزائر، 2003م،
- **حليم إبراهيم بك**: تاريخ الدولة العثمانية العلية –التحفة الحليمية–، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، 1408هـ/1988م.
- **خوجة حسين**: ذيل بشائر أهل الإيمان في فتوحات آل عثمان، تعليق وتحقيق، الطاهر معموري، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، مصر، 2001م.
- **خوجة حمدان بن عثمان**: المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق، محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2006م.
- **الراشدي أحمد بن عبد الرحمن الشقراني**: القول الأوسط في أخبار بعض من حل بالمغرب الأوسط، تحقيق وتقديم، ناصر الدين سعيدوني، ط2، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012م.
- **رجب شاوش ابن المفتي حسين**: تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها، دراسة وتحقيق، فارس كعوان، ط1، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م.
- **الزهار أحمد الشريف**: مذكرات أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر، تحقيق، أحمد توفيق المدني، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010م.
- **الزياني محمد بن يوسف**: دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتحقيق المهدي البوعبدلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1398هـ/1978م.
- **ستيفانس جيمس ولسن**:الأسرى الأمريكان في الجزائر،1785 –1797 م، ترجمة، علي تابليت، منشورات تالة، الجزائر، 2008 م.
- **شالر ويليام**: مذكرات ويليام شالر 1816–1824م، تعريب وتعليق وتقديم: إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م.

- **الشرقاي عبد الله**: تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الملوك والسلاطين، تحقيق رحاب عبد الحميد القاري، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، 1916م.
- **الشهاب الحجري أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي**: ناصر الدين على القوم الكافرين، ط1، تحقيق، محمد رزوق: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، المغرب الأقصى، 1407هـ/1987م.
- **صوريس دي كودي**: تاريخ الشرفاء، ترجمة محمد حجي محمد الأخضر، شركة النشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب الأقصى، 1989م.
- **الطرابلسي أبي عبد الله محمد بن خليل غلبون**: تاريخ طرابلس الغرب "المسمى التذكار في من ملك طرابلس الغرب وما كان بها من أخبار"نشره وصححه وعلّق عليه الظاهر أحمد الزاوي، المطبعة السلفية، القاهرة، مصر، 1333هـ/1920م.
- **الطرابلسي أحمد بك النائب الأنصاري**: المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، ط2، مكتبة الفرجاني، طرابلس الغرب، ليبيا، د.س.ط.
- **العنتري محمد صالح**: مجاعات قسنطينة، تحقيق وتقديم: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974م.
- : فريدة منيسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها– تاريخ قسنطينة–، مراجعة وتقديم وتعليق، يحي بوعزيز، ط2، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م.
- **فايسك أوجين**: تاريخ بايات قسنطينة في العهد التركي 1792 - 1873 م، ترجمة، صالح نور، تقديم، الشيخ عبد الرحمان شيبان، ط1، دار قرطبة للنشر والتوزيع، الجزائر، 1432هـ/2010 م.
- **كاثكارت جيمس**: مذكرات أسير الداي، تعريب إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982م.
- **كربخال مارمول**: إفريقيا، ج2، ترجمة محمد حجي وآخرون، دار المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط، المغرب الأقصى، 1989م.
- **مبارك علي باشا**: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة، ج1، ط1، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق، مصر، 1306هـ/1888.

- **المبارك الحاج أحمد**: تاريخ حضارة قسنطينة، تصحيح وتعليق، نور الدين عبد القادر، المدرسة العلمية للدراسات العربية، تونس، 1952م.
- **مجهول**: غزوات عروج وخير الدين، اعتنى بتصحيحه وتعليق حواشيه، نور الدين عبد القادر، المطبعة الثعالبية والمكتبة الأدبية، الجزائر، 1353هـ/1934م.
- **مجهول**: تاريخ بايات قسنطينة، المرحلة الأخيرة،تحقيق، حساني مختار، منشورات دحلب، حسين داي، الجزائر، 1990م.
- **مجهول**: نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر، تسليم غرناطة ونزوح الأندلسيين إلى المغرب، ضبطه وعلق عليه، ألفريد البستاني، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، مصر، 2002م.
- **مجهول**: سيرة المجاهد خير الدين بربروس، تحقيق وتقديم وتعليق: عبد الله حمادي، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2009م.
- **المحامي محمد فريد بك**:تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق، إحسان حقي، ط1، دار النفائس، بيروت، لبنان، 1401هـ/1981م.
- **المزاري الآغا بن عودة**: طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، تحقيق ودراسة: يحي بوعزيز: ط1، ج2، دار البصائر للنشر والتوزيع، حسن داي، الجزائر، 2007م.
- **المقري أحمد بن محمد التلمساني**: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، ج4، تحقيق وتعليق، إحسان حقي، دار صادر، بيروت، لبنان، 1408هـ/1988م.
- **الناصري محمد أبي راس**: فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته "حياة أبي راس الذاتية والعلمية"، حققه، محمد بن عبد الكريم، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990م.
- : عجائب الأسفار ولطائف الأخبار،ج1، دراسة وتحقيق بوركبة محمد، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، 2011.
- **الوزان الفاسي الحسن بن محمد**: وصف إفريقيا، ترجمة، محمد حجي، محمد الأخضر، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983.

-المصادر باللغة الفرنسية:

- *Conestaggio (Jeronimo), Relation des Préparatif, Faits pour surprendre Alger, Traduite de L'italien et Annotée par, Grammont (H. de), Adolphe Jourdan, Alger, 1882.*
- *De Paradis (Venture), Alger au XVIII E Siècle, Alger, Typographie Adolphe Jourdan place du Gouvernement, 1898.*
- *, Expédition Contre Alger le Prince Charles-Quint à L'Assant de la Régence D'Alger en Octobre, 1541, Collection Regarde, Alger, 2013.*
- *De Tassy (Laugier), Histoire de Royaume D'Alger, Editions, Loysel, Paris, 1990.*
- *Godard (L'abbe Léon), Soirées Algériennes-Corsaires, Esclaves et martyrs de barbarie, libraires, mdclvn, Paris.*
- *Haédo (Fray Diego de), Histoire des rois d'Alger, Traduit par H.D.DE Grammont, Adolphe Jourdan, Libraire éditeur, Alger, 1881.*
- *Pierre (Dan), Histoire de Barbarie et de Ses Corsaires, Seconde Edition, Paris, 1646.*

ثالثا: المراجع

1- باللغة العربية

- **احميدة عميراوي**: الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني (مذكرات تيدنا أنموذجا)، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2003م.

- **أرمبورو** : وهران والغرب الجزائري في القرن الثامن عشر ميلادي حسب تقرير أرميورو، تقديم وترجمة: محمد القورصو وميكال دي إيبيلزا، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1978م.

- **ألتر عزيز سامح:** الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ط1، ترجمة: محمود علي عامر، دار النهضة العربية للنشر والتوزيع والطباعة، بيروت، لبنان، 1989م.

- **أندرسن ماتيوس**: تاريخ القرن الثامن عشر في أوروبا، تعريب: نور الدين حاطوم، ط1، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1988م.

- **إيفانوف نيقولاي:** الفتح العثماني للأقطار العربية 1516-1574م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1988م.

- **إبي براتشينا بورونات**: الموريسكيون الإسبان ووقائع طردهم، ج1، ج2، ترجمة، كنزة الغالي، مركز العمودي للترجمة ونشر التراث المخطوط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1432هـ/2012م
- **إينالجيك خليل**: تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ترجمة، محمد.م. الأرناؤوط، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، 2002م
- **براون جيفري:** تاريخ أوروبا الحديث، ترجمة علي المرزوقي،ط1، دار الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2006.
- **بروكلمان كارل:** تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية، نبيه أمين فارس، ومنير البعلبكي: دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1968م.
- **بشتاوي عادل سعيد**: الأندلسيون المواركة -دراسة في تاريخ الأندلس بعد سقوط غرناطة-، منشورات دار أسامة، القاهرة، مصر، 1983م.
- **البطريق عبد الحميد، نوار عبد العزيز**: التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فينا، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1973م.
- **بن خروف عمار**: العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب الأقصى في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، ج1، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 1427هـ/2006م.
- **بنو جيت يوسف**: قلعة بني عباس إبان القرن السادس عشر الميلادي، ترجمة: سامي عمار، دار النشر دحلب، الجزائر، 2007
- **يحي بوعزيز**: الموجز في تاريخ الجزائر، ج2، الجزائر الحديثة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007م.
- : علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوروبا 1500-1830م، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م.
- : مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، ط.خ، دار البصائر للنشر والتوزيع، حسين داي، الجزائر، 2009م.
- : مدينة وهران عبر التاريخ، دار البصائر للنشر والتوزيع، ط1، حسين داي، الجزائر، 2009م.
- **الجمل شوقي عطا الله، إبراهيم عبد الله عبد الرازق**: تاريخ أوروبا من النهضة حتى الحرب الباردة، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، مصر، 2000م.

- **جوليان شارل أندري**: تاريخ إفريقيا الشمالية (تونس، الجزائر، المغرب الأقصى من الفتح الإسلامي إلى سنة 1830م، تعريب محمد مزالي، البشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، ج2، 1983م.
- **الجيلالي عبد الرحمن بن محمد**: تاريخ الجزائر العام، ج3، ج5، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2010م.
- **حاطوم نور الدين**: الموسوعة التاريخية الحديثة القرن السابع عشر في أوروبا، ط1، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1406هـ/1986م.
- **حمادي عبد الله**: الموريسكيون ومحاكم التفتيش في الأندلس (1492-1616م)، د.د.ط، الجزائر، 1989م.
- **حومد أسعد**: محنة العرب في الأندلس، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 1988م.
- **دحماني توفيق**: دراسة في عهد الأمان-القانوني الأساسي السياسي والعسكري للجزائر في العهد العثماني-، دار العثمانية، المدنية، الجزائر، 1430هـ/2009م.
- **دراج محمد**: الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس 1512-1553م، ط2، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012م.
- **راشد أحمد إسماعيل**: تاريخ أقطار المغرب العربي السياسي الحديث والمعاصر (ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب الأقصى، موريتانيا)، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 2004م.
- **رزوق محمد**: الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16-17م، ط3، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب الأقصى، 1998م.
- **روسي إيتوري**: طرابلس تحت حكم الإسبان وفرسان مالطة، ترجمة وتقديم، التليسي خليفة محمد، ط1، مؤسسة الثقافة الدينية للتأليف والترجمة والنشر، طرابلس، ليبيا، 1969م.
- **ريمون أندريه**: المدن العربية في العهد العثماني، ترجمة، لطيف فرج، ط1، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1981م.
- **الزبيري محمد العربي**: مدخل إلى تاريخ المغرب الحديث، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1985م.
- **الزيدي مفيد**: موسوعة تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، ج1، ج3، ط1، دار أسامة، الأردن، 2004.

- **سبنسر وليم**: الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتقديم، عبد القادر زبادية، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2000م.
- **سعد الله أبو القاسم**: تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830م، ج1، ج2، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1998م.
- **ناصر الدين سعيدوني**: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر- الفترة الحديثة والمعاصرة-، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
- : دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر-العهد العثماني-، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
- : ورقات جزائرية- دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني-، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2000م.
- : تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط2، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013م.
- **سي يوسف محمد**: أمير أمراء الجزائر علج علي باشا، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م.
- **الشطشاط علي حسن**: نهاية الوجود العربي في الأندلس، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2002م.
- **شريف محمد الهادي**: ما يجب أن تعرفه عن تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، تعريب محمد الشاوش، محمد عجينة، ط3، دار ساراس للنشر، تونس، 1993.
- **شوفالييه كورين**: ثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر 1510-1541م، ترجمة، جمال حمادنة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991.
- **شويتام أرزقي**: المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 1519-1830م، ط1، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع والترجمة، القبة، الجزائر، 2009.
- : نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهياره 1800-1830م، ط1، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2011.
- **طقوش محمد سهيل**: التاريخ الإسلامي(الوجيز)، ط3، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2006م.

- **عامر محمود علي، فارس محمد خير**: تاريخ المغرب العربي الحديث (المغرب الأقصى، ليبيا)، الجمعية التعاونية للطباعة، دمشق، سوريا، د.س.ط.
- **عمر عبد العزيز عمر**: دراسات في التاريخ الأوروبي والأمريكي الحديث، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، مصر، 1992.
- **عنان محمد عبد الله**: دولة الإسلام في الأندلس-العصر الرابع- نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، ط4، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 1417هـ/1997م.
- **العيدروسي محمد حسن**: تاريخ العرب الحديث، ط1، دار الكتاب الجامعي للنشر والتوزيع، الكويت، 1997م.
- **غلاب عبد الكريم**: قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي، ج2، ط1، عصر الإمبراطورية العهد العثماني بالجزائر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2005م.
- **فارس محمد خير**: تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي، مكتبة دار الشروق، بيروت، لبنان، 1969م.
- **فكاير عبد القادر**: الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية وآثاره (910-1260هـ/1505-1792م)، دراسة تتناول الآثار السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية على الجزائر، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2012م.
- **قنان جمال**: نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1500-1830م، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 1431هـ/2010م.
- **لقبال موسى وآخرون**: الجزائر في التاريخ 3 العهد الإسلامي من الفتح إلى العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
- **متولي أحمد فواد**: تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي، إتراك للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2002م.
- **مختار حساني**: التراث الجزائري المخطوط في الجزائر والخارج، ج2، الوثائق المخطوطة بالمكتبة الوطنية الجزائرية (نماذج)، ط1، منشورات الحضارة، الجزائر، 2009م.
- **المدني أحمد توفيق**: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792م، ط1، دار البصائر للتوزيع والنشر، الجزائر، 2007.

- : محمد بن عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791م، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010م.
- **مروش المنور**: دراسات عن الجزائر في العهد العثماني -القرصنة، الأساطير والواقع-، ج2، دار القصبة.
- **مصطفى شاكر**: الأندلس في التاريخ، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، 1990م.
- **نايت بلقاسم مولود قاسم:** شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830م، ج1، ط2، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007م.
- **نوار عبد العزيز سليمان، محمود محمد جمال الدين**: التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، دار الفكر العربي للطباعة والنشر، مدينة نصر، مصر، 1999م.
- **وولف جون**: الجزائر وأوروبا، ترجمة وتعليق: أبو القاسم سعد الله، ط2، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م.
- **هلايلي حنيفي**: بنية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني، ط1، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007م.
- : أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط1، دار الهدي للطباعة والنشر والتوزيع، عين ميلية، الجزائر، 2009م.
- : دراسات وأبحاث في التاريخ الأندلسي الموريسكي، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2010م.
- **يحي جلال**: أوروبا في العصور الحديثة، ط2، الهيئة العامة للكتاب، الإسكندرية، مصر، 2002.
- : التاريخ الأوربي الحديث والمعاصر حتى الحرب العالمية الأولى، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر، د.س.ط.
- **يحياوي جمال**: سقوط غرناطة ومأساة الأندلسيين (1492-1610م)، دار هومه للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م.

-المراجع باللغة الفرنسية:

- *Belhamissi (Moulay), Alger La Ville aux Mille Canons E.N.A.L, Alger, 1990.*

- , *Marine et marins D'Alger 1518-1830, T3, Alger, Bibliothèque Nationale Algérie, 1996.*
- *Berbrugger (Adrien), le Pégnon d'Alger, ou les origines du Government Turk en Algérie, Collection Regarde, Alger, 2012.*
- *Braudel (Fernand), La Méditerranée et Le Monde Méditerranéen A l'époque de Philipe II, tome II, 2eme, Edition, Libraire Armand Colin, Paris, 1966.*
- *Grammont (H, de), Histoire D'Alger sous la Domination turque, 1515-1830, Paris 1887.*
- *Masson (Paul), Histoire des Etablissent de Commerce Français dans L'Afrique Barbaresque, 1560-1793,Hachette, Paris, 1930.*
- *Mercier (Ernest), Histoire L'Afrique Septentrional (Berbérie) depuis les Temps les Plus Recule's Jusqu'a la conquête Française (1830) T3, Paris, 1868.*
- *Missoum (Sakina), Alger A L'époque ottomane la médina et la maison Traditionnelle, INAS, Alger, 2003.*

رابعا: المجلات:

1-باللغة العربية:

- **بلحميسي مولاي**: "غارة شارلكان على مدينة الجزائر، 1541م"، **مجلة الأصالة**، ع8، الجزائر، 1972م.
- : "نهاية دولة بني زيان"، **مجلة الأصالة**، ع26، الجزائر، 1975م.
- **بن أشنهو عبد الحميد**: "الدور الذي لعبته الجزائر في القرن السادس عشر في البحر المتوسط"، **مجلة الأصالة**، ع8، الجزائر، 1974م.
- **بن عتو بلبراوات**: "الإصلاح الثقافي للباي محمد الكبير لمدينة معسكر"، **حولية المؤرخ**، ع4/3، الأبيار، الجزائر، 2003م.
- : التحرير النهائي لوهران والمرسى الكبير عام 1206هـ/1792م، **مجلة عصور**، ع 5/4، جامعة وهران، الجزائر، ديسمبر 2003م/ جوان 2004م.
- : "الداي محمد بن عثمان باشا وسياسته 1766-1791م"، **مجلة عصور**، ع7/6، جامعة وهران، الجزائر، جوان/ ديسمبر 2005م.
- : "أضواء حول مدينة تلمسان خلال العهد العثماني"، **الحوار المتوسطي**، ع1، جامعة الجيلالي اليابس سيدي بلعباس، الجزائر، ربيع الثاني 1430هـ/2009م.

- : "المنشآت الدفاعية للجزائر وموانئها خلال العهد العثماني (1510-1555م"، **مجلة الحضارة الإسلامية**، ع14، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، سيدي بعلباس، الجزائر، شعبان 1431هـ/2010م.
- : "بجاية من الاحتلال الإسباني إلى التحرير العثماني"، **عصور الجديدة**، ع7-8، جامعة وهران، الجزائر، 1433-1434هـ/2012-2013م.
- **البوعبدلي المهدي**: "أضواء على مدينة الجزائر في العهد التركي من خلال مخطوط الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني"، **مجلة الأصالة**، ع8، الجزائر، 1972.
- : "الرباط والفداء في وهران والقبائل الكبرى"، **مجلة الأصالة**، ع13، الجزائر، 1973م.
- **بوعزيز يحي**: "إسبانيا تتوسط الجزائر لإبرام صلح مع تونس"، **مجلة التاريخ**، ع25، المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر، 1986م.
- **بن حفري شكيب**:" العلاقات الإسبانية الجزائرية في القرن الثامن عشر ميلادي من خلال مخطوط عثماني"، **مجلة الآداب والعلوم الإنسانية**، ع1, جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، 2002م.
- **بن معمر محمد**: "علاقات بني جلاب بسلاطين توقرت بالسلطة العثمانية بالجزائر"، **مجلة الحضارة الإسلامية**، ع12، جامعة وهران، الجزائر، جوان 2005م.
- **بونو سلفاتور**: "العلاقات بين الجزائر وإيطاليا خلال العهد التركي"،**مجلة الأصالة**، ع6، ترجمة، أبو القاسم بن التومي، الجزائر، 1972م.
- **التميمي عبد الجليل**: "رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1541م" **المجلة التاريخية المغربية**، ع3، جانفي، تونس، 1975م.
- : "أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول 1519م، **المجلة التاريخية المغاربية**، ع6، تونس، جويلية 1976.
- : "الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين"، **المجلة التاريخية المغربية**، ع23/24، تونس، نوفمبر 1981م.
- : "الخلفية الدينية للصراع الإسباني العثماني على الإيالات المغاربية في القرن السادس عشر الميلادي"، **المجلة التاريخية المغاربية**، ع10/11، تونس، 1985م.

- **حليمي عبد القادر**: "القروض والنقود في مدينة الجزائر أثناء العهد التركي"، **مجلة الأصالة**، ع7، الجزائر، 2012م.
- **حموش نعيمة**: "دور البحرية الجزائرية في معركة الليبانت 1571م"، **حولية المؤرخ**، ع1، المطبعة الحديثة، الجزائر، 2005م.
- **الجيلالي سلطاني**: "قراءة في أرجوزة الحلفاوي في فتح وهران من خلال مخطوط شرح الجامعي للأرجوزة"، **المجلة الجزائرية للمخطوطات**، ع5، مجلة علمية محكمة، جامعة وهران، الجزائر، 2011م.
- **دراج محمد**: "تأسيس الإيالة الجزائرية"، **مجلة عصور**، ع16، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، جوان، ديسمبر 2010.
- **دي إبيلزا ميكال**: "حول ثلاثة أحداث غير معروفة من العلاقات الخارجية بين عنابة وإسبانيا"، **مجلة الأصالة**، ع 35/34، الجزائر، 1977م.
- **رحمونة بليل:** "موارد إيالة الجزائر المالية في مطلع القرن التاسع عشر"، كان التاريخية، دورية إلكترونية محكمة، ع13، سبتمبر2011م.
- **الساحلي خليل:** "وثائق عن المغرب العثماني أثناء حرب مالطة سنة 1565م"، **المجلة التاريخية المغربية**، ع8/7، تونس، 1977م.
- **سعيدوني ناصر الدين**: "البحرية الجزائرية في العهد العثماني"، **مجلة التاريخ**، ع22، المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر، 1986م.
- :"المعاهدة الجزائرية الإسبانية 1791، **مجلة الدراسات التاريخية**، ع7، جامعة الجزائر 1414هـ/1993 م.
- **شارف رقية:** "تشكل الكيانات السياسية للمغرب العربي في إطار الدولة العثمانية الفترة الحديثة"، **مجلة الدراسات التاريخية**، ع13، جامعة الجزائر2، الجزائر، 1433هـ/2011م.
- **شايب قدادرة:** "الصراع الإسباني العثماني في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط وانعكاساته على شمال إفريقيا خلال القرن السادس عشر الميلادي"، **حولية المؤرخ**، ع14/12، الجزائر، 2011م.
- **الصباغ ليلى:** "ثورة مسلمي غرناطة"، **مجلة الأصالة**، ع27، الجزائر، 1975م.

- **طحطح خليد فؤاد:** العلاقات المغربية العثمانية خلال العصر الحديث-القرن السادس عشر أواخر القرن الثامن عشر-، كان التاريخية، دورية إلكترونية محكمة، ربع سنوية، ع14، ديسمبر 2011م.
- **العبيدي علي:** "الحملة الإسبانية على مدينة الجزائر 1541م وأثرها على توازن القوى في غرب المتوسط"، **مجلة عصور**، ع17، جامعة وهران، الجزائر، جوان/ ديسمبر 2011م.
- **عنان محمد عبد الله:** "موقف القسطنطينية وباقي العالم الإسلامي من سقوط الأندلس وآخر مسلميها وأمام الغزو الأوروبي للعالم الإسلامي عموما"، **مجلة الأصالة**، ع27، الجزائر، 1975م
- **العدول جاسم محمد حسن:**"عروج ودروه في أحداث المغرب العربي وحوض المتوسط الغربي"، **مجلة التربية والتعليم**، ع2، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل 1980م.
- **فكاير عبد القادر** : "حملتا أونطونيو بارثيللو على الجزائر في أواخر القرن الثامن عشر من خلال مخطوط تاريخ مجيء اسبانيول"، **مجلة عصور الجديدة**، ع1، معهد التاريخ، معهد التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة سيدي بلعباس،الجزائر ، 2011.
- **قداش محفوظ**: "الجزائر في العهد التركي"، **مجلة الأصالة**، ع52، الجزائر، 1977م.
- **قطب عمر محمد بكر**: الأبعاد النفسية للمحنة الموريسكية، كان التاريخية، دورية إلكترونية محكمة، ع9، رمضان 1431هـ/ سبتمبر 2010م.
- **محمد بوشنافي:** "مساهمة عروج بن يعقوب في مواجهة الخطر الإسباني على المغرب الأوسط 1512-1518م"، **مجلة عصور**، ع5/4، جامعة وهران، الجزائر، 2004م.
- **مختار حساني:** "دراسة تاريخية لقلعة بني راشد"، **المجلة المغاربية للمخطوطات**، ع3، مخبر المخطوطات، أعمال الملتقى الوطني للتراث المخطوط، نوفمبر 2011م، جامعة الجزائر، الجزائر، 2011م.
- :"شرح تنوير البصائر والأبصار في تحريض سلطان الجزائر على قتال الكفار"، **المجلة المغاربية للمخطوطات**، أعمال الملتقى الوطني للتراث المخطوط، نوفمبر 2006 م، ع4، جامعة الجزائر، الجزائر،2013 م.
- **المدني أحمد توفيق:** "تلمسان بين الزيانيين والعثمانيين 1530-1554م"، **مجلة الأصالة**، ع26، الجزائر، 2011م.

- **هلايلي حنيفي:** "القرصنة وشروط افتداء الأسرى الإسبان في الجزائر خلال العهد العثماني"، **مجلة الآداب والعلوم الإنسانية**، ع4، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، 1426هـ/2005م.
- : "عملاء وجواسيس الإسبان في بايلك الغرب على ضوء كتاب بهجة الناظر"، **مجلة الحوار الفكري**، ع7، جامعة قسنطينة، ذي الحجة 1426/ ديسمبر 2005م.
- **ياسين حكمت:** "الغزو الإسباني للجزائر"، **الأصالة**، ع 15/14، الجزائر، 1973م.

ب- باللغة الفرنسية:

- *Belhamissi (M) : Les relations entre L'Algérie et L'église catholique à L'époque ottomane (1615-1830), **Majallat Et-Tarikh**, 2eme semestre, Alger, 1980.*
- *Berbrugger (Adrien), Reprise D'oran par Les Espagnols en 1732, R.Af, N°8, Alger 1864.*
- *, Négociation entre Hassan Aga et le Comte D'Alcaudette Gouverneur D'Oran, 1541-1542, R.Af, N°9, Alger, 1865.*
- *Braudel (F), les Espagnoles et L'Afrique du Nord de 1492-1577 , R.Af, N°69, Alger 1928.*
- *Chârles (Feroud), Lettres Arabes de L'époque de L'occupation Espagnole En Algérie, R.Af, N°17, Alger, 1873.*
- *, Les trois Attaques Des Espagnols Contre Alger au XVlll Siècle, R.Af , N20, Alger, 1876.*
- *Dalarymple(Major),Expedition D'oreilly1775,R.Af, N°5,Alger,1861.*
- *Devoulx (Albert), El Hadj pacha 1545, R.Af, N°8, Alger, 1864.*
- *, L'amarine de la régence D'Alger, R.Af, N°13, Alger, 1869.*
- *Grammont (H. de), Relations entre La France et La Régence D'Alger au XVII Siècle, Premier Partie, Les Deux canons de Simon Dansa (1606-1628), R.Af, N°23, Alger, 1879.*
- *, Document Relatif A La Seconde Expédition DE Don Angelo Barcelo Contre Alger, 1784, R.Af, N°26, Alger, 1882.*
- *Mazarredo (Joseph de), Expédition D'oreilly Contre Alger en 1775, R.Af, N°8, Alger, 1864.*
- *Primaudid(De la), Document Inédits « Relation du frère Juan de Iribes sur les événement du Tunis, 4 Janvier, 1535, R.Af, N°19, Alger, 1875.*

- *Watabled et Monnerau, Négociation entre Charle Quin et Khair-Eddine (1538-1540), R.AF, N15, Alger, 1871.*
- *Gorgouos, Notice sur le Bey D'oran Mohammed Elkebir, R.Af, N°1, Alger, 1856.*

خامسا: الرسائل والأطروحات الجامعية

- **بن عتو بلبراوات:** محمد الكبير ومشروعه الحضاري، رسالة ماجستير، جامعة وهران، الجزائر، 2002م.
- **بوبكر محمد السعيد:** العلاقات السياسية الجزائرية الإسبانية خلال القرن الثاني الهجري/ الثامن عشر ميلادي (1119-1206هـ/1708-1792م)، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ، معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية، المركز الجامعي، غرداية، 1431-1432هـ/2010-2011م.
- **تجاجنة بوحفص:** الحملات العسكرية لدول غرب أوروبا المتوسطية على الجزائر 1145-1246هـ/1732-1830م، رسالة ماجستير في التاريخ ، قسم التاريخ، معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية، المركز الجامعي، غرداية، 1432-1433هـ/2010-2011 م.
- **حيمر صالح:** التحالف الأوروبي ضد الجزائر عام 1541 وتأثيراته الإقليمية والدولية، مذكرة ماجستير ، معهد التاريخ، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، 2006-2007.
- **درويش الشافعي:** علاقات الإيالات العثمانية في غرب المتوسط مع إسبانيا خلال القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، مذكرة شهادة ماجستير، قسم التاريخ، المركز الجامعي غرداية، 1431-1432م/2010-2011م.
- **دكاني نجيب:** الوجود الإسباني على السواحل الجزائرية ورد الفعل الجزائري خلال القرن السادس عشر الميلادي، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 2002.
- **رضوان نبيل عبد الحي:** جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس واسترداده في مطلع العصر الحديث، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلام الحديث، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية 1407هـ/1987م.
- **شقدان بسام كامل عبد الرزاق:** تلمسان في العهد الزياني 633-962هـ/1235-1555م، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2002م.
- **صالح كليل:** سياسة خير الدين في مواجهة المشروع الإسباني لاحتلال المغرب الأوسط، مذكر ماجستير، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2006.

- **عائشة محمة:** الأسرى الأوروبيون في مدينة الجزائر ودورهم في العلاقات بين الجزائر ودول الحوض الغربي للمتوسط خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر للميلاد، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ، المركز الجامعي، غرداية، 1432-1433هـ/2011-2012م.

- **كعوان فارس**: النظام العثماني والفئات الاجتماعية في الجزائر (الكراغلة أنموذجا) 1629-1830، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة،2004-2005.

- **محمد أمين عطلي**: نشاط البحرية الجزائرية في القرن السابع عشر ميلادي وأثره في العلاقات الجزائرية الفرنسية، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ، معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية، المركز الجامعي بغرداية، 2011-2012م.

- **موفقي امحمد**: العلاقات السياسية والتجارية بين الجزائر وإسبانيا 1200-1245هـ/ 1786-1830م، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ، معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية، المركز الجامعي، غرداية، 1431-1432هـ/ 2010-2011م.

- **الميلق عبد القادر**: تأثيرا ثروات الموريسكيين الأندلسيين على العلاقات الجزائرية الإسبانية (897-1017هـ/1492-1609م)، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، المركز الجامعي، غرداية، 1433-1434هـ/2012-2013م.

الفهارس

- فهرس الأعلام
- فهرس الأماكن الجغرافية
- فهرس المحتويات

فهرس الأعلام:

-أ-

-ب-

-ت-

-ج-

-ح-



فهرس الأماكن الجغرافية:

-أ-

-ب-

-ت-

فهرس المحتويات